

إيروثيئوس

مطران نافباكتوس

# الطب النفسي الأرثوذكسي

( علم الآباء )



Hierotheos - Metropolitan of Nafpaktos

Orthodox Psychotherapy

The science of the Fathers

ترجمة

دكتورة / نيقين سعد



# الطب النفسي الأرثوذكسي

( علم الآباء )

تأليف

إيروثيئوس

مطران نافباكتوس - اليونان

ترجمة

دكتورة / نيقين سعد



كتاب: الطب النفسي الأرثوذكسي  
مترجم بإذن من المؤلف والناشر عن كتاب:

**Orthodox Psychotherapy**

**Hierotheos - Metropolitan of Nafpaktos** المؤلف:

الناشر للطبعة الإنجليزية:

**Birth of the Theotokos Monastery, 1994, 1995**

**P.O. 107, 321 00 Levadia, Greece**

المترجم: دكتورة نيفين سعد

تصميم الغلاف: مكتب جي سي سنتر (عن غلاف الطبعة الإنجليزية)

الفنان: **Yannis Yeremtzes**

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٥٦٣٥ / ٢٠٠٩

رقم الإيداع الدولي: 977-5545-57-9

© جميع الحقوق محفوظة للمترجم





قداسة البابا الأنبا شنودة الثالث  
بابا الإسكندرية وبطريق الكرازة المرقسية







# الفهرس

٧	تمهيد .....
٩	تعريف بالكاتب .....
١٠	مقدمة الكاتب .....
١٥	الباب الأول: الأرثوذكسية علم علاجي .....
١٧	١- ماهي المسيحية .....
٢٣	٢- اللاهوت كعلم علاجي .....
٢٨	٣- ما هو العلاج .....
٣٣	٤- طريقة الشفاء .....
٤٥	الباب الثاني: المعالج الأرثوذكسي .....
٥١	١- متطلبات دور الكاهن المعالج .....
٥١	- قيمة الكهنوت .....
٥٢	- دعوة ورسامة الرسل .....
٥٤	- المتطلبات الرئيسية للرسامة .....
٥٧	- درجات الكهنوت الثلاثة .....
٦٦	٢- إعادة إشعال عطية الروح القدس .....
٦٧	- الصفات الرئيسية للكاهن المعالج .....
٧٢	٣- الكهنوت الروحي .....
٧٦	٤- البحث عن معالين .....
٧٩	الباب الثالث: العلاج النفسي الأرثوذكسي .....
٨١	١- النفس .....
٨١	- ماهي النفس .....
٩٣	- مرض النفس وموتها .....
٩٦	- علاج النفس .....
٩٩	٢- العلاقات المتداخلة بين النفس والعقل والقلب والذهن .....
١٠٠	- العقل والنفس .....
١٠٢	- العقل والقلب .....
١٠٣	- العقل والذهن .....
١٠٣	- العقل والانتباه .....



١٠٥	٣- العقل والقلب والأفكار .....
١٠٥	أ) العقل .....
١٠٦	- الحياة الطبيعية للعقل .....
١١١	- مرض العقل .....
١١٥	- شفاء العقل .....
١٣٠	ب) القلب .....
١٣٠	- ماهو القلب .....
١٣٨	- سمات القلب .....
١٤٣	- مرض القلب .....
١٤٦	- شفاء القلب .....
١٦٧	ج) الإدراك والأفكار .....
١٦٧	١- الإدراك .....
١٧٦	٢- الأفكار .....
١٧٦	- ما هي الأفكار .....
١٧٨	- سبب الأفكار الشريرة .....
١٨٥	- نتائج الأفكار الشريرة .....
١٨٧	- شفاء الأفكار الشريرة .....
١٩٩	الباب الرابع: علم الأمراض الأرثوذكسي .....
٢٠٢	١- ما هي الأهواء .....
٢٠٨	٢- أنواع الأهواء وتطورها .....
٢٢٠	٣- شفاء الأهواء .....
٢٤٢	٤- اللاهوى .....
٢٥٥	الباب الخامس: السكون كطريقة شفاء .....
٢٥٧	١- السكون .....
٢٦٨	٢- حركة السكون .....
٢٧٣	٣- الحركة المناهضة لحركة السكون .....
٢٧٩	الباب السادس: علم المعرفة الأرثوذكسي .....
٢٨١	- درجات المعرفة الثلاثة بحسب القديس إسحق السرياني .....
٢٨٨	- معرفة الله بحسب القديس غريغوريوس بالاماس .....
٢٩٥	صلوات .....

## تمهيد

إنني أعمل منذ عدة سنوات كطبيبة أخصائية في الطب النفسي . وفي كل مرة أقف على عتبة نفس إنسان جاءني طالباً المشورة أو العلاج متأهبة للدخول إلى أعماقه ينتابني شعور عميق بالرهبة والمهابة وكأن صوتاً يرن في أعماقي: "إخلع حذاءك من رجلك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة" (خر٣:٥) . فالذي يعمل مع النفس البشرية بكل أسرارها وتلافيها لابد وأن يشعر بكرامة هذا العمل ولا يسعه إلا أن يهتف: " حقاً إن الرب في هذا المكان" (تك ١٦:٢٨) . فالنفس ليست إلا قدساً و قدس أقداسها هو القلب الذي هو إنسانها الباطني.

وعلى الرغم من ولعي الشديد بعلم النفس والطب النفسي إلا أنني كلما درست منهما علماً جديداً كلما اجتهدت أن أجد ما يربطه بالكتاب المقدس وبروحانية وطقوس ونسكيات الكنيسة الأرثوذكسية. وفي الحقيقة أستطيع أن أقول أنني نجحت في ذلك مرات كثيرة ولكنني فشلت فيه مرات أكثر. وهكذا بقي داخلي سؤال ملح لا يجد إجابة شافية وهو: "كيف تتحقق المعادلة التي تجري مصالحة بين علم النفس والطب النفسي من جهة والروحانية المسيحية من جهة أخرى؟".

ومنذ فترة أهداني أحد الأبناء الموقرين نسخة إنجليزية من هذا الكتاب الذي لما قرأت عنوانه "الطب النفسي الأرثوذكسي" تخيلت أنه سيتناول الأعراض والأمراض النفسية المختلفة بدءاً من القلق والوسواس والإكتئاب وإنهاءً بالهوس والفصام.

إلا أن كاتب الكتاب نيافة الأنبا إيروثيوس مطران نافباكتوس وسانت فلاسيوس باليونان جذبني بعيداً جداً عن كل هذه المنظومة الطبية وغاص بي في منظومة روحية أكثر عمقاً تنادي بأن الشفاء الحقيقي يكمن في شفاء النفس من الأهواء وفي "العودة بالعقل إلى داخل القلب".

وها هو يجيب أخيراً على سؤالي الحائر ويحقق المعادلة بقوله: "... وبالتالي فإن الطب النفسي والعصبي يشفي الإضطرابات على حين أن علم اللاهوت الأرثوذكسي يشفي الأسباب الأكثر عمقاً التي تتولد منها هذه الأمراض" (ص ١٢). ويقول في موضع آخر من الكتاب: "..... من أجل ذلك لا يستطيع الأطباء النفسيون أن يعطوا معونة



بدرجة كبيرة طالما أن المسيح وحده هو الذي يستطيع أن يستعيد العقل المائت  
بالأهواء" (ص ٣٠).

نعم حقاً لا يستطيع الطب النفسي بكل تقنياته أن يستعيد السلام لنفس مضطربة  
ما لم يدخل المسيح رئيس الكهنة الأعظم إلى قدس أقداسها أي قلبها ويقيم فيه.  
وهكذا قررت ترجمة هذا الكتاب العميق بكل ما يحمله من كنوز لنصوص آباءية  
وبكل ما يوحى به عن كاتبه من عمق وخبرة حية معاشة في اللاهوت الأرثوذكسي.  
لعلك - أيها القارئ - إذا قرأته ومنح نفسك الشفاء الأرثوذكسي الحقيقي تسجد  
معى شكراً لله وتطلب لي عوناً من قدسه.

**د. نيشين سـعد**

إستشاري الطب النفسي  
وأعراض المخ والأعصاب

## تعريف بالكاتب

ولد المطران "إيروثيئوس س. فلاخوس" في "إيونينا" باليونان سنة ١٩٤٥. وتخرج من مدرسة اللاهوت بجامعة تسالونيكى، وسيم قساً سنة ١٩٧١. ثم خدم في المطرانية بأثينا كواعظ وقائد للشباب. ثم أختير أسقفاً على "نافباكتوس" و"سانت فلاسيوس" سنة ١٩٩٥.

قام إيروثيئوس المطران بتدريس اليونانية وإلقاء محاضرات عن الآداب الأرثوذكسية لطلبة مدرسة القديس يوحنا اللدمشقي بجامعة بطريركية أنطاكية في شمال لبنان.

كما إهتم في شبابه بآباء الكنيسة إذ كان يعمل حينئذ في تسجيل الكتب في مكتبات دير جبل آثوس. وقد إهتم بتعاليم القديس غريغوريوس بالاماس على وجه الخصوص.

ولقد أدت عدة عوامل في حياته إلى التحقق من أن اللاهوت الأرثوذكسي هو علم شفاء الإنسان، وأن الآباء النساك يستطيعون مساعدة الإنسان المعاصر المضطرب بالعديد من المشاكل الوجودية الداخلية. ومن أهم هذه العوامل: دراسته للنصوص الأبائية وخصوصاً نصوص الآباء السكونيين المنشورة في الفيلوكاليا، وقضاؤه عدة سنين في دراسة القديس غريغوريوس بالاماس، وإختلاطه برهبان الجبل المقدس بشبه جزيرة آثوس، بالإضافة إلى السنين العديدة في خبرته الرعوية.

ولقد قام في هذا الإطار بكتابة عدة كتب كثمرة لعمله الرعوي والتي من بينها هذا الكتاب: "الطب النفسي الأرثوذكسي". وقد تُرجمت بعض هذه الكتب الى عدة لغات كالإنجليزية والفرنسية والأسبانية والروسية والعربية. وهو يقوم من خلال هذه الكتب بنقل روح الفيلوكاليا الأرثوذكسية إلى الإنسان المعاصر المضطرب. وهذا هو السبب الذي جعل هذه الكتب تثير كل هذا الإهتمام.

## مقدمة الكاتب

لا يشير تعبير "الطب النفسي الأرثوذكسي" إلى الحالات الخاصة التي تعاني من مشاكل نفسية وعصبية، ولكنه يتعلق بالأحرى بكل الناس. ويرى التقليد الأرثوذكسي أن آدم صار مريضاً بعد السقوط وإظلم عقله، وفقد شركته مع الله، وبالتالي دخل الموت إلى كيان الإنسان، وسبب العديد من المشاكل الإنسانية والاجتماعية بل وحتى البيئية. وفي مأساة السقوط إحتفظ الإنسان بصورة الله داخله، ولكنه فقد تماماً الشبه معه، حيث أن شركته مع الله كانت قد تمزقت. وعلى أية حال، فإن تجسد المسيح وعمل الكنيسة يهدفان إلى جعل الإنسان قادراً على الوصول إلى الشبه مع الله الذي هو إستعادة الشركة مع الله. ويسمى هذا العبور من حالة السقوط إلى حالة الاتحاد بالله "شفاء الإنسان"، لأنه مرتبط بعودته من حالة كونه ضد الطبيعة إلى الحالة الطبيعية والفوق طبيعية. ويستطيع الإنسان بالالتصاق بالعلاج الأرثوذكسي كما يرى آباء الكنيسة القديسون، أن يتكيف مع الأفكار بنجاح، وبالتالي يحل مشاكله بطريقة شاملة وكاملة.

إنني أود أن أؤكد ثانية على أن تشخيص كل الحالات المرضية النفسية والعصبية ليس هو موضوع هذا الكتاب، لأن هذا يخص مجال الطب النفسي. ومن ناحية أخرى فإن العديد من الأمراض النفسية يأتي من الخوف من الموت، وفقدان معنى الحياة، والضمير المثقل بالإحساس بالذنب، وفقدان إتحاد الإنسان بالله. ويستطيع علم اللاهوت الكنسي بكل تأكيد أن يساعد إما بالوقاية أو بشفاء الأشخاص الذين يعانون من مثل هذه المشاكل الوجودية.

وبالتالي فإن الطب النفسي والعصبي يشفي الإضطرابات على حين أن علم اللاهوت الأرثوذكسي يشفي الأسباب الأكثر عمقاً التي تتولد منها هذه الأمراض.

سوف يجد القارئ في هذا الكتاب المسار الذي يصل المرء من خلاله إلى الشركة مع الله، وبالتالي يحقق الهدف من الوجود الإنساني. كما سيجد فيه أيضاً الطريقة التي يستطيع بها أن يقي نفسه من الأمراض البدنية المختلفة.

وبذلك سيصبح الطب النفسي الأرثوذكسي أكثر فائدة لأولئك الذين يتغنون حل مشاكلهم الوجودية، الذين أدركوا أن عقلهم قد إظلم، وبالتالي يجب عليهم أن يتحرروا من طغيان أهوائهم وأفكارهم لكي يصلوا لإستارة عقولهم والشركة مع الله.

ويرتبط كل هذا العلاج النفسي بدرجة وثيقة بتقليد الكنيسة النسكي وبحياتها السكونية كما هو محفوظ في كتابات آباء الكنيسة، وبصورة بارزة في تعليم القديس غريغوريوس بالاماس. ولا يجب على المرء بالتأكيد أن يغفل حقيقة أن الحياة النسكية والسكونية هي نفس الحياة التي نراها في حياة الأنبياء والرسل، كما هي موصوفة في الأسفار المقدسة. وسوف يتضح في تحليل فصول هذا الكتاب أن الحياة النسكية هي في الحقيقة حياة البشائر الأربع.

إنني أؤمن أن المشكلة العظمى للفلسفة الغربية هي أنها توحد بين العقل والذهن، وبين المعرفة الذهنية والمعرفة الوجودية. وفي الواقع فإن التقليد النسكي هو التقليد المشترك بين الشرق والغرب في الفترة التي سبقت التوحيد بين علم اللاهوت والغيبيات. وهذا التقليد النسكي هو الذي يهتدي تماماً روح الإنسان الذي يسعى إلى تحقيق ذاته وإلى السكون والسلام الداخلي. إنه من الضروري أن نجد ونعيش هذا الطريق العلاجي بينما نحن نعيش في ألم وإضطراب عالم اليوم الذي يقهرنا ويؤلنا ويوصلنا لجوع وعطش حقيقي، وهذا بحسب توصيات آباء الكنيسة القديسين. وبالتأكيد فإن آباء الكنيسة القديسين سبقوا علماء النفس والأطباء النفسيين المعاصرين.

إن الأشخاص الذين شُفوا بالفعل هم الدليل على أن الكنيسة تتدخل في المجتمع بطريقة خلاصية. وهذا هو بالضبط الغرض العظيم الذي تقدمه الكنيسة الأرثوذكسية من خلال علمها اللاهوتي وحياتها وطريقة الكنيسة هذه تختلف بوضوح عن الطرق النفسية الأخرى لأنها لا تتمركز حول الإنسان anthropocentric ولكنها تتمركز حول الإنسان المتحد بالله theanthropocentric، ولأنها لا تقوم بعملها من خلال طرق بشرية ولكن بمعونة وقوة النعمة الإلهية، وبدرجة أساسية من خلال التناغم بين الإرادة الإلهية والإنسانية.

لقد أردت في هذا الكتاب أن أؤكد على بعض الحقائق إذ تمنيت أن أشير إلى جوهر المسيحية، وأيضاً إلى الطريقة التي تستعملها لتحقيق هذا الشفاء. وهدف الرئيس هو مساعدة الإنسان المعاصر لكي يجد شفاءه داخل الكنيسة الأرثوذكسية، إذ أننا نحن أيضاً نحاهد لكي نحصل عليه. إنني أدرك أننا جميعاً مرضى ونحتاج لطبيب؛ إننا سقماء ونحتاج للشفاء. والكنيسة الأرثوذكسية هي الملجأ والمستشفى التي يستطيع كل شخص مريض ومتألم أن يُشفى فيها.



لو أصبح هذا الكتاب وسيلة للبعض للبحث عن شفائهم لدى الكنيسة وتعليمها  
فإنني سوف أجد الرب الذي أعطاني الإلهام والقوة لأداء هذا العمل الصعب وسوف  
أطلب منه أن يرحم ضعفي.

متروبوليت إيروثيئوس س. فلاخوس

## تفسير إختصارات المراجع

**BEPES:** Bibliothiki Ellinon Pateron kai Ekklesiastikon Syggrapheon, Athens, 1955  
مجموعة كتابات آباء الكنيسة باللغة اليونانية، صدرت في أثينا باليونان

**CS:** Cistercian Studies. Cistercian Publications, Kalamazoo, Michigan, 1982.

**CWS:** Classics of Western Spirituality. Paulist Press and London SPCK.

**EF:** Early Fathers from the Philokalia. London, Faber and Faber, 1954.

**EPE:** Ellines Pateres tis Ekklesias – مجموعة كتابات الآباء الذين كتبوا باليونانية، صدرت في تسالونيكي باليونان  
Thessaloniki.

**ET:** English translation

**FC:** Fathers of the Church. Washington DC., Catholic University .

**LCC:** Library of Christian Classics. Philadelphia, Westminster; London, SCM 1953-66 .

**NPNF:** A Select Library of Nicene and Post-Nicene Fathers.

**NPNFns:** نفس المجموعة السابقة في طبعة جديدة, new series.

**PG:** Patrologia Graeca, comp. Migne, J-P. Paris, 1857-66 .

**Philok.:** Philokalia. Astir, Athens. ET London, Faber and Faber.

**RR:** Romaioi i Romioi Pateres tis Ekklesias. Pournara, Thessaloniki

مجموعة كتابات الآباء الذين كتبوا باليونانية – صدرت في دار نشر أخرى في تسالونيكي باليونان.

**SC:** Sources Chretiennes. Les Editions du Cerf, Paris.

**SCM:** Student Christian Movement .

**SPCK:** Society for Promotion of Christian Knowledge.

**Writings:** Writings from the Philokalia on Prayer of the Heart. London, Faber and Faber, 1954.



الباب الأول

# الأرثوزكسيت علم علاجي





لقد تمت بالفعل صياغة عدة تفاسير للمسيحية وأعطيت عدة إجابات على الأسئلة التالية: ما هي المسيحية؟ وما هي رسالتها في العالم؟ ولكن أغلب هذه الإجابات غير صحيحة. سوف نحاول فيما يلي أن نوضح بقدر الإمكان أن المسيحية، والأرثوذكسية بالأخص هي علاج. وسوف نحاول أيضاً أن نصف ما هو العلاج وكيف يمكن الوصول إليه.

## ١ - ما هي المسيحية

يرى الكثيرون من الذين يصفون المسيحية أنها واحدة من عدة فلسفات وأديان معروفة منذ القدم. وبلا شك فإن المسيحية ليست فلسفة بالمعنى السائد اليوم. فالفلسفة تؤسس نظاماً للتفكير ليس له أية علاقة بالحياة في أغلب الأحيان. والفرق الجوهرى بين المسيحية والفلسفة هو أن الفلسفة هي تفكير بشري، على حين أن المسيحية هي إعلان إلهي. فهي ليست إكتشافاً من الإنسان، ولكنها إعلان من الله نفسه للإنسان. لقد كان من المستحيل على المنطق البشرى أن يصل لحقائق المسيحية، لذلك أتت الكلمة - الإله - الإنسان، أي المسيح كلمة الله حيث كانت الكلمة الإنسانية عاجزة. ولقد تمت صياغة هذا الإعلان الإلهي بمصطلحات الفلسفة المعاصرة. ومع ذلك يجب علينا أن نؤكد ثانية على أن المسيحية ليست فلسفة. لكن - الإله الكلمة - الإنسان إتخذ ثيابه من فلسفة هذا الزمان.

يفسر القديس يوحنا ذهبي الفم قول أشعيا: "فإنه هوذا السيد رب الجنود ينزع من أورشليم ومن يهوذا السند والركن.... الجبار ورجل الحرب، القاضي والنبى والعراف والشيخ، رئيس الخمسين والمعتبر والمشير والماهر بين الصنائع والحاقق بالرقية" (إش ٣: ١-٣)، ويعطي ملحوظة قائلاً: "يبدو هنا أنه يسمى الشخص القادر على التنبؤ بالمستقبل من خلال الذكاء الشديد والخبرة بالأشياء عراًفاً. وفي الواقع فإن العرافة والنبوة هما شيئان مختلفان. فالنبى يضع ذاته جانباً ويتكلم بوحى إلهي، على حين أن العراف يبدأ مما حدث بالفعل، ويعمل ذكاءه، ويرى مُسبقاً العديد من الأحداث المستقبلية مثلما يفعل الشخص الذكي بصورة طبيعية. ولكن الفرق بينهما كبير فهو المسافة التي تفصل بين الذكاء البشرى والنعمة الإلهية".<sup>١</sup>

<sup>١</sup> . Commentary on Isaiah. SC 304 p. 154

الفلسفة هي إذاً شيء، والنبوة أو كلمة النبي الذي يتكلم باللاهوت هي شيء آخر.  
فالأولى هي نشاط بشري، على حين أن الثانية هي إعلان للروح القدس.

يُنظر للفلسفة في كتابات الآباء وخصوصاً في تعليم القديس مكسيموس على أنها بداية الحياة الروحية. ومع ذلك فإنه يستعمل مصطلح "فلسفة عملية" لكي يعني تطهير القلب من الأهواء الذي هو حقاً المرحلة الأولى في رحلة النفس نحو الله.

بالإضافة إلى ذلك لا يمكن أن ننظر للمسيحية على أنها دين. فهي على الأقل ليست ديناً يقدم نفسه اليوم. وعادة ما يُصوّر الله على أنه ساكن السماء الذي يوجه تاريخ البشرية من هناك ويضبط الأمور بشدة، ويحصل على سعادته من الإنسان الذي كان قد سقط إلى الأرض في مرضه وضعفه، وأنه يوجد بالتالي حائط يفصل الله عن الإنسان الذي كان عليه أن يتسلقه. ثم جاء الدين ليكون معونة فعالة للإنسان حيث تم توظيف عدة طقوس دينية في هذا الغرض.

وتوجد رؤية أخرى تنص على أن الإنسان يشعر بالعجز في الكون، ويحتاج لإله قدير لكي يساعده في ضعفه. وبحسب هذا المفهوم، فإن الله ليس هو الذي يخلق الإنسان، ولكن الإنسان هو الذي يخلق الله. وهكذا وُلِدَ الدين كعلاقة للإنسان مع الإله المطلق بمعنى أنه "العلاقة بين الأنا والآخر المطلق". وبالإضافة إلى ذلك يرى الكثيرون الدين على أنه وسيلة يتخدد بها الكثيرون إذ يحولون رجاءهم إلى الحياة الآتية، وهكذا تستخدم السلطات الغاشمة الدين لكي تضغط على الناس بواسطته.

ولكن المسيحية هي شيء أعلى من هذه التفسيرات والنظريات، فهي لا يمكن أن تحتوى داخل المفهوم والتعريف المعتاد للدين الموجود في الديانات "الطبيعية". فالله ليس هو "الآخر" المطلق، ولكنه شخص حي في اتحاد ملموس مع الإنسان. بالإضافة إلى ذلك فإن المسيحية لا ترجع المشكلة للمستقبل ببساطة، أو تنتظر سعادة ملكوت السموات بعد التاريخ وبعد انتهاء الزمان. فالمستقبل في المسيحية يُعاش في الحاضر ويبدأ ملكوت الله في هذه الحياة. وبحسب تفسير الآباء فإن ملكوت الله هو نعمة الله الثالث، وهو رؤية النور الإلهي الأزلي.

لا نتظر نحن الأرثوذكسين نهاية التاريخ ونهاية الزمان، ولكننا من خلال هذه الحياة في المسيح نحري لنقابل نهاية التاريخ، وبالتالي نحيا بالفعل الحياة المنتظرة بعد المجيء الثاني. يقول القديس سمعان اللاهوتي الجليلي أن الذي رأى النور الإلهي واتحد بالله لا ينتظر المجيء

الثاني للرب ولكنه يحياه. تُعانقنا الأبدية، إذًا، في كل لحظة من الزمان. وهكذا يُعاش الماضي والحاضر والمستقبل بطريقة جوهرية في رحلة لا تتجزأ. وهذا هو ما يسمى بالزمن المكثف.

لا يمكن إذًا أن نصف الأرثوذكسية على أنها "أفيون الشعوب" لأنها بالتحديد لا تؤجل المشكلة، فهي تقدم حياة وتُحوّل الحيلة البيولوجية، وتقدّس وتحوّل المجتمعات. وحيثما تُعاش الأرثوذكسية بالطريقة الصحيحة وفي الروح القدس، فهناك توجد شركة بين الله والناس، وبين السماوي والأرضي، وبين الحي والميت. وفي هذه الشركة تحلّ كل المشاكل التي تواجهنا بحق.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنه طالما تشتمل عضوية الكنيسة على أناس مرضى ومبتدئين في الحيلة الروحية، فمن المتوقع أن يفهم البعض منهم المسيحية على أنها "دين" بالمعنى المشار إليه فيما سبق. كما أن الحيلة الروحية هي رحلة ديناميكية، فهي تبدأ بالمعمودية التي هي تطهير "للصورة"، وتستمر خلال الحيلة النسكية التي تهدف إلى الوصول "للشبه" الذي هو الشركة مع الله. يجب علينا على أية حال أن نوضح أنه حتى ونحن لا نزال نتكلم عن المسيحية كدين، يجب علينا أن نفعل ذلك مع بعض الافتراضات المسبقة الضرورية.

✦ أول هذه الافتراضات هو أن المسيحية هي بصورة رئيسية كنيسة. و"كنيسة" تعني "جسد المسيح". توجد عدة مواضيع في العهد الجديد حيث تسمى المسيحية كنيسة. سوف نذكر فقط كلمات المسيح: "أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة" (مت ١٦: ١٨)، وكلمات بولس الرسول لأهل كولوسي: "ورأس الجسد الكنيسة" (كو ١: ١٨)، ولتلميذه تيموثاوس: "فلكي تعلم كيف يجب أن تتصرف في بيت الله الذي هو كنيسة الله الحي عمود الحق وقاعدته" (١ تي ٣: ١٥). وهذا لا يعني أن الله يسكن ببساطة في السماء وبوجه من هناك التاريخ وحياة البشر، ولكنه متحد معنا. لقد أخذ الطبيعة البشرية وقُدّسها، وبالتالي فإن الطبيعة البشرية المقدسة في المسيح هي في اليد اليمنى للآب. فالمسيح إذًا هو حياتنا ونحن "أعضاء المسيح".

✦ وثاني الافتراضات هو أن هدف المسيحي هو الوصول لحالة الاتحاد بالله المباركة. ويتطابق الاتحاد بالله مع "الشبه"، أي أن يكون المرء مُشابهاً لله. وعلى أية حال يجب أن يحدث التطهير أولاً حتى يصل المرء للشبه، وحتى يحصل على رؤية الله، وحتى لا تكون هذه الرؤية ناراَ أكلة بل نوراً مُعطياً للحياة. هذا التطهير والشفاء هو عمل الكنيسة. عندما يشترك المسيحي في العبادة دون أن يخضع للتطهير المعطي الحياة - مع أن أعمال



العلة هذه تهدف أيضاً لتطهير الإنسان - فإنه لا يكون عائشاً داخل الكنيسة بحق. المسيحية بدون تطهير هي المدينة الفاضلة. عندما نكون إذاً في عملية تطهير وخصوصاً عندما نكون ساعين للشفاء، فإننا نستطيع حينئذ أن نتكلم عن الدين. ويتمشى ذلك مع كلمات يعقوب الرسول: "إن كان أحد فيكم يظن أنه دين وهو ليس يلجم لسانه، بل يخدع قلبه، فديانة هذا باطلة. الديانة الطاهرة النقية عند الله هي هذه: إفتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم" (يع ١: ٢٦-٢٧).

يعطينا هذا التعقّف الحق لأن ندّعي أن المسيحية ليست فلسفة ولا ديانة "طبيعية"، ولكنها شفاء بصورة رئيسية. فهي شفاء لأهواء المرء بحيث يستطيع أن يصل للشركة والإتحاد مع الله.

أظهر لنا الرب عدة حقائق في مثل السامري الصالح. فعندما رأى السامري الرجل الذي وقع بين اللصوص الذين جرحوه وتركوه بين حي وميت فإنه على الفور "تحنّ". فتقدم، وضمد جراحاته، وصبّ عليها زيتاً وخمراً، وأركبه على دابته، وأتى به إلى فندق، واعتنى به" (لو ١٠: ٣٣-٣٤). لقد عالج السيد المسيح الإنسان المجرّح وأتى به إلى فندق، أي إلى المستشفى التي هي الكنيسة. وهكذا صوّر المسيح هنا كطبيب يشفي أمراض الإنسان وقُدّمت الكنيسة كمستشفى.

ومن الأمور المتميزة جداً في تحليل القديس يوحنا ذهبي الفم لهذا المثل، أنه يقدم الحقائق التي قدمناها توأماً. لقد نزل الإنسان من الحالة السماوية لحالة خداع الشيطان، ووقع بين اللصوص الذين هم الشيطان، والقوى العدائية، والجراحات التي تكبدها هي الخطايا المتنوعة. وكما يقول داود: "قاحت جُربُ ضربي من جهة حماقتي" (مز ٣٨: ٥). إذ أن "كل خطية تجلب كدمات وجراحاً". والسامري هو المسيح نفسه الذي نزل من السماء للأرض لكي يشفي الإنسان المجرّح. لقد استعمل الخمر والزيت للجراحات وهذا يعني "أنه إذ مزج الروح القدس مع دمه، جلب الحياة للإنسان". وبحسب تفسير آخر "فإن الزيت يجلب الكلمة المعزية، والخمر يعطي الغسول المضمّد أي التوجيه الذي يجلب تركيزاً للعقل المشتت". لقد أركبه على دابته: "إذ حمل الجسد على كتفيه الإلهيين، رفعه نحو الأب في السماء". وهكذا قاد السامري الصالح، أي المسيح، الإنسان "إلى الفندق الرائع والفسيح أي الكنيسة الجامعة". لقد سلّمه لصاحب الفندق الذي هو بولس الرسول "ومن خلال بولس لأساقفة ومعلمي وكهنة كل كنيسة"، قائلاً: "اعتنوا بالأمم الذين أعطيتهم لكم في الكنيسة، وإعطوهم الشفاء طالما أنهم مرضى مجروحون بالخطية، وضَعُوا

عليهم جيرة التي هي أقوال الأنبياء وتعاليم الإنجيل، جاعلين إياهم واحداً من خلال النصح والوعظ الذي للعهدين القديم والجديد". وهكذا وبحسب القديس يوحنا ذهبي الفم، فإن بولس هو الذي يدعم كنائس الله "ويشفي كل الناس من خلال الوعظ الروحي وتوزيع خبز التقدمة لكل واحد...".<sup>2</sup>

إنه أمر واضح جداً في تفسير القديس يوحنا ذهبي الفم لهذا المثل، أن الكنيسة هي مستشفى تشفي أولئك المرضى بالخطية، على حين أن الأساقفة والكهنة هم مالحو الشفاء لشعب الله مثل بولس الرسول.

تظهر هذه الحقائق أيضاً في عدة مواضع أخرى في العهد الجديد. لقد قال الرب: "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى" (متى ٩: ١٢). يعي بولس الرسول جيداً أن ضمير الناس ضعيف وخصوصاً الناس البسطاء: "وهكذا إذ تخطئون إلى الإخوة وتحرحون ضميرهم الضعيف تخطئون إلى المسيح" (١ كو ٨: ١٢). يقول سفر الرؤيا أن يوحنا الإنجيلي رأى نهراً لماء الحياة يخرج من عرش الله والخروف "... وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة تصنع إثنتي عشرة ثمرة، وتعطي كل شهر ثمرها، وورق الشجرة لشفاء الأمم" (رؤ ٢٢: ٢).

عمل الكنيسة إذاً هو عمل علاجي، فهو يهدف لشفاء أمراض الناس وبالأخص أمراض النفس التي تصرعهم. هذا هو التعليم الرئيسي للعهد الجديد ولآباء الكنيسة. وسوف توضح عدة نصوص من كتابات الآباء هذه الحقيقة فيما يلي في هذا الفصل وفي الفصول الأخرى أيضاً.

أريد أن أؤكد هنا أيضاً على أنه لا يمكن الإستغناء عن الكنيسة. إنني ممتن كثيراً للقس والأستاذ "جون رومانيدس" على تأكيده على ذلك في كتاباته. أنا مقتنع أنه قارئ جيد في كتابات الآباء النساك وخصوصاً في الفيلوكاليا، وبالتالي التقط المعنى الحقيقي للمسيحية. كما أعتقد أن هذه هي مساهمته العظيمة، وذلك لأنه في هذا العصر الذي تُقَدَّم فيه المسيحية على أنها فلسفة، أو لاهوت عقلي، أو تقليد ثقافي أو شعبي، أي عادات وتقاليد يقدم هو هذا التعليم الخاص بالنظام العلاجي والشفاء.

إنه يقول بطريقة ملموسة: "إن الإيمان بالمسيح بدون إجتياز الشفاء في المسيح ليس إيماناً بالبرة، إننا نجد هنا نفس التناقض الذي نجده عندما لا يلتزم شخص مريض بالبرة بالعلاج الذي يصفه طبيبه، والذي يثق هو فيه ثقة شديدة. لو كانت اليهودية والمسيحية قد

<sup>2</sup> . PG 62, col. 755-757

ظهرتا في القرن العشرين لأول مرة لكانتا على الأغلب قد تميزتا، لا كديانات، ولكن كعلوم طبية متعلقة بالطب النفسي، ولكانتا أصبحتا ذات تأثير واسع على المجتمع بسبب نجاحاتهما المتميزة في شفاء أمراض الشخصية التي تعمل بصورة جزئية، وما كانت النبوة اليهودية والمسيحية ستُفسّر على أنها ديانات تستعمل عدة طرق للسحر والمعتقدات لكي تُعدّ بالهروب من عالم المادة والشر والرياء لعالم روحي من الأمان والنجاة".<sup>3</sup>

يقول نفس الأستاذ في كتاب آخر: "إن التقليد الأبائي ليس فلسفة إجتماعية، ولا هو نظام أخلاقي ولا هو عقيدة دينية، ولكنه علاج شافٍ. وهو يشبه الطب بدرجة كبيرة من هذه الجهة، وخصوصاً الطب النفسي. فالطاقة الروحية التي للنفس التي تصلّي بلا إنقطاع في القلب، هي أداة فسيولوجية يمتلكها كل شخص وتحتاج لشفاء. ولا تستطيع لا الفلسفة ولا أي علوم معروفة إيجابياً أو إجتماعياً أن تشفي هذه الأداة. من الممكن أن يحدث ذلك فقط من خلال تعاليم الآباء النسكية. وبالتالي فإن أولئك الذين لم يُشفوا، فإنهم عادة ما لا يعرفون حتى بوجود هذه الأداة".<sup>4</sup>

وهكذا فإننا نُصنّف في الكنيسة إلى مرضى، وخاضعين للعلاج، وقديسين شُفوا بالفعل. "لا يصنّف الآباء الناس إلى أخلاقيين وعديمي الأخلاق، أو إلى صالحين وأردياء على أساس القواعد الأخلاقية، فهذا التصنيف سطحي. ولكن تنقسم الإنسانية في عمقها إلى مرضى النفس، وأولئك الخاضعين للشفاء، وأولئك الذين شُفوا". كل الذين ليسوا في حالة إستنارة هم مرضى النفس. ما يصنع الإنسان الأرثوذكسي ليس هو الإرادة الحسنة والعزيمة الجيدة والممارسات الأخلاقية والإخلاص للتقليد الأرثوذكسي، فقط ولكن أيضاً التطهير والإستنارة والإتحاد بالله. تكون مراحل الشفاء هذه هي غاية الحياة الباطنية التي للكنيسة، كما تشهد بذلك النصوص الليتورجية".<sup>5</sup>

<sup>3</sup> . J. Romanides: Jesus Christ the life of the world. ( A talk in Greek translation), p. 28f

<sup>4</sup> . J. Romanides: Romaioi i Romioi Pateres tis Ekklesias. Vol.I,p.22f. In Greek

<sup>5</sup> . Ibid.p.27

## ٢- علم اللاهوت كعلم علاجي

يتضح مما قيل أن المسيحية هي علم يعطي شفاءً أي أنها طريقة علاج نفسي. وينطبق نفس الشيء على علم اللاهوت، فهو ليس فلسفة ولكنه علاج شافي بدرجة أساسية. يظهر علم اللاهوت الأرثوذكسي بوضوح أنه، من جهة، هو ثمرة العلاج، ومن جهة أخرى يشير إلى طريق العلاج. وبمعنى آخر فإن اللاهوتيين هم فقط أولئك الذين شُفوا والذين حصلوا على شركة مع الله، وهم وحدهم الذين يستطيعون أن يُظهروا للمسيحيين الطريق الحقيقي للوصول "لموضع الشفاء". علم اللاهوت هو إذاً ثمرة وطريقة للعلاج في نفس الوقت.

وهنا نحتاج للتوسع فيما قيل لكي نرى هذه الحقائق بطريقة أوضح. لذلك سوف نقبس من تعاليم الآباء القديسين الخاصة بعلم اللاهوت واللاهوتيين.

أعتقد أنه يجب علينا أن نبدأ بالقديس غريغوريوس النزينزي إذ أن الكنيسة لم تمنحه لقب اللاهوتي بالصدفة. إنه يكتب في بداية نصوصه اللاهوتية الشهيرة أنه لم يُعطَ لكل واحد أن يتكلم باللاهوت وأن يتحدث عن الله، لأن هذا الموضوع ليس رخيصاً ومتدنياً لهذه الدرجة. لم يوضع هذا العمل لكل الناس ولكن "لأولئك الذين إمتحنوا وحُسبوا أساتذة في رؤية الله، والذين تنقوا في النفس والجسد من قبل أو على الأقل الذين يخضعون للتنقية". لا يتكلم عن الله إلا أولئك الذين عبروا من العمل إلى التثويرا (رؤية الله) ومن التطهير إلى الإستنارة. ومتى يحدث ذلك؟ "يحدث ذلك عندما نصبح أحراراً من الدنس والإضطراب الخارجي، وعندما لا تختلط الدوافع الموجودة داخلنا بالغضب والصور الخاطئة". من أجل ذلك ينصح القديس قائلاً: "إنه من الضروري أن يكون المرء هادئاً لكي يعرف الله".<sup>٦</sup>

يربط نيلوس الناسك علم اللاهوت بالصلاة، وخصوصاً الصلاة العقلية. إننا نعرف جيداً من تعليم الآباء القديسين أن من اكتسب نعمة صلاة القلب يكون قد دخل أول مرحلة في رؤية الله، إذ أن هناك نوعاً من الصلاة هو صورة من التثويرا. وبالتالي فإن كل الذين يُصلُّون بالعقل يكونون في شركة مع الله، وهذه الشركة هي معرفة الإنسان الروحية

<sup>6</sup> . Gregory the Theologian. Or.27, 3. NPNFns, vol.7,p.285

الله. وهكذا يقول القديس نيلوس: "لو كنت لاهوتياً فإنك سوف تصلي بحق ولو أنك تصلي بحق فإنك تكون لاهوتياً".<sup>٧</sup>

يقدم القديس يوحنا الدرجي علم اللاهوت الحقيقي في عدة مواضع في كتابه الروحي المبهج "السلم". "إن الطهارة الكاملة هي أساس علم اللاهوت". "عندما تتحد حواس الإنسان بالله بصورة كاملة، فإن ما قاله الله يصبح بشكل ما واضحاً بطريقة سرية. ولكن حيثما لا يوجد اتحاد من هذا النوع مع الله، فإنه يكون أمراً بالغ الصعوبة أن يتحدث الإنسان عن الله".<sup>٨</sup> وعلى العكس من ذلك فإن الذي لا يعرف الله حقاً، فإنه يتكلم عنه فقط في صورة "إحتمالات".<sup>٩</sup> وفي الواقع وبحسب تعليم الآباء، فإنه أمر سيء جداً أن نتحدث عن الله في افتراضات، لأن ذلك يقود المرء للضلال. يعرف هذا القديس كيف ينمو في داخلنا "علم لاهوت الشياطين". تعطينا الشياطين الدنسة "دروساً في تفسير الكتاب".<sup>١٠</sup> في القلوب المحبة للمجد الباطل التي لم تتطهر من قبل بعمل الروح القدس. ولذلك لا يجب على المأسور في الهوى أن "يشغل بالكلام عن اللاهوت".<sup>١١</sup>

ولقد تلقى القديسون "النعم الإلهية بدون تفكير". وبحسب الآباء فإنهم تكلموا باللاهوت لا بطريقة أرسطو من خلال التفكير ولكن "بطريقة الرسل" أي من خلال عمل الروح القدس. إن لم يتطهر الشخص من الأهواء مسبقاً وخصوصاً من الخيالات فإنه يكون غير قادر على التحدث مع الله أو الكلام عن الله طالما أن العقل الذي "يكون الإنطباعات يعجز عن الكلام عن اللاهوت". لقد عاش القديسون علم اللاهوت "مكتوباً بالروح القدس".

إننا نجد نفس الكلام في كتابات القديس مكسيموس المعترف. فعندما يحيا المرء في فلسفة عملية التي هي التوبة والتطهر من الأهواء "فإنه يتقدم في الفهم الأخلاقي". وعندما يختبر رؤية الله "فإنه يتقدم في المعرفة الروحية". إنه يستطيع في الحالة الأولى أن يميز بين الفضائل والردائل، وفي الحالة الثانية تقود التهوريا (رؤية الله) "المشارك إلى معرفة الخصائص الداخلية للأشياء الغير متجسمة والمتجسمة". ويمضي القديس مكسيموس إلى القول أن الإنسان "يُمنح نعمة التكلم عن اللاهوت عندما يُحمل على

<sup>7</sup> . Evagrius, Philokalia I, p. 62,61

<sup>8</sup> . Ladder. Step 30. CWS p. 288

<sup>9</sup> . Ibid.

<sup>10</sup> . Ibid. p.250

<sup>11</sup> . Ibid. p.262



أجنحة الحب" في التيئوريا "وبمعونة الروح القدس يدرك صفات الله بالقدر الذي يستطيعه العقل البشري"<sup>12</sup>.

ينكشف علم اللاهوت أي معرفة الله، للشخص الذي وصل لرؤية الله. وفي الواقع يقول نفس الأب في موضع آخر أن الشخص الذي "يركز باستمرار على الحياة الداخلية" لا يصبح فقط منضبطاً وطويل الأناة ولطيفاً ومتواضعاً، ولكنه أيضاً "سوف يصبح قادراً على التأمل والتكلم باللاهوت والصلاة"<sup>13</sup>. وهنا أيضاً يرتبط الكلام عن اللاهوت بدرجة وثيقة بالتيئوريا والصلاة.

يجب علينا أن نؤكد على أن التكلم عن اللاهوت الذي لا ينتج من التطهير أي من "العمل" هو علم لاهوت شيطاني. وبحسب القديس مكسيموس فإن "المعرفة بدون عمل هي علم لاهوت الشياطين"<sup>14</sup>.

كتب القديس ثالاسيوس صاحب نفس المنظور قائلاً أنه عندما يبدأ عقل الإنسان بإيمان بسيط "فإنه سوف يصل حتماً لعلم لاهوتي يتجاوز العقل ويتميز بإيمان عال مطرد وإلى رؤية الغير مرئي"<sup>15</sup>. يتجاوز علم اللاهوت المنطق فهو إعلان الله للإنسان ويُعرفه الآباء على أنه التيئوريا. وهنا أيضاً يكون اللاهوت بدرجة رئيسية هو رؤية الله. لقد كتب نفس القديس في موضع آخر أن الحب الحقيقي يولد المعرفة الروحية، "ويتبع ذلك شهوة كل الشهوات أي نعمة التكلم عن اللاهوت"<sup>16</sup>.

ويُقدّم علم اللاهوت، في تعليم القديس ديدوخوس، الذي من فوتيكي، على أنه العطية العظمى الممنوحة من الروح القدس للإنسان. إن كل عطايا النعمة التي يهبها الله هي "غير خارقة" و"لكن العطية التي تلهب قلبنا وتحركه لكي يحب صلاحه أكثر من أي أحد آخر هي عطية الكلام عن اللاهوت". إذ أن "الكلام عن اللاهوت هو أول مولود للنعمة الإلهية يمنح النفس أعظم العطايا"<sup>17</sup>.

وبحسب بولس الرسول، فإن الروح القدس يعطي معرفة روحية للواحد وحكمة للآخر (١كو١٢: ٨). ويفسر القديس ديدوخوس ذلك قائلاً أن المعرفة الروحية توحد الإنسان

<sup>12</sup> . Philok.2, p. 69, 26

<sup>13</sup> . Ibid. p. 108, 64

<sup>14</sup> . PG 91, 601 C. Letter 20, to Marinos the Monk

<sup>15</sup> . Philok.2, p. 330, 80

<sup>16</sup> . Ibid. p. 328f, 62

<sup>17</sup> . Philok. 1, p. 275, 67

بالله ولكنها لا تحركه لكي يعبرَ خارجياً عن الذي يعرفه. يوجد رهبان يجيئون السكون ويستنيرون بنعمة الله "ومع ذلك لا يتكلمون عن الله". إن الحكمة هي إحدى المواهب العظمى والتي يعطيها الله للشخص الذي يمتلك كلاً من التعبير والذهن المتسع. وهكذا تأتي معرفة الله "من خلال الصلاة والسكون العميق والإنعزال الكامل، على حين تأتي الحكمة من خلال التأمل المتواضع في الكتاب المقدس، وقبل كل شيء من خلال النعمة المعطاة من الله"<sup>18</sup>.

إن عطية الكلام عن اللاهوت هي عمل الروح القدس، ولكن في تعاون مع الإنسان، حيث أن الروح القدس لا يحقق في الإنسان معرفة روحية للأسرار "بعيداً عن تلك القدرة الموجودة داخله والتي تبحث عن هذه المعرفة بطريقة طبيعية"<sup>19</sup>.

وبحسب تعليم القديس غريغوريوس بالاماس فإن المدعوين لاهوتيين بحق هم أولئك الذين يرون الله. والتكلم عن اللاهوت ليس هو إلا رؤية الله (التيثوريا). "لأنه توجد معرفة عن الله وعن تعاليمه وهي رؤية الله التي نسميها لاهوتاً"<sup>20</sup>. وهكذا فإن أي من لا يمتلك معرفة وخبرة عن أمور الإيمان ويقدم عنها تعليماً "بحسب حكمته الشخصية محاولاً من خلال الكلمات أن يظهر الصلاح الذي يفوق كل الكلمات، فإنه يكون قد فقد كل الصواب". ومن خلال حماقة "يكون قد صار عدواً لله"<sup>21</sup>. وبالإضافة إلى ذلك فإنه توجد حالات بدون أن يكون لأصحابها أعمال، أي بدون أن يخضعوا للتطهير، إلتقوا وسمعوا لرجال قديسين ولكنهم بعد ذلك "حاولوا أن يكونوا لأنفسهم مفاهيمهم الخاصة" وهكذا ردلوا الرجل القديس "وإنتفخوا بالكبرياء"<sup>22</sup>.

توضح كل هذه الأشياء أن التكلم عن اللاهوت هو ثمرة شفه الإنسان وليس منهجاً منطقياً. لا يستطيع سوى الشخص الذي تطهر، أو على الأقل الذي هو في مرحلة التطهير، أن يقتحم الأسرار الفائقة الوصف والحقائق العظمى، وأن يتلقى إعلانات، وبعد ذلك ينقلها للناس. وهكذا فإنه بحسب التقليد الآبائي الأرثوذكسي فإن التكلم عن اللاهوت يرتبط ويتوحد بالأب الروحي، والأب الروحي هو اللاهوتي بدون منازع بمعنى أن الذي يختبر أمور الله يستطيع عندئذ أن يقود أولاده الروحيين بطريقة سديدة.

<sup>18</sup> . Ibid. p. 254f, 9

<sup>19</sup> . St. Maximus the Confessor. Philok. 2, p. 239, 16

<sup>20</sup> . Triads. 1.3, 15

<sup>21</sup> . Ibid. 1, 3, 12

<sup>22</sup> . Ibid. 3, 1, 32. CWS p. 87

يكتب الأب يوحنا رومانيدس قائلاً: "إن اللاهوتي الأرثوذكسي الحقيقي هو الذي يمتلك معرفة مباشرة عن بعض قدرات الله بواسطة الإستنارة، أو يعرفها أكثر من خلال الرؤية. أو أنه يعرفها بطريقة غير مباشرة من خلال الأنبياء والرسل والقديسين، أو من خلال الكتاب المقدس وكتابات الآباء وقرارات وأعمال مجامعهم المسكونية والإقليمية. اللاهوتي هو الذي من خلال هذه المعرفة الروحية المباشرة والرؤية يعرف بوضوح أن يميز بين أعمال الله وأعمال الخليقة وخصوصاً أعمال إبليس والشياطين. لا يستطيع المرء بدون موهبة تمييز الأرواح أن يمتحن الأرواح لكي يرى إن كان الأمر هو عمل الروح القدس أو عمل إبليس والشياطين".

وهكذا فإن اللاهوتي والأب الروحي هما نفس الشخص. من المؤكد أن الشخص الذي يفكر ويتكلم باحثاً عن فهم عقلائي لتعاليم الإيمان ليس أباً روحياً، ولا نستطيع أن نسميه لاهوتياً بالمعنى الصحيح الذي للكلمة. ليس علم اللاهوت معرفة وممارسة مجردة مثل المنطق والرياضة والفلك والكيمياء، ولكنه على العكس ذو خاصية جدلية مثل المنطق الرمزي والطب. فالأول يهتم بأمر الدفاع والهجوم على شاكلة التدريب العسكري والإستراتيجيات الخاصة بنشر الأسلحة والتحصينات والنظم الدفاعية والهجومية، على حين أن الثاني (الطب) يقاتل الأمراض الذهنية والعضوية لصالح الصحة ووسائل إستعادة العافية.

إن اللاهوتي الغير مطلع على طرق العدو ولا على طرق الكمال في المسيح ليس فقط غير قادر على الكفاح ضد العدو من أجل كماله الخاص، ولكنه أيضاً يكون في وضع لا يسمح له بإرشاد وعلاج الآخرين. يشبه هذا الأمر أن يُدعى المرء جنراً أو حتى أن يكون جنراً بالفعل، بدون أن يكون قد تدرب أو حارب أو درس فن الحرب، ولكنه إهتم فقط بالمظهر الجميل المجيد الذي للجيش العظيم وبالزّي العسكري البراق في حفلات الإستقبال والعروض. كما أن ذلك الإنسان يشبه الجزار الذي يتظاهر بأنه جراح أو مثل الذي يدّعي أنه طبيب بدون أن يعرف أسباب الأمراض أو طرق علاجها أو حالة الصحة التي يجب أن يستعيدها المريض.<sup>23</sup>

<sup>23</sup> . Romanides: Dogmatic and Symbolic Theology... p. 85f. In Greek.

### ٣- ما هو العلاج

يجب علينا الآن أن نحدد بإختصار ما هو العلاج طالما أننا قلنا أن المسيحية وعلم اللاهوت هما علم علاجي بالدرجة الأولى. ماذا تعمل الأرثوذكسية مع علم اللاهوت الخاص بها والعبادة في شفاء داخلنا؟

علاج النفس يعنى بصورة رئيسية علاج وتحرير العقل. لقد أصبحت الطبيعة البشرية مريضة من خلال سقوطها بعيداً عن الله. هذا المرض هو بصفة رئيسية عبودية وسقوط العقل. فلخطية الجدية تكمن في إنعزال الإنسان عن الله وفقدانه للنعمة الإلهية مما أدى إلى العمى والظلمة وموت العقل. إننا نستطيع أن نقول بدقة أكثر أن سقوط الإنسان أو حالة ميراث الخطية هي:

(أ) فشل قوته العقلية في أن تعمل بطريقة سليمة، أو حتى فشلها في أن تعمل على الإطلاق.

(ب) إختلاط هذه القوة مع وظائف العقل والجسد عموماً.

(ج) كنتيجة لذلك، الخضوع للضيق العقلي وللظروف المحيطة.

لقد إختبر كل واحد انهيار طاقته الذهنية بدرجات مختلفة، حينما يتعرض لوسط يحيط به لا تعمل فيه هذه القوة أو تعمل بدرجة ضعيفة. "يؤدي خلل طاقته الذهنية إلى علاقات سيئة بين الإنسان والله وبين الناس بعضهم البعض. كما أنه يؤدي أيضاً إلى إستغلال الإنسان لله وللإنسان الساقط لكي يدعم أمانه الشخصي وسعادته".<sup>24</sup>

إن فقدان نعمة الله هذا ألمات عقل الإنسان، وأمراض طبيعته بأكملتها، وأورث هذا المرض لنسله أيضاً. هذا هو مفهوم ميراث الخطية في التعليم الأرثوذكسي. يفسر الآباء قول بولس الرسول: "كما بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خطاة" (رو ٥: ١٩) ليس بمصطلحات قضائية ولكن "طبية". بمعنى أن الطبيعة البشرية أصبحت مريضة. ويفسر القديس كيرلس السكندري هكذا: "بعدما سقط آدم بالخطية وغرق في الفساد فعلى الفور تدفقت اللذات النجسة، وإنفجر قانون الغابة في أعضائنا. وهكذا أصبحت الطبيعة مريضة بالخطية من خلال معصية الواحد الذي هو آدم. وبعد ذلك صار الكثيرون

<sup>24</sup> Romanides. Jesus Christ the Life of the World, p. 23. In Gk.

خطاة، لا شركاء في المعصية مع آدم لأنهم لم يكونوا حتى موجودين، ولكن لكونهم من نفس الطبيعة التي سقطت تحت ناموس الخطية. لقد أصبحت الطبيعة البشرية مريضة في آدم من خلال فساد المعصية وهكذا دخلت إليها الأهواء"<sup>25</sup>. يستخدم نفس الأب في موضع آخر صورة الجذر. "لقد أتى الموت لكل الجنس البشري بواسطة آدم تماماً مثلما يُصاب جذر النبات، فيتعين على كل البراعم الصغيرة التي تأتي منه أن تذبل"<sup>26</sup>.

يقول القديس غريغوريوس بالاماس: "إن العقل الذي تمرد على الله يصبح إما حيوانياً أو شيطانياً. وبعد أن يتمرد على نواميس الطبيعة فإنه يشتهي ما يخص الآخرين..."<sup>27</sup>.

ومن خلال "طقس الولادة من الله" أي المعمودية المقدسة، فإن عقل الإنسان يستنير، ويتحرر من عبودية الخطية والشيطان، ويتحد بالله. هذا هو السبب الذي يجعل المعمودية تسمى إستنارة. ولكن بعد ذلك، وبسبب الخطية، يظلم العقل ويموت ثانية. لذلك توضح كتابات الآباء أن كل خطية وكل هوى يميت العقل.

يكتب القديس يوحنا الدرجي أن الأرواح الشريرة تجاهد لكي "تظلم روحنا"، وخصوصاً شيطان النجاسة "الذي عن طريق إظلام عقولنا التي تفقدنا، يدفع الناس لفعل أشياء لا يفكر فيها سوى المجنون"<sup>28</sup>.

سوف نركز بالأكثر في فصل آخر على طبيعة عقل الإنسان. إن ما يعيننا هنا هو موضوع الظلمة. يُعلم القديس مكسيموس قائلاً: "كما يتكون عالم الجسد من أشياء، هكذا يتكون عالم العقل من صور ذهنية. وكما يزني الجسد مع جسد امرأة، هكذا إذ يكون العقل صورة لجسده الخاص فإنه يزني مع صورة ذهنية لإمرأة"<sup>29</sup>. هذا هو إظلام وسقوط العقل.

يعلم نفس الأب القديس في موضع آخر أنه "عندما يخطئ الجسد من خلال أشياء مادية وتكون لديه الفضائل الجسدية لتعلمه ضبط النفس هكذا أيضاً العقل عندما يخطئ من خلال الصور الذهنية الشهوانية، تكون لديه فضائل النفس لكي تعلمه"<sup>30</sup>. تُظهر هذه الحقيقة أن سقوط العقل يخلق إرتباكاً لكل الكيان الروحي. إنه يسبب ألماً وإضطراباً

<sup>25</sup> . Commentary on Epistle to the Romans. PG 64, 788f

<sup>26</sup> . Ibid. 785

<sup>27</sup> . Homily 51, 10. EPE 11, p. 114f. In Gk.

<sup>28</sup> . Ladder . Step 15. CWS p. 185

<sup>29</sup> . Philok. 2, p. 91,53

<sup>30</sup> . Ibid. p. 76. 64

ويجعل الشخص بوجه عام يعيش السقوط بكل مأساوياته. وهكذا تنبع العديد من المشاكل التي تصيبنا من هذا المرض الداخلي. من أجل ذلك لا يستطيع الأطباء النفسيون أن يعطوا معونة بدرجة كبيرة، طالما أن المسيح وحده هو الذي يستطيع أن يستعيد العقل المائت بالأهواء.

ومرة أخرى يحاول القديس مكسيموس أن يُعرّف بصورة أكثر وضوحاً ما هي نجاسة العقل وبالتالي ما هو سقوطه، ويكتب قائلاً أنها تتكون من أربعة أشياء: "الشيء الأول هو أن يكون لديه معرفة خاطئة، والثاني هو الجهل بأي شيء من الأشياء الكونية، والثالث هو وجود أفكار شهوانية، والرابع هو الموافقة على الخطية".<sup>31</sup>

يحتاج العقل، إذاً، إلى علاج يسميه الآباء "إحياء وتطهير العقل".

يوجد قدر كبير من الحديث عن طهارة العقل والقلب في تعاليم الرب والرسول. لقد قال الرب عن فريسيي عصره الذين كانوا يهتمون بالطهارة الخارجية ويهملون الطهارة الداخلية: "أيها الفريسي الأعمى! نقّ أولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما أيضاً نقياً" (مت ٢٣ : ٢٦). ولقد واجه بطرس في إجتماع الرسل في أورشليم مشكلة المسيحيين الأميين من جهة إن كان يجب عليهم أن يختنوا أولاً وأن يحفظوا ناموس العهد القديم وقال: "والله العارف القلوب شهد لهم معطياً لهم الروح القدس كما لنا أيضاً. ولم يميز بيننا وبينهم بشيء إذ ظهر بالإيمان قلوبهم" (أع ٨ : ٩). ولقد أوصى بولس الرسول مسيحيي كورنثوس قائلاً: "لنظهر ذواتنا من كل دنس الجسد والروح مكملين القداسة في خوف الله" (١ كو ٧ : ١). ودم المسيح سوف: "يطهر ضمائرهم من أعمال ميتة" (عب ٩ : ١٤). ويكتب نفس الرسول بالمثل لتلميذه تيموثاوس ويؤكد على أن نتمسك بسر الإيمان: "بضمير طاهر" (١ تي ٣ : ٩). ويعي بطرس الرسول جيداً أن محبة بعضنا لبعض هي ثمرة القلب الطاهر، وهكذا يقول: "أحبوا بعضكم بعضاً من قلب طاهر بشلة" (١ بط ١ : ٢٢).

تطهير العقل والقلب هو، إذاً، أمر رئيسي. إننا نكتب عن العقل والقلب حتى رغم أننا نعرف أن هذين الإثنين هما شيء واحد في علم اللاهوت الأبائي. على أية حال سوف نعود ثانية لهذا الأمر في فصل آخر.

<sup>31</sup> Ibid. p. 88, 34

يقسم القديس مكسيموس الحية الروحية لثلاثة مراحل وهي الفلسفة العملية، والتيوتوريا الطبيعية، وعلم اللاهوت الميستيكي، أو الباطني mystical . وبحسب دراسة عن القديس مكسيموس فإن تعليمه عن الإتجاه الشخصي للخلاص ينقسم إلى ثلاثة أجزاء رئيسية:

(١) "فلسفة عملية" أو العمل praxis .

(٢) "تيوتوريا (رؤية الله) طبيعية" أو بطريقة أبسط : تيوتوريا.

(٣) "الإختبار اللاهوتي الميستيكي" أو بطريقة أبسط : اختبار اللاهوت .

والأولى تطهر الشخص من الأهواء وتزينه بالفضائل؛ والثانية تنير عقله بالمعرفة الحقيقية، والثالثة تكلمه بأعلى خبرة باطنية والتي يسميها القديس مكسيموس الخبرة الميستيكية أو "الدهش" ecstasy . تشكل هذه الأجزاء الثلاثة المراحل الرئيسية في طريق الخلاص الشخصي للإنسان<sup>٣٢</sup>.

ويجب علينا في الواقع أن ننوه إلى أن العديد من الآباء يميزون هذه المراحل الثلاثة في الحية الروحية وهي الفلسفة العملية أو تطهير القلب والتيوتوريا الطبيعية أو إستنارة العقل ثم الاختبار اللاهوتي الميستيكي أو الإتحاد بالله من خلال التيوتوريا.

وبحسب تقسيم آخر يظهر في كتابات الآباء، فإن الحية الروحية تنقسم إلى عمل وتيوتوريا (رؤية الله). وهذا ليس تمييزاً معارضاً للسابق ولكنه في الحقيقة نفس الشيء. لأن العمل هو التطهير، والتيوتوريا هي إستنارة العقل والإتحاد بالله. وعلى أية حال فإن العمل يسبق التيوتوريا التي هي رؤية الله "العمل هو سيد التيوتوريا"<sup>٣٣</sup>. وبصورة أكثر تحليلاً "فالعمل الذي يهتم به الجسد هو الصوم والسهر والذي يهتم به الفم هو التسبيح. ولكن الصلاة أفضل من التسبيح، والصمت أكثر قيمة من الكلام. وفي حالة اليدين فإن العمل هو ما تعملانه بدون تذر..."<sup>٣٤</sup>. "والتيوتوريا هي الرؤية الخاصة بالعقل التي هي الإنذهال وفهم كل ما كان وكل ما يكون"<sup>٣٥</sup>.

وبالتأكيد فإنه بحسب تعليم القديس مكسيموس فإن التيوتوريا ليست مستقلة عن العمل "لا يكون العمل آمناً بدون تيوتوريا ولا تكون التيوتوريا حقيقية بدون عمل. لأنه

<sup>32</sup> . The monk A.Rantosavlievists: The Mystery of Salvation according to St. Maximus the Confessor. p. 122. In Gk.

<sup>33</sup> . Gregory the Theologian. Or. 40, 37. NPNFns, vol.7, p. 374, 37

<sup>34</sup> . Ilias the Presbyter. Philok. 3, p. 34, 4

<sup>35</sup> . Isaac the Syrian. Epistle 4. GK. Ed. Spanos, p. 384 (not in ET)

يجب على العقل أن يكون مدرَكًا وعلى التثيوريا أن تكون فعالة...". يؤكد القديس مكسيموس على أنه "في حالة الشخص المتعلم أكثر فإن التثيوريا تسبق العمل على حين أنه في حالة الشخص البسيط يأتي العمل أولاً". على أية حال فإنه في كلتا الحالتين تكون النتيجة حسنة فهما يقودان لنفس النتيجة وهي تطهير وخلّاص الإنسان<sup>36</sup>.

ونحن في الواقع عندما نتحدث عن تطهير النفس، فإننا نعني أساساً تحريرها من الأهواء<sup>37</sup>، أو بالأحرى تطهيرها من الأهواء. وبالإضافة إلى ذلك فإن التطهير هو أيضاً "النمو المطرد" للكيان الإنساني والذي يؤدي إلى إستنارة العقل. فالتطهير، إذًا، ليس سلبياً فقط ولكنه إيجابي أيضاً. وخصائص النفس الطاهرة هي "إدراك خالي من الحسد، وطموح خالي من الخبث، وحب لا يتوقف لرب المجد"<sup>38</sup>. وبمعنى آخر، فإننا لو كنا مندفعين بالحسد، ويحتوي طموحنا على خبث، ومحبتنا لله غير مستمرة فإن هذا يعني أن قلبنا لم يتطهر بعد.

إن العقل هو على صورة الله ومثاله. ولقد دنسنا هذه الصورة بالخطية، ويجب علينا أن نطهرها. ومن أجل ذلك يطلب الأبأ دوروثيوس قائلاً: "فلنجعل صورتنا طاهرة كما تلقيناها"<sup>39</sup>. إننا سوف نعاني من الكدّ والمرارة الغير محتملة حتى نطهر عقولنا "هذا الكلب الذي يحوم شمشماً حول محل الجزارة ويعربد في صخب"<sup>40</sup>. لو جاهد إنسان ما لكي لا يخطئ وحارب الأفكار الشهوانية، فإنه يُهان ويتحطم في المعركة "ولكن آلام الجهاد تطهره قليلاً قليلاً وتعيده ثانية للحالة الطبيعية"<sup>41</sup>.

وبالإضافة إلى جهاد الإنسان، فإن لم يحل الروح القدس، فإن العقل الميت لا يمكن أن يتطهر ويعود للحياة، لأن "الروح القدس وحده هو الذي يستطيع تطهير العقل"<sup>42</sup>.

وعلى أية حال فإن العقل يتطهر بالعمل المشترك للنعمة الإلهية مع الإرادة البشرية وعندئذ يستتير، طالما أنه "حيث يكون التطهير فهناك تكون الإستنارة"<sup>43</sup>. و بعد التطهير لو حافظ الشخص على عقله من نجاسة الخطية، فإن عقله ينير ويستتير. من أجل ذلك فإنه

<sup>36</sup> PG 90, 1433-1437

<sup>37</sup> St. Thalassios. Philok. 2, p. 317, 78

<sup>38</sup> St. Diadochos of Photike. Philok. 1, p. 258, 19

<sup>39</sup> Instructions 16, 171. SC p.466. CS p. 223

<sup>40</sup> Ladder. Step 1. CWS p. 75

<sup>41</sup> Dorotheos. SC p. 412, 144. CS p. 197

<sup>42</sup> Diadochos of Photike. Philok. 1, p. 260, 28

<sup>43</sup> Gregory the Theologian. Or. 39, 8. NPNFns, vol.7, p. 354



من الممكن أن نسمي حفظ العقل "مُسبباً للنور ومسبباً للإستتارة، وملحاً النور وحاملاً النار".<sup>44</sup>

وباختصار نستطيع أن نؤكد أن شفاء الإنسان هو في الحقيقة تطهير العقل، والقلب، والصورة، وإستعادة العقل لجماله الأول الأصلي، وبالإضافة إلى ذلك فهو الشركة مع الله. وعندما يصبح الإنسان هيكلاً للروح القدس، فإننا نقول أن الشفاء قد نجح. والذين شُفُوا يكونون هم قديسو الله.

## ٤- طريقة الشفاء

بعدما رأينا ما هي المسيحية، وما هي طبيعة علم اللاهوت الأرثوذكسي، وما هو العلاج، سوف نرى الآن ما هي طريقة العلاج الشافي، التي هي طريقة الإيمان الأرثوذكسي. لو أننا حددنا المشكلة بدرجة كبيرة، فإنه يجب علينا الآن أن نبذل قصارى جهدنا لكي نضع قائمة بطرق تحقيق طهارة القلب التي هي طرق الشفاء. لأنه لا توجد فائدة كبيرة من سرد الحالات العليا ما لم نغص في إحضارها للوعي وتطبيقها.

## كيف تُشفى النفس إذا ؟

يجب علينا أولاً أن نؤكد على الإيمان الصحيح. إننا نحن الأرثوذكسين نعطي أهمية كبرى للحفظ على الإيمان، لأننا نعلم أنه عندما يُشوّه الإيمان يشوّه الشفاء تلقائياً. ولقد أكدنا من قبل على أنه يجب تفسير علم اللاهوت على أنه طب. وعندما يحاول علم الطب أن يرشد الشخص المريض للصحة بوسائل علاجية مختلفة فإنه يضع الشخص السليم في الإعتبار. إننا نستطيع أن نقول نفس الشيء عن علم اللاهوت. فعلم اللاهوت هو تعليم الكنيسة عن الصحة الروحية، ولكنه أيضاً تعليم عن الطريق الذي يجب علينا نحن المرضى أن نتبعه لكي نشفى. من أجل ذلك نعطي نحن الأرثوذكسين وزناً كبيراً للحفظ على العقيدة بلا مساس، ليس فقط لأننا نخاف من إختلال التعليم ولكن لأنه من الممكن عندئذ أن نفقد إمكانية الشفاء وبالتالي إمكانية الخلاص. بالإضافة إلى ذلك "إن الصراع بين بالاماس وبرلعام لم يكن بدرجة كبيرة حول نوع العقيدة وإنما حول

<sup>44</sup> . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 192, 171

أساسها المنهجي. لقد إستند برلعام على الغيبيات وعلى المنطق التجريدي، على حين أن بالاماس إستند على التحقق والتأكد التجريبيين وعلى نتائجهما الواضحة"<sup>45</sup>.

والآن لكي يستطيع المرء أن يُشفَى يجب عليه أن يشعر أنه مريض. عندما لا يكون المريض واعياً بمرضه فإنه لا يستطيع أن يلجأ للطبيب. فمعرفة الذات هي إحدى الخطوات الأولى نحو الشفاء. يعلم القديس مكسيموس قائلاً: "إن الشخص الذي وصل لمعرفة ضعف الطبيعة البشرية يكون قد اكتسب خبرة عن القوة الإلهية"، وهو يكون مشتاقاً لتحقيق بعض الأشياء، ويكون قد حقق بالفعل بعض الأشياء الأخرى بواسطة هذه القوة الإلهية"<sup>46</sup>. يقول القديس بطرس الدمشقي واصفاً القيمة العظمى التي لصلاة الليل: "تحقق ممارسة الفضائل من خلال التأمل فيما حدث أثناء اليوم"، أي عندما نتأمل في الزلات التي حدثت في صخب اليوم، بحيث أننا نستطيع أن نعي - أثناء سكون الليل - الخطايا التي إرتكبتها ونحزن عليها"<sup>47</sup>. إننا لا نحزن على حالتنا إلا عندما نعرفها.

إنها حقيقة غير قابلة للنقاش أن معظم المسيحيين اليوم هم غير واعين لحالتهم الروحية. إننا "مائنون في الخطايا" ولسنا فقط لا ندرك ذلك ولكننا نشعر أننا مملوءون بمواهب الروح القدس ومرتبتون بالفضائل. وللأسف فإن هذا الإكتفاء الذاتي الذي يصينا يدمر عمل الخلاص. فكيف يمكن للمسيح أن يكلم إنساناً يبرر ذاته؟ إننا نشبه الفريسي الذي كان في أيام السيد المسيح والذي لم يشعر بالحاجة إلى الطبيب. كيف يمكن لنعمة التوبة والحزن العظيمة أن تتجلى في قلب لا يشعر بحزابه، وأن حياته الداخلية غير قادرة على النمو؟

يجب أيضاً أن يصاحب الشعور بالمرض "إدانة الذات"، التي هي عطية تبيكت الذات العظمى. فهي تظهر أنه يوجد تواضع في النفس، لأن "تبيكت الذات يكون ملازماً للإلتضاع باستمرار"<sup>48</sup>. تبيكت الذات هذا هو جِملٌ روحي عندما يوضع على النفس "يسحق ويضغط ويعصر نبيذ الخلاص الذي يبهج قلب الإنسان، الذي هو إنساننا الداخلي. وهذا النبيذ هو تأنيب الضمير". إن تبيكت الذات مع الحزن الذي يميزه يسحق

<sup>45</sup> . J.Romanides: RR vol. 1, p. 18. In Gk.

<sup>46</sup> . Philok.2, p. 72, 39

<sup>47</sup> . Philok.3, p. 261

<sup>48</sup> . St. Gregory Palamas. To Xenī. Gk. Philok. 4, p. 108, line 27

أيضاً الأهواء ويملاً القلب بفرح طوباني شديد<sup>49</sup>. "يجب علينا باستمرار أن ندين وننقد ذواتنا، حتى بالإماتات التي نختارها بإرادتنا نحمي ذواتنا من الخطية الغير مقصودة"<sup>50</sup>.

ولكن الإحساس بالمرض ليس كافياً في ذاته. فعلى كل الأحوال يحتاج الأمر لمعالج أيضاً وهذا المعالج هو الكاهن أي الأب الروحي. إنه لابد أن يُشفى هو أولاً من أمراضه الخاصة، أو على الأقل يكون مجاهداً لكي يُشفى ثم يشفي هو أيضاً أولاده الروحيين. لقد قلنا من قبل أنه يجب على الأب الروحي أن يكون لاهوتياً والعكس صحيح. ينطبق إذاً على هذه الحالة القول: "أيها الطبيب إشف نفسك" (لوق: ٢٣). إن الذي اجتاز حروب الشيطان، يستطيع أن يرشد أولاده الروحيين بأمان. والذي وصل لمعرفة الكنز العظيم المسمى الصحة الروحية، يستطيع أن يساعد الآخرين لكي يُشفوا هم أيضاً. إن كان هناك أي أحد قد وجد عقله، فإنه يستطيع أن يساعد الآخرين لكي يجدوه هم أيضاً. "إن العقل الذي يشبه الطبيب بحق هو الذي يستطيع أن يشفي نفسه أولاً ثم يشفي الآخرين من الأمراض التي شفي هو منها"<sup>51</sup>.

ينظر العديد من المسيحيين المعاصرين للكهنة على أنهم سفراء الله وعلى أنهم موظفو الكنيسة الذين يساعدون في المسائل الإدارية المتعددة، والذين يؤدون الأسرار المختلفة عند الحاجة أو يقيمون القداس الإلهي، ويستطيعون بهذه الطريقة أن يُشبعوا حاجة نفوسهم، أو أن يؤدوا واجباً تقليدياً. إنهم يعتبرونهم وكأنهم سحرة يصنعون سحراً! إننا علي أي حال نعلم أن نعمة الله لا تنتقل بطريقة سحرية أو ميكانيكية ولكن بطريقة سرائية. صحيح أنه حتى الكاهن العديم الإستحقاق يستطيع أن يؤدي الأسرار ولكنه لا يستطيع أن يشفي. إذ أن غفران الخطايا شيء، ولكن الشفاء شيء آخر. يكتفي أغلب المسيحيين بالإعتراف الشكلي أو الحضور الشكلي للقداس أو حتى بتناول شكلي ولا شيء غير ذلك، لذلك لا يتقدمون نحو شفاء نفوسهم. ولكن الكهنة أو الآباء الروحيين لا يقيمون فقط سر الشركة، ولكنهم يشفون الناس، فهم يقتنون معرفة سليمة عن طريقة الشفاء من الأهواء، ويعرفونها لأولادهم الروحيين. إنهم يُرونها كيف يستطيعون أن يتحرروا من الأسر، وكيف يتحرر عقلهم من العبودية.

<sup>49</sup> . Ibid. p.109, lines 10-14

<sup>50</sup> . Ladder, Step 25, CWS p. 226

<sup>51</sup> . Thalassios. Philok. 2, p. 328,44

وهنا تكمن رؤية الآباء القديسين للأبوة الروحية. فالكاهن هو أيضاً طبيب. "الطبيب هو ذاك الذي يكون جسده ونفسه سليمين وفي غير حاجة لضمادات عليهما"<sup>52</sup>. وقول القديس يوحنا الدرجي عما يجب على الكاهن أن يفعله لكي يمنح الشفاء متميز جداً:

✠ "أيها الإنسان الرائع، تعال وخذ ضمادات، وجرعات دواء، ومشارط، ومراهم للعينين وأسفنجة، وأدوات لنزيف الدماء وللکي ومراهم ووصفات للنوم، وسكين ورباطات وأشياء مضادة للغثيان ومضادة للإشتمزاز عند رؤية تنانة الجروح. إن لم نستعمل هذه الأشياء كيف نستطيع أن نمارس علمنا؟ لا يوجد حل آخر لأن الأطباء يتقاضون أجراً لا على أقوال بل على أفعال.

"الضمادة هي شفاء للأهواء الخارجية التي هي أهواء الجسد. وجرعة الدواء هي شفاء للأهواء الداخلية ولكي تصرف خارجاً النجاسة الغير مرئية. أما المشروط فهو الإلتضاع الذي يوجع، ولكنه ينقي فساد الإعجاب بالذات. ومرهم العينين هو لأجل تطهير عين النفس التي تعكرت بالغضب. والمرهم عبارة عن تأديب كاو يجلب الشفاء بسرعة. أما نزيف الدماء فهو صرف التنانة الغير مرئية. ومرة أخرى فإن أداة نزيف الدماء هي علاج مكثف وقصير لخلاص المريض. والأسفنجة يستخدم بعد نزيف الدماء لكي يشفي المريض ويُنعشه بكلمات الطبيب اللطيفة والودیعة والحنانية. والکي هو قانون وتأديب يُعطى، يجب، للخطيء لمدة محددة من الزمان من أجل توبته. والمرهم هو المرطب الذي يُقدّم للمريض مع بضعة كلمات أو بعض التعزية الصغيرة بعد الكي.

"وصفة النوم هي أننا نحمل حمل الشخص، ومن خلال الطاعة نعطيه راحة ونوماً يقطاً وعمى مقدساً من جهة فضائله الخاصة. والرباطات هي لتدعيم وتقوية أولئك الذين ضعفوا ووهنوا بالجد الباطل. والأداة الأخيرة هي السكين، والتي هي حكم وقرار ببتز عضو متعفن وجسد ميت بالنفس خوفاً من أن ينقل العدوى للآخرين".

"مبارك ومستحق التمجيد عدم الإشتمزاز الذي للأطباء، وللأهوى الذي بين الرعة. فالأطباء إذ لا يعانون من الغثيان، يجاهدون بلا تعب لكي يولدوا التنانة، والرعة سوف يكونون قادرين على أن يعيدوا كل نفس مائتة للحياة"<sup>53</sup>.

<sup>52</sup> . St. John of the Ladder. To the Shepherd. Moore 1979, p. 232f

<sup>53</sup> . Ibid.

يكتب الأب يوحنا رومانيدس قائلاً: "إن التكرار الناجح لخبرة التثبيت، التي هي **الشفاء**، في علم الطب وعلم الآباء، هو حقيقة كل علم. وكما أنه أمر غير معقول أن نقول **أن** شخصاً ما لم يُشْفَ ولا يعرف كيف يعالج، نقول عنه أنه طبيب، هكذا يكون أمراً عديم **للغنى** أن نعتبره لاهوتياً من هو ليس في حالة إستنارة، على الأقل، ولا يعلم كيف يمكن **تحقيق** هذه الأشياء وبالتالي لا يستطيع أن يعالج".<sup>54</sup>

يكتب أيضاً الأب يوحنا قائلاً: "من المفترض قبل كل شيء أن يكون المعالجون الذين **يوشدون** المريض في هذه المراحل من العلاج هم الأساقفة والكهنة على أن يكون **الأساقفة** عادة من الرهبان. وعلى أية حال فالיום بعد قرن ونصف من كارثة الهجوم على **الرهبان** السكونيين (أى الرهبان الملتزمين حياة الهدوء والسكون داخل أديرتهم)، فإن **أجل** هؤلاء الإكليروس صاروا قلة إذ لم يُعد يوجد إلا القليل من الرهبان السكونيين، كما **أن** الكهنوت الذي وصفه ديونيسيوس الأريوباغي قد اختفى".<sup>55</sup>

الكاهن المعالج يصف أيضاً لأولاده الروحيين طريقاً أرثوذكسياً والذي هو طريق **التكريس** الأرثوذكسي. من أجل ذلك نريد فيما يلي أن نعود لتلك النقطة لكي نصف **الطريقة** التي على الشخص المريض أن يتبعها تحت إرشاد أبيه الروحي بهدف الحصول **على** الشفاء الروحي.

إننا نريد أن نشير إلى النسك على الأخص: "إن غضب النفس على ممارسة ضبط **النفس** والحب والسكون تبعد الأهواء المختفية في داخلنا".<sup>56</sup> يصف القديس نيسيتاس ستيثاتوس Nicetas Stethatos تلميذ القديس سمعان اللاهوتي الجديد هذه الممارسة **النسكية**، قائلاً أن الإنسان عنده خمس حواس، وبالتالي فإن الممارسات النسكية هي خمسة: **الأسهار، والدراسة، والصلاة، وضبط النفس، والسكون.** ويجب على الناسك أن يدمج **الحواس** الخمسة بهذه الممارسات الخمسة: النظر مع الأسهار، والسمع مع الدراسة، والشم مع الصلاة، والتذوق مع ضبط النفس، واللمس مع السكون. وعندما ينجح في هذا الدمج **"فهو يطهر عقل نفسه بسرعة، ويجعله بهذا التهذيب يصير بلا هوى ومنفتح البصيرة"**.<sup>57</sup>

<sup>54</sup> . J. Romanides: RR vol. 1, p. 18f In Gk.

<sup>55</sup> . Ibid. p. 27

<sup>56</sup> . Thalassios. Philok. 2, p. 319, 8

<sup>57</sup> . Practical chapters, Ch. 91

إننا نستطيع أن نقول باختصار أن ممارسة النسك هي تطبيق ناموس الله، وحفظ وصاياه. والجهاد الذي نمارسه لكي نُخضع إرادة الإنسان لإرادة الله، ولكي يتغير بواسطة ذلك، هذا يسمى نسكاً. إننا نعلم جيداً من تعاليم آبائنا القديسين أن كل الإنجيل يتكون من "تعاليم الخلاص". والموجود في الكتاب المقدس هو وصية الله، التي يجب على الذين يطلبون خلاصهم أن يحفظوها. وهذا الأمر واضح في التطويبات (مت ٥: ١-١٢).

"طوبى للمساكين بالروح" هي وصية المسيح التي تعني أنه يجب علينا أن نتطلع إلى فقرنا الروحي. أي أنه يجب علينا أن نختبر بؤسنا. "طوبى للحرزاني الآن" هي وصية الرب أن نبكي على الأهواء الموجودة داخلنا وعلى خرابنا. "طوبى للجوع والعطاش إلى البر" هي وصية الرب أن نجوع ونعطش إلى الاتحاد بالله. "طوبى لأنقياء القلب" هي وصية الرب لنظهر قلوبنا. وعندما يقول "طوبى" فكأنه يقول: "لنكن فقيراً وحزيناً وعطشاً للبر..." وما إلى ذلك.

إذاً وصية المسيح هي الصلاة الدائمة، وحضور القداس الإلهي واليقظة التي هي إنتباه العقل وطهارة القلب وما إلى ذلك. "الناموس مقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة" (رو٧: ١٢). يعلن القديس يوحنا الإنجيلي تلميذ الحب للمسيحيين: "وبهذا نعرف أننا قد عرفناه، إن حفظنا وصاياه. من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه فهو كاذب وليس الحق فيه. وأما من حفظ كلمته، فحقاً في هذا قد تكملت محبة الله. بهذا نعرف أننا فيه" (١ يوه ٣: ١).

"إن الغرض من رتب الكهنوت هو أن تجعلنا مشابهين لله بقدر الإمكان وأن نتحد به. ولكن الكتاب المقدس يعلمنا أننا سوف نحصل على ذلك، فقط من خلال حفظ وصاياه المملوءة حباً وتأدية الخدمات الإلهية" (كقول للقديس ديونيسيوس الأريوباغي)<sup>٥٨</sup>. ويعلم القديس غريغوريوس بالاماس أن معرفة الأشياء المخلوقة تأتي من أعمال الفضيلة. وعندما سئل عن الهدف من أعمال الفضيلة كتب قائلاً: "هو الاتحاد بالله والصيورة على شبهه"<sup>٥٩</sup>. إن فعل الفضائل يرتبط بحفظ الوصايا. وبالإضافة إلى ذلك يشير هذا القديس المحب للسكون إلى أن محبة الله "تأتي فقط من خلال الأداء المقدس للوصايا الإلهية"<sup>٦٠</sup>.

إنني أود أن أذكر فيما يلي بعض أقوال الآباء عن قيمة وصايا الله:

<sup>58</sup> . Ecclesiastical Hierarchies, ch.2. CWS p. 200

<sup>59</sup> . Gregory Palamas. Triads. 2, 3, 74

<sup>60</sup> . Ibid. 2, 3, 77

"إن الغرض الكامل من وصايا المخلص هو تحرير العقل من التشبث والكرامية"<sup>٦١</sup>.  
 "تفوق وصايا الله كل كنوز العالم، والذي اقتناها داخلياً يجد الرب فيها"<sup>٦٢</sup>.  
 "يولد اللاهوت من حفظ وصايا الله، ولاهوت النفس يحفظ المعرفة الروحية"<sup>٦٣</sup>.  
 طاعة وصية الله هي "القيامة من الموت"<sup>٦٤</sup>.

يصف القديس غريغوريوس السينائي الطريقتين الرئيسيتين لعمل الروح القدس اللتين نتلقاهما بطريقة سرية في المعمودية المقدسة، ويرى أن حفظ الوصايا هو إحداهما. "كلما حفظنا الوصايا كلما ألقى الروح القدس نوره الساطع علينا بأكثر وضوح"<sup>٦٥</sup>. تظهر كل هذه الأشياء أهمية الحياة النسكية للشفاء ولتجديد النفس. وكما قلنا من قبل أن هذه الحياة النسكية هي بصورة أساسية حفظ وصايا المسيح المخلص.

والوصايا الرئيسية التي تؤدي لشفائنا الروحي هي كما نقول في التسبحة التي نرغمها في الكنيسة: "الصوم والسهر والصلاة".

إذا كان إعطاء الصدقات يشفي قوة النفس الحسية، والصلاة تطهر العقل، فالصوم يمت الرغبة الشهوانية<sup>٦٦</sup>؛ وبهذا فإن كل النفس تُقدَّم لله وهي صحيحة. والصوم أيضاً يجعل الجسد يتضع "الحرمان من الطعام يذل جسد الراهب"<sup>٦٧</sup>. ومع ذلك فالصوم المفرط ليس فقط يتسبب في إضعاف الجسد ولكنه "يجعل قدرة النفس التأملية تضعف وتكره التركيز"<sup>٦٨</sup>.

يتكلم القديس يوحنا الدرجي عن الصوم قائلاً: "الصوم هو غصَب الطبيعة. إنه إمتنع أي شيء يرضي الحلق. الصوم ينهي الشهوات، ويبحث الأفكار الشريرة، ويحرر للرب من الأحلام الشريرة. الصوم يعمل على طهارة الصلاة، من خلال نفس خفيفة و نحن يقظ، وتحرر من العمى. الصوم هو باب الندم، والتعهد المتواضع، والإنسحاق المبهج، وهو نهاية الثرثرة، وفرصة للسكون، وحارس للطاعة، وإضعاف للنوم، وصحة للجسد، ووسيلة لللاهوت، وغفران للخطايا، و بوابة بل وبهجة الفردوس"<sup>٦٩</sup>.

<sup>61</sup> . Maximus. Philok.2, p. 107,56

<sup>62</sup> . Isaac the Syrian. Ascetical Homilies. P. 42

<sup>63</sup> . Thalassios. Philok.2, p. 314, 25

<sup>64</sup> . Ibid. p. 328, 48

<sup>65</sup> . Gk. Philok.4, p. 67, 3

<sup>66</sup> . Maximus. Philok.2, p.61,79

<sup>67</sup> . Sayings of the Desert Fathers, p. 68, 2

<sup>68</sup> . Diadochos of Photike. Philok. 1, p. 266, 45

<sup>69</sup> . Ladder. Step 14. CWS p. 169

كل هذه الأشياء التي ذكرها تُظهر هدف الصوم، من جهة، ومن جهة أخرى تدل على الثمار التي يجلبها للنفس المجاهدة. وهذا هو السبب الذي جعل كل القديسين يحبون الصوم. ومن المهم جداً أن نذكر أنه عندما يبدأ شخص ما في التوبة، فإنه يبدأ أيضاً في الصوم من تلقاء ذاته، وهذا يُظهر أن الصوم يتمشى مع الصلاة والتوبة.

✠ إننا نؤكد على أن الصوم هو وسيلة وليس غاية فهو "أداة لتدريب أولئك الذين يريدون ضبط النفس"<sup>70</sup>، ولكن بدونه يكون أمراً مستحيلاً تقريباً أن نهزم الأهواء ونحصل على اللاهوى. والقديس يوحنا الدرجي واضح من جهة هذا الأمر. وكما تحرر العبرانيون من فرعون وعملوا الفصح بعد أن أكلوا أعشاباً مرة وفطيراً، هكذا نحن أيضاً سوف نتحرر من الفرعون الداخلي من خلال الصوم والإتضاع: "يجب عليك ألا تتخدد نفسك. إنك لن تهرب من فرعون ولن ترى الفصح السماوي ما لم تأكل أعشاباً مرة وفطيراً باستمرار، إنها الأعشاب المرة التي للجهاد والصوم القاسي، والفطير الذي لذهن متضع"<sup>71</sup>.

إنه أمر ضروري إذاً أن نحافظ على الأصوام التي وضعتها الكنيسة، ونجاهد لكيلا نعطي إشباعاً كاملاً لمطالب الجسد.

وبخلاف الصوم توجد طريقة أخرى للشفاء وهي السهر. فمن خلال السهر، يتطهر الشخص ويُشقى وهذه هي أيضاً طريقة نسكية للعلاج. لقد علمنا السيد المسيح كيف نصلي ليلاً. لقد أمضى هو نفسه كل الليل في الصلاة على الجبل "وبعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي. ولما صار المساء كان هناك وحده" (مت ٢٣: ١٤).

لقد اختبر الآباء القديسون في حياتهم فائدة السهر. ويقول القديس إسحق في كتاباته النسكية: "إن الراهب الذي يثبت في السهر بعقل فطين يبدو وكأنه غير لابس الجسد لأن هذا هو في الحقيقة عمل رتبة الملائكة". إن النفس التي تعمل وتتفوق في ممارسة السهر "سوف تقتني أعين الشاروبيم أي أنها تستطيع في كل حين أن تتطلع إلى وترى رؤى سماوية"<sup>72</sup>.

يقدم القديس يوحنا الدرجي بكل دقة الميزة نموذج الراهب اليقظ وفوائد السهر قائلاً: "اليقظة تبقي على الذهن نقياً على حين يوثق النعاس النفس. إن الراهب اليقظ يجارب الزنا، على حين أن النعسان يعيش معه. اليقظة هي إطفاء الشهوة، والخلاص من

<sup>70</sup> . Diadochos. Philok. 1, p. 267,47  
<sup>71</sup> . Ladder. Step 14. CWS p. 169  
<sup>72</sup> . Isaac the Syrian. Ascetical Homilies, p. 101



الخيالات، وهو العين الباكية والقلب الوديع اللطيف، والأفكار المكبوحه، والطعام المهضوم، والأهواء المروضة والأرواح الخاضعة، واللسان المنضبط، وخيالات الكسل المعلقة. إن الراهب السهران هو صياد للأفكار، وفي هدوء الليل يستطيع أن يلاحظها ويتحكم بها"<sup>٧٣</sup>.

والصلاة أيضاً تمضي جنباً إلى جنب مع السهر. وهي الطريقة المتميزة في شفاء أمراض النفس. لأن نعمة كبيرة تأتي لنفس الإنسان من خلال الصلاة. ولكننا سوف نتعرض لموضوع الصلاة العقلية والطريقة التي نستعملها لكي نحرر العقل ونرى الله، وذلك عندما تأتي للباب الذي عنوانه "السكون كطريقة للعلاج". وذلك لأننا نرى أنها أهم وسيلة لخلاص الإنسان.

توجد أيضاً طرق علاجية أخرى لشفاء كل نوع من أهواء النفس. ولكننا سوف نتعرض لها على مدى باب كامل عنوانه "علم الأمراض الأرثوذكسي".

ربما يظن القارئ أن كل هذه الطرق العلاجية التي هي مراهم لعين القلب (راجع رؤ: ٣: ١٨) لا يمارسها إلا الرهبان. وهذا ليس صحيحاً بالتأكيد. فكل شخص حتى نحن الذين نعيش في العالم، يستطيع أن يعيش بوصايا المسيح. ووصايا المسيح هي الصلاة والتوبة والحزن والإنسحاق والصوم والسهر وما إلى ذلك. وهذا يعني أن كل شخص يستطيع أن يحيا بها. لم يقل المسيح أشياء مستحيلة على الإنسان. يؤكد القديس غريغوريوس بالاماس متكلاً عن نقاوة القلب قائلاً: "من الممكن حتى للمتزوجين أن يتبعوا هذه النقاوة ولكن بصعوبة كبيرة"<sup>٧٤</sup>. يستطيع كل واحد أن يحيا حياة بحسب الإنجيل بأن يتكيف بالطريقة الملائمة.

وبالإضافة إلى ذلك فإنه لو وُجد أسقف وقديس إلهي، فهذا يعني أن الخلاص ممكن. لماذا توجد الكنيسة وتعمل؟ يوجد أيضاً تطبيق لوصايا المسيح مناسب لكل إنسان. توجد العديد من هذه القصص في الأدب الآبائي. إن الآباء الذين شُفوا إكتسبوا نعمة التمييز وينصحون كل إنسان لكي يجد طريقه الذي هو أساساً طريق التقليد الأرثوذكسي.

يتكلم القديس يوحنا الدرجي بصورة مميزة في هذه النقطة. فهو يحكي أنه رأى طبيباً أحقاً قاد مريضاً منكسراً ومتواضع الروح لليأس. وفي نفس الوقت رأى طبيباً روحياً "فهيماً" أجرى عملية روحية "لقلب متكبر" بسكين الإهانة وخلصه بالتالي من كل

<sup>73</sup> . Ladder. Step 20. CWS p. 196

<sup>74</sup> . To Xenii. GK. Philok.4, p. 20-22

رائحة شريفة. وهو يقول أيضاً أنه رأى نفس المريض يعالج نجاسته في بعض الأحيان بدواء الطاعة وفي أحيان أخرى يشفي "عين نفسه المريضة" بالسكون والصمت<sup>٧٥</sup>. ويبدو هنا بوضوح أن نفس الرجل المريض إحتاج للطاعة في وقت ما وللسكون والصمت في وقت آخر. يجب إذاً أن تُعطى الأدوية المناسبة في الوقت المناسب.

١٠. ويقول القديس أيضاً كآب إعراف مفرز: "إن دواء شخص ما قد يكون سُمّاً لشخص آخر". وبالإضافة إلى ذلك فإن نفس الدواء بالنسبة لنفس الشخص قد يكون في وقت ما علاجاً وقد يكون في وقت آخر سُمّاً فهو عندما يُعطى في وقت مناسب يؤدي وظيفة العلاج، ولكنه عندما يُعطى في وقت خاطئ يكون سُمّاً<sup>٧٦</sup>.

وهكذا فإننا نؤكد مرة أخرى على أن مُعالجاً أرثوذكسياً مفرزاً (أب إعراف طبيب) هو أساسي لتوليف الدواء وإعطاء الإرشاد العلاجي المناسب.

أود فيما يلي أن أستشهد ببعض أقوال آباء البرية التي تظهر بوضوح أنه يوجد تنوع في الممارسة النسكية وإمكانية كبيرة للتوفيق.

١١. سأل شخص ما القديس أنطونيوس: "ماذا يجب على المرء أن يفعل لكي يرضي الله؟" فاجاب: "ضع الله أمام عينيك أينما تذهب، ولتكن الأسفار المقدسة شاهدة عليك في كل ما تقول وتفعل، وأينما تكون لا تترك المكان بسرعة. إحفظ هذه الثلاثة وسوف تخلص"<sup>٧٧</sup>.

١٢. سأل أخ آخر الأنبا نيسطريون: "ما هو العمل الحسن الذي أستطيع أن أعمله؟" فاجاب: "أليست كل الأعمال متساوية؟ يقول الكتاب المقدس إن أبرام أضاف الغرباء وكان الله معه؛ وداود كان متواضعاً وكان الله معه؛ وأحب إيليا السلام الداخلي وكان الله معه؛ إفعل إذاً أي شيء تريده نفسك بحسب الله وإحفظ قلبك"<sup>٧٨</sup>.

ويقول يوسف الطيبي: "ثلاثة أعمال مكرمة في عيني الله: الأول عندما يكون شخص ما مريضاً وتقع عليه تجارب ويستقبلها بشكر، والثاني عندما يعمل شخص ما كل عمله في حضرة الله دون أن يعمل حساباً لأي شيء بشري، والثالث هو عندما يبقى المرء خاضعاً لأب روعي في تخلٍ كامل عن إرادته الخاصة. وفي الواقع سيحصل هذا الأخير على إكليل سام". ثم إسترسل قائلاً: "وأما بالنسبة لي أنا فقد إخترتُ المرض"<sup>٧٩</sup>.

<sup>75</sup> . Ladder. Step 27. CWS p. 233

<sup>76</sup> . Ibid.

<sup>77</sup> . Sayings of the Desert Fathers p. 2,3

<sup>78</sup> . Ibid. p. 130,2

<sup>79</sup> . Ibid. p. 94, 1

ويقول الأنبا بيمن بالمثل: "لو وجد ثلاثة رجال في نفس المكان وحافظ أحدهم على السلام الداخلي، وشكر الثاني الله في المرض، وخدم الثالث بذهن نقي فإن أولئك الثلاثة يفعلون نفس الشيء".<sup>80</sup>

توضح كل هذه الأمثلة أن جهاد الإنسان مشترك، ولكن طرق الجهاد متنوعة. يجب على الجميع أن يحفظوا كلمة الله أي وصايا الله وأن يحافظوا على نقاوة قلوبهم في أي شيء يعملونه. توجد بالإضافة إلى ذلك تطبيقات متنوعة يستطيع الأب الروحي أن يعملها.

قد ينظر إلينا على أننا تسبينا في خلل بعدم وضع التناول المقدس في قائمة العلاجات الشافية. ولكن يجب علينا أن نؤكد ونشدد على حقيقة أننا ننظر للإفخارستيا التي هي التناول من جسد ودم المسيح على أنها أمر لا غنى عنه بالنسبة للإنسان. لقد أكد الرب قائلاً: "إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم" (يو: ٦: ٥٣). ولكن من المعروف جيداً أن التناول المقدس يسبقه التطهير والاستعداد ولو لم يأتي العلاج الذي نتكلم عنه هنا أولاً فإن تناول جسد ودم المسيح يكون "مستوجباً الحكم والدينونة".

لا يمكن أن نفهم طبيعة الكنيسة Ecclesiology وعلم الأخريات Eschatology بدون تدريب علاجي. نحن لا نقبل إذاً من قيمة التناول المقدس ولكننا إذ نؤكد على قيمة الممارسة النسكية والعلاج فإننا نرفع من شأن عطية الإفخارستيا العظيمة. ومن ناحية أخرى، فإن الهدف مما كتبته هو في الأساس أن نوضح الطريق المحد الذي ينتهي عند المذبح بحيث يصبح التناول المقدس نوراً وحياة.

إنني أتمنى أن تكون هذه الكلمات القليلة قد أظهرت بوضوح أن المسيحية هي علم علاجي، فهي تشفي الإنسان المريض. وهذا المرض يظهر واضحاً في العقل. والكنيسة تحرر العقل بتعليمها والعبادة والنسك والأسرار، وتجعله هيكلاً للروح القدس. ولقد طبق كل القديسين هذه الطريقة العلاجية وأكدوا عليها، إذ أنها الطريق الوحيد الذي يقود الله. إنني أعتقد أن فقدان التقليد يتضح بصورة رئيسية في فقدان الطريقة العلاجية وفقدان المعالين الحقيقيين. وطريق العودة للتقليد الأرثوذكسي هو بصورة رئيسية طريق العودة لهذين الأساسين.



الباب الثاني

المعالجة الأرثوذكسية



أتمنى أن نكون قد رسخنا إلى حدٍ ما حقيقة أن المسيحية هي بصورة رئيسية علم علاجي إذ أنها تطلب الشفاء الروحي للإنسان. وكما أن الممارسة الصحيحة للضب تتطلب طبيباً ماهراً، أي طبيباً متخصصاً، هكذا أيضاً يكون الحال مع الشفاء الروحي إذ يجب أن يكون هناك طبيب ماهر الذي هو الأسقف والكاهن.

وكما أشرنا من قبل فإن الناس يشعرون اليوم أن وظيفة الكاهن هي تمكينهم من المشاركة في الأسرار المقدسة. فهم يشعرون أنه دُعي من الله كخادم له بحيث يستطيعون أن يعترفوا بخطاياهم ويحصلوا على الحرية الروحية. إنهم يشعرون أنه وكيل الله المدعو للصلاة له حتى تتبارك أعمالهم وما شابه ذلك. وبالتأكيد لا يستطيع أحد أن ينكر أن الكاهن سوف يفعل هذا العمل أيضاً ولكن يبدو أن الناس عادة ما ينظرون للكاهن كما لو كان ساحراً ( لو جاز لي هذا التعبير). لأننا عندما ننظر لحياة العبادة مفصولة عن الشفاء والعلاج فإنها تكون أكثر ميلاً لأن تكون ضرباً من ضروب السحر!

على أية حال فإننا لكي نوضح الأمور نكرر أيضاً أن الكاهن هو طبيب روحاني يحق يشفي أمراض الناس. ويجب أن نضع العبادة والأسرار داخل طريقة الشفاء والعلاج.

والكاهن حتى في كونه أب إعتارف فهو مُعالج بدرجة رئيسية. فسر الإعتارف ليس مجرد حل شكلي، وخصوصاً كما في الأسلوب الغربي من الإعتارف، كما لو كان الله غاضباً ويطلب تكفيراً! إنه أكثر من ذلك. فسرُّ الأعتارف، جزء من العملية العلاجية. يوجد العديد من المسيحيين الذين يمارسون سر الإعتارف على مدى سنوات عديدة ومع ذلك لم يُشفوا من أمراضهم الروحية. وما يساهم في ذلك هو جهل الناس وعدم معرفة الرعة.

إن مهمة الأسقف أو الكاهن أو أب الإعتارف هي أن يقود الناس للخروج من مصر إلى أرض الموعد مثل موسى. هذا الإرشاد وهذه القيادة يحتاجان إلى كد وعمل وحرمان وضيق. فهو بصورة رئيسية إشراف علاجي. يصر الآباء على هذه الحقيقة بشدة. فلنأخذ مثلاً القديس يوحنا الدرجي/ الذي ينصح أن "من يريد أن يخرج من مصر ومن فرعون يحتاج لوساطة مع الله لكي يقف بين العمل والتبؤوريا ولكي ييسط ذراعيه لله، حتى أن أولئك الذين يقودهم يستطيعون عبور بحر الخطايا ويحاربون عماليق الأهواء". ويسترسل القديس قائلاً أن أولئك الذين يعتمدون على قوتهم الذاتية ويدعون أنهم لا يحتاجون لإرشاد، إنما يخدعون أنفسهم<sup>1</sup>.

<sup>1</sup>. Ladder. Step 1. CWS p. 75

إننا نعلم من قصة العهد القديم ما تكلمه موسى وكيف قاد هذا الشعب الصلب الرقبة.

موسى الروحي هذا هو طبيب. بالإضافة إلى أننا نحن جميعاً مرضى نحتاج للعلاج والطبيب.

يوضح القديس سمعان اللاهوتي الجديد هذه الحقيقة عند كلامه مع الرهبان. وكما نعلم من التقليد الأرثوذكسي فإن الأديرة هي مستشفيات حقيقية. ومن الأفضل أيضاً أن نقول أنها مدارس طبية. ونحن باعتبارنا مرضى لابد أن نُشفَى أولاً وبعد ذلك نتعلم كيف نعالج. وهذا هو السبب الذي جعل الكنيسة الأولى تختار الكهنة من الأديرة التي هي مدارس طبية لتجعلهم في وظيفة الناظر من أعلى التي يحملها الأسقف.

وهكذا في حديث القديس سمعان للرهبان لم يتردد في أن يقول أننا جميعاً فقراء ومحتاجون. ثم بعد ذلك يعلن كيف أننا جميعاً الموجودين في القلاوي مصابون ومتأثرون بأمراض مختلفة. وبالتالي لا نستطيع أن نفعل أي شيء بل أن نصرخ ليلاً ونهاراً لطبيب النفوس والأجساد لكي يشفي قلوبنا المجروحة ويهبنا الصحة الروحية. يكتب القديس قائلاً: "وهذا ليس كل شيء؛ فبخلاف كوننا فقراء وعرايا فنحن مع الأسف مجروحون ومصابون بأمراض متنوعة أو نتحرك بصعوبة في قلايينا أو أديرتنا كما لو كنا في العديد من مستشفيات وبيوت العجائز. إننا نبكي ونئن ونتحب وندعو الله الذي هو طبيب النفوس والأجساد حتى يأتي ويشفي قلوبنا المجروحة ويعطي الصحة لنفوسنا التي ترقد في فراش الخطية والموت. ونحن نفعل ذلك بقدر ما نكون واعين لآلام جروحنا وأمراضنا لأنه يوجد أناس لا يعرفون حتى أنهم مصابون بمرض أو علة. وكما يقول الرسول القديس أن الجميع أخطأوا وأعوزهم رحمة ونعمة الله".<sup>2</sup>

لقد إستشهدنا بهذا النص بكامله لأن رسالة الأديرة والكنيسة، بالإضافة إلى عمل الرعاة، قد ظهرت بوضوح في هذا النص. هذه الرسالة هي بصورة رئيسية مهمة علاجية. فنحن مرضى في فراش الخطية والموت. وكلُّ من لا يشعر بهذه الحقيقة فهو "مختل". لذلك، فالمسيحيون الذين لا يكتفون في الكنيسة بهدف الشفاء أو الذين يشعرون بأنهم على ما يرام هم "مختلون".

ويرى القديس سمعان اللاهوتي الجديد أن القس هو طبيب، فالمرء يأتي "للطبيب الروحاني وقد أتلغه الهوى وذهنه شارد بالكلية..."<sup>3</sup>. "والطبيب الماهر الذي هو إنساني

<sup>2</sup>. SC 129, 174

<sup>3</sup>. SC 129, 140



ورؤوف، يفهم ضعف أخيه، والإلتهاب الناتج عن المرض والورم، ويرى الشخص المريض تحت قبضة الموت بكليته". ثم يصف القديس الطريقة التي يتعامل بها الطبيب الروحي الماهر مع المرض وكيف يعالجه<sup>4</sup>.

لقد أشرنا من قبل لصوريتين رئيسيتين تميزان عمل الراعي: الأولى أنه موسى الذي يقود أولاده الروحيين، والثانية أنه كلاً من عالم وطبيب متعاطف بأن واحد. تحتوي إحدى قصائد القديس سمعان على كل هذه الصفات حيث يصف علاجه هو ذاته بواسطة أبيه الروحي أي موسى "الشخصي" الخاص به. وهو يُطبّق على حياته رحلة شعب بني إسرائيل وقيادة موسى ويكتب قائلاً:

" لقد جاء ووجدني عبداً وغريباً

وقال: تعالى يا إبنِي سوف آخذك لله!"

ثم سأل موسى الخاص به لكي يطمئنه أنه يستطيع أن يفعل هذا الشيء:

" لقد قربني منه وعانقني بشلة

ثم قبّلني بقبلة مقدسة

وكان عطر عدم الموت يفوح منه

لقد آمنت وأحببت أن أذهب معه

واشتقت أن أخدمه وحده...

وأخذني بيدي ومشى قدامي

وهكذا بدأ يعبر بي الطريق".

وبعد رحلة طويلة نجح القديس سمعان في مواجهة الأهواء والتحرر منها من خلال تدخل أبيه الروحي وإستعطفه قائلاً:

" تعالى يا سيدي فلن أبتعد عنك

لن أعصّ أوأمرك بل سأحفظها جميعاً"<sup>5</sup>.

وعلى أية حال فلنكني يصبح شخص ما معالجاً أرثوذكسياً ويشفي الأمراض الروحية **لأولاده** الروحيين، يجب عليه هو نفسه أن يُشْفَى أولاً بقدر الإمكان، ويجب عليه أن يقف

<sup>4</sup> . SC 129, 140-142

<sup>5</sup> . SC 174, 86-92. Hymn 18. pp. 82 and 84

"في الوسط بين العمل وال تيئوريا". فكيف يستطيع شخص ما أن يعطي شفلة دون أن يُشفي هو أولاً أو دون أن يتذوق بداية الشفلة؟ وهكذا يتهم القديس سمعان أولئك الذين ينظرون لذواتهم على أنهم مرشدون وروحون قبل أن يمتثلوا بالروح القدس، فيندفعون في تلقى إعرافات الآخرين، ويتجراؤون على إدارة أديرة أو يشغلون وظائف قيادية أخرى "دافعين أنفسهم للأمام بطريقة مخجلة بواسطة الآلاف من المكائد لكي يصيروا مطارنة وأساقفة ليقودوا شعب الله... "قبل أن يروا العريس" في حجرة العرس "وقبل أن يصيروا "أبناء النور وأبناء النهار".<sup>6</sup>

كل هذه الأمور أوضحها القديس غريغوريوس اللاهوتي بطريقة منقطعة النظير قائلاً: "من الضروري أن يتطهر المرء أولاً ثم بعد ذلك يُطهر؛ أن يصبح حكيماً ثم يجعل الآخرين حكماء؛ أن يصير نوراً ثم ينير؛ أن يقترب من الله ثم يجلب الآخرين إليه؛ أن يتقدس ثم يُقدس...".<sup>7</sup>

كتب القديس يوحنا ذهبي الفم الذي أُعتبر خبيراً في الكهنوت في نص مشهور يطلب فيه أن يبرر رفضه لأن يصير أسقفًا قائلاً أنه يعي ضعف وصغر نفسه بالإضافة إلى أهمية وصعوبة قيادة الناس: "أنا أعرف ضعف وضالة نفسي. وأعلم أهمية هذا الكهنوت وعظم صعوبته".<sup>8</sup>

وفي حوار مع القديس باسيليوس سأله ألا يشك في صدق ما قاله، أنه على حين هو يجب المسيح إلا أنه يخاف من إثارة عثرة بقبول هذه الخدمة الروحية "طلما أن عجز روحي يجعلني غير مؤهل لهذه الخدمة".<sup>9</sup> لقد جعلته نقاوة أفكاره ومشاعره الكبيرة يحس بأن ضعف نفسه يجعله غير كفء لهذه الخدمة العظيمة. لأنه في الواقع وكما سنرى فيما بعد، هذه الأهواء التي لم تُشفى تمنع الكاهن من مساعدة أولاده الروحيين في الشفلة.

إذا لم يكن المعالج قد شُفي أولاً فإنه يكون من "العامة". "إنهم ببساطة يأخذون عامة الشعب ويعطونهم مسئولية هذه المهام...".<sup>10</sup>

<sup>6</sup>. SC 129, 116-118

<sup>7</sup>. Or. 2, 71. NPNF ns, vol. 7, p. 219

<sup>8</sup>. On the Priesthood III, 7, p. 77

<sup>9</sup>. Ibid. II, 4, p. 60

<sup>10</sup>. Ibid. III, 15, p. 91

كل هذه الأمور التي تكلمنا عنها بالفعل تشير إلى الحقيقة العظمى أن الكهنة الذين يريدون شفاء أمراض الناس يجب عليهم أن يُشفَوْا هم أولاً من هذه الأمراض، أو على الأقل أن يكونوا قد بدأوا في الشفاء، ويجب عليهم أن يشعروا بقيمة الشفاء وإمكانيته.

يجب علينا أن نوضح بطريقة كافية أننا لا ننوي أن نفحص كل درجات الكهنوت أو دور الكهنة. وليس هدفنا أن نشرح قيمة وأهمية الكهنوت، ولكن أن ننظر لهذه الرتبة العظيمة والمسئولة من وجهة نظر أنها علم علاجي عمله الرئيسي شفاء الناس. فإذا بدا في نقطة معينة أننا نحاول أن نؤكد على أهمية الكهنوت، فإننا فعلنا ذلك فقط لكي ننظر لهذا الجانب الذي نتمنى أن نؤكد عليه هنا.

## ١ - متطلبات دور الكاهن المعالج

إن ما يتم شفاء المسيحيين المرضى هو الروح القدس، وبالتحديد نعمة الثالوث القدوس. فالكاهن هو خادم هذا الشفاء. وكل نظام الكنيسة هو إلهي - إنساني. وبالإضافة إلى ذلك فإن نعمة الله تعمل سرياً في الكاهن، وهو يعرف بالخبرة هذا العمل الخفي لنعمة الله.

### قيمة الكهنوت

إن قيمة الكهنوت عظيمة. ولذلك يكتب القديس يوحنا ذهبي الفم قائلاً: "على الرغم من أن عمل الكهنوت يتم على الأرض إلا أنه يصنف بين الطقوس السماوية"،<sup>11</sup> طلالاً أن الكاهن لم يدعى لا بإنسان ولا بملاك ولا برئيس ملائكة ولا بقوة مخلوقة أخرى ولكن بواسطة "الباراقليط نفسه".<sup>12</sup>

"وكما تتفوق الشمس على النجوم" هكذا يفوق القداس الذي يصليه الكاهن على كل "تسييح وصلاة" وهو يختلف عن كل الخدمات الأخرى. وذلك لأننا من خلال سر الإفخارستيا نقدم ذبيحة الإبن الوحيد ذاته الذي دُبح لأجل خطايانا.<sup>13</sup> إن من يقيم "الأسرار المخوفة والممجنة بطريقة صحيحة، سوف يحصل على فوائد منها أعظم من تلك التي يحصل عليها من أي عمل أو من التثوير".<sup>14</sup>

<sup>11</sup>. Ibid. III, 4, p. 70

<sup>12</sup>. St. Theognostos. Philok. 2, p. 376, 72

<sup>13</sup>. Ibid. 71

تتبع قيمة الكهنوت الذي يستطيع أن يقدم العجل المسمّن كذبيحة، من حقيقة أنه يساعد الإنسان على التقدم من كونه على صورة الله إلى التشبه بالله. فهو يستطيع أن يقوده للإتحاد بالله، الذي هو في الواقع شفاء الإنسان، أو بالأحرى يُظهر هذا الشفاء.

يقارن الآباء بين الكهنوت وبين العديد من الأعمال الأخرى، معتبرين إياه الأعظم لأن الخدمات الأخرى تساعد الإنسان على حل المشاكل العائلية، على حين أن الكهنوت يقوده للإتحاد بالله. وبالتالي فإن "الكهنوت أعظم حتى من مملكة"، طالما أن الكاهن "يحكم أشياء إلهية والملك يحكم أشياء أرضية"<sup>14</sup>.

وفي الواقع وكما أشرنا من قبل فإن الكهنوت في العمل الرعوي هو كهنوت المسيح نفسه. والكهنة بدورهم يعطون هذه النعمة للناس وهذا ما يجعلهم قادرين على غفران وشفاء الخطايا.

وعلى أية حال لم نُشر إلا إلى أشياء قليلة عن قيمة الكهنوت، لأنه لم يكن هدفنا في هذا الباب أن نؤكد على قيمة هذا العمل العظيم.

## دعوة ورسامة الرسل

لقد دعا الرب الأشخاص المناسبين لهذا العمل، ومنحهم كهنوته. وهكذا كان أوائل الأساقفة هم الرسل. ولقد دعاهم الرب للدرجة الرسولية، وأبقاهم معه طيلة ثلاث سنوات، ثم أعطاهم الروح القدس ليغفروا الخطايا، ثم أرسلهم ليكرزوا "لكل الأمم" وليقدوا الناس. وهكذا جعلهم صيادين للناس ومبشرين بالإنجيل. هذا الاختيار والإرسالية للخارج هو ما صنع منهم رسلاً. لا يوجد لدينا دليل في الكتاب المقدس على أن الرب إستعمل طقساً خاصاً ليمنح الخدمة الكهنوتية للرسل. ولكننا على أية حال نستطيع أن نقول أن "الرب في حال كونه هو نفسه مؤسس الأسرار، لم يكن مقيداً بها ولكنه كان قادراً على جعلها فعالة من خلال تعبير بسيط عن إرادته"<sup>15</sup>. وفي كل الأحوال فإن الحقيقة هي أن دعوة الإثني عشر رسولاً من قِبل المسيح وظهوره لهم بعد القيامة، وموهبة غفران الخطايا وحلول الباراقليط في يوم الخمسين، كل هذه الأمور أقامتهم كرعاة لشعب الله.

<sup>14</sup> . Isidor of Pelusium, in Nikodemus, Commentary on the Epistles. Vol. 1, p. 227, note 2. In Gk

<sup>15</sup> . Trempeles, Dogmatics vol. 3, p. 293. In Gk.

لدينا أيضاً كمثال بولس الرسول، الذي لم يكن تلميذاً للمسيح في زمن حياته على الأرض، ولكنه هو أيضاً دُعي للدرجة الرسولية. وهو ذاته اعتبر نفسه رسولاً ليسوع المسيح: "بولس رسول يسوع المسيح بحسب أمر الله مخلصنا وربنا يسوع المسيح..." (١ تي: ١). وهو في الواقع يكتب في موضع آخر قائلاً: "لأنني أحسب أنني لم أنقص شيئاً عن فائقي الرسل" (٢ كو: ١١: ٥). ويكتب نفس الرسول في موضع آخر قائلاً: "وأنا أشكر المسيح يسوع ربنا الذي قوّاني أنه حسبني أميناً إذ جعلني للخدمة" (١ تي: ١: ١٢). لقد كان على يقين أنه كان شاهداً أميناً للقيامة، لأنه في طريقه لدمشق رأى المسيح القائم. وبالتالي في تسجيله لظهورات المسيح القائم تجرأ وقال: "وأخر الكل كأنه للسقط ظهر لي أنا" (١ كو: ١٥: ٨). لقد حسب نفسه من بين شهود القيامة.

إن ظهور السيد المسيح لبولس ليس فقط منحه درجة الرسولية، ولكنه حقق رسامته ككاهن للمسيح.

يكتب الأستاذ رومانيدس قائلاً: "بحسب بولس الرسول، فإن الأنبياء في إبروشية (١ كو: ١٤: ١٩) هم أولئك الذين مثلهم مثل الرسل (١ كو: ١٥: ٥-٨) قد حققوا الإتحاد بالله، ورؤية المسيح في مجد الثالوث القدوس. يوضح بولس الرسول ذلك بوضوح فيما كتبه عن سر المسيح "الذي في أجيال أخر لم يُعرف به بنو البشر كما قد أعلن الآن لرسلة القديسين وأنبيائه بالروح" (أف: ٣: ٥). في هذا السياق تُفهم قائمة عضوية جسد المسيح. "فإن كان عضو واحد يتألم بجميع الأعضاء تتألم معه وإن كان عضو واحد يكرم فجميع الأعضاء تفرح معه" (١ كو: ١٢: ٢٦). بمعنى أن العضو المكرم يتحد بالله ويصير نبياً من قِبَل الله. هذا هو السبب الذي جعل بولس الرسول يعدد الأعضاء المتنوعة لجسد المسيح مبتدئاً بالرسل والأنبياء ومنتهاً بأولئك الذين يتكلمون باللسنة ويفسرونها (١ كو: ١٢: ٢٨)، التي هي أشكال العبادة العقلية (أف: ٥: ١٩). وتعبير بولس الرسول فإن الذي يتنبأ هو الذي يفسر العهد القديم (لم يكن كتاب العهد الجديد موجوداً بعد) على أساس خبرة الصلاة العقلية التي تُدعى "أنواع ألسنة مختلفة". وعلى العكس فإن النبي هو الذي حقق الإتحاد بالله. هذا هو بالضبط التمييز الأبائي اللاحق بين التكلم باللاهوت وبين علم اللاهوت نفسه. وكل أولئك من أول بولس الرسول إلى الشخص الذي يتنبأ ويفسر كان لديهم "ألسنة متنوعة"، أي أنواع مختلفة من عبادة الروح القدس داخل القلب. وهكذا دعاهم الله أعضاء جسد المسيح وهيكل الروح القدس. ولكونهم مدعويين من الله صاروا مختلفين عن "العالميين" (١ كو: ١٤: ١٦) الذين لم يلقوا بعد مسحة افتقاد الروح القدس الذي

يصلّي بغير إنقطاع في القلوب، وبالتالي لم يصيروا بعد هيكلاً للروح القدس. لقد ظهوروا كمعتمدين بالماء لمغفرة الخطايا ولكن غير معتمدين بالروح القدس، أي غير ممسوحين بالميرون. ربما كان سر الميرون قد أُقيم لكي يتم التأكيد على أن الروح القدس قد حلّ ليصلّي داخلهم وبالتالي سُمي الميرون "تثيتاً".

"لقد شكّل جميع الرسل والأنبياء المتحدّين بالله والأنبياء والمعلمين المستترين، مع أصحاب القوات ومواهب الشفاء والأعوان والتدابير وأنواع الألسنة (١كو١٢: ٢٨) بصورة علنية الإكليروس الممسوح، والكهنوت الملوكي، كما تقول خدمة الميرون المقدس. أما الباقيون فهم "الشعب" كما يشهد الأباء. ومن الواضح أن المقصود "بأولئك الذين عيّنهم الله في الكنيسة" (١كو١٢: ٢٨) هم أولئك الذين حلّ عليهم الروح القدس فجعل الرسل والأنبياء متحدّين بالله وأعطى إستشارة للباقيين، وليس فقط من خلال عمل ليتورجي"<sup>١٦</sup>.

## المتطلبات الرئيسية للرئاسة

من المؤكد أن الرسل نقلوا كهنوت المسيح وذلك من خلال سر محدد يسمى سر الكهنوت المقدس. وحددت الكنيسة أيضاً المتطلبات القانونية لأي شخص لكي يتلقّى هذه النعمة العظيمة ولكي يمارس هذه الوظيفة العليا.

وأحد هذه الرسامات كانت هي رئاسة الشماسية في كنيسة أورشليم الأولى. وكما يقول سفر أعمال الرسل أنهم اختاروا سبعة شمامسة "وأقاموهم أمام الرسل وصلوا ووضعوا عليهم الأيادي" (أع٦: ٦). وهنا نجد وضع الأيادي والصلاة. يحلل القديس يوحنا ذهبي الفم هذا النص قائلاً: "لم نخبرنا الكتاب بأية طريقة فعلوا ذلك ولكنهم رُسموا بالصلاة لأن هذا هو معنى وضع الأيادي؛ فاليد توضع على الشخص ولكن كل العمل هو لله..."<sup>١٧</sup>.

يجب علينا أن نلاحظ في هذه الحالة أنه تم إختيارهم بواسطة كل هيئة مسيحية الكنيسة الأولى. لقد تطلب ذلك عدة مؤهلات. وكان المؤهل الرئيسي هو إماتلاؤهم من الروح القدس. ونجد في سفر الأعمال مكتوباً من جهة إختيار إستفانوس: "فلخّاروا إستفانوس رجلاً مملوءاً من الإيمان والروح القدس" (أع٥: ٢٤).

<sup>16</sup>. Romanides: RR, p. 27f. In Gk

<sup>17</sup>. Hom. 14 on Acts. LF vol. 33, p. 198

وبالتالي فإنهم لم يتلقوا الروح القدس في وقت الرسامة فقط، ولكنهم كانوا قبلاً يقتنون نعمة الروح القدس .

ويفسر القديس يوحنا ذهبي الفم ذلك قائلاً أنه كان يقتنى نعمة الروح القدس "من جرن المعمودية". لم تكن هذه النعمة وحدها كافية ولكنه كان محتاجاً للرسامة بوضع اليد: "حيث حصل على إمتلاء إضافي من الروح القدس"<sup>١٨</sup>. إنه يقول أيضاً أن إستفانوس تلقى نعمة أكثر من باقي الشمامسة: "لأنه على الرغم من أن الرسامة كانت مشتركة له ولهم إلا أنه اجتذب لنفسه نعمة أعظم"<sup>١٩</sup>. وكان ذلك بسبب نقاوته العظيمة وحضور الروح القدس في داخله.

يشير هذا بدون شك إلى أن المرشحين لوظيفة الكهنوت العظمى هذه لم يكونوا ينتظرون ببساطة يوم رسامتهم لكي يتلقوا الروح القدس، ولكن كان لابد أن يكونوا قد فتحوا ذواتهم للروح القدس أولاً.

تقيم الكنيسة وزناً كبيراً لهذا الأمر. ونرى ذلك أيضاً في رسائل بولس الرسول التي كتبها لتلميذه تيموثاوس قائلاً: "إذ أتذكر الإيمان العديم الرياء الذي فيك الذي سكن أولاً في جدتك لوئيس وأمك أفنيكي ولكني موقن أنه فيك أيضاً" (٢ تي ١ : ٥). إننا نعلم جيداً أن الإيمان ليس تعليماً مجرداً ولكنه "فهم ورؤية للقلب". إنه حياة الروح القدس في نفوسنا.

يكتب أيضاً بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس الذي رسمه أسقفاً بنفسه: "لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدي القسوسية" (١ تي ٤ : ١٤). يكتب في موضع آخر قائلاً: "هذه الوصية أيها الإبن تيموثاوس أستودعك إياها حسب النبوات التي سبقت عليك" (١ تي ١ : ١٨).

يقدم القديس ثيوفيلكتوس هذا التفسير: "رتبة الكهنوت التي تهتم بتعليم وحماية الناس هي عظيمة وعالية لذلك تتطلب أن يحصل المرشح لها على الموافقة من الله من فوق. ولذلك السبب أيضاً كان الذين يصيرون كهنة وأساقفة في الأزمنة القديمة يصيرون هكذا بموجب نبوءات إلهية أي بواسطة الروح القدس"<sup>٢٠</sup>.

<sup>18</sup> . Hom. 15 on Acts. Ibid. p. 207

<sup>19</sup> . Ibid.

<sup>20</sup> . St. Nikodimos of the Holy Mountain. Commentary on the Epistles, vol. 3, p. 95. In Gk

يتضمن إختيار الكهنة والأساقفة لهذه الوظيفة العظمى إعداداً كبيراً وشروطاً عديلة. ويعظ بولس الرسول قائلاً: "إن كان أحد بلا لوم" (تي ١: ٦) فليُقام كاهناً أو أسقفاً. وهو أيضاً يطلب أن مثل هذا الشخص يجب عليه ألا يكون "حديث الإيمان" (١ تي ٣: ٦) لأنه يجب أن يكون لديه خبرة روحية سابقة وبالتالي يكون قد تعمد لهذه الوظيفة العظمى، ويجب عليه أن يكون قد تطهر هو نفسه، كما سنرى فيما يلي، وعندئذ فقط يستطيع أن يتقدم للرسم.

وفي الواقع يكتب القديس يوحنا ذهبي الفم قائلاً أنه يجب على الكاهن أن يكون لديه يقظة وقوة روحية أكثر من النساك. لأنه إن كان النساك الذين تحرروا من "المدينة والسوق والناس" ليسوا آمنين روحياً، فكهم بالأحرى يحتاج الكاهن لقوة أكبر في الجهاد، لكي يكون قادراً على إنتزاع نفسه بعيداً عن كل تلوث، وعلى الحفاظ على جماله الروحي غير مشوّه. من أجل ذلك يؤكد على أن الإكليروس الذين يعيشون في العالم يحتاجون لطهارة أكثر حتى من الرهبان.<sup>٢١</sup>

إن موضوع حماية طهارة الكهنوت سوف نتناوله فيما بعد. ولكننا نتمنى هنا أن نؤكد على الصفات التي يجب على المسيحي أن يكتسبها في حالة رسامته كاهناً. لأنه لو لم يكن هو ذاته قد شُفي فكيف سيكون قادراً على شفاء الضعفاء والمرضى روحياً؟

يشكل الاستعداد للكهنوت أحد المواضيع الرئيسية في كتابات القديس سمعان اللاهوتي الجديد: "إن الذي لم يتخلّى عن العالم ولم يحسب مستحقاً لحلول الروح القدس كما كان الرسل القديسون، ولم يخضع للتطهير والإستارة ولم يوجد مستحقاً "لتأمل النور الذي لا يُدنى منه" لا يجب عليه أن يتجرأ ويقبل الكهنوت والسلطان على النفوس أو أن يدفع نفسه ليقبل مثل هذا!"<sup>٢٢</sup>.

إننا نجد نفس التعليم في كتابات القديس ثيوغونسطس فهو يقول: "لو أن القس لم يتيقن بعد بواسطة الروح القدس أن يكون وسيطاً مقبولاً بين الله والإنسان، فلا يجب عليه "أن يتجرأ بوقاحة ويقيم الأسرار المخوفة والأكثر قداسة"<sup>٢٣</sup>.

كان الآباء يهربون إلى الجبال عندما كانوا يشعرون بقرب الرسامة كما رأينا في حيلة وتعليم القديس غريغوريوس اللاهوتي ففي كتابه "دفاع عن الهروب إلى بونتوس"

<sup>21</sup>. Ibid. p. 118 note 1

<sup>22</sup>. SC 196, 294-296

<sup>23</sup>. Philok. 2, p. 257, 14



يحاول أن يدافع عن هذا الفعل ويقول أنه لا يستطيع أي أحد أن يتولى مسئولية رعاية القطيع الروحي ما لم يكن قد سبق وأصبح هيكلًا لله الحي أي "مسكنًا للمسيح في الروح القدس"، أو مَنْ لم يكن قد عبر "بالخبرة والتأمل" في كل ألقاب وقوى المسيح وتعلم "حكمة الله المخفية في سر" وإلا فإنه لا يزال طفلاً "يرضع اللبن"<sup>24</sup>.

وبلا شك لم يكن الآباء القديسون غير واعين لحقيقة أن الكثيرين كانوا قد رُسموا بدون أن يستوفوا هذه الشروط المثالية وبدون أن يكونوا قد تطهروا أو شُفوا. من أجل ذلك نبتت العديد من الرسامات "ليس من نعمة الله ولكن من طموح بشري"<sup>25</sup>. وفي الواقع إن قول القديس يوحنا ذهبي الفم معروف جيداً عن أن "الله لا يرسم الجميع ولكنه يعمل من خلال الجميع"<sup>26</sup>.

## درجات الكهنوت الثلاثة

يبدو من دراسة المراجع وخصوصاً الأدب الأبائي أن درجات الكهنوت الثلاثة (الشماس - الكاهن - الأسقف) مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالدرجات الثلاث الرئيسية للحياة الروحية. وهذا يعني أن الشخص الذي غا في الشفاء يصعد السلم الروحاني الذي للنعمة والبركة الكهنوتية. هذا هو على الأقل تعليم الآباء. يجب علينا أن نتناول بأكثر إستفاضة هذه النقطة الأساسية التي للتعليم الأبائي بأن نتحدث عن نعمة الكهنوت الشافية.

لقد أكدنا في الباب السابق على أن الحياة الروحية تنقسم إلى ثلاث درجات : التطهير، الإستارة، والإتحاد بالله. إننا نجد هذا التقسيم في العديد من كتابات الآباء وإن كانوا يعطونها أسماءً مختلفة. وعلى سبيل المثال يكتب القديس نيسيتاس ستيثاتوس قائلاً أنه توجد ثلاث مراحل للتقدم نحو الكمال: المرحلة الأولية المُطهرة، والمرحلة المتوسطة المنيرة، والمرحلة الأخيرة المعطية للكمال السري. وإذا يتقدم المسيحي خلال هذه المراحل فإنه ينمو في المسيح. أما عمل التطهير فيهدف إلى إخضاع الجسد وتجنّب أية خطية تثير الهوى، وهو يؤدي إلى التوبة والدموع وما إلى ذلك. أما مرحلة الإستارة فهي ترى بداية اللاهوى الذي يتميز بالبصيرة أي "تأمل العناصر الباطنية للخليقة" و"شركة مع الروح القدس". ومهمتها هي "تطهير العقل... وفتح عيني القلب... وإستعلان أسرار ملكوت

<sup>24</sup> . Or. 2, 97-99. NPNF ns, vol. 7, p.224.

<sup>25</sup> . Chrysostom. On the Priesthood ch. 4, 1, p. 108

<sup>26</sup> . Homily 2 on 2Tim. NPNF vol. 13, p. 481, 3

السّموات". أما "المرحلة المعطية للكمال السري" فهي تجعل الإنسان قادراً على "البحث عن أسرار الله الخفية" وتملأه "بألفة الروح القدس" وتريه كيف يكون "لاهوتياً حكيماً في وسط الكنيسة العظيمة" وما إلى ذلك<sup>27</sup>.

وهكذا فإن الشخص الذي يعيش في الكنيسة والذي تساعده النعمة الإلهية يظهر الجزء الحسي من نفسه، وبالتالي يستنير عقله ويرتقي إلى المعرفة السريّة للاهوت، وحالة الاتحاد بالله المباركة.

وبعبّر عن هذه الدرجات الثلاث في علم لاهوت القديس مكسيموس المعترف كفلسفة عملية (تطهير سلبي وإيجابي) وتيوريا طبيعية (إستنارة للعقل) وعلم لاهوت سري (اتحاد بالله). وإذا ابتعد آباء الكنيسة عن كل الخليقة، ارتقوا إلى رؤية الله وحيث تصل هذه الرؤية لأعلى درجاتها في "علم اللاهوت" أو "علم الأسرار اللاهوتية" أو "علم اللاهوت السري"، الذي يسمى أيضاً "المعرفة الروحية التي لا يمكن نسيانها"<sup>28</sup>. وبالتالي يكون الآباء العاشقون في التيوريا هم اللاهوتيون الحقيقيون أو هم علم اللاهوت الحقيقي ذاته، طالما أن معرفة اللاهوت تملأ كل كيانهم.

ويرى القديس مكسيموس أن موسى النبي كان لاهوتياً، لأنه أقام خيمته خارج المعسكر "أي أنه عندما ثبت إرادته وعقله خارج عالم الأشياء المادية بدأ في عبادة الله". والتلاميذ الثلاثة الذين أختيروا للصعود على جبل طابور أثبتوا أنهم لاهوتيون عندما وهبوا أن يروا نور الألوهية كالشمس. وكان بولس الرسول أيضاً الذي إختطف للسماء الثالثة لاهوتياً. ويشرح القديس مكسيموس أن السموات الثلاثة تتمشى مع درجات صعود الإنسان السرية وهي الفلسفة العملية، والتيوريا الطبيعية، واللاهوت السري<sup>29</sup>.

لقد قدمنا هذا التعليم الأبائي لكي نمضي في إيجاد الصلة بينه وبين الموضوع الذي يعيننا في هذا الباب. يربط القديس مكسيموس الدرجات الثلاثة للحياة الروحية بدرجات الكهنوت الثلاثة. ويكتب قائلاً: "إن الذي يكرس عقله للجهد الروحي ويطرد كل الأفكار الشهوانية خارجه يقتنى صفة الشمسية، والذي ينير عقله بمعرفة الكائنات المخلوقة ويحطم المعرفة الخاطئة لفظياً يقتنى صفة الكاهن؛ والذي يجعل عقله كاملاً بالدهن المقدس الذي لمعرفة وعبادة الثالوث القدوس يقتنى صفة الأسقفية"<sup>30</sup>.

<sup>27</sup> . Gnostic chapters, ch. 41-44. Gk. Philok. 3, p. 335-337

<sup>28</sup> . Rantosavlievits: The mystery of salvation according to Maximus the Confessor, p. 165. In Gk

<sup>29</sup> . Ibid. p. 171-172. cf. Philok. 2, p. 133, 84

<sup>30</sup> . Philok. 2, p. 68, 21

إنني أود الآن أن أقارن بين ما قرأته توأ وبين تفسير آخر للقديس نيقوديموس من الجبل المقدس، حيث أنه أمر رئيسي بالنسبة للممارسة الكنسية أن يقوم قديس بتفسير أقوال قديس آخر، وهكذا تجد الكنيسة من خلال قديسيها تعبيراً عن خبرتها المشتركة. يكتب القديس نيقوديموس قائلاً: "يرى القديس مكسيموس الملهم من الله أن مهمة الشمس أن يطهر الآخرين من أهوائهم وأفكارهم الشريرة من خلال الجهود الأخلاقية. وأن مهمة الكاهن أن ينير الآخرين من خلال التثويرا الطبيعية للمبادئ الأولية التي للأشياء. وأخيراً فإن مهمة الأسقف هي إعطاء الكمال للآخرين في نور المبادئ الأولية التي لعلم اللاهوت... على الأسقف إذاً لا أن يكون مجرد فيلسوفاً أخلاقياً وطبيعياً أو متأملاً، ولكن يجب عليه أيضاً أن يكون لاهوتياً طاملاً أن هذه المهام تخص الشمس والكاهن".<sup>31</sup>

يجب علينا أن نشير إلى أن ربط درجات الكهنوت الثلاث بدرجات الحياة الروحية الثلاث المذكور في كتابات القديس ديونيسيوس الأريوباغي التي تحتوي على تقليد الكنيسة. وطالما أن هذه الكتابات تمثل مقياس الكنيسة في القرون الأولى فإنه يبدو واضحاً أن الدرجات الثلاث للحياة الروحية تتماشى مع درجات الكهنوت الثلاث ولذلك تعين على أن أختار هذا الموضوع لكي أظهر هذا الارتباط.

يصف القديس ديونيسيوس الأريوباغي في كتابه "الرتب الكنسية" الدرجات الثلاث للحياة الروحية التي هي التطهير، والإستارة، والكمال. والكمال يعادل الإتحاد بالله: "درجة الأسقفية هي التي تمتلك سلطان رسامة الكهنة. ومهمة الأسقف ليست فقط هي الرسامة ولكن التكميل. ودرجة الكهنوت هي منيرة وجالبة للنور على حين أن مهمة الشماسة هي التطهير وتميز غير الكاملين".<sup>32</sup> إن عمل الإكليروس هو الليتورجية والتقديس والتكميل طاملاً أن الحياة الروحية للإنسان تنمو من خلال الأسرار. وبتعبير آخر فإن طقوس الكنيسة المقدسة ليست شكلية، ولكنها تطهر وتنير وترفع الإنسان لحالة من الكمال.

يرتبط إذاً عمل الشماسة والكهنة والأساقفة بالنمو الروحي للمسيحيين. وبحسب طقس المعمودية كما يقدمه القديس ديونيسيوس (ونحن نعتقد أنه يعكس إستعماله في القرون الأولى للكنيسة) فإنه عندما يأتي شخص طالباً المعمودية فإن الشماسة يخلعون عنه ثيابه وهذا يظهر دورهم في الكنيسة كمطهرين. وأما الكهنة فيمسحون كل جسد المرشح للمعمودية بالزيت وهذا يظهر دورهم في الكنيسة كمألحي إستنارة. بينما يقوم

<sup>31</sup> . Handbook of Council (in Greek) p. 154, note 1

<sup>32</sup> . Ecclesiastical Hierarchy, ch. 5, parts 6-7. CWS p. 237

الأساقفة بتكميل المتقدم إلى الكمال من خلال تعميده وهذا يظهر دورهم كمناخي الكمال<sup>33</sup>. إن درجة الأساقفة "تؤدي كل رسامة كهنوتية، وهي تعلم الآخرين بوضوح أن يفهموا الأمور المقدسة ومعالمها المناسبة وقواها المقدسة". وأما رتبة الكهنة "فتقود المبتدئين إلى الرؤى الروحية التي للأسرار" ولكنها ترسل للأسقف "أولئك الذين يشاقون لفهم كامل للطقوس الإلهية التي يتأملون فيها". وهكذا فإن الكاهن يعطي إستنارة للمسيحيين تحت سلطان الأسقف ولكنه يرسل له أولئك الذين يبتغون الكمال طالما أن درجة الأسقفية الإلهية هي أول من ينظر الله. وأما الشماسية فقبل أن يقودوا المرشحين للمعمودية إلى الكاهن "فإنهم يطهرون كل من يقرب بإبعاده بعيداً عن أي مداعبة مع ما هو شرير وهذا يجعله متفتحاً للرؤية الطقسية وللشركة"<sup>34</sup>.

يرى القديس ديونيسيوس أنه أمر هام أن لا يعتني الأساقفة فقط بمهمة التكميل ولكن أن يعطوا الإستنارة والتطهير أيضاً. وبالمثل فإن الكهنة يمتلكون الفهم لكي يعطوا كلاً من الإستنارة والتطهير، على حين أن الشماسية يعرفون فقط كيف يطهرون. "لا يجب على الدرجات الأقل أن تتعدى على وظائف رؤسائها"<sup>35</sup>. وهكذا فإن واجبات كل رتبة من رتب الكنيسة منظمة بطريقة محددة في أن كل رتبة تقتني علمها الخاص ومعرفتها بلحية الروحية. إنني أعتقد أنه يجب علينا أن نضع هنا النص التمييز الذي يلخص فيه ديونيسيوس هذا التعليم عن عمل الرتب الثلاثة مجملته: "تنقسم رتبة الكهنوت المقدسة بالطريقة التالية: يتكون سلطانهم الأول من تطهير المبتدئين بواسطة الأسرار. وسلطانهم الثاني هو الذي يجلب الإستنارة لأولئك الذين تطهروا. وأخيراً فهم يمتلكون أروع سلطان وهو الذي يحتضن كل من يشترك في نور الله، إنه السلطان على تكميل هؤلاء بالفهم الكامل الذي عندهم، أكثر من الفهم الذي كان عندهم حينما تعمّدوا"<sup>36</sup>.

وإذا ندرس تعاليم القديس ديونيسيوس، فإننا نصل لأن نرى أن كل رتبة من رتب الكهنوت الثلاثة تقابل مرحلة من الحية الروحية. وطالما أن مهمة الشماس هي تطهير الآخرين من الأهواء، فيجب عليه هو نفسه أن يكون قبل رسامته قد وصل لمرحلة من التطهير بحيث يكون هو نفسه نموذجاً حياً لهذه الحكمة العملية. وحيث أن مهمة الكاهن بحسب تعاليم الآباء هي إنارة الآخرين فإنه يفترض أن يكون عند رسامته ذا ذهن مستنير

<sup>33</sup> . Ibid. ch. 2. CWS p. 202-203

<sup>34</sup> .Ibid. ch. 5. CWS p. 236-237

<sup>35</sup> .Ibid. p. 238

<sup>36</sup> .Ibid. p. 235

الذي كما رأينا من قبل هو درجة من درجات التثويرا. يجب على الكاهن إذاً أن يتذكر الله في الصلاة بلا إنقطاع، ويجب عليه أن يعرف العمل الروحي، وأن يكون متمكناً من الكتاب المقدس، وأن يكون قادراً على التبصّر في المبادئ الباطنية لكل المخلوقات. وأما بالنسبة للأسقف فلأن مهمته الرئيسية هي تكميل الناس بأعماق علم اللاهوت، فيجب عليه أن يختبر علم اللاهوت السري، وأن يعيش في شركة مع الله، بحيث تجعله هذه العلاقة الوثيقة مع الله نبياً وخبيراً إلهياً قادراً على أن ينقل بطريقة باطنية كلمة الحق لشعب الله.

يشير طقس رسامة الشمامسة والكهنة والأساقفة بنفس الدرجة إلى الحالة الروحية التي يفترض أنهم وصلوا إليها لكي يؤدوا هذه المهمة الرئيسية. لأنه كيف يحصل الشعب على معونة لو كان المعينون لا يمتلكون خبرة شخصية بالمهمة التي يجب عليهم أن يقوموا بها؟<sup>37</sup>

ينطبق ذلك بالأكثر على الأسقف الذي هو أداة للنعمة بلا منافس "ويجب عليه في كل عمل يخص الرسامات الكهنوتية الأسقفية أن يكون ملهماً من الله ذاته بصورة مباشرة"<sup>38</sup>. لم يعطي موسى "تكريساً كهنوتياً" لهارون أخيه إلا عندما أمره الله أن يفعل ذلك. لقد كان خاضعاً لله كمانح رئيسي للرسامة الكهنوتية ولم يكن سوى مُنفذٍ للتكريس الإلهي بواسطة طقس كهنوتي<sup>39</sup>.

وهكذا يرى القديس ديونيسيوس، الذي يعبر عن تقليد الكنيسة، أن الأسقف هو المعلم الأسمى للحياة الروحية. إنه الذي يرى الله وله خبرة شخصية بالاتحاد بالله. "وبالتالي فإن الأسقف في رتبة الإلهية هو أول الذين يعاينون الله. وعلى الرغم من كون هذه الرتبة الأولى إلا أنها الأخيرة أيضاً"<sup>40</sup>. الأسقف هو ثمرة الاتحاد بالله. وإذا قد اتحد هو ذاته بالله، فهو بواسطة النعمة يساعد أخاه المسيحي طوال رحلته نحو الاتحاد بالله. "إن كينونة ورتبة الكهنوت الكنسي تكمل فيه، ثم تنتقل بعد ذلك لأولئك الذين تحته بحسب إستحقاقهم، على حين أن الاتحاد المقدس بالله يحدث فيه، من الله مباشرة"<sup>41</sup>. "عندما نتحدث عن الأسقف فإننا نعني رجلاً مقدساً وملهماً وشخصاً يفهم كل المعرفة المقدسة وشخصاً يكمل فيه ويُعرف كل الكهنوت"<sup>42</sup>. ينال الأسقف القدرة الراسخة على أن يشكل نفسه تماماً

<sup>37</sup> Ibid. p. 239-243

<sup>38</sup> Ibid. p. 241

<sup>39</sup> Ibid.

<sup>40</sup> Ibid. p. 236

<sup>41</sup> Ibid. ch. 1. CWS p. 196

<sup>42</sup> Ibid. p. 197-198

بحسب صورة ما هو إلهي وذلك بكل محاولة دؤوبة للوصول للواحد(الله) بواسطة الإماتة التامة والتخلص من كل ما يضاد الاتحاد الإلهي"<sup>43</sup>. وهكذا فإن الأسقف كثرة للتطهير والإستارة هو الشخص الملهم من الله الذي وصل للكمال وهكذا يقاد من الله بصورة شخصية. إنه "الناطق بلسان الحق"، وهو الذي يجلس وهو "في صورة ومكان المسيح".

إننا لا نستطيع أن نقاوم الرجوع إلى نص متميز للقديس ديونيسيوس يقول فيه أن الأشعة الإلهية تُمنح لأولئك الأكثر شبهاً بالله والأنسب لنشر النور والإشتراك فيه. إن مهمة أولئك الذين يرون الله هي أن يعلنوا للكهنة "بحسب طاقتهم" الرؤى الإلهية التي رأوها. وبالمثل فإن مهمتهم هي أن "يعلنوا كل ما يخص ربتهم الكهنوتية طالما أنهم أخذوا قوة لكي يعطوا هذا التعليم"<sup>44</sup>. وهذا يعني أنه بعد تحقيق الكمال الشخصي فقط يستطيع المرء أن يرتفع لوضع أعلى؛ وهذا الوضع الأعلى يشغله الشخص الملهم من الله والذي يعرف الله من خلال الخبرة.

لقد كانت هذه هي المؤهلات الحقيقية للمسيحيين لكي يدخلوا الكهنوت. إذ كان يجب عليهم أولاً أن يعبروا خلال هذه المراحل الثلاث لكي يحصلوا على شهادة وتأكيد أنهم شُفوا وأصبحوا قادرين على شفاء شعب الله. هذه الأمور تُظهر بدقة أن الأسقف والكاهن والشماس ليسوا مجرد أشخاص مرسومين لكي يتمموا الأسرار ولكنهم أطباء روحيين يساعدون الناس على التطهر والتقديس وعلى التقلم نحو الشركة مع الله. لقد كتب القديس سمعان اللاهوتي الجديد قائلاً أن المرء يستطيع أن يمضي في إقامة الليتورجية عندما يقيمها "بضمير يخص قلب طاهر لجذ الثالوث الطاهر والقدوس والنقي"، عندما يكون قد رأى المسيح، ويكون قد نال الروح القدس، ويكون "قد أتى للآب بواسطة هذين الإثنين"<sup>45</sup>.

الدخول في الكهنوت هو إذاً دعوة واضحة من الله. وهذه الدعوة ليست مجرد إحساس غامض بالدعوة من الله لخدمة شعبه ولكنها الثقة في القدرة على رعاية الناس من خلال تحول المرء ذاته، ليكون قادراً على رعاية الناس، التي هي بصورة رئيسية شفاء الناس. وبالتالي فبدون الشفاء، لا يستطيع شخص ما أن يصل لله ولا يستطيع أن يرى الله. وبالتالي لا يمكن لهذه الرؤية أن تتحول لنور ينيره، بدلاً من أن تتحول لنار تحرقه. يشير القديس ثيودور غنسطس إلى "نعمة الكهنوت العلوية"<sup>46</sup> قائلاً أنه لو أن شخصاً ما لم يشعر

<sup>43</sup> Ibid. ch. 2. CWS p. 207

<sup>44</sup> Ibid. ch. 5. CWS p. 236

<sup>45</sup> Hymn 19. SC 174, 98-100

<sup>46</sup> St. Theognostos. Philok. 2, p. 370, 51

بهذه الدعوة من فوق، بمعنى أنه لو لم يكن قد شُفي، فعندئذ "يكون الحمل ثقيلاً فعلاً لأن الذي يحمله يكون غير جدير به، ويتجاوز هذا الحمل قدرته"<sup>٤٧</sup>.

يتكلم الناس عادة عن التقليد الرسولي والتسلسل الرسولي، الذي هو بوضع الأيالي. ولا يوجد في الواقع من يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة. ولكن توجد في نفس الوقت حقيقة أكيدة وهي أن التسلسل الرسولي لم يكن مجرد سلسلة من وضع الأيالي، ولكنه كان تقليداً لكل حياة الكنيسة. لم يرقم الرسل ثم الآباء بمجرد نقل نعمة الكهنوت فحسب، ولكنهم نقلوا المسيح وكل حياة المسيح. إنهم توالدوا. من أجل ذلك حمل الأسقف ويحمل نعمة الحق. يعطي الأستاذ يوحنا رومانيدس ملحوظة قائلاً: "لم يكن أساس التقليد والتسلسل الرسولي هو وضع الأيالي هذا، ولكن ما صاحب ذلك من جيل إلى جيل وهو إنتقال تقليد الشفاء والإستشارة والإتحاد بالله. لقد كان تنظيم المجمع الإياريشي والمجمع الإقليمي يتم لكي يتوحد المعلقون الحقيقيون، ولكي يعزلوا عن الإكليروس الأنبياء الكذبة الذين كانوا يدعون امتلاك مواهب الروح القدس، ولكي يحرموا القطيع من الهراطقة. وكان إختيار وفحص المرشح هو الجزء الأكثر أهمية للرسامة"<sup>٤٨</sup>.

لقد كان هذا أساس الكنيسة. وكان المبدأ الرئيسي عند إختيار أسقف أن يكون بالأخص مختاراً من بين الرهبان لأن الرهبة هي بمثابة كلية الطب التي يأتي منها الأطباء المهرة القادرون على شفاء أمراض الناس.

يكتب كاليستوس وير أسقف ديوكلية قائلاً: "إستطاع أحد الأديرة العشرين الرئيسية (ربما يقصد الدير الكبير Great Lavra في الجبل المقدس آثوس) أن ينجب وحده ستة وعشرين بطريركاً ومئة وأربعة وأربعين أسقفاً. وهذا يعطي فكرة عن أهمية جبل آثوس للكنيسة الأرثوذكسية"<sup>٤٩</sup>.

يكتب القديس نيقوديموس الذي من الجبل المقدس شارحاً هذا التقليد المقدس الذي للكنيسة في مقدمة كتابه "دليل المجمع" قائلاً: "ما أسعد الأوقات التي كان يسود فيها التقليد المقدس لإختيار من سيرتقى الكرسي الرسولي ومن سيؤمن على رعاية النفوس من بين أكثر رتب الرهبان تواضعاً ( بإستثناء بعض أعضاء الكنيسة المسمين بالعلمانيين الذين إختيروا بسبب فضيلتهم الفائقة). يعكس محضر جلسات مجمع القديسة صوفية

47. Ibid. p. 371 52

48. Romanides: RR vol. 1, p. 28-29. In Gk

49. "Orthodox Witness" Sept. - Dec. 1985. p. 12. In Gk

مثل هذا التقليد إذ أن ممثلي الكنيسة في قيصرية وخلقيدونية أخبروا وكيل البابا يوحنا قائلين: "لو لم يخرج من الشرق راهب فلن يكون هناك لا أسقف ولا بطريك".<sup>50</sup>

ولكن يجب علينا أن نؤكد على أنه في كل تاريخ الكنيسة لم تكن الأمور "وردية" إلى هذه الدرجة. لقد كانت هناك مواقف فقدت فيها هذه الحقيقة وكان الناس في ظلام الجهل. لم يكونوا يعلمون بوجود مثل هذا الشيء المسمى الشفاء الروحي ولا كيف كان يحدث هذا الشفاء لأنه لم يكن هناك رجال لكي يُعلّموا طريقة الشفاء. وكان إيسيدوروس الفارمي مبكراً جداً في القرن الرابع يشير إلى كيفية إختلاف الرعة الأوائل عن رعة ذلك الوقت. لقد قال أنه في ذلك الوقت كان الرعة يموتون لأجل الرعية؛ على حين أنهم اليوم يذبحون الرعية. وإسترسل في ذلك وكتب قائلاً: "كان محبو الفضيلة فيما مضى يدخلون الكهنوت؛ ولكن محبو المال هم الذين يفعلون ذلك الآن. لقد كانوا قديماً يفرّون من الوظيفة بسبب عظمها؛ ولكنهم الآن يجرون وراءها بكل سرور. كانوا يفتخرون بفقرهم الإختياري ولكنهم الآن يخزنون المال بفرح وطمع؛ كانت عدالة الله أمام أعينهم، ولكنها الآن شيء عديم القيمة. كان الكهنة فيما مضى موضوعين للضربات؛ ولكنهم الآن يتسبون فيها. هل أحتاج للإستمرار في الحديث؟ يبدو أن رتبة الكهنوت تحولت إلى طغيان: إذ تحول الإتضاع إلى كبرياء، والصوم إلى ترف، والتدبير إلى إستبداد؛ لأنهم ليسوا أكفاء للإدارة كمديرين، ولكنهم يختلسون لكونهم مستبدين".<sup>51</sup>

يكتب الأستاذ جون رومانيدس الذي إهتم بالأخص بهذا الموضوع عن فقدان التقليد الأرثوذكسي قائلاً: "على أية حال ومع مرور الوقت لم يكونوا يستطيعون أن يجدوا في أي مكان وعلى الدوام أشخاصاً متحدين بالله أو حتى مستنيرين لكي يرسموا أساقفة وكهنة. وحتى لو وُجد هؤلاء الرجال لم يكن النخبون يريدونهم.

كانوا يفضلون في مرات كثيرة الرجال الذين ليسوا إلا ذوي خلق وصالحين دون أن يمتلكوا التعليم التقليدي العلاجي عن الإستمارة والإتحاد بالله. لقد كان الأساقفة في عصر سابق يختارون من عامة الشعب، دون أن يكونوا يقتنون الروح القدس الذي يصلي في قلوبهم بغير إنقطاع. هذه هي الطريقة التي يشرح بها القديس سمعان اللاهوتي الجديد الأمور. "حرض القديس سمعان على التمرد ضد الوضع الذي وصفه، ونتيجة لذلك تم إستعادة رسالة الكنيسة العلاجية وإستعادة وضعها الرئيسي في الأرثوذكسية، وتولى الآباء

<sup>50</sup>. Handbook of Council ( in Gk) p. 15

<sup>51</sup>. Ibid. p. 112-113 note 1



محبو السكون رتب الكنيسة ثانية، كما توقع القديس ديونيسيوس الأريوبانغي. لقد إنتعشت الكنيسة والأمة تحت قيادة الآباء محبي السكون بعد إخلال الإمبراطورية لأن التدريب العلاجي الأبائي الذي وصفناه أعطى الكنيسة القوة لكي تزهر في الأوقات العصيبة لحكم العرب والفرنجة والأتراك.

"وهذا يعني أن المعلمين كأشخاص متحدين بالله وكمعالجين كانوا مثل فريق من أطباء مستشفى إختير أحدهم كرئيس دون أن يؤدي ذلك إلى عدم مساواة. لقد حدث نفس الشيء بين الرسل. كان لبطرس المقام الأول على الرغم من أن يعقوب كأسقف للكنيسة المحلية هو الذي رأس إجتماع الرسل في أورشليم.

"عندما بدأت الإبروشيات في التكاثر ولم يكن يوجد معلمون بحسب مفهوم بولس الرسول، كان على الكنيسة أن تحل إشكالية إن كان صحيحاً أن يرسم أساقفة من الرجال الذين لم يكونوا قد إتحدوا بالله ولكنهم كانوا قد إستناروا فقط. وفي مواجهة هذا المأزق إختارت الكنيسة أن ترسم كهنة لكي يرأسوا الإجماعات الرعوية فى الكنائس. وهكذا إكتسب الأساقفة بالتدريج مسئولية الإشراف على الكهنة الذين يرأسون الكنائس. يشبه ذلك أطباء في مستوصف طبي يجعلون زوار المستوصف في مركز الرئاسة. ولأن المجمع لم يجد عدداً كافياً من الأطباء لكي يشرفوا على كل المستوصفات الطبية عُيِّن الزوار ككهنة. ودعوة الشخص الزائر ليصير طبيباً هي بمثابة دعوة الشخص الذي لم يتحد بالله ليصير أسقفاً، وهذا أمر غير واقعي ويؤدي إلى إخلال العمل العلاجي الذي للكنيسة.

"وعلى أية حال فإنه مع مرور الوقت ظهر أساقفة وكهنة لم يصل أي واحد فيهم ولا حتى لمرحلة الإستنارة. لقد كانت تلك الحالة هي التي أثارت الثورة التي دعا إليها القديس سمعان اللاهوتي الجديد وأدت إلى تولى السكونيين مسئولية رتب الكهنوت ولكن هذا لم يتحقق كلية حتى زمن القديس غريغوريوس بالاماس.

"لقد كان العلاج الرسولي مصوناً في حقبة ما بعد الرسل وحتى ظهور الفرنجة والإمبراطورية والأرثوذكسية اليونانية الحديثة Neo-Hellenic، من خلال التركيز على هذا التقليد الرسولى فى الرهينة. بمعنى أن التدريب العلاجي على الإستنارة والإتحاد بالله إنتقل من إبروشية العالم التي أصبحت ضعيفة، إلى إبروشية الرهينة. وفي نفس الوقت تحولت مقار المطرانيات والإبروشيات إلى أديرة. وهذا هو السبب الذي من أجله سُميت كنيسة القديسة صوفية الدير الكبير حتى في تقليد العامة. لقد أصبحت الرهينة نوعاً من

المدرسة الطبية حيث درس المرشحون للأسقفية طرق العلاج الرسولية. وبالإضافة إلى ذلك كانت مهمة كل إبروشية في المدن أن تقتل بالبروشية الرهبانية على قدر إستطاعتها، لأن الإستنارة والاتحاد بالله لا يمكن الإستغناء عنهما لشفاء كل الناس طملاً أن للجميع عقولاً مظلمة.

ولا يوجد فرق عقائلي بين الإبروشيات في المدينة وبين الإبروشيات الرهبانية من جهة الأسرار المقدمة والحاجة للشفاء، بل يكمن الفرق في كمية ونوعية النجاح في الشفاء<sup>52</sup>.

## ٢- إعادة إضرام عطية الروح

لقد أظهرنا أن الكهنوت هو عطية عظيمة معطاة لأولئك الذين تعافوا من الأهواء، ووُضِعوا في وضع الأطباء لكي يشفوا أهواء الشعب.

وكما أن الطبيب يحتاج لتجديد مستمر وإلا لن يستطيع أن يشفي أمراض الناس بطرق جديدة؛ هكذا ينطبق نفس الشيء إلى حد ما على حالة الكهنة. فالأمر يتطلب جهاداً عظيماً للحفاظ على موهبة الكهنوت هذه في كل الأوقات. يحمل الكاهن في داخله كهنوت المسيح ويجب عليه أن يحافظ عليه غير مدّنس وهذا له معنى عميق.

يوجد كهنة لم يُعزلوا وبالتالي يستطيعون أن يقيموا القداس ويمارسوا الأسرار بنعمة الله. وحقاً إن كهنوتهم غير ممنوع ظاهرياً لأنهم لم يُدانوا من قبل الكنيسة؛ إلا أنه عديم القوة لأنهم دنسوه بحياتهم. إنهم يستطيعون تقديس القرايين ولكنهم لا يستطيعون هم أنفسهم أن يتقدّسوا بها كما يقول نيكولاس كاباسيلاس.

أين يظهر هذا الضعف الروحي؟ إنه يظهر بصورة رئيسية في حقيقة أنهم لا يستطيعون المعالجة ولا يعرفون كيف يعالجون. إن إقامة الأسرار هي عمل نعمة الله المعطاة في سر الكهنوت. ولكن شفاء أمراض الناس هو عمل نعمة الله المعطاة للشخص الذي يجعل عطية المعمودية فعّالة، والذي يستعمل العطية الملوكية التي للنعمة. وهذا يفسر لماذا لا يعرف العديد من الكهنة كيف يعالجون أهواء الناس ولماذا يكونون غير قادرين على ذلك. إنهم لا يعرفون أية طريقة يطبقون، وليس لديهم أية فكرة عن ماهية القلب والعقل ولا كيف يمكن أن يُسبى العقل ولا كيف يموت القلب. إنهم ينظرون بإستمرار لهذه

<sup>52</sup> Romanides. RR, p. 29-31. In Gk

التعاليم على أنها تخص الرهبان وهكذا يصنفون تعاليم المسيح والآباء إلى تعاليم رهبانية وتعاليم علمانية. ولكن لا يوجد مثل هذا التمييز في تعاليم كنيستنا الأرثوذكسية.

إننا نود فيما يلي أن نوضح تعليم الكنيسة من خلال الرسل والآباء عن ضرورة أن يُنمّي الكاهن عطية الكهنوت لكي يعيد إشعال النعمة التي تلقاها في سر الكهنوت وإلا لن يستطيع شفاء أمراض الناس الروحية.

## الصفات الرئيسية للكهنة المعالج

لقد نصح بولس الرسول تلميذه تيموثاوس قائلاً: "لا تهمل الموهبة التي فيك" (تي ٤ : ١٤) وهذه النصيحة مشابهة لنصيحته للمسيحيين: "فإذ نحن عاملون معه نطلب أن لا تقبلوا نعمة الله باطلاً" (١كو ٦ : ١)، ومشابهة أيضاً لكلمات نفس الرسول: "ونعمته المعطاة لي لم تكن باطلة" (١كو ١٥ : ١٠) وهو أيضاً يعلم تيموثاوس الرسول قائلاً: "فلهذا السبب أذكرك أن تضرم أيضاً موهبة الله التي فيك بوضع يدي" (تي ١ : ٦).

يتناول بولس الرسول هذا الموضوع كثيراً في رسائله. فيجب على الأسقف والإكليروس بوجه عام أن يخدموا الله والناس بطريقة لائقة ويحرسوا الميراث المقدس من خلال جهادهم للحفاظ على موهبة الكهنوت.

إننا نود أن نستشهد بالعديد من النصوص المميزة: "روض نفسك للتعقوى" (تي ٤ : ٧)، "... تكون خادماً صالحاً ليسوع المسيح متربياً بكلام الإيمان والتعليم الحسن الذي تتبعته" (تي ٤ : ٦)، "كن قدوة للمؤمنين في الكلام في التصرف في المحبة في الروح في الإيمان في الطهارة" (تي ٤ : ١٢)، وهو يطلب من تيموثاوس أن يحفظ عمله "بلا دنس ولا لوم إلى ظهور ربنا يسوع المسيح" (تي ٦ : ١٤) كما يحثه على أن يحفظ التقليد: "إحفظ الودعة الصالحة بالروح القدس الساكن فينا" (تي ٢ : ١٤). المحافظة على التقليد من خلال الروح القدس الساكن في تيموثاوس هي إذاً أمر واجب. وهو يحثه على أن يكون لديه يقظة وإتباع وسهر لكي يحيا بحسب دعوة الله العظمى: "وأما أنت فاصح في كل شيء إحتمل المشقات. إعمل عمل المشر. تم خدمتك" (تي ٢ : ٤ : ٥).

تتناول التعاليم الأبائية كل الصفات الرئيسية التي يجب أن يتحلى بها الكاهن لكي يصبح قادراً على أن يحيا بحسب مهمته العظيمة ودعوته العليا. وسوف نحاول فيما يلي أن

نختار من هذه التعاليم وخصوصاً من كتابات القديس يوحنا ذهبي الفم والقديس  
ثيودور غنوستس إذ تعبر تعاليم هذين القديسين عن كل الكنيسة الأرثوذكسية.

يرى القديس ثيودور غنوستس أنه يجب على الكاهن ليس فقط أن يكون ممتلئاً من  
التقاليد البشرية، ولكن يجب عليه أيضاً أن تكون نعمة الله مخفية باطنياً فيه: "فيما تمارس  
الأسرار تأكد من أنك لا تعتمد فقط على التقاليد البشرية، ولكن دَعْ نعمة الله تملأك  
داخلياً، وبصورة خفية، بمعرفة الأمور العليا"<sup>53</sup>. "إن كرامة الكهنوت مثل ملابس  
الكهنوت ممتلئتان من المجد، ولكن يتحقق ذلك فقط عندما يكون الكاهن مستتيراً من  
الداخل بنقاوة النفس"<sup>54</sup>. من أجل ذلك يجب على الكاهن أن يحافظ على هذه العطية  
الإلهية: "كما يحافظ على حذقة عينه" وأن يحافظ على كرامته غير ملوثة"<sup>55</sup>.

هذه الأمور توضح أن يقظة عظيمة مطلوبة من الكاهن، وهذا يتطلب معاناة كثيرة. يجب  
على الكاهن أولاً وقبل كل شيء أن يقيم القداس الإلهي من أجل نفسه "بيقظة ومثابرة"<sup>56</sup>.

يؤكد القديس يوحنا ذهبي الفم على هذا الإنذار المستمر لحفظ النعمة الكهنوتية.  
وهو يقول أنه يجب على الكاهن أن يكون وقوراً وذا بصيرة وأن يمتلك "آلاف الأعين التي  
تنظر في كل اتجاه"<sup>57</sup>. يجب عليه أن يتشبه بالشاروبيم الممتلئين أعيناً لكي يعبد رب الجنود  
بطهارة. كما يجب عليه أن يكون محاطاً بأسوار من كل الاتجاهات وأن "يكون ذا غيرة  
شديدة وإعتدال في الحياة مستمر" لكي لا يصيبه أذى"<sup>58</sup>. ويقول القديس يوحنا ذهبي الفم  
أنه تماماً كما تتطلب النار وقوداً "هكذا تتطلب النعمة نشاطاً، لكي تكون مثقلة دائماً".  
هذه النعمة هي تحت سلطاننا لكي نطفئها أو نُضرمها. تنطفئ نعمة "رئاسة الكنيسة"  
بسبب "الكسل والتواني"، ولكنها تبقى مشتعلة "باليقظة والجهاد"<sup>59</sup>.

لا يمكن الإستغناء عن اليقظة حتى يحفظ المرء نفسه نقياً، ولكي تدوم بالتالي نعمة  
وبركة الكهنوت. ويقول القديس ثيودور غنوستس أن الكهنوت "يتطلب منا طهارة ملائكية  
ودرجة من التمييز وضبط النفس أكبر من التي كانت في حياتنا السابقة"<sup>60</sup>. ويرى القديس

<sup>53</sup>. Philok. 2. p. 362, 18

<sup>54</sup>. Ibid. 372, 56

<sup>55</sup>. Ibid. p. 370, 50

<sup>56</sup>. Ibid. p. 373, 60

<sup>57</sup>. On the Priesthood. III, 12, p. 82

<sup>58</sup>. Ibid. 14, p. 86

<sup>59</sup>. Hom. 1 on 2 Tim. 1. NPNF vol. 13, p. 477, 2

<sup>60</sup>. Philok. 2. p. 370, 49

يوحنا ذهبي الفم أنه يجب على الكاهن أن يكون نقياً كما لو كان واقفاً في السماء ذاتها في وسط القوات الملائكية<sup>61</sup> ويجب أن تكون نفس الكاهن أظھر من أشعة الشمس "حتى لا يتركه الروح القدس مهجوراً أبداً"<sup>62</sup>.

التوبة هي صفة روحية أخرى لا غنى عنها للكاهن. فليصبح الكاهن أبيض أكثر من الثلج "بمجاري الدموع"، وبعد ذلك فليلمس القُدسات بقداسة "وبضمير نقي"<sup>63</sup>.

يجب على طهارة الكاهن أن تسطع وتشعّ على المسيحيين. كما يجب عليه أن يكون نقياً من الأهواء "وخصوصاً النجاسة والضعينة، وأن يحفظ ذهنه خالياً من الأهواء"<sup>64</sup>. يؤكد العديد من الآباء على أن هذين الهويين (النجاسة والضعينة) لا يجب أن يقتربا من الكاهن، وإلا فإن نعمة الله لن تعمل لشفاء أولاده الروحيين، ومن ثم يظل الكاهن مريضاً كما أوضحنا. يجب عليه أن يسلم "نفسه للموت عن الأهواء والشهوات الحسية"<sup>65</sup>. وبالإضافة إلى ذلك وبحسب الأنبا دوروثيئوس فإن "كل شيء يقدم كذبيحة لله سواء كان خروفاً أم بقرة أو ما شابه ذلك فهو ذبيحة"<sup>66</sup>، وبالتالي يكون على الكاهن أن يتقدّس لله كلية.

وحيث أن الكاهن هو خدام الإنجيل يجب عليه وقبل كل شيء أن يطبق الإنجيل الذي يصف رحلة المسيحي المجاهد لكي يصل للإتحاد بالله. فلا بد أن تكون الحياة النسكية للكنيسة التي نصفها في هذا الكتاب، أن تكون معروفة لرعاة الكنيسة. وعندما نقول "معروفة" فإننا لا نعني أنه يجب عليها أن تكون معروفة في الذهن من خلال محاضرات أو قراءات، ولكن من خلال خبرتهم الحية. لأن ما يحدث داخل قلب الكاهن يساعد المسيحيين المؤمنين. يقدم شخص ما دمه لآخر لكي ينقله. إنها مشاركة مع الآخرين، وهي تملأ الناس.

على أية حال وبالإضافة إلى تطهيره وتوبته ووقاره وبقظته، فإنه يجب على الكاهن أن يكون ممتلئاً بكل نعم الروح القدس وكل الفضائل. والفضيلة الرئيسية هي الإبتضاع المقدس الذي، بحسب القديس إسحق السرياني، هو "ثوب الألوهية" طالما أن الله لكي

61. On the Priesthood. III, 4, p. 70

62. Ibid. VI, 1, p. 137

63. Theognostos. Philok. 2, p. 362-3, 18

64. Ibid. p. 362, 17

65. Ibid. p. 361, 13

66. SC 92, p. 476, 175

يُخْلِصُ الإنسان "وضع ذاته" كما يقول الرسول. وبالإضافة إلى ذلك فإن الإفخارستيا التي يقيمها الكاهن تُظهر لنا هذا الإتضاع الذي للمسيح.

إننا نستطيع من خلال الإفخارستيا أن ندخل في هذا الإتضاع المقدس وأن نكتسب طريقة الحياة الباذلة هذه. وبالتالي فإننا عندما نحتفل بالليتورجية المقدسة فإننا لسنا نتطلع فقط إلى تحوُّل الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح ولكننا نطلب أن نكتسب طريقة المسيح في الحياة، وهذا هو الإتضاع. إننا نطلب أن نلتحف بروح الإفخارستيا التي هي إخلاء الذات.

ينصح القديس ثيودور غوستوس في هذا المضمار قائلاً: "ضَعْ ذاتك مثل الحروف المهيأ للذبح، ناظراً إلى كل الناس على أنهم أفضل منك حقاً"<sup>67</sup>. وفي الواقع يعط نفس الأب قائلاً: "أنظر لنفسك على أنك تراب ورماد أو نفاية أو كمثل كلب"<sup>68</sup>. يجب على الكاهن أن يؤدي خدمة الكهنوت "بخوف ورعدة"، وبهذه الطريقة يُفصِّل كلمة الحق باستقامة ويحقق خلاص نفسه<sup>69</sup>. وعلى أية حال فإن آباء الكنيسة يدركون الحقيقة الواقعة فهم ليسوا غير واعين لوجود العديد من الكهنة الغير أكفاء، الذين يتجراؤون على إقامة السر المقدس بدون أن يمتلكوا هذه الصفات الرئيسية. ويرى القديس يوحنا ذهبي الفم أن الكهنوت لا يغطي على أهواء الكاهن بل يكشفها ويجعلها ظاهرة. وكما تمتحن النار المعادن، "هكذا يفرق الكهنوت بين نفوس الناس. فلو كان هناك شخص حاد المزاج أو مغروراً أو متبجحاً أو أي شيء مما يشبه ذلك، فإن الكهنوت يعرِّي حلاً كل هذه النقائص ويكشفها. وليس فقط أن الكهنوت يعرِّيها، ولكنه يجعلها أيضاً أكثر صلابة وصعبة المراس"<sup>70</sup>.

ويقول القديس يوحنا الدرجي أنه رأى كهنة كبار السن "مخدوعين من الشياطين"<sup>71</sup>. لا يتردد الآباء في كشف عقوبة الكهنة الغير مستحقين؛ أولئك الذين يمارسون هذه الرتبة بدون اختبار حقيقي ولا إعداد ولا حياة. ذلك لأنهم بدلاً من أن يشفوا نفوس القطيع يتسببون في تجربتها.

يكتب القديس إيسيدوروس الفارمي قائلاً: "دعونا لا نستعين بالإلهيات"<sup>72</sup>.

67. Philok. 2, p. 376, 70

68. Ibid. p. 362, 16

69. Ibid. p. 371, 53

70. On the Priesthood VI, 8p. 147

71. Ladder. Step 14. CWS p. 166

72. Nicodemos of the Holy Mountain. Commentary on the Epistles. Vol. 3, p. 112, note 1. In Gk

ويقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "قد تسبب رتبة الكهنوت في إدانتنا بعدم التعامل معها بطريقة صحيحة".<sup>73</sup>

يخاطب القديس ثيوغونوستس الكاهن الغير قابل للتغيير والذي يتمسك بالكهنوت المقدس قائلاً: "انتظر الوقوع في يدي الله الحي واختبار غضبه، فلن يعفيك الله لكونه حنوناً".<sup>74</sup> إنه يخبرنا أن: "العديد من الغير أكفاء إختطفوا بعيداً بموت مفاجئ وأرسلوا إلى الدينونة".<sup>75</sup>

يوجد في ذهني مثالان لكهنة غير أكفاء إنتهوا بنهايات مختلفة: كان أحدهما يبدو مكرماً بين الناس من الظاهر وعلى الرغم من ذلك "كان من الداخل فاسقاً ومدنساً" وهكذا في وقت تسبحة الشاروبيم عندما كان يقول: "لأنه ليس أحد مستحقاً...." مات فجأة".<sup>76</sup>

وأما الآخر فكان قد سقط في هوى النجاسة وأصبح بالتالي مريضاً غير قابل للشفاء، وكان مشرفاً على الموت. وعندما تحقق من عدم إستحقاقه ونذر أن يكف عن إقامة الأسرار "شفي في الحال بحيث لم يبقَ ولا حتى أثر واحد لمرضه".<sup>77</sup>

لقد إستفضنا في هذا الموضوع على الرغم من أنه كان يبدو بعيداً عن موضوع دراستنا، لأننا أردنا أن نؤكد بالأخص على أن الكهنوت هو خدمة رعوية للشعب. يقتنى الكاهن والأسقف هذا المجد العظيم الذي لخدمة الناس، التي هي أولاً وقبل كل شيء شفاء. إن وجود الكنيسة يهدف لا إلى مجرد عمل إجتماعي وخدمة إحتياجات الناس الإجتماعية ولكنه يهدف إلى قيادتهم إلى الخلاص أي إلى شفاء نفوسهم. يتطلب هذا العمل العديد من المواصفات. ويجب على الكاهن أن يكون مسكناً لنعمة الله. فهو غير موجود هنا مجرد أن يؤدي الأسرار، ولكنه أيضاً لكي يتقدس بواسطة مجيئ أنه إذ يتقدس يستطيع أن يقُدس الناس بوجوده. هذا العمل سامي جداً، ومن أجل ذلك يعلن القديس يوحنا ذهبي الفم قائلاً: "إنني لا أعتقد أنه يوجد العديد من الكهنة الذين خلصوا، ولكن يوجد العديد من الكهنة الذين يهلكون وذلك لأن هذا الأمر يتطلب نفساً عظيمة".<sup>78</sup>

<sup>73</sup>. On the Priesthood. III, 9 p. 78

<sup>74</sup>. Philok. 2 p. 371, 54

<sup>75</sup>. Ibid. p. 363, 21

<sup>76</sup>. Ibid. p. 363, 21

<sup>77</sup>. Ibid. p. 372,55

<sup>78</sup>. Hom. 3 on Acts. LF vol. 33 p. 48, 4

### ٣- الكهنوت الروحي

لقد قلنا من قبل أن للكهنة مهمة مزدوجة: الأولى هي إقامة الأسرار والثانية هي شفاء الناس بحيث يستطيعون أن يقتربوا من التناول المقدس بإستحقاق. وبالإضافة إلى ذلك أشرنا إلى أنه يوجد العديد من الكهنة الذين هم كهنة من الخارج ويؤدون عملهم بدون موانع ولكنهم دنسوا الكهنوت في الجوهر وأن هذا واضح من حقيقة كونهم غير قادرين على الشفاء. إنهم يؤدون الأسرار وتقدس القرايين من خلالهم ولكنهم لا يستطيعون شفاء الآخرين أو تخليص نفوسهم هم ذواتهم.

ومن جهة أخرى يوجد علمانيون ورهبان لا يقتنون الكهنوت الذي يمارس الأسرار، ولكنهم يستطيعون شفاء الناس لأنهم يقتنون كهنوتاً روحياً. إننا نود أن نقف قليلاً عند هذه النقطة.

يلبس كل المسيحيين المسيح من خلال المعمودية، كما يقول القديس بولس، ومن خلال الجهاد لحفظ الوصايا. وعن هذا الطريق فإننا نشترك في الخدمة الكهنوتية العظيمة للمسيح وملوكيته ونبوته.

هذا التعليم مسجل في نصوص العهد الجديد. يكتب يوحنا الإنجيلي في سفر الرؤيا قائلاً: "ومن يسوع المسيح الشاهد الأمين البكر من الأموات ورئيس ملوك الأرض الذي أجبا وقد غسلنا من خطايانا بدمه، وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبية. له المجد والسلطان إلى أبد الأبدين آمين" (يو: ١: ٥-٦). ويقول بطرس الرسول: "وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي، أمة مقدسة، شعب إقتناء، لكي تجربوا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب" (١بط: ٢: ٩). وكتب بولس الرسول إلى مسيحي روما قائلاً: "فأطلب إليكم أيها الأخوة برأفة الله أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية" (رو: ١: ١٢).

إننا نجد أيضاً في العديد من كتابات الآباء هذا التعليم عن أن كل شخص هو كاهن للمسيح بالمعنى الذي عرفناه والذي سوف نتناوله بأكثر إستفاضة فيما يلي. يقدم القديس يوحنا ذهبي الفم إبراهيم ككاهن أيضاً لأنه "لمذا نشك في كهنوته بينما توجد نار ومذبح وسكين؟". لقد كانت ذبيحة إبراهيم مزدوجة فقد قدم كلاً من ابنه الوحيد والكبش "وفوق كل ذلك قدم مشيئته الخاصة". لقد قدس يله اليمنى بدم الكبش، وقدس نفسه بذبح ابنه (الذي كان قد قرر أن يفعله). "وهكذا رُسِم كاهناً بدم ابنه الوحيد وبذبيحة الحمل". وبعد ذلك على الفور بحث القديس يوحنا ذهبي الفم سامعيه قائلاً: "وهكذا جعلت أنت أيضاً



ملكاً وكاهناً ونبيّاً في جرن المعمودية: ملكاً إذ أنك تطرح أرضاً كل أفعال الشر وتذبح خطاياك، وكاهناً لأنك تقدم ذاتك قرباناً لله وتقدم جسدك ذبيحة، وأنت ذاتك تُذبح أيضاً<sup>79</sup>.

إن كل المؤمنين المعمدين بإسم الثالوث القدوس والذين يعيشون بحسب إرادة الله المثلث الأقانيم هم كهنة ولهم كهنوت روحي. إننا نفضل تعبير "كهنوت روحي" على التعبيرات الأخرى مثل كهنوت "عام" أو كهنوت "علماني" لأن كلاً من الإكليروس وعامة الشعب يستطيعون أن يقتنوا هذا الكهنوت، ولأن ليس كل المعمدين يقتنونه ولكن فقط أولئك الذين صاروا مسكناً للثالوث القدوس. إن المؤمن الذي يؤدي صلاة عقلية يقتني كهنوتاً روحياً، وخصوصاً أولئك الذين وصلوا لدرجة من النعمة بحيث يصلون من أجل العالم كله. هذه هي الخدمة الروحية لصالح العالم. إن صلوات أولئك الذين يضحون بأنفسهم مُصلّين من أجل الجميع، تسند العالم، وتشفى الناس، وهكذا تطرد الأرواح الشريرة وتُخرج الشياطين التي تسود في المجتمعات البشرية. هذا هو العمل العظيم لأولئك الذين يصلون بغير إنقطاع من أجل العالم كله.

كتب القديس غريغوريوس السينائي عن هذا الكهنوت الروحي الذي هو أيضاً الدعامة الرئيسية لسر الكهنوت. لأنه كما قلنا من قبل، فإن أولئك المؤمنين الذين شُفُوا ولهم صلاة عقلية، هم مختارون لتلقّي نعمة الكهنوت الخاصة أيضاً. ويرى القديس غريغوريوس أن الصلاة العقلية هي "الليتورجية السرية التي للذهن"<sup>80</sup>. يشعر الشخص الذي عنده موهبة الصلاة العقلية بعمل النعمة في داخله، التي هي مُطَهِّرة وواهبة للإستنارة، وسريّة.

إن كل الذين يبلغون هذه الحالة هم كهنة: "المذبح الحقيقي هو قلب تحرر من الأفكار الشريرة، ويتلقى عمل الروح القدس، لأن كل ما يقال ويعمل في هذا القلب هو روحاني"<sup>81</sup>.

يدفعني هذا النص الذي للآباء القديسين إلى أن أقول أن الكهنوت الروحي هو ذاك الذي يكتمل في الدهر الآتي في ملكوت السموات. لا أود البقاء عند موضوع الكهنوت الذي لا يحى والذي هو خارج الأسرار ولكنني أؤكد على حقيقة أن سر الكهنوت هو لصالح العامة لكي يخدم إحتياجاتهم، على حين أن الكهنوت الروحي هو ذاك الذي سوف

<sup>79</sup>. Hom. On 2 Cor. LF vol 27 50-51

<sup>80</sup>. Acrostics, 111. Writings from the Philokalia. P. 61

<sup>81</sup>. Ibid. p. 38, 7

يستمر في المذبح السماوي في الحيلة الآتية. إن كل الذين يمتلكون كهنوتاً روحياً هم "إكليروس حقيقي" الآن وإلى الأبد.

من الممكن أن يشتمل هذا الكهنوت على كل فئات الرجال والنساء. من أجل ذلك هو أمر بلا قيمة كبيرة عدم قدرة النساء على تلقي سر الكهنوت في التقليد الأرثوذكسي، لأنهن يمتلكن إمكانية أن يصرن "إكليروساً حقيقياً".

يوضح القديس غريغوريوس السينائي في موضع آخر قائلاً: "كما مسح ملوك وكهنة العهد القديم بصورة رمزية، هكذا يُمسح كل الملوك والكهنة المخلصين في تجديد المعمودية بحق". لقد كان كهنة العهد القديم "رموزاً حقيقية ترمز لحقيقتنا" ولكن "ملكوتنا وكهنوتنا" ليسا "بنفس الطابع والشكل"<sup>82</sup>.

عندما يُكتشف عقل إنسان ما ويتحرر من أسرهِ، ويتلقى الروح القدس، فإن ذلك يكون "كهنوتاً روحياً". وبعد ذلك يقيم ليتورجية سرية في مذبح نفسه ويكون له شركة مع الحمل في عرس الله. إنه يأكل حمل الله في هذا الكهنوت الروحي في مذبح نفسه الروحي، ولكنه يصبح في نفس الوقت مثل الحمل. وهكذا نفهم جيداً أنه عندما تعمل الصلاة العقلية فينا، تكون هناك ليتورجية إلهية غير منقطعة تغذي كل كيانتنا. يكتب القديس غريغوريوس السينائي قائلاً: "إن عمل النفس العقلي هو ليتورجية روحية مثل العروس أمام الفرع الآتي الذي يفوق كل فهم. وهذه الليتورجية يؤديها العقل الذي يقدم ذبيحة سرية، وهي حمل الله على مذبح النفس ويشارك فيها. ويعني أكل حمل الله على مذبح النفس الداخلي ليس فقط أن يفهمه وأن يشارك فيه، ولكن أيضاً أن يصبح مشابهاً له في الحيلة الآتية. إننا هنا نستمتع بكلمات الأسرار، ولكن هناك نترجى أن نتلقى جوهرها الحقيقي"<sup>83</sup>.

يكتب أيضاً نفس القديس قائلاً أن ملكوت السموات يشبه خيمة إجتماع مصممة من قِبَل الله لأجل موسى "لأنها سيكون لها أيضاً حجابان في الدهر الآتي". وكل "كهنة النعمة" سوف يدخلون الخيمة الأولى ولكن لن يدخل الخيمة الثانية إلا أولئك الذين يقيمون القداس من الآن فصاعداً "في غياهب اللاهوت بالتردد في الكمال" حيث يكون يسوع هو الكاهن والأسقف الأول أمام الثالث<sup>84</sup>.

<sup>82</sup>. Ibid. p. 72, 133

<sup>83</sup>. Ibid. p. 60-61, 112

<sup>84</sup>. Acrostics, 43

وهكذا فإن كل الذين إكتسبوا نعمة اللاهوت، كما شرحنا من قبل، أي كل الذين دخلوا في الظلام الإلهي بعد التثويرا الطبيعية هم أنفسهم كهنة لله ويشكلون هذا الكهنوت الحقيقي والروحي. وحيث أنهم كهنوت روحي فهم يستطيعون أن يشفوا المريض.

يعلم نيسيتاس ستيثاتوس أنه لو أن أي كاهن أو شماس أو حتى راهب يشترك في النعمة الإلهية بكل الإفتراضات المسبقة الموضوعية من قِبَل الآباء "فإنه يكون أسقفاً حقيقياً" حتى لو لم يكن قد سيم أسقفاً من قِبَل الناس. وعلى العكس من ذلك فإن أيّاً من يكون خاملاً في الحياة الروحية "فإنه يسمى أسقفاً بالخطأ حتى لو كان بالرسامة قد وُضِعَ في مرتبة أعلى من الآخرين ويسخر منهم ويتصرف بكبرياء".<sup>85</sup>

ربما يكون ما إقتبسناه بأعلى عن أن "كل ما يشكل الكهنوت الروحي يستطيع أن يشفي المريض" لم يُقْبَل جيداً. على أية حال فإن تعليم القديس سمعان اللاهوتي الجديد بخصوص هذه النقطة هو واضح جداً.

يكتب القديس عن أن سلطان الحل والربط يخص فقط الأساقفة الذين تلقوه بالتسليم من الرسل. ولكن "عندما صار الأساقفة عديمي الفائدة إنتقلت هذه الوظيفة المربعة للكهنة الذين عاشوا حياة بلا لوم جديرة بنعمة الله". وعندما سقط الكهنة أيضاً مثلهم مثل الأساقفة في الخطأ الروحي "إنتقلت هذه المهمة لرجال الله المختارين أي الرهبان (أي تم إختيار الأساقفة من الرهبان حيث كانوا يختارون في عصر سابق من عامة الشعب) وليس أنها نزعَت من الكهنة والأساقفة ولكنهم غرَبُوا أنفسهم عنها".<sup>86</sup>

يرى القديس سمعان أن سلطان الحل والربط لم يُعطَ لهم "لجرد أنهم قد رُسِموا". إن وضع الأيدي لم يُعطى للمطارنة والأساقفة إلا للسماح بإقامة الإفخارستيا، وأما سلطان مغفرة الخطايا فقد "أُعطي فقط للكهنة والأساقفة الذين كانوا قد حُسِبوا بين تلاميذ المسيح بسبب طهارتهم".<sup>87</sup>

إننا نعتقد أن القديس سمعان نادى بهذا التعليم هادفاً أولاً إلى التأكيد على أن سر الكهنوت لم ينقل بطريقة سحرية سلطان مغفرة الخطايا حتى لو كان الرجل لا يقتني كهنوتاً روحياً داخلياً، وثانياً لكي يُظْهِر حالة الإكليروس البائسة في ذلك الحين، وثالثاً لكي

<sup>85</sup> . Mantzarides. Palamika. P. 279-280. In Gk

<sup>86</sup> . Krivocheine: In the Light of Christ. P. 134f

<sup>87</sup> . Ibid. p. 136

يؤكد على قيمة الكهنوت الروحي الذي يكمن في الصلاة العقلية ورؤية الله. وهذه مع الأسف قد أهملت في ذلك الوقت كما هو الحال الآن أيضاً. ورابعاً لأنه هو نفسه كانت له خبرة روحية عن ذلك إذ أن أباه الروحي الذي لم يكن قد سيم من قبل أسقف كان يقيني نعمة الروح القدس وكان قادراً على شفائه من الخطايا.

بالإضافة إلى ذلك فإن أباه الروحي "سمعان التقي" لم يعالين سر الكهنوت. يكتب القديس سمعان اللاهوتي الجديد قائلاً: "أنا أعلم أن نعمة الحل والربط تُمنح من الله لأولئك الذين هم أبناء بالتبني ولخداثة القديسين. أنا أيضاً كنت تلميذاً لأب لم توضع عليه اليد من قبل الناس ولكنه من خلال يد الله أي الروح القدس أدرجني بين التلاميذ وأهلني لأن توضع عليّ اليد من قبل الناس بحسب طقس الكهنوت؛ أنا الذي دفعني الروح القدس ناحية هذا الأمر الواقع منذ وقت طويل".

"وإذ سمع وصايا المسيح أصبح شريكاً في نعمته وعطاياه وتلقى منه موهبة الشفاء من الخطايا التي أضرمها فيه الروح القدس"<sup>88</sup>.

عندما نتكلم عن غفران الخطايا يجب علينا أن نفهمه بالدرجة الأولى على أنه الشفاء من الأهواء. من أجل ذلك نرى اليوم بوضوح أن الرهبان "الموهوبين" يعطوننا الشفاء دون أن يقتنوا سر الكهنوت ولأنهم ذوو رؤية نقّاة، فإنهم يدركون المشكلة التي تزعجنا ويعطوننا علاجاً وطريقة للشفاء، وهكذا نُشْفَى مما كان يؤرقنا داخلياً. إن وجود مثل أولئك الرجال القديسين يعطي تعزية للشعب.

## ٤- البحث عن معالжин

إننا نصل الآن للجزء الرابع من هذا الفصل والذي هو البحث عن معالжин. وطالما أننا أصبحنا واعين للمرض الروحي وللقيمة العظمى للكهننة المعالجين، فإنه يجب علينا أن نبحث عنهم لكي نتحرر من قروح نفوسنا. ويحتاج المرء بحق لمجهود كبير لكي يجد أولئك القادة الحقيقيين للشعب، أطباء نفوسنا وأجسادنا، طالما أنه وبدون شك يوجد العديد من أمراض الجسد التي لها أصل روحي.

ينصح القديس غريغوريوس بالاماس في عظته على إنجيل الأحد الجديد قائلاً: "ليطلب كل مسيحي بإجتهد بعد حضور الكنيسة يوم الأحد شخصاً يحاكي الرسل الذين كانوا في العلية بعد الصلب، حيث يبقى مُغلَقاً علي نفسه تماماً معظم الوقت، راغباً في أن يكون مع الرب في صلاة صامتة وتسبيح بالإضافة إلى طرق أخرى". فليقترب إذاً المسيحي منه وليدعه يدخل بيته بإيمان "كما لو كان مكاناً سماوياً يقتني داخله قوة الروح القدس المقدسة". فليجلس مع الرجل الذي يعيش هناك وليبقَ معه أطول وقت ممكن سائلاً إياه عن "الله والأمور المختصة بالله" متعلماً منه باتضاع، وطالِباً صلاته. وبعد ذلك يقول القديس: "أنا أعلم أن الله سيأتي إليه بطريقة غير مرئية، ويمنح سلاماً داخلياً لأفكار نفسه، ويُزيد من إيمانه، ويعطيه معونة. وسوف يحسبه في ملكوت السموات في الدهر الآتي"<sup>89</sup>.

إنه أمر ضروري أن يطلب المرء مثل هذا الأب الروحي. ومن الجدير بالاهتمام أن ننصت لما يقوله القديس سمعان اللاهوتي الجديد في هذه النقطة. إنه يقول: إسأل الله لكي يظهر لك رجلاً "قادراً على إرشادك جيداً لكي تدين له بالطاعة". يجب علينا أن نطيع الشخص الذي يظهره لنا الله "بصورة سرية في شخص ما أو بصورة مُعلنة من خلال خادمه" وأن نحترمه "كما لو كان هو المسيح نفسه"<sup>90</sup>.

يجب علينا أن نُظهر لأبينا الروحي الذي هو بلا هوى نوع الثقة والحب الذي يُظهره الشخص المريض لطبيبه منتظراً منه العلاج والشفاء. بل يجب علينا أن نشعر نحوه بثقة وحب أكبر من ذلك، حيث أنه يوجد فرق بين النفس والجسد. فالمسيح نفسه يكون حاضراً في الأب الروحي إذ أنه يكون بمثابة "فم الله".

بالإضافة إلى ذلك يربط القديس سمعان بين موقف الرسل من جهة المسيح والموقف الذي يجب علينا أن نتخذه من جهة أبينا الروحي، لأن هذه هي الطريقة التي يمكن لنفوسنا أن تُشفى بها. وكما تبع الرسل المسيح فلنفعل نحن أيضاً هكذا. لا يجب علينا أن نترك أبانا الروحي عندما يحقر منه الناس ويسخرون منه. وكما أخذ بطرس سيفه وقطع الأذن "خذ سيفك ومد يديك وإقطع ليس فقط أذن بل ولسان ذاك الذي يحاول أن يتكلم ضد أبيك أو يلمسه"، وإليك مثل بطرس لو أنكرته، ولو رأيته مصلوباً فلتُمتَّ معه إن استطعت. ولو كان ذلك غير مستطاع فلا تشترك مع الناس الخونة والأشرار. "ولو أنه خرج من السجن فلترجع إليه ثانية ووقِّره بالأكثر مثل شهيد. ولو أنه مات من معاملة

<sup>89</sup> . Palamas. Hom. 17, 22. EPE vol. 9, p. 512-514. In Gk

<sup>90</sup> . SC 104, p. 334. CWS p. 232

سيئة، فلتطلب إذاً جسده بجرأة وقدم له كرامة أكثر مما عندما كان حياً. وهكذا إذهنه بالطيب، وضعه في قبر ثمين"<sup>91</sup>.

إنه أمر مميز أن يوضع الأب الروحي الذي هو المعالج في مكان المسيح. يستعمل أيضاً القديس سمعان نوعاً من الصلاة يطلب فيها أن يجد مرشداً روحياً مناسباً يقدم له الشفاء الروحي:

" أيها الرب الذي لا يشاء موت الخاطئ بل أن يعود ليحيا؛

أنت الذي نزل للأرض لكي يستعيد الحياة لأولئك المطروحين في موت الخطية لكي تجعلهم مستحقين لرؤيتك أنت النور الحقيقي بقدر ما هو متاح للإنسان... إرسل لي رجلاً يعرفك بحيث أنني إذ أخدeme وأخضع له بكل قوتي كما لو كنت خاضعاً لك، وإذا أصنع مشيئتك من خلاله؛ أستطيع أن أرضيك أنت الإله الحقيقي الوحيد، وبذلك، وحتى رغم كوني خاطئاً أستحق أن أدخل ملكوتك"<sup>92</sup>.

لو صلى المسيحي بهذه الطريقة فإن الله سوف يُظهر له الأب الروحي المناسب لكي يعتني بأمراض وجراحات نفسه.

وبما لا شك فيه أنه لا يجب على المرء أن يغفل حقيقة أن مثل أولئك المعالجين في كل من زمن القديس سمعان وزمننا نادرون. إنه يقول: "في الواقع أولئك الذين يمتلكون مهارة إرشاد وشفاء النفوس العاقلة نادرون وخصوصاً في الوقت الحالي"<sup>93</sup>.

وباختصار يجب علينا أن نقول أنه من الضروري أن نطلب ونجد مثل هؤلاء من الأطباء العلماء أو المعالجين أو حتى المرشدين لكي نشفى روحياً. لا يوجد طريق آخر للشفاء. فالله هو الشافي الحقيقي، ولكن أصدقاه المسيح هم كذلك الذين هم القديسون الذين يسكن فيهم الله الثالوث نفسه.

<sup>91</sup> . Ibid. p. 340-342. CWS p. 235

<sup>92</sup> . SC 129, p. 186-188

<sup>93</sup> . SC 104, 346. CWS p. 236

الباب الثالث

# العلاج النفسي الأرثوذكسي





يجب علينا عندما نعرض موضوع العلاج النفسي الأرثوذكسي في هذا الباب أن نرى ماهية النفس وكيف يتم شفاؤها. ثم ماهية طبيعة العلاقات المتداخلة بين صورة الله في الإنسان، والنفس، والعقل، والقلب، والذهن. كما يجب علينا أيضاً أن نرى كيف يتم شفاء العقل والقلب والذهن.

إنني أعتقد أن هذه هي الموضوعات الأساسية والأكثر أهمية لكي نعرف التطهير الداخلي وعلاج النفس ولكي نعرف أيضاً كيفية تحقيقهما.

## ١- النفس

### SOUL (PSYCHE)

#### ما هي النفس؟

إن كلمة "نفس" Soul هي إحدى أكثر الكلمات صعوبة في الكتاب المقدس وفي الكتابات المسيحية<sup>١</sup>. توجد عدة معاني لكلمة "نفس" في الكتاب المقدس وفي كتابات الآباء. ويقول الأستاذ كريستوس ياناراس: "لقد تمت ترجمة الكلمة العبرية Nephesh إلى الكلمة اليونانية "نفس" Psyche في الترجمة السبعينية؛ والأخيرة تحمل عدة معاني. فأي شيء حي يسمى "نفس" أي كل حيوان. ولكن الإستعمال الأكثر شيوعاً في الكتاب المقدس يخص الإنسان. إنها تعني الطريقة التي تظهر بها الحياة في الإنسان.

وهي لا تعني مجرد وجه واحد من أوجه الوجود الإنساني (أي الروحاني بالمقارنة بالماضي) ولكنها تعني الإنسان بكليته كشخص واحد حي.

"لا تقبع النفس في الجسد فحسب ولكن يعبر الجسد عنها. وهي بدورها تقابل الذات مثل اللحم والدم أو القلب أي الطريقة التي تتحقق بها من الحياة. إن الإنسان نفس؛ فهو كيان إنساني... إنه شخص...."<sup>٢</sup>.

ليست النفس هي علة الحياة ولكنها بالأحرى حاملة الحياة<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup>. Christos Yannaras: Elements of Faith p. 55

<sup>٢</sup>. Ibid.

<sup>٣</sup>. Ibid.

والنفس هي الحياة الموجودة في كل الخليقة سواء كانت نباتاً أم حيواناً. النفس هي الحياة الموجودة في الإنسان كما أنها أيضاً كل إنسان له حياة. النفس هي أيضاً الحياة المعبر عنها من خلال العنصر الروحي في وجودنا إذ أنها العنصر الروحي في وجودنا.

وحيث أن كلمة "نفس" تعني علة معاني، فإنه توجد مواضع عديدة لم يتم توضيح الأمور بها. سنحاول فيما يلي أن نتأمل في بعض إستعمالات مصطلح "نفس" Psyche في نصوص من العهد الجديد وفي نصوص من كتابات آباء الكنيسة.

لقد إستعمل هذا المصطلح من قبل الرب والرسل بمعنى الحياة. قال ملاك الرب ليوسف خطيب والدة الإله: "قم وخذ الصبي وأمه وإذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي" (مت ٢ : ٢٠). ويصف الرب نفسه قائلاً: "أنا هو الراعي الصالح والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف" (يو ١٠ : ١١). بالإضافة إلى ذلك كتب بولس الرسول عن بريسكلا وأكيلا قائلاً: "اللذين وضعنا عنقيهما من أجل حياتي" (رو ١٦ : ٤).

إن المصطلح المستخدم في هذه الأحوال الثلاثة للتعبير عن الحياة هو "نفس" Psyche. وكما قلنا من قبل فإن كلمة "نفس" تستخدم أيضاً للإشارة إلى العنصر الروحي في وجودنا. وسوف نثبت ذلك بالإستشهاد ببعض النصوص الكتابية.

لقد قال الرب لتلاميذه: "لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدر أن يقتلوا بل خافوا بالحرى من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم" (مت ١٠ : ٢٨). لا يستطيع الرجال إذاً أن يقتلوا النفس على حين يستطيع الشيطان أن يفعل ذلك. مما يعني أن النفس تكون مائتة لو كانت بدون الروح القدس. إن الشيطان هو روح مائتة لذلك ليس له نصيب في الله وهو ينقل الموت لكل الذين يلتصقون به. إنه كينونة حية لكنه في وجوده ليس له علاقة بالله. قال الرب للرجل الغني الشاب في المثل: "يا غني! هذه الليلة تُطلب نفسك منك، فهذه التي أعدتها لمن تكون؟" (لو ١٢ : ٢٠).

يظهر في تعاليم المسيح الأخرى الفرق بين النفس (عنصر روحي في الوجود الإنساني والذي هو مائت بالطبيعة ولكنه غير مائت بالنعمة) وبين الحياة. "فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها" (مت ١٦ : ٢٥).

يستخدم الرب في بعض الأحيان المصطلح "نفس" ليعني العنصر الروحي في وجودنا وأحياناً أخرى ليعني الحياة. ويصلي بولس الرسول في رسالته إلى تسالونيكي قائلاً: "والله السلام نفسه يقدسكم بالتمام. ولتُحفظ روحكم ونفُسكم وجسَدكم كاملة بلا لوم عند مجيء ربنا يسوع المسيح" (١ تس ٥: ٢٣). ليست المسألة هنا هي مسألة ما يسمى بالتركيب الثلاثي للإنسان ولكن المصطلح "روح" Spirit مستعمل ليعني نعمة الله أو القدرة الخارقة التي تتلقاها النفس.

ما نريد الإشارة إليه هنا هو أنه يوجد فرق بين النفس والجسد. يكتب القديس يوحنا الإنجيلي في رؤيته: "رأيت تحت المذبح نفوس الذين قُتلوا من أجل كلمة الله ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم" (رؤ ٦: ٩).

لقد قُتل الجسد، ولكن النفس قريبة من الله وهي بلا شك تتحدث معه مثلما يقول الإنجيلي فيما يلي ذلك.

تستخدم كلمة "نفس" أيضاً للإشارة للإنسان بكليته. يوصي بولس الرسول قائلاً: "لتخضع كل نفس للسلطين الفائقة" (رو ١٣: ١).

أعتقد أن هذا التحليل الصغير يوضح أن مصطلح "نفس" له علة معاني في الكتاب المقدس. فهو يستعمل لكي يعني الإنسان كله، كما يعني العنصر الروحي في وجوده، بالإضافة إلى الحياة الموجودة في الإنسان والنباتات والحيوانات وفي كل الأشياء التي تشترك في طاقة الله المعطية الحياة.

يتكلم القديس غريغوريوس بالاماس عن النور الغير مخلوق الذي يأتي ليكون في النفس الحاملة الله من خلال "الله الكامن فيها"، ويقول أن هذه هي طاقة الله وليس جوهره. وحيث أن الجوهر يسمى نوراً فإن الطاقة أيضاً تسمى نوراً. نفس الشيء صحيح من جهة النفس. فكلًا الحياة الروحية والحياة البيولوجية تسمى "نفساً"، ولكننا نعي تماماً أن الروحي والبيولوجي مختلفان: "مثلما تعطي النفس الحياة للجسم الحي ونسمي هذه الحياة "نفساً" على حين أننا ندرك أن النفس الموجودة فينا والتي تعطي الحياة للجسد تختلف عن الحياة ذاتها، هكذا فإن الله الذي يقيم في النفس الحاملة الله يعطيها النور".<sup>٤</sup>

<sup>٤</sup>. Triads, I, 3, 23. CWS p. 39

لقد أوردنا هذا النص لكي نوضح أن الآباء كانوا على وعي جيد بأن مصطلح "نفس" يشير إلى كل من العنصر الروحي في وجودنا وإلى الحياة ذاتها وأنه يوجد فرق كبير بين المعنيين. وسوف نرى ذلك بصورة أفضل فيما بعد عندما نفحص الفرق بين نفس الحيوان ونفس الإنسان.

وفي محاولة لتعريف النفس على أنها العنصر الروحي في وجودنا نعود إلى القديس يوحنا الدمشقي الذي يقول: "النفس هي مادة حية بسيطة غير جسدانية ذات طبيعة غير مرئية للعينين الجسديتين وهي تستعمل الجسد كعضو لها وتعطيه حياة مكللة بالإرادة. وهكذا أيضاً الذهن بالنسبة للنفس فقد مُنح الإرادة والقدرة على العمل وهو الذي يقوم بالتغيير أي بتغيير الإرادة لأنه هو أيضاً مخلوق: "وهذا قد أخذه بحسب الطبيعة من خلال هذه النعمة التي للخالق التي بواسطتها أخذ أيضاً كلاً من وجوده وكيونته الطبيعية كما هي".<sup>5</sup> النفس بسيطة وصالحة "لأنها مخلوقة على هذا النحو من قبل ربها".<sup>6</sup>

كان القديس غريغوريوس أسقف نيصص قد أعطى من قبل نفس هذا التعريف تقريباً الذي للقديس يوحنا الدمشقي: "النفس هي جوهر مخلوق حي عقلاني تنقل من ذاتها قوة الحياة والتمسك بالأشياء المعقولة إلى الجسد المنظم ويستمر ذلك طالما أنها مكوّن طبيعي قادر على التماسك معاً".<sup>7</sup>

يشرح القديس غريغوريوس بالاماس قول بولس الرسول: "صار آدم الإنسان الأول نفساً حية" (كو ١٥ : ٤٥) ويقول أن نفساً حية تعني "أبدية خالدة أي عاقلة إذ أن الخالد هو عاقل. وليس ذلك فقط ولكنها أيضاً مباركة بالنعمة الإلهية. هكذا هي النفس الحية".<sup>8</sup>

إنه يقول أن النفس خالدة ونحن نعي تماماً أن فكرة خلود النفس ليس لها أصل مسيحي ولكن قبلها المسيحيون بعدة شروط وعدة إفتراضات ضرورية.

يكتب الأستاذ يوحنا زيزولاس قائلاً: "على الرغم من أن فكرة خلود النفس ليس لها أصل مسيحي إلا أنها دخلت في تقليد كنيستنا وإخترقت حتى تراثيلنا. لا يستطيع أحد أن ينكر هذه الفكرة دون أن يجد نفسه خارج الجو الأكثر سيادة في الكنيسة... لم تقبل الكنيسة

<sup>5</sup> . The Orthodox Faith. FC vol. 37. p. 236

<sup>6</sup> . Hesychios the Priest. Philok. I, p. 170. 43

<sup>7</sup> . On the Soul and Resurrection. FC vol. 58 p. 205-206. PG 46,29

<sup>8</sup> . Pâlamas: On the Holy Spirit ch. 2,8

هذه الفكرة الأفلاطونية بدون شروط وإفراضات مسبقة والتي تشتمل من بين أشياء أخرى على ثلاثة نقاط أساسية: الأولى أن النفس ليست أبدية ولكنها مخلوقة؛ والثانية أنه لا يجب بأي حال من الأحوال أن نُعرّفها على أنها الإنسان (ليست نفس الإنسان هي الإنسان فالنفس شيء والإنسان الذي هو كيان نفسجسماني شيء آخر). أما النقطة الثالثة والأكثر أهمية هي أن خلود الإنسان لا يستند على خلود النفس ولكن على قيامة المسيح وعلى القيامة العتيدة للأجساد<sup>9</sup>.

لقد أكدنا على أن نفس الإنسان خالدة بالنعمة وليس بالطبيعة، ومع ذلك يجب علينا أن نشدد على أن خلود الإنسان في التقليد الأبائي الأرثوذكسي ليس هو حياة النفس بعد الموت ولكنه تجاوز الموت بواسطة نعمة المسيح. إن الحياة في المسيح هي التي تجعل الإنسان خالداً لأنه بدون الحياة في المسيح يكون موت طالما أن نعمة الله هي التي تعطي حياة للنفس.

والآن بعد أن قدمنا عدة عناصر لتعريف النفس يجب علينا أن نتقل لموضوع "خلقة النفس". فالنفس مخلوقة طالما أنها صنعت بواسطة الله. إن مرجعنا الأساسي هو الإعلان الذي أعطي لموسى: "وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حية" (تك ٢: ٧). يصف هذا النص خلقه نفس الإنسان وفي تفسير هذا النص يقول القديس يوحنا ذهبي الفم أنه من الضروري أن نرى ما قيل بعيني الإيمان وأن هذه الأشياء قيلت: "بتلفظ شديد وبسبب ضعفنا". فلجملة "صنع الله الإنسان ونفخ فيه" غير جديرة بالله ولكن الكتاب المقدس يشرحها بهذه الطريقة من أجلنا وبسبب ضعفنا نازلاً إلى مستوانا بحيث أنه إذ يجعلنا مستحقين لهذا التنازل قد نجد القوة لكي نرتفع إلى هذا العلو<sup>10</sup>.

الطريقة التي صنع بها الله جسد الإنسان وجعله نفساً حية هي إذاً كما هي موصوفة في الكتاب المقدس، طريقة فيها تنازل وهي موصوفة هكذا بسبب ضعفنا.

يكتب القديس يوحنا الدمشقي قائلاً أنه مهما يقال عن الله من خلال مصطلحات بشرية فهو يقال "بطريقة رمزية" مع أنه يحمل معنى أعلى حيث أن ما هو إلهي هو "بسيط وبلا شكل". وطالما أن الكتاب المقدس يقول أن الله نفخ في وجه الإنسان،

<sup>9</sup> . Synaxi No. 6, p. 81-82. (in Gk.)

<sup>10</sup> . Homily 12 on Gen. 2, FC vol. 64, p. 164, PG 53, 102-105

نستطيع أن ننظر إلى تفسير القديس يوحنا الدمشقي بخصوص فم الله: "دعونا نفهم تعبيره بكلمة "فم" والكلام بالقياس إلى تعبيرنا الخاص عن أفكارنا الداخلية بكلمة فم وكلام"<sup>11</sup>. الفم والكلام هما بلا شك شيئان مختلفان عن بعضهما البعض ولكنني أذكر ذلك كدليل طاملاً أنه يوجد علاقة وإرتباط بينهما.

وبوجه عام وكما يقول القديس يوحنا الدمشقي فإن كل ما قيل عن الله بمصطلحات جسدية باستثناء ما قيل عن وجود كلمة الله في الجسد فهو "يحتوي على بعض المعاني التي تعلمنا أشياء تفوق طبيعتنا"<sup>12</sup>.

وهكذا خلقت النفس من قِبل الله تماماً مثل الجسد<sup>13</sup>. ويفسر القديس يوحنا ذهبي الفم نفخة الله هذه في وجه آدم بقوله إنه ليس فقط عديم المعنى ولكنه أيضاً في غير محله، أن نقول أن ما نُفخ في آدم كان هو النفس وأن النفس إنتقلت للجسد من جوهر الله. لو كان ذلك صحيحاً لما كانت النفس عاقلة في إنسان، ومختلة وعدية العقل في إنسان آخر، أو باردة في إنسان، وغير باردة في إنسان آخر. إن "جوهر الله ليس منقسماً ولا متغيراً ولكنه غير متغير". لقد كانت النفخة الإلهية إذاً هي "فعل أو قوة الروح القدس". ومثلما قال السيد المسيح: "إقبلوا الروح القدس"، هكذا أيضاً النفخة الإلهية المسموعة بشرياً هي الروح القدس المكرّم". وهكذا بحسب قول القديس يوحنا ذهبي الفم فإن النفس ليست قطعة من الله، ولكن الروح القدس هو الذي خلق النفس بدون أن يصير هو ذاته نفساً. ويكمل القديس يوحنا قائلاً: "إن هذا الروح القدس لم يصير نفساً ولكنه خلق النفس. إنه لا يتحول إلى نفس ولكنه خلق النفس. ولأن الروح القدس خالق فإن له نصيباً في خلقه الجسد وخلقته النفس. لأن الآب والإبن والروح القدس يخلقون الخليقة بالقوة الإلهية"<sup>14</sup>.

توجد نقطة أخرى يؤكد عليها الآباء القديسون وهي أنه لا وجود للجسد بدون نفس ولا وجود للنفس بدون جسد، لأنه في اللحظة التي خلق فيها الله الجسد خلق النفس أيضاً. يقول القديس أنسطاسيوس السينائي: "لا الجسد وُجد قبل النفس ولا النفس وُجدت قبل الجسد"<sup>15</sup>. ويؤكد القديس يوحنا الدمشقي على ما هو مضاد لرؤية أوريجانوس

<sup>11</sup> . The Orthodox Faith. FC vol. 37, p. 192

<sup>12</sup> . Ibid. p. 192-193

<sup>13</sup> . Hesychios. Philok. 1, p. 196. 192

<sup>14</sup> . Festal Menaion (in Greek) p. 73, note 1

<sup>15</sup> . Q 91. PG 89, 724

قائلاً: "لقد تكوّن الجسد والنفس في نفس الوقت، ليس الواحد أولاً والآخر بعده"<sup>١٦</sup>. ويقول القديس يوحنا الدرجي نفس الشيء أيضاً<sup>١٧</sup>.

الإنسان مخلوق على صورة الله. وبلا شك لا تشير هذه الصورة إلى الجسد، ولكنها تشير أولاً وأساساً إلى النفس. فصورة الله في الإنسان هي أقوى من صورته في الملائكة لأنه كما سوف نرى لاحقاً أن نفس الإنسان تعطي الحياة للجسد المتصل بها. ونستطيع أن نقول بوجه عام أن النفس على صورة الله، وحيث أن الله مثلث الأقانيم: عقل وكلمة وروح هكذا أيضاً نفس الإنسان لها ثلاث قوى: العقل، والنفس، والروح<sup>١٨</sup>.

يوجد في كل الطبائع نموذج مصوّر للثالوث القدوس<sup>١٩</sup> ولكنه يظهر بالأكثر في الإنسان. فصورة الله في الإنسان هي أقوى من صورته في الملائكة. يتكلم القديس غريغوريوس بالاماس عن عماد السيد المسيح في نهر الأردن شارحاً لماذا أن "سر الإنسان المخلوق والمتجدد يعلن عن سر الثالوث القدوس". ويكتب أن هذا حدث ليس فقط لأن الإنسان هو المخلوق الأرضي الذي يقدم العبادة للثالوث القدوس ولكن أيضاً لأنه "هو وحده على صورته". إن الحيوانات ذات الحس والغير عاقلة لها فقط روح حية وهذه لا تستطيع أن توجد بذاتها وهي ليس لديها لا عقل ولا كلمة. أما الملائكة ورؤسائه الملائكة فلهم عقل وكلمة طالما أنهم عقلايون وعاقلون، ومع ذلك لا يوجد لديهم روح معطي للحياة، إذ أنهم لا يقتنون جسداً ليستقبل الحياة من الروح. وهكذا، وحيث أن الإنسان له عقل وكلمة وروح معطي للحياة يعطي حياة للجسد المتصل به، فإنه "هو وحده على صورة الثالوث"<sup>٢٠</sup>.

ينادي القديس غريغوريوس بالاماس بنفس التعليم في كلامه عن الطبيعة واللاهوت. فكما أن الله الثالوث هو عقل وكلمة وروح، هكذا هو الإنسان. فروح الإنسان التي هي القوة الواهبة للحياة في جسده هي "الحب العقلاني للإنسان"، إذ أنها "من العقل ومن الكلمة كما أنها موجودة في الكلمة والعقل وتقتني كلا من الكلمة والعقل داخل ذاتها"<sup>٢١</sup>. وعلى الرغم من أن الطبيعة العقلانية العاقلة للملائكة لها عقل وكلمة

<sup>16</sup> . FC vol. 37, p. 235

<sup>17</sup> . Ladder, Step 26, note 2, p. 136, Gk. edition

<sup>18</sup> . 150 Chapters, ch. 36-37

<sup>19</sup> . Monk Amphilochios Rantovits: The Mystery of the Holy Trinity according to St. Gregory Palamas, p. 38 ( in Greek)

<sup>20</sup> . St. Gregory Palamas: Homily 60. EPE 11, p. 512 (Gk.)

<sup>21</sup> . 150 Chapters. Ch. 38

وروح إلا أنها "لا تقتني هذه الروح كواهة للحياة"<sup>22</sup>. ومثلما أشرنا فإن كلمة "صورة الله" تشير أساساً إلى النفس. ولكن حيث أن الجسد يأخذ الحياة من الروح فإن الصورة في الإنسان هي أقوى منها في الملائكة.

يرى القديس غريغوريوس أيضاً الفرق بين الصورة في الإنسان والصورة في الملائكة من وجهة نظر أخرى. فالمعروف عن تعليمه أنه يناهز بوجود جوهر وطاقة في الله وهذان متصلان بانفصال ومنفصلان باتصال. هذا هو سر اتحاد الجوهر والقوة الغير منقسم. لا يشارك الإنسان الله في جوهره على حين أنه يشاركه في قواه. وحيث أن الإنسان على صورة الله فهذا التعليم عن الجوهر والقوى ينطبق أيضاً على النفس. تنقسم النفس إذاً إلى جوهر وقوة بغير انفصال.

ويقارن القديس غريغوريوس نفس الإنسان بنفس الحيوانات قائلاً أن الحيوانات تقتني نفساً ليست كجوهـر ولكن كطاقة "نفس كل واحد من الحيوانات الغير عاقلة هي الحياة للجسد الذي تحييه وهكذا فإن الحيوانات تقتني الحياة ليس بالجـوهر ولكن كطاقة." نفس كل واحد من الحيوانات الغير عاقلة هي إذاً الحياة للجسد الذي تحييه. وبذلك تمتلك الحيوانات الحياة ليس بالجـوهر ولكن كطاقة، طالما أن هذه الحياة معتمدة على شيء آخر وليست قائمة بذاتها. "وهكذا طالما أن نفس الحيوانات تمتلك فقط فهي تموت مع الجسد. وعلى العكس فإن نفس الإنسان لا تقتني فقط طاقة بل وجـوهر أيضاً: "تمتلك النفس حياة ليس فقط كنشاط ولكن أيضاً كجـوهر طالما أنها تحيا في ذات جوهرها. ولهذا السبب عندما يموت الجسد لا تفنى النفس معه "بل تبقى خالدة. إن النفس العاقلة والعقلانية مركبة "حيث أن نشاطها موجه نحو شيء آخر خارجاً عنها"<sup>23</sup>.

يقول القديس مكسيموس الاعترف في تعليمه أن النفس لها ثلاث قوى:

(١) قوة التغذية والنمو

(٢) قوة الخيال والغريزة

(٣) قوة الذكاء والعقلنة.

<sup>22</sup>. Ibid.

<sup>23</sup>. Ibid. ch. 30-33



تشارك النباتات في الأولى من هذه القوى، وتشارك الحيوانات في الثانية أيضاً، على حين أن الإنسان عنده كل هذه القوى الثلاث<sup>24</sup>. يوضح ذلك قيمة الإنسان الكبرى بالمقارنة بالحيوان الغير عاقل. وبالإضافة إلى ذلك فإن ما قيل من قبل، يُظهر بوضوح كيف أن الملائكة تختلف عن الإنسان. وهكذا عندما صار المسيح إنساناً اتخذ جسداً بشرياً وليس شكلاً ملائكياً، وصار إلهاً متأنساً وليس إلهاً ملاكاً.

إن ما قيل يعطينا إمكانية أن نرى إنقسام النفس. إننا لا ننوي التوسع في هذا الموضوع ولكننا سوف نقدم هذه الأشياء التي تحتوي على هذا الموضوع بوجه عام.

يقول القديس يوحنا الدمشقي أن النفس مدركة وعاقلة. لقد أعطى الله للإنسان "نفساً مدركة وعاقلة لكي تحيا جيداً"<sup>25</sup>. إن أحد التعاليم الرئيسية للأباء هي أن العقل والإدراك هما طاقتان متوازيتان للنفس. يستند القديس غريغوريوس بالاماس على حقيقة أن النفس على صورة الثالوث القدوس، ويكتب أن الثالوث القدوس هو عقل وكلمة وروح، ويقول أن النفس المخلوقة على صورة الله قد وهبت عقلاً وكلمة وروحاً<sup>26</sup>. من أجل ذلك يجب على النفس أن تحافظ على درجتها وتتصل كلية بالله. ويجب عليها أن تتطلع لله وحده، وأن تزيّن نفسها بتأمل مستمر وبمحبة الأكثر حرارة والأكثر توهجاً<sup>27</sup>.

تتحطم النفس بالشهوات والخطايا. لذلك يجب عليها أن تتحد بالله وتبذل ذاتها له. يحدث هذا الاتحاد بعدة وسائل، ويتم ذلك بصورة رئيسية عن طريق الممارسة العملية لكلمة المسيح. يشدد ثيوليبيتوس مطران فيلادلفيا على قيمة الصلاة على الأخص: "بعد أن توحد الصلاة النقية العقل والكلمة والروح في ذاتها، تستحضر إسم الله من خلال الكلمات، وتتطلع إلى الله الذي تتضرع إليه بعقل خالي من التشتت، وتُظهر الندم والتواضع والحب. وهكذا تستميل نحوها الثالوث الأبدي الأب والإبن والروح القدس الإله الواحد"<sup>28</sup>.

إننا نتذكر باستمرار إسم المسيح من خلال الكلمة وننظر الله من خلال عقل خالي من التشتت ونحوز على التوبة والتواضع والحب من خلال الروح.

<sup>24</sup> . Philok. 2, p. 88, 32

<sup>25</sup> . FC vol. 37, p. 235

<sup>26</sup> . 150 Chapters, ch. 40

<sup>27</sup> . Writings, p. 391,20

هكذا تتحد قوى النفس الثلاث وتُقدّم للثالوث القدوس. هذه هي الطريقة التي يحدث بها شفاء النفس، وسوف نتكلم عن هذا الموضوع بأكثر إستفاضة فيما بعد. تشتيت النفس إذاً هو المرض، وتوحيدها هو الشفاء.

يقسم نيسيئاس ستيثاتوس النفس إلى ثلاثة أجزاء ولكنه يتكلم عن اثنين بصورة أساسية، وهما جزءا الإدراك، والحس. الجزء الإدراكي هو غير مرئي وغير مرتبط بالحواس "كما لو كان موجوداً داخل الحواس وخارجها بأن واحد". أعتقد أنه يشير هنا إلى العقل. سوف نفرق فيما بعد بين الإدراك والعقل، ولكن يجب علينا الآن أن نؤكد على أن العقل له علاقة بالله، فهو يستقبل القوى الإلهية. فالله يعلن عن ذاته للعقل، على حين أن الإدراك باعتباره طاقة، هو الذي يصيغ ويعبر عن خبرات العقل. أما الجزء الحسي للنفس فينقسم إلى الأحاسيس والأهواء. ويسمى هكذا لأنه "معرض للأهواء"<sup>28</sup>.

يتناول القديس غريغوريوس السينائي قوى النفس بالتحليل ويصف بدقة ما يتولى قيادة كل جزء، فيقول أن الأفكار الشريرة تعمل في قوة الإدراك، بينما الأهواء البهيمية تعمل في الجزء القابل للإثارة، وتتجمع الشهوات الحيوانية في الجزء المثير للشهوة، والخيالات في الجزء العقلي، والأفكار في الجزء المفكر.<sup>29</sup>

يقول نفس القديس أنه عندما خلق الله النفس المدركة والعاقلة بنفخته الواهبة للحياة، "لم يصنعها وفيها الغضب والشهوة الحيوانية؛ ولكنه منح النفس قوة النزوع نحو الآخر والشجاعة لكي تنجذب بالحب"<sup>30</sup>. وعندما خلقت النفس "لم تكن لا الشهوة ولا الغضب من ضمن كيانها"<sup>31</sup> ولكن حدث ذلك كنتيجة للخطية.

سوف نكتفي بهذا الحديث عن موضوع إنقسام النفس لأننا سوف نتكلم عن هذا الموضوع بإستفاضة أكثر في الباب الرابع الذي يتحدث عن الأهواء. لقد كان علينا أن نتكلم هنا قليلاً عن إنقسام النفس طالما أننا كنا نتحدث عن موضوع النفس بالذات.

وعلى الرغم من ذلك فإنه توجد علاقة وإرتباط بين النفس والجسد. لكن ما هي طبيعة هذه العلاقة وإلى أى مدى هي متواجدة؟ هذا هو الموضوع الذي سوف نبخثه هنا.

<sup>28</sup> . Gnostic Chapters, ch. 9. Philok. 3, p. 328 ( in Gk )

<sup>29</sup> . Acrostics, 63. Writings, p. 48

<sup>30</sup> . Ibid. p. 52, 82

<sup>31</sup> . Ibid. p. 52, 81

الإنسان مخلوق من جسد ونفس ولا يستطيع أي عنصر بمفرده أن يكون الإنسان. يقول القديس يوستين Justin الفيلسوف والشهيد أن النفس في حد ذاتها ليست هي الإنسان، ولكنها تُدعى "نفس الإنسان". وبالمثل لا يُسمى الجسد إنساناً، ولكنه يُدعى "جسد الإنسان": "على الرغم من أن الإنسان في ذاته ليس واحداً منهما، إلا أن اتحاد الإثنين يسمى إنساناً. لقد دعا الله الإنسان للحياة والقيامة وهو لم يدعوا جزءاً منه، ولكنه دعه بكلية أي النفس والجسد".<sup>32</sup>

ومثلما أشرنا من قبل فإن النفس خلقت مع الجسد عند الحبل بالإنسان: "يُمنح الجنين نفساً عند الحبل به". تخلق النفس وقت الحبل "وتكون النفس في هذا الوقت بنفس درجة نشاط الجسد. ومثلما ينمو الجسد، تُظهر النفس طاقاتها بإطراد".<sup>33</sup>

يوجد فرق كبير بين النفس والجسد طالما أن "النفس ليست جسداً ولكنها غير متجسمة".<sup>34</sup> بالإضافة إلى أنه يكون من المستحيل على الجسد والنفس أن يوجدوا أو أن يُدعيا جسداً أو نفساً بصورة منفصلة عن بعضهما البعض: "إذ أن العلاقة بينهما ثابتة".<sup>35</sup>

لقد كان الفلاسفة القدماء يعتقدون أن النفس توجد في مكان معين في الجسد، وأن الجسد هو سجن النفس، وأن خلاص النفس هو في تحررها من الجسد. أما آباء الكنيسة فيعلمون بأن النفس موجودة في كل مكان في الجسد. يقول القديس غريغوريوس بالاماس أن الملائكة والنفس هي كائنات غير متجسدة "فهي غير موجودة في مكان، ولا هي موجودة في كل مكان". والنفس التي تحمل الجسد الذي خلقت معه "موجودة في كل مكان في الجسد، وليس كما لو كانت في مكان ما من الجسد، أو كما لو كانت محتواة داخله، ولكن كحاملة وحاوية ومُعطية الحياة للجسد لأنها تقتي هذه الحياة أيضاً في صورة الله".<sup>36</sup>

يرى نفس القديس أنه يوجد البعض (الاهليينون) الذين يضعون النفس في المخ كما لو كانت في قلعة حصينة، وأن البعض الآخر يضعونها في عمق القلب: "وهكذا في هذا العمق - بحسب مفهومهم - تتظهر النفس من نسمة النفس الحيوانية وتكون في أفضل وعاء". ويقول القديس أننا نعرف جيداً أن الجزء المدرك من النفس هو في القلب وليس كما في وعاء، حيث أنه غير متجسد ولا خارج القلب طالما أنهما متحدان. إن قلب الإنسان هو

<sup>32</sup> . Justin Martyr. On Resurrection. BEPES vol. 4, p. 229 (in Gk.)

<sup>33</sup> . Ladder, Step 26, note2, p. 136, Gk. edition

<sup>34</sup> . See St. Gregory The Theologian, P.G. 10, 1141

<sup>35</sup> . St. Maximus: philosophical and theological studies, vol. 1, p. 222. (in Gk.)

<sup>36</sup> . 150 Chapters. Ch. 61

العضو المهيمن وهو إكليل النعمة مثلما يقول القديس غريغوريوس بالاماس. وفيه يوجد العقل وكل أفكار النفس. ويؤكد القديس على أننا تلقينا هذا التعليم من السيد المسيح ذاته ذاك الذي خلق الإنسان. فهو يُذكرنا بقول السيد المسيح: "ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان" (مت ١٥: ١١). وقوله: "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة" (مت ١٥: ١٩). ويضيف القديس أن القديس مقاريوس قال: "القلب يوجّه كل الكيان. وعندما تملك النعمة من القلب، يسود على كل الأفكار وكل الأعضاء، إذ أنه هنا في القلب يقيم العقل والنفس" ويقول أنه بالتالي يكون الغرض الرئيسي من العلاج هو إستعادة العقل "الذي كان قد تشتت خارجاً بواسطة الحواس من خارج القلب" الذي هو "موضع الأفكار"، "والعضو المدرك الأول في الجسد".<sup>٣٧</sup>

سوف نعود لهذا الموضوع فيما بعد ولكننا نتمنى بصفة أساسية أن نؤكد على أنه بحسب تعاليم الآباء، فإن النفس تستعمل القلب كعضو لها وتوجه كل الجسد. وهي متحلة مع الجسد وليست غريبة عنه. ويعلم نيميسيوس اللبي من إيميسا أن "النفس غير جسدانية وليست محدودة في جزء معين من الفراغ، ولكنها منتشرة بكاملها في كل مكان من الجسد مثل الشمس التي تنتشر أينما يصل نورها، الذي ينتشر أيضاً في جسم الشمس، دون أن تكون جزءاً من الكل الذي تنيره، كما لو لم تكن موجودة في كل ذرة فيه". بالإضافة إلى ذلك فإن "النفس متحلة مع الجسد، ومع ذلك فهي تبقى متميزة عنه".<sup>٣٨</sup>

تنشط النفس وتوجه كل الجسد وكل أعضائه. فأحد تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية أن الله يوجه كل العالم بنفسه بدون وسطاء مخلوقين، بل بواسطة قدرته الأزلية. وهكذا مثلما يُنشِط الله كل الخليقة، فإنه بنفس الطريقة "تُنشِط النفس أيضاً أعضاء الجسد، وتحرك كل عضو بحسب عمل هذا العضو".<sup>٣٩</sup> وهكذا مثلما هو عمل الله أن يدير الكون، هكذا أيضاً "عمل النفس أن تقود الجسد".<sup>٤٠</sup>

يعن القديس غريغوريوس بالاماس كثيراً في فكرة العلاقة بين النفس والجسد ويقول أن ما يحدث بواسطة الله هو ما يحدث بواسطة النفس. تقتني النفس داخلها بصورة مبسطة "كل القوى الإلهية التي للجسد". وحتى لو أصيبت بعض أعضاء الجسد أو لو قُلعت العينان أو صُمّت الأذنان، فالنفس لا تقتني القوى الإلهية التي للجسد بنفس الدرجة. ليست

<sup>37</sup> . Triads, 1,2,3. CWS p. 42-43

<sup>38</sup> . The Nature of Man. Ch. 3. LCC vol. 4, p. 298. PG 40, 597 and 600

<sup>39</sup> . Acrostics. Gk. Philok. 4, p. 42, 81. Writings, p. 52, 81

<sup>40</sup> . Thalassios. Philok. 2, p. 308 31

النفس هي القوى الإلهية ولكنها تقتني قوى إلهية. وعلى الرغم من وجود القوى الإلهية في داخلها، فهي "واحدة وبسيطة وغير مؤلفة من أجزاء، وليست مركبة، ولا مُصنَّعة"<sup>41</sup>.

إن ما يميز هذا النص هو أن القديس غريغوريوس يربط ما يحدث للجسد من خلال النفس، بما يحدث لكل الخليقة من خلال الله. يقود الله العالم بواسطة قوى عنايته الإلهية، وهو يقتني هذه القدرات الإلهية حتى قبل خلقه العالم. ومع ذلك فإن الله ليس فقط يقتني قوى عديدة، ولكنه هو ذاته كلي القدرة<sup>42</sup>. وهذا يوضح أن النفس هي "على صورة الله". ما يحدث في الله يحدث بالمشابهة في النفس البشرية.

يقول القديس غريغوريوس النيصي أن النفس هي غير مادية وغير جسدية، "فهي تعمل وتتحرك بطريقة تتناسب مع طبيعتها الخاصة، وتظهر هذه الإنفعالات الخاصة من خلال أعضاء الجسد"<sup>43</sup>. ويُعلم نفس القديس بطريقة شعرية أن النفس ليست محمولة بالجسد ولكنها تحمل الجسد؛ فهي ليست داخل الجسد كما لو كانت في وعاء أو حقيية، ولكن الجسد بالأحرى هو الموجود داخل النفس. فالنفس توجد في كل الجسد "وليس جزء مستنير بها، إلا وتكون موجوة فيه بالكلية"<sup>44</sup>.

وهكذا نستخلص إستنتاجاً عاماً من جهة العلاقة بين النفس والجسد وهو أن النفس موجوة في كل الجسد، ولا يوجد أي قطاع من جسد الإنسان إلا وتوجد فيه النفس، وأن القلب هو الموضع المدرك الأول للنفس، وأن مركز النفس موجود هناك ليس كما في وعاء ولكن كما في عضو يقود كل الجسد، وأن النفس على حين كونها متميزة عن الجسد إلا أنها الأكثر اتحاداً به بصورة هيمية.

لقد قلنا كل هذه الأشياء لأنها مرتبطة كثيراً بالموضوع الذي ندرسه إذ أننا لا نستطيع أن نفهم سقوط ومرض النفس لو لم نعرف ماهية النفس ولا كيفية اتحادها مع الجسد.

## مرض النفس وموتها

إننا عادة ما نتكلم في الكنيسة عن سقوط الإنسان وعن الموت الذي حدث كنتيجة للسقوط. لقد حدث الموت الروحي أولاً ثم تبعه الموت الجسدي. وفقدت النفس نعمة الله

<sup>41</sup> . Triads, 3, 2, 22

<sup>42</sup> . Ibid.

<sup>43</sup> . On the Soul and Resurrection. FC. Vol. 58, p. 206. PG 46,29

<sup>44</sup> . On the Soul. PG 45, 217B

وَكَفَّتْ عَنْ أَنْ تَكُونَ عَلَى عِلَاقَةِ مَعَ اللَّهِ، وَمِنْ ثَمَّ أَظْلَمَتْ. ثُمَّ انْتَقَلَتْ هَذِهِ الظُّلْمَةُ وَهَذَا الْمَوْتُ لِلْجَسَدِ. وَيَرَى الْقَدِيسُ غْرِیغُورِیُوسُ السِّينَايِيُّ أَنَّ جَسَدَ الْإِنْسَانِ كَانَ قَدْ خُلِقَ عَلَى غَيْرِ فُسَادٍ وَأَنَّهُ "سَيَقُومُ عَلَى هَذَا النِّحْوِ"، وَأَنَّ النَّفْسَ كَانَتْ قَدْ خُلِقَتْ بِلاَ هَوًى. وَحَيْثُ أَنَّهُ كَانَتْ هُنَاكَ رَابِطَةٌ مَتَمَاسِكَةٌ جَدًّا بَيْنَ النَّفْسِ وَالْجَسَدِ بِسَبَبِ تَدَاخُلِهِمَا وَتَوَاصُلِهِمَا، فَإِنَّهُمَا دَخَلَا مَعًا إِلَى الْفُسَادِ: "اِكْتَسَبَتِ النَّفْسُ سَمَاتِ الْأَهْوَاءِ أَوْ بِالْأُخْرَى سَمَاتِ الشَّيْطَانِ وَأَصْبَحَ الْجَسَدُ مِثْلَ الْحَيَوَانَاتِ الْغَيْرِ عَاقِلَةٍ بِسَبَبِ الْحَالَةِ الَّتِي سَقَطَ فِيهَا وَبِسَبَبِ سِيَادَةِ الْفُسَادِ". وَحَيْثُ أَنَّ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ قَدْ فَسَدَا، فَإِنَّهُمَا كَوْنًا مَعًا "كَيَانًا حَيَوَانِيًّا وَاحِدًا غَيْرَ عَاقِلٍ وَعَدِيمِ الْحِسِّ مَعْرُضًا لِلْغَضَبِ وَالشَّهْوَةِ". هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَشْرَحُ بِهَا الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ كَيْفَ صَارَ الْإِنْسَانُ "مُتَّحِدًا بِالْحَيَوَانَاتِ وَمِثَابَهُا لَهَا"<sup>٤٥</sup>. لَقَدْ اِمْتَلَأَتْ نَفْسُ الْإِنْسَانِ بِالْأَهْوَاءِ مِنْ خِلَالِ السَّقُوطِ وَصَارَ جَسَدُهُ مِثْلَ الْحَيَوَانَاتِ وَارْتَدَى ثَوْبَ الْإِنْحِلَالِ وَالْمَوْتِ، وَصَارَ مِثْلَ الْحَيَوَانَاتِ الْغَيْرِ عَاقِلَةٍ.

لَقَدْ وَصَفَ الْأَبَاءُ بِطَرِيقَةٍ رَاضِيَةٍ هَذَا الْمَرَضَ وَالْعُبُودِيَّةَ وَعَدَمَ الطَّهَارَةِ وَالْمَوْتَ الَّذِي لِلنَّفْسِ. إِنَّ كُلَّ خَطِيئَةٍ هِيَ تَكَرُّارُ الْخَطِيئَةِ أَدَمَ، وَمَعَ كُلِّ خَطِيئَةٍ نَعَانِي مِنْ ظُلْمَةٍ وَمَوْتِ النَّفْسِ السَّاقِطَةِ.

دَعَوْنَا تَتَأَمَّلُ عَنْ قَرَبِ حَالَاتِ السَّقُوطِ هَذِهِ الَّتِي لِلنَّفْسِ: عِنْدَمَا يَتْرَكُ الْمَرْءُ حَوَاسِهِ فِي حُرِيَّةٍ، وَمِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْحَوَاسِ تَصِيرُ نَفْسُهُ خَارِجَ قَلْبِهِ، فَعِنْدَئِذٍ تَصِيرُ هَذِهِ النَّفْسُ أَسِيرَةً. "وَتَرَاخِي الْقَبْضَةَ عَلَى الْحَوَاسِ، يُحْكِمُ الْقَيُودَ عَلَى النَّفْسِ". وَتَكُونُ هَذِهِ الْقَيُودُ مُعَادِلَةً لِلظُّلْمَةِ. وَكَمَا يَعْقِبُ غُرُوبُ الشَّمْسِ اللَّيْلَ، هَكَذَا عِنْدَمَا يَنْسَحِبُ الْمَسِيحُ مِنَ النَّفْسِ وَتَتِمَكَّنُ ظُلْمَةُ الْأَهْوَاءِ مِنْهَا، فَعِنْدَئِذٍ "تَمَزَّقُهَا الْحَيَوَانَاتُ الْغَيْرُ مَلَابِيَةَ إِرْبَاءٍ إِرْبَاءً"<sup>٤٦</sup>. تَقَعُ نَفْسُ الْإِنْسَانِ فِي ظُلْمَةٍ مَدْلَهْمَةٍ، وَتَعْمَلُ الشَّيَاطِينُ فِيهِ، وَيَجِدُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي لَيْلٍ بِلاَ قَمَرٍ. هَذَا أَيْضًا يَشْكَلُ مَرَضَ النَّفْسِ. يَقُولُ الْقَدِيسُ ثَالَسْيُوسُ: "إِنَّ مَرَضَ النَّفْسِ هُوَ التَّفَكُّيرُ فِي الْخَطِيئَةِ عَلَى حِينٍ أَنَّ مَوْتَهَا هُوَ فِعْلُ الْخَطِيئَةِ"<sup>٤٧</sup>. وَهَكَذَا تَنْقَادُ النَّفْسُ الْمَرِيضَةُ خَطْوَةً بِخَطْوَةٍ إِلَى الْمَوْتِ.

إِنَّ مَرَضَ النَّفْسِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ نَجَاسَتُهَا: "تَكْمُنُ نَجَاسَةُ النَّفْسِ فِي أَلَّا تَعْمَلُ بِحَسَبِ الطَّبِيعَةِ. وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي يَجْعَلُ أَفْكَارَ اللَّاهُوتِيِّ تَتَبَعُ مِنَ الْعَقْلِ"<sup>٤٨</sup>. وَيَقُولُ الْقَدِيسُ مَكْسِيمُوسُ: "النَّفْسُ الْمَمْتَلِئَةُ مِنْ أَفْكَارِ الشَّهْوَةِ الْحَسِيَّةِ وَالْكَرَاهِيَةِ هِيَ غَيْرُ طَاهِرَةٍ"<sup>٤٩</sup>.

<sup>٤٥</sup>. Acrostics, 82. Writings, p. 52

<sup>٤٦</sup>. Theoleptos. Philok. 4, p. 6. (In Gk.). Writings p. 386, 9

<sup>٤٧</sup>. Philok. 2, p. 318, 89

<sup>٤٨</sup>. Ibid. p. 89, 35

يصف القديس هيزيخيوس الطريقة التي تمرض بها النفس، ثم تُقتل في النهاية: لقد خلق الله النفس بسيطة وصالحة ولكنها تبتهج بغوايات الشيطان "وعندما تتخدع، تنغمس في شيء شرير وكأنه حسن". وبهذه الطريقة "تختلط أفكارها بخيالات الشيطان". ثم تخضع النفس للإثارة، محاولة أن تحوّل هذه الخيالات العقلية الغير شرعية إلى فعل ملموس من خلال الجسد، وهذا يكون لدينوتها".<sup>49</sup>

يستعين القديس غريغوريوس بالاماس بنصوص من الكتاب المقدس مثل كلمات بولس الرسول: "ونحن أموات بالخطايا أحياناً مع المسيح" (أف: ٢: ٥) وكلمات يوحنا الإنجيلي: "توجد خطية للموت" (١يو: ١٦: ١). وكلمات المسيح لتلميذه: "دع الموتى يدفنون موتاهم" (مت: ٨: ٢٢). ويقول أنه على الرغم من أن النفس خالدة بالنعمة، إلا أنها "عندما تصير منغمسة في الملمات، ومتركة للذات ومتساهلة، تكون مائتة حتى ولو كانت حية". هذه هي الطريقة التي يفسر بها كلمات بولس الرسول: "وأما المتنعمة فقد ماتت وهي حية" (١تي: ٥: ٦). وعلى الرغم من أن النفس تكون حية، إلا أنها تكون ميتة، طالما أنها لا تقتني الحياة الحقيقية التي هي نعمة الله.<sup>50</sup> عندما إبتعد أبوانا (آدم وحواء) عن تذكر ورؤية الله وأغفلا وصيته وإغازا لروح الشيطان المميتة، تعرباً من "الثياب النورانية الحية التي للبهاء السماوي وأصبحا مع الأسف أيضاً مائتين بالروح مثل الشيطان".<sup>51</sup> تسير الأمور دائماً على هذا المنوال. فعندما يتحد شخص ما مع الشيطان ويفعل مشيئته، تموت نفسه بسبب أن الشيطان ليس فقط روح موت ولكن لأنه أيضاً يجلب الموت على أولئك الذين يصبرون بقربه".<sup>52</sup>

تموت النفس عندما لا تعمل بحسب الطبيعة: "... عندما لا تكون بصحة جيدة وعلى الرغم من أنها تحتفظ بصورة الحياة فإنها تموت.... هل أستطيع أن أقول أن لك نفساً عندما لا تكون معتنية بالفضيلة بل تكون جشعة ومتعدية على الناموس؟ هل مجرد أنك تمشي؟ ولكن المخلوقات الغير عاقلة تفعل ذلك أيضاً. هل لأنك تأكل وتشرب؟ ولكن هذا أيضاً تفعله الحيوانات المتوحشة. هل لأنك تقف منتصباً على قدمين؟ إن هذا يقنعني بالأحرى بأنك حيوان في صورة إنسان".<sup>53</sup>

<sup>49</sup> . Ibid. p. 54, 14

<sup>50</sup> . Philok. 1, p. 169f, 43

<sup>51</sup> . 150 chapters, ch. 45

<sup>52</sup> . Ibid. ch. 46

<sup>53</sup> . Ibid.

<sup>54</sup> . Homily 6 on 2 Corinthians. NPNF vol. 12 p. 307f

يسمى الإنسان "الميت" في تعاليم بولس الرسول "جسداني" أو "طبيعي". إنه يكتب في رسالته إلى أهل كورنثوس: "ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله" (١كو٢: ١٤). ويكتب أيضاً: "فإنه إذ فيكم حسد وخصام وإنشقاق ألستم جسديين وتسلكون بحسب البشر" (١كو٣: ٣). يرى الأستاذ يوحنا رومانيدس أن الكلمات المستعملة في "طبيعي" psychikos و "جسداني" sarkikos و "يسلك بحسب البشر" لها نفس المعنى<sup>٥٥</sup>. ويكتب في موضع آخر من كتابه قائلاً: "إن الإنسان الجسداني والنفساني هو الإنسان بكلّيته بنفسه وجسده الذي يفتقد لطاقة الروح القدس التي تجعل الإنسان عديم الفساد"<sup>٥٦</sup>. عندما لا يتبع الإنسان الروح القدس يصير محروماً من قوة الله الواهبة الحياة ويصير نفسانياً غير روحي"<sup>٥٧</sup>.

## علاج النفس

يحتوي كل تقليد الكنيسة الأرثوذكسية على شفاء النفس وإعطائها الحياة، هذه النفس التي ماتت بالخطية. وتساهم كل الأسرار وكل الحياة النسكية في هذا الشفاء. إن من لا يعي هذه الحقيقة لا يستطيع أن يدرك روح التقليد الأرثوذكسي. وسوف نرى فيما يلي ما هي الصحة وما هو إنعاش النفس. كما سنرى عدة طرق للحصول عليها وكيف تعمل النفس الحية السليمة.

تتكون صحة النفس من اللاهوت والمعرفة الروحية<sup>٥٨</sup>. "تكون النفس كاملة عندما تغلغل فيها الفضائل"<sup>٥٩</sup>. وتكون النفس كاملة "لو كان الجانب الحسي منها متوجه ناحية الله"<sup>٦٠</sup>. والنفس النقية هي "تلك التي تحب الله"<sup>٦١</sup>. والنفس النقية هي "تلك المتحررة من الأهواء وتتمتع بلحبه الإلهي باستمرار"<sup>٦٢</sup>.

<sup>55</sup> . John Romanides: The Ancestral Sin ( in Greek) p. 131

<sup>56</sup> . Ibid. p. 130

<sup>57</sup> . Ibid. p. 131

<sup>58</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 313, 2

<sup>59</sup> . Ibid. p. 316, 54

<sup>60</sup> . St. Maximos. Philok. 2, p. 99, 98

<sup>61</sup> . St. Thalassios. Philok. 2 p. 317 79

<sup>62</sup> . Sf. Maximus. Pilok. 2 p. 56,34



يصف الآباء القديسون أيضاً عدة طرق لإحياء النفس وشفائها. إن الحزن المقدس أو التوبة يضع نهاية للنة الحسية ولكن "تخيطم اللنة الحسية هو قيامة النفس"<sup>63</sup>. يقول القديس أنطونيوس خادم الله العظيم أنه يجب علينا أن ننقي أذهاننا "إذ أنني أعتقد أنه عندما يكون الذهن نقياً تماماً وفي حالته الطبيعية، فإنه يكتسب بصيرة خارقة، ويرى أفضل وأوضح من الشياطين، حيث أن الله يعلن أشياء له"<sup>64</sup>. يعني ذلك أن خادماً النفس القديس هذا يوصينا أن ننقي أذهاننا. لقد لوحظ أنه لو حافظ شخص ما على عقله نقياً من الأفكار الشريرة والصور المتنوعة فإنه يستطيع إذاً أن يحفظ نفسه نقية.

يعلم ثيوليتوس مطران فيلادلفيا قائلاً: "عندما تتغلب على التشبث الخارجي، فإنك تستطيع أيضاً أن تسيطر على الأفكار الداخلية، فيصبح عقلك منجذباً نحو الأعمال والكلمات الروحية". تؤدي المحاولات للحفاظ على العقل نقياً ولتحرير المرء من التشبثات المتعددة، إلى ظهور العقل في الداخل، ذاك الذي كان ميتاً وغير مرئي. من أجل ذلك ينصح أيضاً ثيوليتوس قائلاً: "ضع حداً للاختلاط بالعالم الخارجي وحارب الأفكار الداخلية حتى تجد موضعاً للصلاة النقية والمسكن حيث يقيم المسيح"<sup>65</sup>. إن القلب، كما سنشير فيما بعد، هو المسكن الذي يقيم فيه المسيح. سوف نكتشف ذلك فقط عندما نجاهد لكي نحيا في هدوء وعندما نجاهد ضد الأفكار التي تتأرجح في داخلنا. إن نقاء العقل هو أمر هام جداً. هذه الطريقة بسيطة ولكنها شاملة وتجلب فائدة عظيمة لنفس الإنسان طالما أنها تجعلها هيكلًا للروح القدس.

تُشَفَّى النفس عندما تتخلص من العلاقات مع الدنيويات وتلتصق بلحب مع ذاك الكائن الأسمى<sup>66</sup>.

يفسر القديس غريغوريوس بالاماس كل تقليد الكنيسة الأرثوذكسية قائلاً أنه من خلال التعدي والخطية فقدنا تشابهنا مع الله "ولكننا لم نفقد الصورة". وبالتدقيق، لأننا لم نفقد الصورة نستطيع إذاً أن نجد النفس. إن النفس عندما تتحرر من العلاقات مع الدنيويات وتلتصق بلحب مع ذاك الكائن الأسمى وتخضع له من خلال الأعمال وطرق الفضيلة فإنها "تلقى منه الإستارة، والتزُّين، والإصلاح، وتطيع إرشاداته وتحذيراته التي

<sup>63</sup> . St. Thalassios. Philok. 2 p. 309, 39

<sup>64</sup> . Hesychios the Priest. Philok. 1 p. 194, 179

<sup>65</sup> . Philok. 4, p. 6 ( in Gk. ). Writings, p. 385f

<sup>66</sup> . Gregory Palamas. 150 chapters, ch. 39

تتلقى من خلالها الحياة الأبدية الحقيقية"<sup>٦٧</sup>. وعندما تطيع النفس ناموس الله تصبح معافاة تدريجياً، وتستتير وتحصل على الحياة الأبدية.

يقدم أيضاً نيسيئاس ستيثاتوس وسيلة أخرى لشفاء النفس، بالإضافة إلى الوسيلة العملية، وذلك من خلال "التيوريا". فحيث يكون حب الله وعقل نشط وشركة مع النور الذي لا يُدنى منه "فإنه يكون هناك أيضاً سلام في قُوى النفس، وتطهير للعقل وسُكنى الثالوث القدوس"<sup>٦٨</sup>. وهكذا، فإنه بالإضافة إلى المحاولات للحفاظ على العقل نقياً فمن الضروري أن يتعود العقل على الفعل الداخلي والصلاة الداخلية، لكي يكتسب حب الله ونقاء العقل، لأنه حينما يسكن الحب، يأتي السلام لقُوى النفس.

سوف نتكلم في موضع آخر من هذا الكتاب بصورة أكثر تحليلاً عن كيفية شفاء النفس عندما تتحرك بحسب الطبيعة، وسوف نصف الحركة الطبيعية لكل جزء من النفس. أما الآن فحيث أننا نتحدث عن شفاء النفس فإننا سوف نؤكد بإختصار على بعض الحقائق.

يكتب القديس غريغوريوس بالاماس أننا نحاهد لكي نطرد ناموس الخطية إلى خارج أجسادنا، ولكي نحل محله مراقبة العقل. وبهذه الطريقة نضع قانوناً مناسباً لكل قوة من قوى النفس ولكل عضو من أعضاء الجسد.

أما من جهة الحواس فإننا ننصح بضبط النفس. ومن جهة الجزء الحسى من النفس فبالحب. إننا نُصلح الذهن بأن نرفض كل شيء يعوق صعود العقل نحو الله وهذا ما نسميه nepsis. لو أن شخصاً ما نقى جسده من خلال ضبط النفس، وجعل من مشاعره ورغباته فرصة للفضيلة، وقدم لله ذهنًا نقياً بالصلاة، فإنه "يكتسب ويرى في نفسه النعمة التي وعد بها الله أولئك الذين تطهّرت قلوبهم"<sup>٦٩</sup>.

ينصح القديس مكسيموس في التقليد الأرثوذكسي قائلاً: "إكبح قوة الغضب في نفسك بالحب، وإقمع شهوتها بضبط النفس، وإعط أجنحة للذهن بالصلاة، وعندئذ سوف لا ينطفئ نور عقلك أبداً"<sup>٧٠</sup>.

<sup>67</sup> . Ibid.

<sup>68</sup> . Natural chapters, ch. 2. Gk. Philok. 3, p. 298

<sup>69</sup> <sup>69</sup> . Triads, 1, 2, 2. CWS p. 42

<sup>70</sup> <sup>70</sup> . Philok. 2, p. 110, 80

ليست النصائح ولا العقاقير هي التي تشفي النفس المريضة والتي تعطي الحياة للعقل الميت، والتي تطهر القلب النجس، ولكن منهج الكنيسة النسكي المتمثل في ضبط النفس، والحب، والصلاة، وحفظ العقل من غوايات الشيطان خلال الأفكار الشريرة. ولذلك فإننا نعتقد أن التقليد الأرثوذكسي مهم جداً لزمناً هذا، لأنه الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يحرر الإنسان ويشفيه من القلق والإحساس بعدم الأمان الذي جلبه موت النفس.

## ٢- العلاقات المتداخلة

### بين النفس، والعقل، والقلب، والذهن

يوجد بعض الخلط في نصوص الكتاب المقدس وفي كتابات الآباء القديسين، ولكن يوجد أيضاً تمييز، بين مصطلحات نفس، وعقل، وذهن، وقلب. إن أي أحد يتلنذ بكتابات الآباء وبالعهد الجديد يواجه أولاً مشكلة الخلط بين هذه المصطلحات والمفاهيم المتبادلة. لقد كنت مشغولاً بهذا الموضوع لسنوات عديدة وحاولت أن أجد حلاً. وعندما قرأت المراجع في هذا الموضوع وجدت أن المفسرين باستثناء البعض القليل كانوا غير قادرين على تحديد العلاقة والتمييز بين هذه المصطلحات. من أجل هذا سنحاول في هذا الفصل أن نفرق بينها، وأن نصف الإطار الذي يتحرك كل مصطلح في داخله.

لقد شرحنا من قبل أن نفس الإنسان مخلوقة على صورة الله، وحيث أن النفس تعطي حياة للجسد الملتصق بها، فإن صورة الله في الإنسان هي أقوى من صورته في الملائكة. وحيث أن النفس موجودة في كل الجسد، فإننا يمكن أن نرى أن كلاً من الإنسان بكليته وجسده ذاته كلاهما على صورة الله. إن اللحن الذي ألفه القديس يوحنا الدمشقي والذي يُرثَل في خدمة الجنائز مميّز: "إني أبكي وأنتحب عندما أفكر في الموت، وأتأمل جمالنا المخلوق على صورة الله، وهو قابع في القبر مشوهاً، وبلا كرامة، وعديم الشكل". من الواضح أنه في هذا اللحن يقصد بصورة الله الجسد الموضوع في القبر.

توحد نصوص العهد الجديد وكتابات الآباء بين النفس والعقل. فمصطلحا "عقل" و"نفس" يتبادلان. يكتب القديس يوحنا الدمشقي قائلاً أن العقل هو أكثر أجزاء النفس نقاوة، فهو عين النفس: "لا تقتني النفس العقل كشيء متميز عنها، ولكن كأكثر أجزائها نقاوة. فمثلما تكون العين للجسد هكذا يكون العقل للنفس". إنه يقول إذاً أن النفس تقتني العقل كعين لها<sup>71</sup>.

يستعمل القديس غريغوريوس بالاماس مصطلح "عقل" بمعنيين: إنه النفس بمجملتها والصورة، كما أنه أيضاً قوة النفس، مثلما شرحنا من قبل في موضع آخر. لأنه كما أن الله الثالث هو عقل وكلمة وروح، هكذا أيضاً النفس لها عقل وكلمة وروح. وبذلك يقول هذا القديس أن العقل يتطابق مع النفس ولكنه أيضاً هو قوة النفس.

سوف أستشهد بنص مميز يحتوي على هذه المفاهيم. يكتب القديس أنه بعد خلقه الإنسان، رأى الملائكة بأعينهم "نفس الإنسان وهي متحلة بالحواس والجسد، وكانوا يرون لها آخر ليس فقط أتى للوجود على الأرض من خلال الصلاح الإلهي ولكنه تحول أيضاً من خلال نعمة وجود الله لكي يكون في نفس الجسد والعقل والروح، بحيث تكون النفس على صورة الله ومثاله ومتحلة تماماً في العقل والكلمة والروح"<sup>72</sup>.

تظهر النقاط التالية في هذا النص: إنه يتحدث أولاً عن النفس المتحلة بالجسد والحواس، وبعد ذلك بقليل يحدث تداخل بين مصطلحي "عقل" و"نفس". فبدلاً من كلمة "نفس" يستعمل كلمة "عقل". ثم بعد ذلك يستعمل التقسيم: جسد وعقل وروح جاعلاً الروح هي نعمة الروح القدس طالما أن الله لم يخلق الإنسان من نفس وجسد فقط، ولكنه منحه النعمة الإلهية أيضاً. من أجل ذلك تكون تلك هي النفس الحية بالحقيقة"<sup>73</sup>. ويكتب بعد ذلك أن النفس في كونها على صورة الله ومثاله، تكون "متحلة تماماً في عقل وكلمة وروح".

يبدو واضحاً إذاً في هذا النص أن النفس هي على صورة الله، وأن العقل في بعض الأحيان يكون متطابقاً مع النفس، وفي أحيان أخرى يرى على أنه قوة النفس أو عين النفس كما يقول القديس يوحنا الدمشقي.

<sup>71</sup> . The Orthodox Faith. FC vol. 37, p. 236

<sup>72</sup> . St. Gregory Palamas. On the Holy Spirit 2,9

<sup>73</sup> . Ibid. 8

يظهر تطابق كلمة عقل مع كلمة نفس في نص آخر للقديس غريغوريوس بالاماس حيث يكتب في أحد الفصول قائلاً: "ليس التركيب الجسدي ولكن الطبيعة العقلية هي التي تقتني صورة الله تلك، ولا يوجد شيء في طبيعتنا أعلى من العقل".<sup>74</sup>

إن نفس الإنسان في كونها على صورة الله هي ثالوثية، فهي عقل، وكلمة، وروح. وحيث أن كلمة "عقل" و"نفس" تتوحدان بمعنى عام، فإن كلمة "عقل" أيضاً لها ثلاث قوى. فبينما أن العقل هو أحد قوى النفس، إلا أنه هو في نفس الوقت النفس بجمليتها. وسوف نستعين بنص متميز للقديس غريغوريوس الذي يقول: "عندما تصير وحدانية العقل ثلاثية بينما تبقى واحدة، فإنها تكون متحلة بالله الواحد الثالث. فوحدانية العقل تصير ثلاثية بينما تبقى واحدة عندما تعود لنفسها، وترتفع من خلال ذاتها لله".<sup>75</sup> فالنفس هي إذاً "واحدة رغم أن لها علة قوى"<sup>76</sup>، إحداها هي العقل، ولكن بالإضافة إلى ذلك فإن النفس تسمى أيضاً بجمليتها مع قواها الثلاثة عقلاً.

لقد رأينا بالفعل كيف أن الآباء يشيرون إلى النفس عندما يتكلمون عن صورة الله. ولكن يقال أيضاً في نفس الوقت أن الصورة يُقصد بها العقل: "ليس التركيب الجسدي ولكن الطبيعة العقلية هي التي تقتني صورة الله تلك".<sup>77</sup>

ومثلما في الله جوهر وقوة، هكذا أيضاً النفس التي هي على صورة الله، لها جوهر وقوة. وحيث أنه، مثلما رأينا، يتم التوحيد بين العقل والنفس، فإن العقل أيضاً له جوهر وقوة.

يحلل القديس غريغوريوس بالاماس هذه الحقيقة بكل حكمته وتمييزه، قائلاً أن القلب هو جوهر النفس، ونشاط العقل الذي يتضمن أفكاراً وصوراً عقلية هو قوة النفس لذلك، فالعقل أيضاً له جوهر وقوة. ويُستعمل، إذاً، مصطلح "عقل" في بعض الأحيان ليعني جوهر وفي أحيان أخرى ليعني قوة أو طاقة أو فعل. يكتب القديس بتميز: "إن ما يسمى عقلاً هو أيضاً نشاط العقل، ويتضمن أفكاراً وصوراً عقلية. العقل هو أيضاً القوة التي تؤدي إلى ذلك والتي تسمى في الكتاب المقدس القلب".<sup>78</sup> وعندما قام

<sup>74</sup> . 150 chapters, ch. 27

<sup>75</sup> . On the Hesychasts. Cf. EF p. 409f. Gk. Philok. 4, p. 133

<sup>76</sup> . Ibid. EF p. 410, 3

<sup>77</sup> . 150 chapters, ch. 27

<sup>78</sup> . EF p. 410,3

معاصرو القديس غريغوريوس بلومه عندما تكلم عن عودة العقل للقلب، كتب: "يبدو أن مثل أولئك لا يدركون أن جوهر العقل شيء، بينما طاقته هي شيء آخر"<sup>79</sup>.

## العقل والقلب Nous and Heart

يسمى العقل أيضاً جوهر النفس، أي القلب. يوجد تطابق بين العقل والقلب في عدة نصوص من الكتاب المقدس وفي كتابات الآباء، حيث أن هذه المصطلحات تُستعمل بالتبادل. يبارك الرب أنقياء القلب قائلاً: "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (مت ٥: ٨). الله يُستعلن في القلب، وحيث يستطيع الإنسان أن يعرفه. ويكتب بولس الرسول قائلاً: "أن إستارة الله توجد هناك: "لأن الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح" (٢كو ٤: ٦). ويصلي نفس الرسول قائلاً: "كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته مستتيرة عيون أذهانكم لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين" (أف ١: ١٧-١٨). إذا القلب هو الذي يتلقى إعلان معرفة الله. وتُستبدل كلمة قلب في مواضع أخرى بكلمة عقل. عندما كان الرب وسط تلاميذه بعد القيامة: "فتح ذهنهم Nous ليفهموا الكتب" (لو ٢٤: ٢٥). وظلما أن الإنسان يأتي لمعرفة الله من خلال فتح عيني قلبه وتطهير قلبه فإن عبارة "فتح ذهنهم ليفهموا" هي نفسها عبارة "فتح قلوبهم". وبالمثل عبارة "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" هي ذاتها بحسب إعتقادي مرتبطة بالنص الرسولي القائل: "تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم Nous" (رو ١٢: ٢).

وبنفس المعنى يسمى العقل أيضاً "قلب". والمصطلحان متبادلان. يفسر القديس مكسيموس قول السيد المسيح: "بل أعطوا ما عندكم صدقة فهذا كل شيء يكون نقياً لكم" (لو ١١: ٤١) قائلاً: "ينطبق هذا على أولئك الذين لا يعودون يقضون وقتاً في الأمور المتعلقة بالجسد ولكنهم يجاهدون ليظهروا العقل (الذي يدعوه السيد المسيح 'القلب') من الكراهية والتشتيت. لأن هذه تدنس العقل ولا تدعه يرى المسيح المقيم في داخله بنعمة المعمودية المقدسة"<sup>80</sup>.

إذاً يسمّى العقل جوهر النفس، الذي هو القلب. وبهذا المفهوم، يكون العقل والقلب متطابقين طالما أن المسيح يسكن في العقل.

<sup>79</sup> . Triads, 1, 2, 5. CWS p. 44

<sup>80</sup> . Philok. 2, p. 109, 73

## العقل والذهن Nous and reason

تسمى طاقة العقل التي تتضمن الأفكار والصور العقلية عقلاً أيضاً. يكتب بولس الرسول إلى أهل كورنثوس قائلاً: "لأنه إن كنت أصلي بلسان، فروحي تصلي، وأما ذهني فهو بلا ثمر. فما هو إذا، أصلي بالروح وأصلي بالذهن أيضاً. أرتل بالروح وأرتل بالذهن أيضاً" (١كو١٤: ١٤-١٥). نرى في هذا النص أن روح الصلاة هي عطية التكلم باللسنة، وأن العقل هو الذهن. تتطابق، إذاً، هنا كلمة عقل مع كلمة ذهن. كما توجد نصوص عديدة في الكتاب المقدس لها نفس المعنى.

حينما يعطي القديس مكسيموس المعترف إسم "عقل" للذهن وللقلب الذي هو مركز كيائنا والذي من خلاله نكتسب معرفة الله، فإنه يقدم تمييزاً ونوع نشاط كل وظيفة: "العقل النقي يرى الأمور بصورة صحيحة بينما يقوم الذهن المدرب بترتيبها"<sup>٨١</sup>. إن العقل (القلب) هو الذي يرى الأمور بوضوح ولذلك يجب عليه أن يكون مُطَهَّراً، بينما الذهن هو الذي يصيغ ويعبر عما رآه العقل.

من خلال هذا النص فصل لتأكيد أنه لكي يصبح المرء واحداً من آباء الكنيسة فإنه من الضروري أن يكون لديه ليس فقط عقل نقي، ولكن أيضاً التعبير الصحيح الذي هو الحديث الخنك لكي يستطيع أن يعبر بقدر الإمكان عن هذه الحقائق الفائقة للطبيعة.

## العقل والانتباه Nous and Attention

يستعمل بعض الآباء كلمة "عقل" ليعرفوا الانتباه الذي هو أكثر حدة من الذهن<sup>٨٢</sup>. يربط ثيوليتوس الذي من فيلادلفيا بين العقل والانتباه وبين الكلمة والتوسل وبين الروح والندم والحب. عندما تعمل قوى النفس بهذه الطريقة فإن "كل باطن الإنسان يخدم الله. ولكن يحدث أحياناً أنه بينما يكون الذهن مقدماً كلمات الصلاة، يكون العقل (الانتباه الأكثر حدة) غير متماس مع أي لا يثبت نظره على الله الذي تتحدث معه كلمات الصلاة، بل يكون مشتتاً بأفكار عديدة بدون أن يدرك ذلك. يقول الذهن إذاً الكلمات على سبيل العادة، ولكن العقل يكون محمولاً بعيداً عن معرفة الله. وبالتالي تبدو النفس أيضاً غير واعية وغير منظمة، طالما أن العقل يكون مشتتاً في خيالات مختلفة ويكون متورطاً في أمور تخدعه أو في أمور يشتهيها"<sup>٨٣</sup>.

<sup>81</sup> . Philok. 2, p. 82, 97

<sup>82</sup> . Triads, 1, 2, 7. CWS p. 46

<sup>83</sup> . Philok. 4, p. 8 ( in Gk.). Writings, p. 388f

لذلك يجب على العقل الذي ليس هو مجرد أفكار، ولكنه إنتبه أكثر حلة، أن يعود للقلب أي لجوهر النفس، الذي هو كامن في القلب اللحمي كعضو، طمنا أن القلب اللحمي هو موضع الذهن وهو " العضو العاقل الأول في الجسد". ويجب علينا بالتالي أن نركز عقلمنا المشتت خارجاً بالحواس، وأن نعيده إلى "القلب الذي هو موضع الأفكار"<sup>84</sup>.

إننا لم نعلم بتغطية موضوع العقل كلية. لقد أردنا فقط في هذا الفصل أن نقوم بطريقة ما بالتفريق بين مصطلحات عقل وقلب ونفس وأن نحدد العلاقة والفرق بينهم. سوف نعود لهذه المفاهيم عندما نتحدث بأكثر استفاضة عن العقل والقلب والأفكار.

نريد في هذا الفصل أن نؤكد بإختصار على أن مصطلح "عقل" Nous له علة معاني في التقليد الكتابي الأبائي. فالعقل يتطابق مع النفس، ولكنه في نفس الوقت هو طاقة النفس. وكما هو الحال مع النفس، هكذا أيضاً العقل هو على صورة الله. وتماماً مثلما تنقسم النفس إلى جوهر وطاقة هكذا أيضاً العقل. ومثلما هو الحال في الله حيث أن جوهره وطاقته متميزان ولكن بغير انفصال، هكذا الحال مع العقل.

من أجل ذلك يصف الآباء في بعض المواضع العقل كجوهـر، الذي هو القلب، حيث يوحّدون بين العقل والقلب، على حين أنهم في مواضع أخرى يصفون العقل كطاقة، أي صور عقلية، وأفكار، وإنتبه أكثر حلة والذي يتشتت من خلال الحواس، حيث يجب عليه أن يعود للقلب. ولكن يتكلم الآباء بوجه عام عن العقل على أنه القلب والنفس، بدون إستبعاد المعاني الأخرى التي أشرنا إليها من قبل.

لقد فقدنا تقليدنا الخاص بذلك، ويوحّد الكثيرون منا بين العقل والذهن. إننا لا نتوقع للمرة أن يكون هناك بخلاف الذكاء قوة أخرى ذات قيمة أعلى والتي هي العقل أو القلب. إن كل الحضارة هي حضارة تنادي بفقدان القلب. ولا يستطيع المرء أن يفهم ما هو ليس موجوداً داخل قلبه. لقد مات القلب، وإظلم العقل، ولا نستطيع أن ندرك وجودهما. من أجل ذلك كان هذا التوضيح ضرورياً.

ولكن الشخص الذي يحمل الروح القدس داخله، وهو في حالة "الإستعلان"، ليس محتاجاً لتوضيحات كثيرة، لأنه هو ذاته يعلم بخبرته بوجود وحضور العقل أي القلب في داخله.

<sup>84</sup> . Triads, 1, 2, 3. CWS p. 43



## ٣- العقل والقلب والأفكار

### Nous, Heart and Thoughts

إن ما قلناه من قبل هو مقدمة لتحليلنا وتفسيرنا للحياة الداخلية للنفس. ومرض وشفاء النفس هما أساساً مرض وشفاء العقل والقلب والأفكار. وما يتبع ذلك يدور حول هذا الموضوع. وسوف نتعرض لهذا الموضوع فيما يلي وسوف ندرس العقل والقلب والأفكار كلا على حدة. وأظن أن هذا التحليل سوف يساعدنا على فحص ذواتنا الداخلية.

### (أ) العقل

لقد أكدنا بالفعل على أن مصطلح "عقل" Nous له عدة معاني في كتابات آباء الكنيسة. أحياناً ما يتم تطابقه مع النفس، وأحياناً أخرى يكون كطاقة للنفس، وعين النفس، وأحياناً ثالثة يوحي التعبير بجوهر النفس أو بطاقتها وفي أحيان أخرى يعني الإنسنة واليقظة التي هي أكثر حدة من الذهن. في هذا الفصل سوف ننظر للعقل على أنه عين النفس. سوف نتناول هذا التعبير لنعني به بصفة رئيسية قوة النفس<sup>٨٥</sup> بالإضافة إلى كونه أكثر أجزاء النفس نقاوة، الذي هو عين النفس، بحسب أقوال القديس يوحنا الدمشقي: "لا تقتني النفس العقل كشيء منفرد عنها، ولكن كأكثر أجزائها نقاوة، لأنه مثلما تكون العين للجسد هكذا يكون العقل للنفس"<sup>٨٦</sup>. إن عين النفس هذه التي هي العقل، والتي تعمل من خلال الحواس، هي التي تتدنس وتمرض وتحتاج للشفاء. مثلما يظلم كل الجسد عندما تمرض عين الجسد، هكذا يكون الحال مع عين النفس، التي هي العقل، حيث تظلم كل النفس في الإنسان حين يكون العقل مريضاً. إن هذا هو ما عنده السيد المسيح حين قال: "إن كان النور الذي فيك ظلاماً، فالظلام كم يكون" (مت ٢٣: ٦). عندما يترك العقل القلب ويتبعد عن الله، فإنه يمرض ويموت، ومن ثم تموت كل النفس. سوف نرى ذلك بطريقة أكثر تحليلاً فيما يلي.

<sup>٨٥</sup> Ibid. CWS p. 42

<sup>٨٦</sup> The Orthodox Faith, FC vol. 37 p. 236

## الحياة الطبيعية للعقل

يحدد الآباء حياة العقل الطبيعية بوضوح ويقول نيسيتاس ستيثاتوس: "إن الله عديم الهوى وفوق كل عقل وكل لا هوى. إنه النور ومصدر النور الصالح، إنه الحكمة والكلمة والمعرفة كما أنه معطي الحكمة والكلمة والمعرفة"<sup>87</sup>. وحيث أن الإنسان هو صورة الله فهو أيضاً يقتني عقلاً عديم الهوى عندما يكون عقله في "حالته الطبيعية ولا يتحرك خارج درجته وطبيعته". وهكذا يرغب ويريد عقل الإنسان أن يكون متحداً بالله "الذي منه أخذ بدايته"، ومن خلال صفاته الطبيعية يعود إليه "ويشتهي أن يحاكيه في بساطته وحبه للإنسان". ومثلما ولد الآب الكلمة الذي يلد ويحدد خلقه الإنسان هكذا أيضاً عقل النفس يلد الكلمة، "ويحدد نفوس البشر من نفس جنسه ويجعلهم أقوياء ليثابروا في الفضائل النشطة". والعقل لا يقوم فقط بتجديد نفوس البشر الآخرين من خلال الكلمة فقط ولكنه يعطيهم الحياة "بنفخة فمه". وهكذا فإن عقل الإنسان الذي يتحرك نحو الله يحدد النفوس الأخرى، ويحاكي الله "الذي يُظهر هو ذاته كخالق للخلقة العاقلة وللكون العظيم"<sup>88</sup>.

يُظهر هذا النص الذي لنيسيتاس ستيثاتوس أنه عندما يتحرك العقل طبيعياً نحو الله ويتحد به، يصبح هو أيضاً بالنعمة في نفس حال العقل السماوي (الله) بالطبيعة.

إن اتحاد العقل بالله هو وقوف، ولكنه في نفس الوقت حركة، طالما أنه لا يمكن إتمه الكمال أبداً بوجه علم. يكتب القديس مكسيموس عن الوقوف الدائم الحركة والحركة الساكنة. طالما الإنسان يثبت في الله فهو في حركة مستمرة. يقول نيسيتاس ستيثاتوس نفس الشيء عن العقل: "كل العقول الثابتة في الله العقل الأول تكون في وقوف دائم وحركة لانهاية". لا يكون الحال هكذا مع العقل الغير نقى، ولكن مع العقل النقي والغير دنس.<sup>89</sup> عندما يتحد العقل بالعقل الأول (الله) يصير صالحاً وحكيماً. "الله وحده هو الصالح والحكيم بطبيعته ولكنك لو بذلت ذاتك فإن عقلك أيضاً يصير صالحاً وحكيماً بالشركة"<sup>90</sup>.

ولكى نصف الحالة الطبيعية للعقل، لابد أن نحدد بوضوح ماهى حركاته الطبيعية. وغير الطبيعية، والفائقة للطبيعة. يصف القديس مرقس الناسك الحركات الثلاث التي

<sup>87</sup> . Gnostic chapters, 1. Gk. Philok. 3 p. 326, 1

<sup>88</sup> . Ibid. p. 329, 12

<sup>89</sup> . Ibid. p. 332, 28

<sup>90</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 315, 37

٢٠ للعقل قائلاً: "يتغير العقل من واحدة لأخرى من ثلاثة حالات مختلفة وهي: تلك التي بحسب الطبيعة، والتي هي فوق الطبيعة، وما هي ضد الطبيعة". فعندما يدخل العقل الحالة التي بحسب الطبيعة، يجد أنه هو ذاته علة الأفكار الشريرة، ويعترف لله بخطياه، فاهماً بوضوح أسباب الأهواء. وعندما يدخل في الحالة التي هي ضد الطبيعة، فإنه ينسى عدل الله ويحارب الناس ويعتقد في ذاته أنه يُعامل بغير عدل. ولكنه عندما يرتفع للحالة التي هي فوق الطبيعة فإنه يجد ثمار الروح القدس".<sup>٩١</sup> وحيّة الروح تُظهر الحالة الطبيعية التي للعقل، وهي التي ترسم نموه الطبيعي. وعندما يثابر شخص ما في جعل عقله يتحرك بحسب الطبيعة، فإنه يبقى نقياً من النطاق المادي ويكون "مزيناً بالوداعة والتواضع والحب والحنو ويكون مستتيراً بنور الروح القدس".<sup>٩٢</sup>

يقول القديس مكسيموس المعترف: "يعمل العقل بحسب الطبيعة عندما يبقى متحكماً في الأهواء ويتأمل في الجوهر الداخلي الذي للكائنات المخلوقة ويبقى ثابتاً في الله".<sup>٩٣</sup>

يؤكد الآباء القديسون أيضاً على حقيقة أن العقل يتغير مع كل صورة عقلية للأشياء التي يقبلها. فهو عندما يتأمل الصور العقلية للأشياء بطريقة روحية، "يتحول بطرق متنوعة حسبما يتأمل في أي منها". وعندما يتحد بالله يفقد الصورة والشكل معاً.<sup>٩٤</sup> من أجل ذلك فإنه من المهم جداً للعقل أن يتعلم أن يتلقى الصور العقلية للأشياء بطريقة روحية لأنه لو لم يحيا في حالته الطبيعية فإنه يتشوه وعندما يتشوه العقل الذي هو عين النفس فمن الطبيعي أن تتشوه كل النفس. إذ أنه عندما تتدنس إحدى قوى النفس وتصبح مريضة فإن كل القوى الأخرى تتشوه وتمرض طالما أن "النفس واحدة".<sup>٩٥</sup>

العقل هو إذاً ما يحدد الحالة الكاملة للمرء لأنه هو مُغذي النفس. يقع عقلنا بين شيئين: الفضيلة والرذيلة، الملاك والشیطان، وكل واحد فيهما يعمل لصالحه الخاص. عندما تتحد النفس بالحرية "يكون لديها السلطة والقوة لكي تتبع أو تقاوم أيهما بحسب ما تريد".<sup>٩٦</sup> والذي يقسم النفس هو العقل. يمرض العقل أولاً ثم يدنس كل النفس ويؤدي إلى ضلالها. "تذهب النفس أينما يعطي العقل قوة دافعة لأي هوى بشري".<sup>٩٧</sup> ومن

<sup>٩١</sup> . Philok. 1, p. 132, 90

<sup>٩٢</sup> . Nicetas Stethatos, Gnostic chapters, 13. Gk. Philok. 3. p. 329

<sup>٩٣</sup> . Philok. 2, p. 105, 45

<sup>٩٤</sup> . Ibid. p. 98, 97

<sup>٩٥</sup> . St. Gregory Palamas. EF p. 410, 3

<sup>٩٦</sup> . St. Maximus. Philok. 2. p. 98,92

<sup>٩٧</sup> . Nicetas Stethatos. Gnostic chapters, 17. Gk. Philok. 3, p.330

الأشياء المميزة للعقل أنه عندما يصير شيء ما هو إهتمامه الدائم فإنه يزدهر هناك ويحول بالتالي الرغبة والحب في هذا الإتجاه. وقد يكون هذا إما في إتجاه ما هو إلهي وعقلاني ومتناسب مع طبيعته أو في إتجاه الأهواء وأمور الجسد<sup>98</sup>.

عندما يكون هوى الحب خاطئاً فإنه يشغل العقل بالأمر المادية، ولكنه عندما يكون موجهاً في الإتجاه الصحيح "فإنه يجعله يتحد بما هو إلهي"<sup>99</sup>. من أجل ذلك يعطي النسك الأرثوذكسي أهمية كبرى لتقدم وتحرك العقل. لأنه عندما يتحول العقل ويتطلع نحو الأمور المادية ويتدنس بالصور العقلية للأشياء فإنه يمرض وينقل هذا المرض لكل قوى النفس.

نستطيع أن نقول بوجه عام أن حركات العقل هي بحسب الطبيعة وفوق الطبيعة وضد الطبيعة. يتحرك العقل بالحرية التي يمتلكها وبحسب رغبته الخاصة، ويتغير بحسب الطريق الذي يتبعه والمكان الذي يبقى فيه، وبعد ذلك يغير النفس إما سلبياً أو إيجابياً: "يوجه الناس أذهانهم إما لخطاياهم أو للمسيح أو للناس"<sup>100</sup>. أعتقد أن ذلك سيصبح أكثر وضوحاً فيما يلي عندما نتحدث عن مرض وشفاء العقل.

يعلم القديس غريغوريوس أسقف نيصص قائلاً: "... العقل ليس فاصراً على أي جزء فينا لكنه موجود بالتساوي في الكل وخلال الكل..."<sup>101</sup>. يمثل إتحاد العقل بالجسد إتصلاً يفوق الوصف ولا يُعبّر عنه "ليس أنه موجود في داخله (لأن الغير جسدي لا يمكن أن يُحتوى داخل جسد) وليس أنه يحوطه من الخارج (لأن الغير جسدي لا يحتوي أي شيء داخله)، ولكنه إذ يقترّب من طبيعتنا بطريقة غير مفهومة وإذ يتحد بها، فهو يرى على أنه موجود فيها وحوها معاً وليس مزروعاً في داخلها ولا مطوياً معها"<sup>102</sup>.

يشرح القديس غريغوريوس بالاماس نص القديس مكاريوس الذي يعلم أن العقل وكل أفكار النفس موجودة في القلب اللحمي كما يشرح أيضاً نص القديس غريغوريوس أسقف نيصص الذي يعلم أن العقل لكونه عديم الجسد فإنه غير موجود في الجسد، ويكتب أن هذين النصين ليسا متعارضين معاً ولكنهما يكملان بعضهما البعض. يمتلك القديسان مكاريوس وغريغوريوس أسقف نيصص إفتراضين مختلفين. أي أن القديس مكاريوس يتكلم عن العقل في الجسد بمعنى معين، على حين أن القديس غريغوريوس يتكلم عن العقل خارج الجسد بمعنى آخر. تماماً مثلما يقول شخص ما أن الله الغير

<sup>98</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 94, 71

<sup>99</sup> . Ibid.

<sup>100</sup> . Abba Ilia. Sayings. P. 60, 5

<sup>101</sup> . The Making of Man, ch. 15. NPNF ns vol. 5. p. 403f. PG 44, 177BC

جسداني ليس موجوداً في مكان بعينه ويكون هذا القول غير متعارض مع قول القائل أن الكلمة كان موجوداً في وقت ما في العذراء الطاهرة والدة الإله. هكذا الحال مع هذه النصوص الآبائية التي تتكلم عن العقل. فعقل الإنسان يكون خارج الجسد لكونه عديم الجسد ولكنه داخل الجسد أيضاً مستعملاً القلب بطريقة غير موصوفة كعضو الجسد الأول<sup>102</sup>. لقد شرحنا في فصل آخر أن العقل له جوهر وطاقة وأنه موجود في القلب كجوهر على حين أنه يعمل في الأفكار كطاقة، وهكذا فإنه يأتي خارج الجسد وبلد الصور العقلية للأشياء. يدخل العقل القلب في الحالات الطبيعية وتدخل الطاقة الجوهر وهكذا ترتفع نحو الله. هذه هي الحركة الدائرية للعقل التي سنتحدث عنها بعد قليل.

لا يمتلك العقل الذي على صورة الله حياة إلا عندما يتحد بالله وعندئذ يصبح حكيماً وصالحاً. هذه هي حياة العقل. يكتب بولس الرسول قائلاً: "لأنه من عرف فكر الرب فيعلمه وأما نحن فلنا فكر المسيح" (١كو ٢: ١٦). الحالة الطبيعية للعقل هي بالنسبة له أن يتحد مع عقل المسيح وبالتالي يستتير ويستضيء. توجد "الحياة الحقيقية والطاقة الحقيقية للعقل" عندما ينشغل فكر النفس بالرؤى الإلهية ويرفع تسبيحاً وشكراً لله وعندما يلصق نفسه بالله بتذكر دائم له<sup>103</sup>.

الابتعاد عن الله يجعل العقل ميتاً على حين أن حياة العقل هي الشركة والاتحاد به. يقول القديس مكسيموس أن نور المعرفة الروحية هو حياة العقل وحيث أن هذا النور يتولد عندما نحب الله، فإنه لا يوجد شيء أعظم من أن نحب الله<sup>104</sup>.

مثلاً يحتاج الجسد للخبز لكي يحيا، وتحتاج النفس للفضيلة لكي تحيا. هكذا أيضاً تكون الصلاة الروحية غذاءً للعقل<sup>105</sup>. تغذي الصلوات العقل وتعطيه حياة. عندما يتحرك العقل نحو الله ويتحد به فإنه يكون حياً وسليماً وفي هذه الحالة فإنه يتلقى تعزيزاً من الله. يحصل العقل على الصحة والإدراك في الله. وتتكون هذه القدرة الإدراكية من "القدرة على التمييز بدقة بين مذاقات الحقائق المختلفة"<sup>106</sup>.

من الضروري في الحياة الروحية أن يمتلك العقل حياة بحيث يكون قادراً على التمييز بين الأفعال والتعزيزات الصادرة من الله وتلك الصادرة من الشيطان. عندما يكون العقل

<sup>102</sup> St. Gregory Palamas. Triads, 2, 2, 29

<sup>103</sup> Ibid. 2, 2, 23

<sup>104</sup> Philok. 2, p. 54, 9

<sup>105</sup> Evagrius. Philok. 1, p. 67, 101

<sup>106</sup> St. Diadochos of Photiki. Philok. 1, p. 261, 30

سليماً ويكرس نفسه باستمرار للحقائق الإلهية "يصير الجزء الحسى من النفس سلاحاً إلهياً"<sup>107</sup>. وبالتالي تصير النفس بكنيتها سليمة. فالعقل هو عربة تجر النفس إما نحو الله أو نحو الشيطان وأفعال الرذيلة. على أي الأحوال عندما تكون النفس سليمة فإنها تحصل على الإطمئنان من الله. إن وصية بولس الرسول عن إمتلاك عقل نقي وحي واضحة: "فليتقن كل واحد في عقله" (رو ١٤ : ٥).

على الرغم من أن العقل هو أحد قوى النفس بالمعنى الذي يعيننا في هذا الفصل إلا أنه يمتلك قوى وطاقات أخرى. يعلن نيسيتاس ستيثاتوس قائلاً أن للعقل أربعة قوى: الفهم والفتنة والإدراك وسرعة البديهة. يجب أن تتحد هذه القوى الأربعة للعقل بفضائل النفس الأربعة العامة: يجب أن يتحد فهم العقل بضبط النفس، والفتنة بالحس الأخلاقي، والإدراك بالعدل، وسرعة البديهة بالشجاعة. تُكوّن هذه معاً "المركبة النارية العابرة للسماوات" والتي تواجه الأهواء الثلاثة التي للبخل والشهوانية والطموح<sup>108</sup>.

أجزاء العقل هذه هي بلا شك غير مفهومة بالنسبة لنا إلا أن الآباء من خلال جهاداتهم ومن خلال إستارة الروح القدس ميزوا وحددوا هذه القوى وصاروا على علم بالتركيب الداخلي الكامل للنفس. يصل الشخص الذي يحيا "في الإعلان" ويستتبر بالروح القدس إلى معرفة كل أعماق النفس وكل قوى العقل الغير معروفة والغير معبر عنهما لمن يكون بعيداً عن النعمة. وبالإضافة إلى ذلك يكون الإنسان بكنيته غامضاً ومجهولاً بالنسبة لمن يكون بعيداً عن الله.

تُظهر كل الأمور التي أشرنا إليها الحالة الطبيعية للعقل كما تعمل في الإنسان الطبيعي في إنسان الله. "إن مهمة العقل هي رفض أي فكر يحتقر القريب في السر"<sup>109</sup>. وعندما يكون العقل في الحالة الطبيعية فإنه يصد الأفكار النابعة من الشيطان ويصد بوجه عام كل فكر مضاد للحب. وهكذا تصير النفس كاملة عندما تغطي بمعرفة الله: "تصير النفس كاملة عندما تتغير بالمعرفة الروحية"<sup>110</sup>. هذه المعرفة هي معرفة الله ومعرفة الأشياء المخلوقة بطريقة تعلقو فوق المعرفة. "إن العقل الكامل هو الذي من خلال إيمان حقيقي وبطريقة تفوق كل المعرفة يعرف ذاك الغير معروف ويفحص كل خليفة الله"<sup>111</sup>.

<sup>107</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 315, 49

<sup>108</sup> . Practical chapters, 12. GK. Philok. 3, p. 275

<sup>109</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 327, 38

<sup>110</sup> . Ibid. p. 316, 54

<sup>111</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 99, 99

## مرض العقل

لقد إسودَّ العقل وإظلمَ ومرض بالسقوط وكفَّ عن أن يكون كاملاً. ويحدث نفس الشيء في كل مرة يرتكب فيها الإنسان خطية.

إن حرب الشيطان الأولى هي مع العقل. فالشياطين تحاول أن تستعبده عندما يوافقها الإنسان ويرتكب الخطية. يعلم القديس مكسيموس أن الشياطين تستغل فرصة وجود الأهواء بالنفس فتثير الأفكار الشهوانية التي من خلالها تحارب العقل وتجبرها على أن توافق على الخطية. تشن الشياطين حرباً كبيرة لكي تأسر العقل وتجذبه ليصبح فكراً شهوانياً. وعندما ينهزم العقل "فإن الشياطين تقوده للخطية في الفكر وعندما يحدث ذلك فإنها تدفعه وهو في حال أسره أن يرتكب الخطية بالفعل". ولكن الشيطان لا يتوقف عند هذا الحد، فبعد أن تدمر الشياطين القلب بواسطة الأفكار الشهوانية فإنها تنسحب. وعلى الرغم من ذلك يبقى صنم الخطية في العقل. يقول القديس مكسيموس مُعلقاً على كلمات السيد المسيح: "... متى نظرت رجسة الخراب ... قائمة في المكان المقدس" (مت ٢٤: ١٥) أن عقل الإنسان هو هيكل الله الذي "تقيم فيه الشياطين صنم الخطية من خلال تدمير النفس بواسطة الأفكار الشهوانية".<sup>١١٢</sup>

هذا هو مرض العقل. ليس فقط أنه مأسور ولكنه أيضاً مريض طالما أن صنم الخطية يبقى كجرح مستمر وكسبب لخطية جديدة. إننا نقول أن العقل في هذه الحالة يكون قد سُيِّ بالشیطان والأهواء "والعقل الذي تسوده الأهواء يفكر أفكاراً دنية". يظهر ذلك في الكلمات والأفعال.<sup>١١٣</sup>

✦ كل ما يقوله الإنسان أو يفعله يُظهر مرض أوصحة العقل. من أجل ذلك يدرك الذين يمتلكون موهبة التمييز حالة عقل كل إنسان من خلال حركاته الخارجية وكلماته.

إن إرتباط العقل بالحواس "يستعبده للذات الجسدية"<sup>١١٤</sup>. وبدلاً من أن يتجه العقل نحو الله ويتحد به فإنه يتجه ليتحد بالحواس ويصبح بالتالي عبداً. وهذه العبودية وهذا الأسر هو مرض العقل ومن الطبيعي أن يؤدي هذا المرض لموت العقل.

سوف نستشهد فيما يلي بنصوص آباءية لكي نصف بعض أحوال ومواصفات مرض العقل.

<sup>112</sup> , Ibid. p. 70, 31

<sup>113</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 319, 4

<sup>114</sup> . Ibid. p. 316, 55

يتكلم الكتاب المقدس عن العقل الفاسد: "ومنازعات أناس فاسدي الذهن وعادمي الحق" (١ تي ٥: ٦). وأيضاً الذين يقاومون الحق "أناس فاسلة أذهانهم" (٢ تي ٣: ٨). يتحدث بولس الرسول عن أحد الهراطقة في عصره ويقول عنه أنه: "منتفخاً باطلاً من جهة ذهنه الجسدي" (كو ٢: ١٨). يؤكد هذا النص بوضوح على أنه عندما يكون الإنسان شهوانياً ومحروماً من عمل الروح القدس كما يشير علم لاهوت بولس الرسول فإنه يكون ذا عقل جسدي. بالإضافة إلى ذلك فإن العقل المتبعد عن الله يوصف على أنه "مرفوض" (رو ١: ٢٨). ولا يريد بولس الرسول أن يعيش المسيحيون مثل الأعميين "ببطل ذهنهم" (أف ٤: ١٧).

ويتكلم أيضاً الآباء مثل القديس ثالاسيوس عن كيفية تحرك العقل بعيداً عن مجال المعرفة الروحية عندما يتعد الجزء الحسي من النفس عن فضائله.<sup>١١٥</sup>

يوصف أيضاً مرض العقل بكلمة "ظلمة". فالعقل يكون مستتيراً بسبب كونه على صورة الله. ولكن عندما يفصل عن الله ويفقد حالته الطبيعية، فإنه يسود ويظلم. يعلم هيزيخيوس القس أن الثمانية أفكار الرئيسية التي للشيطان والذي يصنف تحتها أي فكر شرير، تقترب من مدخل القلب فإذا وجدت العقل غير محروس، فإنها تدخل القلب واحلة تلو الأخرى، كل فكر في حينه. وعندما تدخل أي فكرة منها فإنها "تدخل سرباً من أفكار شريرة أخرى وبذلك يظلم العقل فتثير الجسد وتحرضه على أعمال آثمة"<sup>١١٦</sup>. ويعلم هيزيخيوس أيضاً في موضع آخر قائلاً أنه عندما يحيا الإنسان حياة شريرة وفاسقة فإنه "يُدخل الظلام لعقله"<sup>١١٧</sup>. وهكذا ننصحنا تعاليم الآباء أن نراقب أفكارنا بحيث "لا يظلم عقلنا بل على العكس يصير بصيراً"<sup>١١٨</sup>.

نستطيع إذاً أن نتكلم عن العمى وعدم قدرة العقل على رؤية الأشياء بوضوح. وعندما يظلم عقلنا لا نجد طريقاً نقياً مفتوحاً نحو القريب. بل يصير كل شيء مُدنساً ومظلماً ومصحوباً بنتائج مزعجة وخيفة في حياتنا. وتتماً مثلما تحجب السحب الشمس هكذا تجلب الأفكار الشريرة ظلاماً على الذهن وتفسده.<sup>١١٩</sup> يظلم عقلنا ويبقى عديم الثمر إما عندما نتكلم بكلمات العالم أو عندما نستضيف مثل هذه الكلمات في أذهاننا ونتحد

<sup>115</sup>. Ibid. 56

<sup>116</sup>. Philok. 1, p. 194, 177

<sup>117</sup>. Ibid. p. 174, 69

<sup>118</sup>. St. Thalassios. Philok. 2, p. 312, 86

<sup>119</sup>. Ladder. Step. 26, Summary. CWS p. 257



بها أو عندما يتورط جسدنا مع العقل في أمور حسية. وعندئذ نفقد في الحال حماسنا ووخز ضميرنا وحميميتنا مع الله والمعرفة الروحية. وهكذا "بمقدار ما نركز إنتباهنا في العقل بمقدار ما نستتير. ولكن عندما لا نكون متبهرين له فإننا نكون في الظلام"<sup>120</sup>.

الظلام يسمّى أيضاً عمى، لأنه عمى حقيقي للعقل. ويصبح العقل أعمى بالثلاثة أهواء التي هي الطمع، والكبرياء، واللذة الحسية<sup>121</sup>. ويقول نيسيتاس ستيثاتوس أن جهل العقل الأرضي الذي هو ضباب وظلام عميق "يغطي أعين النفس ويجعلها مظلمة ويعتم إدراك ما هو إلهي وما هو إنساني بحيث يصير غير قادر على التطلع في أشعة النور الإلهي أو التمتع بهذه الأشياء الحسنة التي لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولم تخطر على قلب بشر"<sup>122</sup>. العقل والنفس بوجه عام غير قادرين على تأمل الله وعلى الإستنارة. وهذا هو المرض والموت. وفي هذه الحالة لا يستطيع الإنسان أن يجد الحق. يُعلّم القديس باسيليوس الكبير أن العين لا تستطيع أن ترى شيئاً بوضوح عندما تبقى متحركة أحياناً جانباً وأحياناً أخرى لأعلى وأسفل باستمرار. وهكذا يكون الحال مع عين النفس التي هي العقل "الذي إذ يتشتت بآلاف الإهتمامات العالمية لا يستطيع أن يبصر الحق بوضوح"<sup>123</sup>.

يوجد مرض آخر للعقل وهو التصلب وعدم الحساسية والتبلد. يقول القديس يوحنا الدرجي: "إن إمتلاك قلب غير حساس هو إمتلاك عقل متبلد"<sup>124</sup>.

عندما تأتي الشياطين للنفس وتطفئ نور العقل لا يعود بعد في داخلنا لا رزانة ولا بصيرة ولا معرفة الذات أو الخجل، بل نُترك مع "التبلد وعدم الحساسية واللامتيز والعمى"<sup>125</sup>.

العقل المتوعك يكون أسيراً وسجيناً: "الأهواء الشريرة تأسر العقل وتربطه بالأشياء الحسية"<sup>126</sup>. يقول القديس مكسيموس أنه مثلما لا يستطيع العصفور المربوط من رجله أن يطير مهما يحاول فهو ينجذب للأرض. "بالمثل عندما يطير العقل الذي لم يصل بعد للأهوى مرتفعاً ناحية المعرفة الروحية فإنه يمسك بواسطة الأهواء وينجذب لأسفل نحو

<sup>120</sup> . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 184, 127

<sup>121</sup> . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 184, 127

<sup>122</sup> . Natural chapters, ch. 87. Philok. 3, p. 320 ( in Gk.)

<sup>123</sup> . St. Basil the Great. FC vol. 13, p. 9. Letter 2

<sup>124</sup> . Ladder. Step 6. CWS p. 133

<sup>125</sup> . Ibid. Step. 26. CWS p. 230

<sup>126</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 321, 41

الأرض"<sup>١٢٧</sup>. إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك مهما حاول أن يطير للمعرفة الروحية لو لم يتحرر من الأهواء التي تربطه وتبقيه أسيراً للأرض. يصير العقل مُجبراً على الأهواء المختلفة ولا يستطيع أن يصلي لله صلاة نقية"<sup>١٢٨</sup>. "العقل المغرور هو غيوم بلا مطر محمول بريح الكبرياء والفخر"<sup>١٢٩</sup>. والعقل المريض بهوى الكبرياء هو تحت الوهم إذ يحاول أن يحصر الإلهي في صور وأشكال"<sup>١٣٠</sup>.

يصف هيزيخيوس القس أيضاً الطريقة التي يصبح بها العقل أسيراً. فهو عندما يكون عديم الخبرة وبلا يقظة يبدأ فوراً في إستضافة أي خيال شهواني يظهر فيه وهذا ما يجلبه الخيال معه. وبعد ذلك يتحاور معه ثم يستجيب له، وهكذا "تصبح أفكارنا الخاصة متحلة مع الخيال الشيطاني". وإذ ينمو الخيال ويزدهر يمرض العقل"<sup>١٣١</sup>.

وبخلاف الحالات المرضية للعقل التي أشرنا إليها بالفعل توجد أيضاً النجاسة. يقول بولس الرسول: "كل شيء طاهر للطاهرين وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شيء طاهراً بل قد تنجس ذهنهم أيضاً وضميرهم" (تي ١ : ١٥). من الممكن أن يتنجس العقل ليس فقط بخطية عظيمة مميته ولكن أيضاً بكلمة واحدة تقال بلا مبالاة. ولكن لا يحدث ذلك في الأغلب إلا مع ذاك الذي ذاق سعادة وتأثير الصلاة"<sup>١٣٢</sup>.

يتكلم القديس يوحنا الدرجي عن ضربة سريعة للعقل والتي يتمكن فيها إلحاح شهواني مفاجئ من ضحيته بدون أي كلمة أو صورة وفي وقت قصير. فمن الممكن أن يثار الهوى في عقل الإنسان بحركة بسيطة بدون أن يسبقه أي فكر مُركَّب"<sup>١٣٣</sup>.

وهكذا يتضح مما قيل أن مرض العقل هو الفساد والظلام والعمى واللامبالاة وعدم الحساسية والأسر والوهم والنجاسة والضربة السريعة للعقل. إن كل ما يستعيد العقل ويجعله ينحرف عن حركته الطبيعية هو مرض يؤدي إلى موت العقل. وفي هذه الحالة يكون الإنسان مريضاً ومدنساً ومائتاً بالكلية.

<sup>127</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 63, 85

<sup>128</sup> . Evagrius. Philok. I, p. 61, 51

<sup>129</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 326, 26

<sup>130</sup> . Evagrius. Philok. I, p. 68, 116

<sup>131</sup> . Philok. I, p. 187, 144

<sup>132</sup> . Ladder. Step 28. CWS p. 279f

<sup>133</sup> . Ibid. Step. 15. CWS p. 182

تقتضي الحياة الأرثوذكسية فوق كل شيء ضرورة شفاء القوة العقلية. وحيث أنه عندما يظلم العقل تظلم النفس وتدنس بكليتها، فإن شفاء العقل يؤدي إلى شفاء الكيان كله. دعونا نتناول الآن موضوع شفاء العقل.

سوف نحصر أنفسنا في نقطتين رئيسيتين لكي نوضح الموضوع. الأولى هي كيف يمكن الحصول على هذا الشفاء والثانية هي النتائج.

إن أحد التعاليم الرئيسية لقديسينا هي أن شفاء العقل يتم من خلال حراسته وهذا ما يسمى "باليقظة". فحراسة العقل هي "برج مراقبة لكل حياتنا الروحية"<sup>134</sup>. ولقد سُميت حراسة العقل "بالمُحدثة للنور، والمُحدثة للإستنارة، والواهبه النور، والحاملة النار". وهي تفوق فضائل كثيرة. وحراسة العقل هي التي بقوة المسيح تستطيع أن تغير الإنسان من حالة الخطية وعدم المخافة والتجديف والجهل وعدم الفهم وعدم الإستقامة إلى حالة الإستقامة والتجاوب والنقاوة والقداسة والحكمة. وبالإضافة إلى هذه الأمور فإن حراسة العقل تجعل الإنسان قادراً على "التأمل الباطني والهذيد بالإلهيات"<sup>135</sup>.

من خلال حراسة العقل يصير الإنسان طاهراً ويصبح بذلك مقدساً وقادراً على الهذيد بالإلهيات. يرى القديس فيلوثيريوس السينائي أنه يجب علينا أن نحرس عقولنا بصرامة شديدة. ويجب علينا عندما نرى فكراً شريراً أن ندفعه وأن ندعو المسيح في الحال. وسوف يقول يسوع في حبه اللطيف "تماسك فأنا بجانبك ومستعد لمساعدتك". من المهم والضروري إذاً أن نحرس العقل<sup>136</sup>.

على أية حال ليست حراسة العقل هي فقط الجهاد ضد الأفكار الشريرة التي تأتي وتأسر العقل، ولكنها أعمال أخرى متنوعة. وحيث أن الأفكار الشريرة تأتي من الأهواء فإن حراسة العقل تبدأ بضبط النفس في الطعام والشراب ورفض كل فكر شرير، وكذلك سكون القلب<sup>137</sup>.

<sup>134</sup>. Hesychios the Priest. Philok. I, p. 175, 76

<sup>135</sup>. Ibid. p. 192, 171

<sup>136</sup>. Philok. 3, p. 26, 26

<sup>137</sup>. Hesychios the priest. Philok. I, p. 191, 165

تكون حراسة العقل مصحوبة باليقظة وبصلاة يسوع لأنه "لا يوجد أي تقدم بأي حال من الأحوال في حراسة العقل بدون يقظة وإتضاع وصلاة يسوع"<sup>١٣٨</sup>. وهذا يعني أن هذه الحراسة لا يمكن أن تتم ما لم يبذل الشخص مجهوداً لكي يتحرر من الأهواء ولكي يكتسب الفضائل.

شفاء العقل الميت يتطلب شجاعة. ويشدد الآباء على أهمية الشجاعة في الحياة الروحية. المجاهد الشجاع لا يستسلم أو يفقد شجاعته حتى في الظروف التي ينحني فيها أمام الشرير ولكنه يضع رجاءه في الله: "النفس الشجاعة تقيم عقلها المحتضر"<sup>١٣٩</sup>. عندما يُمتطى الحصان الجيد يتحفز ويزيد من سرعته وهكذا فإن ترتيب المزامير هو السرعة والعقل الراسخ هو الحصان<sup>١٤٠</sup>. والشجاعة هي وحدها فقط التي تعطي للإنسان القدرة على إحياء عقله المائت من الخطيئة.

على أية حال توجد عدة مهام للعقل: فيجب عليه أن يحفظ وصايا المسيح لكي يحيا. لأنه إن كان موت العقل يأتي من خلال عدم حفظ الوصايا، فإن قيامته وإستعادته للحياة تتم من خلال حفظها. يجب على المرء أن يهتم بأن يحب الله وأن يتذكر الله ويتذكر الملوكوت وغيره الشهداء القديسين ويتذكر حضور الله والقوى الروحية المقدسة ويتذكر رحيله من هذه الحياة والحكم والدينونة والعقاب<sup>١٤١</sup>.

إن السكينة والصلاة والحب وضبط النفس هي "مركبة تجرها أربعة أحصنة (جمع حصان) تحمل العقل للسماء"<sup>١٤٢</sup>. يستتير العقل عندما لا يهتم الشخص بممارسة الفضائل<sup>١٤٣</sup>.

يقول نيسيتاس ستيثاتوس تلميذ القديس سمعان اللاهوتي الجديد أن "الطريق القصير للمبتدئين لإكتساب الفضيلة هو صمت الشفة والأعين والأذان المغلقة". سكينة الحواس هذه تساعد (من خلال غلق المداخل) العقل على أن يرى نفسه بوضوح وأن يميز الحركات. وهكذا يكون العقل "مثل القائد الذي يقف بنفسه بين الأفكار يحكم ويفصل الأفكار الصالحة من الأفكار الشريرة" وقبل الصالحة منها "مستخرجاً الخيرات الروحية"

<sup>138</sup>. Ibid. p. 192, 168

<sup>139</sup>. Ladder. Step 13. CWS p. 161

<sup>140</sup>. Ibid. Step. 28. CWS p. 279

<sup>141</sup>. Ibid. Step 6, CWS p. 134

<sup>142</sup>. St. Thalassios. Philok. 2, p. 308, 24

<sup>143</sup>. St. Thalassios. Philok. 2, p. 309, 48

التي يتغذى ويتقوى بها ويمتلئ من النور ثم يلقي الأفكار الأخرى في لجة النسيان "مزعزعا مرارته"<sup>١٤٤</sup>.

يستحق هذا النص إنتباهنا الكامل فهو يوضح أن العقل المتحرر من عبودية الحواس من خلال صمت الشفة وعدم الإستجابة للمثيرات الخارجية يصير هو قائد النفس. إنه لا يسمح للأفكار الشيطانية الفاسدة أن تدخل لما يسمى اللا شعور الذي هو عمق النفس. أما الأفكار الصالحة التي تغني وتعطي حياة للشخص فتدخل في عمق النفس. وهكذا بالتالي تصير كل الصور العقلية والأعمال الخاصة بالشخص الذي يقوده العقل طاهرة.

ينصح القديس مكسيموس الخارب الروحي قائلاً: "فلتكبح جماح نفسك بلحب، ولتقمع شهوتها بضبط النفس، ولتعطي لعقلها أجنحة بالصلاة، وعندئذ سوف لا ينطفئ نور عقلك أبداً"<sup>١٤٥</sup>. ومن التعاليم الرئيسية للآباء أنه يجب علينا في بداية عملنا الروحي الداخلي لشفاء العقل أن نحافظ عليه طاهراً. ويجب أن يستمر ذلك أيضاً فيما بعد. يعلم القديس يوحنا الدرجي قائلاً: "أضبط عقلك الطائش في جسدك المشتت... ثبت عقلك في نفسك كما لو كان في خشبة الصليب، وإضربه بضربات المطرقة المتتالية مثل سندان الحداد... أرجع عقلك المشغول جداً باهتماماته الخاصة"<sup>١٤٦</sup>.. ولكن يجب أن يكون هذا العمل مرتبطاً بلجهاد لحماية حقوق الله في حياة الإنسان. يجب علينا أن نؤكد على أن الإنسان العملي يُخضع عقله بطريقة مختلفة عن الإنسان المستنير. وبالمثل يوجد اختلاف بحسب العمر الروحي للإنسان والعمل الذي يعمل، ليضبط عقله. "يستطيع الشخص المنخرط في الممارسة النسكية أن يُخضع عقله للصلاة، بينما المنخرط في التأمل يُخضع لعقله"<sup>١٤٧</sup>.

هذا العمل يحقق شفاء العقل وهو ما يسمى التطهير، في لغة الآباء. يجب على العقل الذي تدنس بالأهواء أن يتطهر. وعمل التطهير هذا يتم بواسطة الروح القدس: "الروح القدس وحده هو الذي يستطيع تطهير العقل". من أجل ذلك فإنه من الضروري قبل كل شيء أن يسكن الروح القدس فينا "بحيث نستطيع أن نقفني مصباح المعرفة الروحية مشتعل دائماً داخلنا". عندما يدخل القدير إلى النفس فإنه يهزم المخرب ثم يحرق كل ما تم أسره، ومن المستحيل أن يتم ذلك بطريقة أخرى.<sup>١٤٨</sup>

<sup>144</sup> . Practical chapters, ch. 26. Gk. Philok. 3, p. 278

<sup>145</sup> . Philok. 2, p. 110, 80

<sup>146</sup> . Ladder . Step 4. CWS p. 104

<sup>147</sup> . Ilias the Presbyter. Philok. 3, p. 48, 9

<sup>148</sup> . St. Diadochos of Photiki, Philok. 1, p. 260, 28

يصف نيسيئاس ستيثاتوس طريقة تطهير العقل: "حيث أننا نمتلك خمس حواس فإننا نمتلك أيضاً خمسة ممارسات نسكية في المقابل. الخمسة ممارسات نسكية هي السهر، والتأمل، والصلاة، وضبط النفس، والسكون. يحتاج المرء لأن يدمج الإبصار بالسهر، والسمع بالتأمل، والشم بالصلاة، والتذوق بضبط النفس، واللمس بالسكون. يتطهر ويتهدب العقل بهذه الطريقة بسرعة ويصبح عديم الهوى وحاد الذهن".<sup>149</sup>

يعطي هيزيخيوس القس أهمية عظمى لصلاة يسوع لأنها تنقي العقل من الأفكار الشريرة. عندما يضطرب أحد بسبب طعام مثير للغثيان فإنه يأخذ العلاج المناسب ويتخلص منه. يحدث نفس الشيء عن طريق الصلاة من جهة العقل المندس. فعندما يتلقى العقل الأفكار الشريرة ويبتلعها ويشعر بمرارتها "فإنه يستطيع أن يتقيها بسهولة والتخلص منها تماماً بواسطة صلاة يسوع الصادرة من عمق القلب".<sup>150</sup>

تطهير العقل ليس هو إذاً مجرد العثور على الأفكار التي دخلت إليه، بل وأيضاً تقيؤها. هذا لا يتم من خلال التحليل والأفكار المنطقية ولكن فقط من خلال صلاة يسوع. وعندما نتكلم عن "الصلاة" فإننا نعني عمل الروح القدس الذي يأتي داخل القلب عندما يتذكر الشخص المسيح في قلبه.

يؤكد القديس غريغوريوس بالاماس على أن عمل العقل المتكون من الأفكار يتطهر بسرعة "بتكريس وقت للصلاة وخصوصاً صلاة تتكون من كلمة واحدة". عندما يكرس شخص نفسه للصلاة فإن عمل ذهنه يشفى. قد تكف الأفكار الشريرة ولكن تبقى النفس بمجملتها غير نقية، لا يمكن أن تنتقى القوة التي تحدث الفعل ما لم تنتقى "كل قوى النفس الأخرى". يجب على كل هذه القوى أن تنتقى من خلال ضبط النفس والحب وما إلى ذلك. لأنه ما لم يحدث ذلك يكون المرء موهوماً لو ظن أنه تنقى".<sup>151</sup> يساهم في هذا التطهير أن يجد المرء من نومه أي يبقى بقطاً: "العين الساهرة تجعل العقل نقياً".<sup>152</sup>

جهل العقل الذي هو ظلام دامس يُغطي على بصيرة النفس ويجعلها معتمة، ويظلم فهم الأمور الإلهية والإنسانية. ولكن التوبة هي التي تشفي هذا الجهل. هنا أيضاً نستطيع أن نرى القيمة العظمى للتوبة. من أجل ذلك يقدم لنا القديس نيسيئاس ستيثاتوس الذي

<sup>149</sup> . Practical chapters, ch. 91. Gk. Philok. 3. p. 295

<sup>150</sup> . Philok. 1, p. 196, 188

<sup>151</sup> . EF p. 410, 3. Gk. Philok. 4, p. 133, 3

<sup>152</sup> . Ladder. Step 20. CWS p. 196

يصف ظلمة العقل طريقة للشفاء من خلال التوبة. "ولكن عندما تنتزع الأغشية عن عيني النفس من خلال التوبة فإنها ترى هذه الأمور بوضوح وتصغي لها بمعرفة وتدرکها بفهم"، وتكتسب في نفس الوقت معرفة الله وبالتالي "تخبر الجميع بعجائب الله من خلال حكمة الله"<sup>153</sup>. أما ما يكشف النقاب عن عيني النفس لترى أمور الله العظمى، فهي التوبة التي تحدث من خلال الحزن العميق المتميز بالإعتراف.

يوجد في كتابات الآباء كلام كثير عن عودة العقل للقلب أي عودة الطاقة للجوهر. يحتوي خطاب القديس باسيليوس الكبير لصديقه القديس غريغوريوس على هذا النص الشهير القائل: "لأنه عندما لا يكون العقل مرتبطاً بأمور خارجية ولا منتشرًا في العالم كله من خلال الحواس فإنه يرتاح داخل ذاته. بعد ذلك يصعد تدريجياً للإهتمام بالله. وإذا يستنير بهذا المجد ينسى طبيعته الخاصة. وعندئذ لا يعود يجر النفس لأسفل سواء لأفكار الإهتمام بالطعام ولا لأفكار الإهتمام بلباس الجسد بل يتمتع بالحرية من الإهتمامات الأرضية ويحول كل غيرتها نحو إكتساب الخيرات الأبدية"<sup>154</sup>. لقد إقتبست هذا النص كله لأنه مُعبر ولأن القديس غريغوريوس بالاماس كان قد إستعمله في جداله مع برلعام. يقول القديس باسيليوس الكبير أن العقل الغير مشتب في أمور العالم الخارجي من خلال الحواس، يعود إلى ذاته، ومن خلال ذاته يصعد لرؤية الله. وعندئذ إذ يستنير ويسطع بالجمال فإنه لا يهتم بالأمور الأرضية بل ينسى حتى طبيعته الخاصة.

إن عودة العقل المشتت إلى القلب الذي هو عودة الطاقة إلى الجوهر هو شفاء العقل. إنه هناك حيث يجد العقل سلامه الحقيقي. وعند عودته يجد أولاً القلب اللحمي ثم القلب الروحي: "ينزل الناسك أولاً داخل قلبه الداخلي أي داخل قلبه الطبيعي أولاً ومن ثم ينزل بعد ذلك داخل تلك الأعماق الغير لحمية بالمرّة. إنه يجد قلبه العميق ويصل لجوهر كيانه الروحي الغير مرئي العميق وإذا يتطلع فيه يرى أن وجود الإنسان ليس شيئاً غريباً ولا خارجاً عنه ولكنه متحداً بكيانه الخاص بطريقة لا يمكن وصفها"<sup>155</sup>. إن عودة العقل للقلب هي في الواقع توحيد للعقل النقي هو اتحاد العقل والقلب. يتأكد هذا الاتحاد بدموع التوبة والإحساس العذب بحجة الله: "تكون دموع الندم أثناء الصلاة هي علامة أكيدة على أن العقل متحد بالقلب وأن الصلاة النقية وجدت مكانها الأول النقي هو الخطوة الأولى في

<sup>153</sup> . Practical chapters, ch. 87. Gk. Philok. 3, p. 320

<sup>154</sup> . Letter 2. FC vol. 13, p. 7

<sup>155</sup> . Archim. Sophrony: Saint Silouan. P. 47

الصعود لله. من أجل ذلك يصنف النساك الدموع في مكانة عالية جداً<sup>١٥٦</sup>. عندما يدخل العقل القلب فإنه ينتزع نفسه من كل الصور البصرية والعقلية<sup>١٥٧</sup>، وتقفل أبواب القلب أمام كل عنصر غريب و "تخرق النفس غياهب الطبيعة الخاصة الهادئة. وتصبح بالتالي مستحقة للوقوف أمام الله بعقل نقي بما يفوق الوصف"<sup>١٥٨</sup>.

عندما نناقش موضوع عودة العقل للقلب أي عودة الطاقة للجوهر يجب علينا أن نتكلم عن الحركات الثلاث للعقل كما يصفها القديس ديونيسيوس الأريوباغي. فهو يقول أن النفس والعقل لهما ثلاث حركات: الحركة الأولى هي الحركة الدائرية التي هي "الدخول داخل الذات بعيداً عن كل ما هو في الخارج وبالتالي يوجد تركيز داخلي لقواها الروحية". في هذه الحركة تعود النفس لذاتها أولاً وتجمع كل قواها وترتفع بهذه الطريقة نحو الله الذي هو بلا بداية ولا نهاية والذي هو فوق كل الأشياء. إن هذه الطريقة ثابتة وهي لا تدع الذهن يطيش، وبهذا ينجم ويرتفع بالتالي إلى الله. يتحرر العقل حينئذ من كل شيء مخلوق، ويلفظ كل حركة من الخليفة وكل خيال، ويتحد بالقلب من خلال التوبة، وهناك يُستعلن الله طالما أن العقل يكون متحداً بالله. هذه هي حركة ما يسمى "علم اللاهوت الإيجابي" Apophatic theology.

أما الحركة الثانية فهي في خط مستقيم حيث أن النفس "إذ تتقدم نحو الأشياء المحيطة به، ترتفع من الأشياء الخارجية باعتبارها رموزاً ملونة ومتعددة، لتسمو إلى تأملات بسيطة موحدة". وهذا ما يسمى رؤية الله في الطبيعة أو "علم اللاهوت السلبي" Catapathic theology الذي يرى الله في الطبيعة. فمن خلال تأمل الطبيعة ترتفع النفس نحو الله. ولكن هذه الطريقة معرضة للضلال لأن العديد من الأشخاص الذين تعلموا بهذه الطريقة أن يتطلعوا مباشرة في خليفة الله ضلوا ووصلوا لعبادة الأشياء المخلوقة دون الخالق.

أما الحركة الثالثة فتسمى حركة حلزونية، وهي تربط بين الحركتين السابقتين. يعطي الآباء الأولوية للحركة الأولى المسماة الحركة الدائرية لأنها تكون دائرة إذ يعود العقل للقلب ومن خلال القلب يرتفع لرؤية الله وبهذه الطريقة يتم تجنب الضلال<sup>١٥٩</sup>.

<sup>156</sup> . Ibid. p. 133

<sup>157</sup> . Ibid. p. 151

<sup>158</sup> . Ibid. p. 145

<sup>159</sup> . St. Dyionysios the Areopagite. Divine Names, ch. 4, 8f. CWS p. 46



و يصل المرء لهذه الحركة الدائرية من خلال الصلاة العقلية التي يجاهد فيها المجاهد الروحي " لكي يعيد العقل لذاته لكي يدفعه لا في خط مستقيم ولكن في حركة دائرية غير قابلة للخطأ"<sup>160</sup>.

تتحقق عودة العقل للقلب من خلال الصلاة وخصوصاً الصلاة العقلية عندما يكون العقل طاهراً من أية أفكار فيصلي لله بدون تشتت. من أجل ذلك يبارك نيلوس الناسك ذلك العقل الذي يصلي لله بلا طيشة وبدون صور مادية: "مبارك هو العقل الذي يخلو تماماً من الأشكال أثناء الصلاة. مبارك هو العقل الذي لا يتشتت في صلاته فيكتسب إشتياقاً أعظم لله. مبارك هو العقل الذي يكون أثناء الصلاة حراً من المادة ويتجرد من كل المقتنيات. مبارك هو العقل الذي إكتسب حرية كاملة من الأحاسيس أثناء الصلاة"<sup>161</sup>.

حيث أننا تناولنا الطرق التي يحدث من خلالها شفاء العقل، فسوف نرى فيما يلي نتائج هذا الشفاء. وهذا يعني أننا سوف نرى من خلال أعمال الآباء ما يحدث للعقل مباشرة بعد الشفاء أو أثناء عملية الشفاء.

وأحد أول الثمار هو اللاهوى فالعقل العديم الهوى هو "ذاك الذي تغلب على أهوائه والذي يتسامى فوق الحزن والفرح". وفي هذه الحالة عندما تأتي الحن فإنه يبتهج، وعندما تأتي الأفراح فإنه يضبط نفسه ولا يتعدى الحدود"<sup>162</sup>. إن هذا اللاهوى هو الموت المحيي للرب (٢كو٤: ١٠) الذي يأتي من خلال الروح القدس"<sup>163</sup>. عندما يتحرر العقل من المؤثرات الخارجية ويتنقى من نجاسات الخطية فإنه يرى الأمور بأكثر وضوحاً. إنه يرى كل طرق الشيطان بل وحتى اللحظة التي يعد فيها الشيطان الحرب. فهو يقتني معرفة واضحة لكل غوايات الشيطان"<sup>164</sup>. إن العقل عديم الهوى "يكون صوراً عقلية هي أيضاً خالية من الهوى سواء كان الجسد نائماً أو مستيقظاً"<sup>165</sup>. ويكون الضمير النقي غير مضطرب بأفكار شهوانية أثناء النوم حين يكون العقل غير نشط.

والتطهير أيضاً يرتبط بشدة باللاهوى: "العقل الطاهر هو عقل منفصل عن الجهل ومستنير بالنور الإلهي"<sup>166</sup>. تطهير العقل هو أمر مهم لأن المرء يكتسب معرفة الله بهذه الطريقة.

<sup>160</sup> . St. Gregory Palamas. Triads, 1, 2, 8. CWS p. 46

<sup>161</sup> . Philok. 1, p. 68, 117-120

<sup>162</sup> . Nicetas Stethatos. Practical chapters, ch. 92

<sup>163</sup> . Ibid. Natural chapters, ch. 20

<sup>164</sup> . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 121, 167

<sup>165</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 56, 33

<sup>166</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 56, 33

أحياناً ما يتعلم العقل النقي من الله وأحياناً أخرى من القوى الملائكية وأحياناً ثالثة من "طبيعة الأشيئ التي يتألمها"<sup>١٦٧</sup>. يقول القديس مكسيموس أن العقل النقي "يكون منشغلاً إما بصورة عقلية للأمور الإنسانية خالية من الهوى أو بنور الثالوث القدوس"<sup>١٦٨</sup>. إنه يفهم ما يقوله الكتاب المقدس: "حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب" (لو ٢٤: ٤٥).

ويرى القديس مكسيموس أنه توجد جاذبية بين العقل النقي والمعرفة: "من خلال الحب تجذب معرفة الله العقل النقي لذاتها طبيعياً"<sup>١٦٩</sup>. يجد الروح القدس العقل النقي "ويحفزه بالتالي لأسرار الدهر الآتي"<sup>١٧٠</sup>. وهكذا يصبح الشخص لاهوتياً إذ أن علم اللاهوت لا يعطي من خلال المعرفة الإنسانية والحماس، ولكن من خلال عمل الروح القدس الذي يسكن في القلب النقي. إن العقل الذي تنقى "يصبح بالنسبة للنفس سماءً ممتلئة بالنجوم المصنوعة من الأفكار المجيدة المنيرة مع شمس البر الساطعة فيها والتي ترسل أشعة اللاهوت على العالم في الخارج"<sup>١٧١</sup>.

من أجل ذلك رد الأنبا شيشوى على سؤال الأنبا آمون عما إذا كان من الضروري في قراءة الكتاب المقدس أن يركز المرء على الكلمات كما لو كان مستعداً للإجابة على أسئلة قد تُطرح قائلاً: "هذا ليس ضرورياً.. من الأفضل أن تريح نفسك من خلال طهارة الروح وأن تكون بلا هم وبعد ذلك تتكلم"<sup>١٧٢</sup>.

اللاهوت الحقيقي ليس ثمرة التركيز المادي ولكنه استعلان الروح القدس. عندما يتنقى عقل شخص فإنه يستنير، وإذا كانت لعقله المقدرة التي هي الحكمة فإنه يستطيع أن يتكلم باللاهوتيات. وهكذا نقول أن كل حياته بل وحتى جسده ذاته يكونا مصبوغاً بكلام اللاهوت. إن الإنسان المتطهر يكون استعلاناً لللاهوت بجملته. أحياناً يستخدم الآباء أقوال الآباء الأولين ليس لأنهم لم يكن لديهم خبرة هم ذواتهم ولكن لكي يؤكدوا هذه الخبرة، وخصوصاً في الوقت الذي كان يوجد فيه أناس ينكرونها.

من خلال تطهير العقل نكتسب أيضاً معرفة ذواتنا. أصر برلعام الفيلسوف على أن القداسة والكمال لا يمكن الوصول إليهما "بدون تصنيف وإستنتاج وتحليل". وهكذا

<sup>167</sup> . Ibid. p. 98,94

<sup>168</sup> . Ibid. p. 64, 97

<sup>169</sup> . Ibid. p. 56, 32

<sup>170</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 329, 75

<sup>171</sup> . Nicetas Stethatos. Natural chapters, ch. 67

<sup>172</sup> . Sayings. P. 181, 17

إعتقد أنه يجب على من يريد أن يمتلك القداسة أن يتعلم "مناهج التمييز والإستنباط والتحليل". ولكن القديس غريغوريوس بالاماس عارض هذه الرؤية وإعتبرها "هرطقة للرواقيين والفيثاغورسيين". ونادى بأننا نحن المسيحيين لا ننظر للمعرفة الموجودة في الكلمات والبراهين على أنها معرفة حقيقية، ولكن تلك التي تظهر من خلال الأعمال والحيلة، والتي ليست فقط هي حقيقية، ولكنها أيضاً أكيدة وغير قابلة للدحض". ومضى لحد أن قال أنه لا يوجد أي أحد يستطيع أن يعرف ذاته من خلال التمييز والبراهين والتحليل ما لم يصبح عقله حراً من الخيالات والشر وذلك بواسطة التوبة القاسية والنسك الشديد. ولا يمكن لشخص لم يحرر عقله من الخيالات والشر أي ما لم يظهر عقله، فإنه لن يستطيع أن يدرك فقره الذي هو بداية مفيدة لمعرفة النفس<sup>١٧٣</sup>.

هذا النص مهم جداً لأن العديد من الأشخاص يُعلّمون في هذه الأيام أن المرء يستطيع أن يصل لمعرفة النفس من خلال تحليل الإنسان لنفسه، ومن خلال عملية التحليل النفسي. ولكن هذا ضلال ويقود المرء إلى نتائج مرعبة. فعندما يحلل الشخص نفسه فإنه غالباً ما ينتهي إلى أن يصاب بالجنون. أما الطريقة النسكية فهي بسيطة. وبإستعمال الطرق التي وصفناها التي هي حراسة العقل وتنقيته وإعادةه إلى القلب من خلال التوبة والصلاة العقلية وحفظ وصايا المسيح، فإننا نحاول أن نحرر العقل من خيالاته ومن أسره للأمور الحسية بحيث أنه إذ يعود للقلب يستطيع أن يرى خِواءه الداخلي.

تأتي معرفة الذات من خلال عمل الروح القدس. فنحن لا نعرف كل تفاصيل كياناتنا إلا عندما تعمل نعمة الله مع جهادنا على إنارة النفس. وهكذا يعلن شفاء العقل عن وجود الأهواء، وإذ نستتير بالروح القدس ونتقوى به نستطيع أن نشن الحرب على هذه الأهواء. عليه حرباً. وعندما يُشفى العقل فإنه يُترك نقياً وحرراً من الخيالات والضعف<sup>١٧٤</sup>.

توجد ثمرة أخرى لشفاء العقل وهي الحرية. فالعقل الذي كان سجيناً من قبل، يصير الآن حراً "ومملوءاً فرحاً يشق طريقه نحو المملكة السماوية التي هي وطنه"<sup>١٧٥</sup>. وعندما يتحرر من الأهواء فإن أي شيء يفعله سوف يحسب قرباناً نقياً لله<sup>١٧٦</sup>.

عندما يتحرر العقل من الأهواء التي فيها موته، فإنه يُقام. نستطيع إذاً أن نتكلم الآن عن قيامة العقل. يربط نيسيتاس ستيثاتوس هذه القيامة بمعجزة إقامة لعازر. فتماماً مثلما

<sup>173</sup> . Triads, 1, 3, 13

<sup>174</sup> . St. Diadochos. Philok. 1, p. 267, 49

<sup>175</sup> . Ilias the Presbyter. Philok. 3, p. 61, 113

<sup>176</sup> . Ibid. p. 48, 10

مات لعازر هكذا يموت العقل بالخطية ويدفن. وكما أتى المسيح إلى بيت عنيا ليقم لعازر هكذا يأتي لعقلنا الميت ليقمه من الفساد الناتج عن الأهواء، ومثلما ذهبت مريم ومرثا أختا لعازر لملاقاة يسوع وهن يبكين وينتجنن هكذا "تأتي لملاقاة الرب الحكمة والعدل. المغموران بالأسى على موت عقلنا". العدل هو المشقات والعمل المتحمس، على حين أن الحكمة هي العمل الروحي والتأمل.<sup>177</sup>

إننا نجد هذا الارتباط بين المعجزتين، أي إقامة لعازر وإقامة العقل الميت في العديد من تسابيحنا الأرثوذكسية التي ترتل في الكنيسة. والتي أريد أن أقتبس إثنين منهما:

"دعونا نسرع لنرفع ثيوريتنا وجهادنا المقترنين بالصلاة للمسيح حتى من خلال سلطانه المعطي للحياة نستطيع أن نقدم له عقلنا الميت والمدفون مثل لعازر كأنه سعف البر صارخين: مبارك الآتي بإسم الرب"<sup>178</sup>. في هذا تظهر مرثا أنها الجهاد، ومريم أنها الثيوريا اللتان من خلالهما ندعو المسيح ليقم العقل الميت. "دعونا باقتداء مخلص لمرثا ومريم نرسل أعمالاً حارة كمبعوث للرب سائلين إياه أن يأتي ويقم عقلنا الراقد ببشاعة ميتاً في القبر، بلا حسٍ مُهملاً مخافة الله والذي صار الآن عديم المشاعر تماماً وبلا طاقة حياة ونصرخ: أنظر يا رب ومثلما أقمت لعازر حبيبك مجنونك من قبل بكل سلطان، هكذا إعطنا جميعاً الحياة بمراحك العظيمة"<sup>179</sup>. فلنحضر ذواتنا على أن نرسل مرثا ومريم أي الأعمال للمسيح ليقم العقل إذ أنه مائت في القبر وليس له طاقة حياة.

والعقل الذي له سلطان على ذاته أي القائم من الموت يصير هيكلًا للروح القدس.<sup>180</sup> وفي هذه الحالة يستتير العقل النقي<sup>181</sup> ويتملكه الفرح. إنه يفرح برؤية الله ويتكلم مع الرب. وعندما يتحدث الآباء عن فرح ودهش العقل فإنهم لا يعتبرون أن العقل يخرج خارج الجسد، ولكنهم يرون أنه يتحرر من الإهتمامات الجسدية والعالية ويقدم ذاته لله دون أن يفقد وعيه بالعالم. إن الذي يقتني الصلاة الدائمة يختبر دهش العقل، وهذا الدهش يسمى فرحاً وهو شكل من أشكال رؤية الله.

العقل النقي يستضيء ويستتير، لذلك نرى أنه من الضروري أن نتكلم عن هذا النور وخصوصاً نور العقل الذي تتكلم عنه كتابات الآباء.

<sup>177</sup> . Gnostic chapters, ch. 98f

<sup>178</sup> . Thursday Matins before Palm Sunday. Gk. Phos edition, p. 357

<sup>179</sup> . Wednesday Vespers before Palm Sunday. Ibid. p. 355

<sup>180</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 322, 55

<sup>181</sup> . Nicetas Stethatos. Gnostic chapters, ch. 18

القديس ديدوخوس وهو خير في علم اللاهوت السري Mystical theology يتحدث عن هذا النور الذي للعقل قائلاً: "يجب عليك ألا تشك في أنه عندما يبدأ العقل في أن ينشط بقوة النور الإلهي فإنه يصبح شفافاً تماماً لدرجة أنه يرى نوره الخاص بوضوح تام". ولكنه يعني أن ذلك يحدث: "عندما تتحكم قوة النفس في الشهوات"<sup>١٨٢</sup>. ويقول أيضاً بالمثل في موضع آخر: "يستطيع أولئك الذين يتأملون بلا إنقطاع في هذا الإسم القدوس المجد في أعماق قلبهم أن يبصروا نور عقلم في بعض الأحيان"<sup>١٨٣</sup>.

يتبنى أيضاً كاليستوس وأغناطيوس زانسوبولس هذا التعليم الذي للقديس ديدوخوس<sup>١٨٤</sup>. ويعلم القديس نيلوس الناسك أنه: "عندما يأتي لنا ملاك الله فإنه يضع حداً لكل طاقة مضادة داخل العقل وذلك لجرد حضوره كما أنه يجعل نوره يُنشط بدون ضلال"<sup>١٨٥</sup>.

إن العقل هو على صورة الله. وبمقدار ما يكون الله نوراً بمقدار ما يقتني العقل نوراً أيضاً. يتحدث القديسون في هذا المفهوم قائلين أن الإنسان يستطيع أن يبصر نور عقله، ولكن هذه الأمور تحدث للإنسان الطبيعي، على حين أن العقل يكون مظلماً في الإنسان الساقط بسبب الشهوات التي تظلمه وتخفيه. وعلى أية حال فعندما يتحرر الإنسان من الشهوات ويستتير بالله فإنه يستطيع إذاً أن يرى نور عقله أثناء الصلاة.

يتكلم القديس غريغوريوس بالاماس عن هذا الموضوع في كتابه عن الثالوث في عدة مواضع. وهو إذ يستشهد بعة كلمات للقديسين فإنه يختم بقوله: "هل تفهم يا أخي بوضوح أن العقل عندما يتحرر من الشهوات يستطيع أن يرى ذاته كنور أثناء الصلاة ويشرق بالنور الإلهي؟"<sup>١٨٦</sup>. في الواقع "إذ يرى العقل ذاته فإنه يرى ذاته كنور"<sup>١٨٧</sup>. ولكن القديس غريغوريوس يسترسل قائلاً: "هكذا تكون كل طبيعة مطهرة وغير مغطاة بحجاب الشر". وعندما لا يكون مرتدياً حجاب الشر "فإنه يرى ذاته كنور روحاني".

تحدث رؤية نور العقل هذه من خلال عمل الروح القدس. "عندما يشترك<sup>١٨٨</sup> العقل المُنطهر والمستتير في نعمة الله، فإنه يبصر أيضاً رؤى أخرى سرية وفائقة للطبيعة. لأنه إذ

<sup>182</sup> . Philok. 1, p. 265, 40

<sup>183</sup> . Ibid. p. 270, 59

<sup>184</sup> . Writings, p. 265, 95

<sup>185</sup> . Philok. 1, p. 64, 75

<sup>186</sup> . Triads, 1, 3, 7

<sup>187</sup> . Ibid. 1, 3, 8

<sup>188</sup> . Ibid.

يرى ذاته يرى ما هو أبعد من ذاته. إنه لا يدرك ببساطة شيئاً آخر ولا مجرد صورته الخاصة، ولكن بالأحرى الجد المطبوع على صورته الخاصة بواسطة نعمة الله"<sup>١٨٩</sup>.

يشير هذا التعليم إلى أن العقل النقي يرى لا صورته الخاصة ولكن مجد المسيح المنعكس فيه بواسطة نعمة الله. يرى القديسون هذه الصورة تتغير من مجد إلى مجد "أي في نوعية الإشراق فينا إذ يصير البهاء الإلهي واضحاً أكثر فأكثر"<sup>١٩٠</sup>. وتتماثلاً لا تستطيع العين الجسدية أن تعمل ما لم يشرق عليها النور من الخارج هكذا لا يستطيع العقل أن يرى بإدراكه العقلي ما لم يشرق النور الإلهي عليه"<sup>١٩١</sup>.

نستطيع أن نقول بإختصار أن القديس غريغوريوس بالاماس يرى أن العقل في حال كونه صورة الله هو نور، ولكنه يظلم بالأهواء. عندما يسطع النور الإلهي ويتطهر العقل حينئذ فقط لا يرى العقل نوره الخاص فقط ولكن أيضاً الإنارة التي تحدث في صورته بنعمة الله. لا يمكن أن تكون الرؤية الحسية في ذاتها ذات أية قيمة للشخص ما لم يصاحبها نور حسي. بالمثل يكون الحال من جهة رؤية النور الإلهي في عقل الإنسان. يُعلم القديس غريغوريوس بالاماس بكل هذه التعاليم لأن برلعام الفيلسوف أصر على أن المرء يستطيع أن يرى الله ويكتسب معرفة الله من خلال المعرفة البشرية بواسطة توسيع الفكر البشري. ولكن هذا الرأي خاطئ تماماً.

يكتب الأرشمندريت صوفرونوس في كتابه: "القديس سلوانس الآثوسي" عن هذا النور الطبيعي الذي للعقل قائلاً: "عندما يصل الإنسان لهذه الحدود حيث يتصل النور بالظلمة (أى ٢٦ : ١٠) فإنه يتأمل جمال عقله الخاص الذي قد يتحد مع الكيان الإلهي. إنه يرى نوراً ولكنه ليس النور الحقيقي الذي "ليس فيه ظلمة البتة". إنه النور الطبيعي المميز لعقل الإنسان المخلوق على صورة الله. هذا النور الذي للعقل والذي يتفوق على كل نور معرفي آخر، قد يسمى أيضاً ظلاماً لأنه ظلام التجريد والله غير موجود فيه. وفي هذه الحالة يجب علينا أن ننصت لتحذير الرب: "أنظر إذاً لئلا يكون النور الذي فيك ظلمة" (لو ١١ : ٣٥). لقد حدثت الكارثة الكونية الأولى فيما قبل التاريخ عند سقوط يوسفوروس ابن كوكب الصبح الذي أصبح أمير الظلام. وكان ذلك بسبب تأمله المفتون لجماله الخاص والذي إنتهى بتأليهه لذاته"<sup>١٩٢</sup>.

<sup>189</sup> . Ibid. 2, 3, 11. CWS p. 58

<sup>190</sup> . Ibid. 1, 3, 7

<sup>191</sup> . Ibid. 1, 3, 9

<sup>192</sup> . Archim. Sophrony, Saint Silouan, p. 162

يكتب نفس الراهب في مكان آخر عن النور الطبيعي الذي هو ظلمة التجريد: "لو أردنا أن نحدد مكان هذا الظلام فإننا نستطيع أن نقول أنه موجود على مشارف النور الأزلي. ولكن عندما تمارس صلاة السكون بدون توبة حقيقية وبدون أن تكون الصلاة موجهة بكليتها نحو الله فإن النفس إذ تتجرد من كل التخيلات قد تبقى لوهلة صغيرة في هذا "الظلام الذي للتجريد" دون أن تبصر الله لأن الله لا يوجد في هذا الظلام بذاته.

"إذ يبقى العقل في ظلام التجريد فإنه يجد بهجة وسلاماً خاصين. ولو أنه إستدار لذاته عند هذه النقطة فإنه يستطيع أن يتلقى شيئاً قريباً للنور ولكنه على أى الأحوال ليس هو النور الإلهي الأزلي ولكنه خاصية طبيعية للعقل المخلوق على صورة الله.

إذ يتأمل العقل خارج حدود الزمان فإنه يصل لمعرفة الغير زائل وهكذا يمتلك الإنسان معرفة جديدة ولكنها مازالت تجريدية. الويل لذلك الذي يستبدل معرفة الله الحقيقي بهذه الحكمة والتأمل من أجل الشركة في الكيان الإلهي. الويل له لأن ظلام التجريد الموجود على حدود الرؤية الحقيقية يصبح طريقاً لا يمكن إختراقه وحاجزاً بينه وبين الله أقوى من الظلام الناتج من الشهوة العظيمة أو الظلام الناتج عن فقدان النعمة والتخلي من الله. الويل له لأنه سوف يشرد بعيداً ويسقط في الضلال، إذ أن الله لا يوجد في ظلمة التجريد، ولكنه يعلن نفسه كنور وفي النور"<sup>١٩٣</sup>.

من الصعب علينا أن نعقد مقارنة بين نصي القديس غريغوريوس بالاماس والأرشمندريت صوفرونيوس بخصوص موضوع نور العقل، إذ أننا نفتقر للخبرة الخاصة بهذا الموضوع. وعلى حين يبدو أنه يوجد إختلاف خارجي بين النصين، إلا أننا نؤمن أنه مجرد إختلاف في الأسلوب. كما أننا نؤمن بشدة أن كلا منهما يصف جانباً مختلفاً لهذه الخبرة. إن لدينا شعوراً بدون أن نكون متأكدين تماماً أن الأرشمندريت صوفرونيوس يتكلم بالأكثر عن الذكاء الذي يؤله الإنسان ويحبه في ذاته. وبالتالي فإنه يشدد بإحكام على أن ظلام التجريد يشكل "حائطاً وغطاءً للإهيات لا يمكن إختراقه" ويفصل الإنسان عن الله أكثر من الأهواء ومن الإيحاءات الشيطانية أو من التخلي الإلهي. وفي الواقع نور العقل هو ظلام، ويقول هذا فإنه يتفق تماماً مع القديس غريغوريوس بالاماس مثلما يتفق تماماً مع تعليمه عن أن الثيوريا هي عمل إلهي صرف في الإنسان. "... إن رؤية النور الإلهي الأزلي تكون مستحيلة ما لم يكن المرء في حالة إستارة من قِبَل النعمة. إنها حالة فضيلة

يكون فيها عمل رؤية الله هو في ذاته فوق كل شيء. إنه "الشركة مع الله" أي الاتحاد بال حياة الإلهية"<sup>194</sup>.

إننا لا نستطيع شخصياً أن نجد عدم إتفاق بين هذين الشاهدين. إنهما يُعبران ببساطة عن نفسيهما بكلمات مختلفة ولهما في ذهنهما مفاهيم مختلفة أرادا أن يحدضاها.

على أية حال هو أمر واقع أنه حينما يصبح عقل الإنسان متحداً بالله "فإنه يرى الأمور الروحية بوضوح"<sup>195</sup>. وحالة اللاهوى التي للعقل تحته على إكتساب المعرفة الروحية للكائنات المخلوقة<sup>196</sup>. وإذ يتحرر العقل من الهوى ويبقى مستثيراً باستمرار من خلال تأمل الكائنات المخلوقة، فإنه يصير مثل النور<sup>197</sup>.

العقل الذي حصل على الشفاء ينال رؤية الله. فهو لا يرى جوهر الله طبيعياً ولكنه يرى فعله فقط. عندما يرى القديسون النور فإنهم يرونه "عندما يكتسبون شركة الروح المؤلّهة". وهذا يعني أنهم حينما يتحدثون بالله فإنهم يرون ثوب تأليهم، أي "عقلهم المتمجد والممتلئ من نعمة الله الكلمة، والذي يكون جليلاً بما يفوق القياس في مجد الله"<sup>198</sup>. هذه هي الطريقة التي يتمجد بها العقل.

ومن بعد ذلك يزدهر الفرح الروحي في العقل "عندما ينخرط العقل في رؤية الحقائق العقلية فإن فرحه بها يكون لدرجة أنه يصعب زحزحته بعيداً عنها"<sup>199</sup>. وإذ يتحد بالله فإنه يصبح "حكيماً، صالحاً، قوياً، شفوفاً، رحيماً، طويل الأناة. وبإختصار فإنه يحتوي في داخله على كل الصفات الإلهية تقريباً. ولكن عندما يتعد العقل عن الله ويلتصق بالأشياء المادية فإنه يصبح إما متساهلاً مثل بعض الحيوانات الأليفة أو يحارب الناس مثل الحيوانات المتوحشة ليحصل على هذه الأشياء"<sup>200</sup>.

وكنتيجة لشفاء العقل يحصل الجسد أيضاً على الشفاء. ومن الطبيعي أنه عندما نتكلم عن شفاء الجسد فإننا لا نعني تحرره من المرض حتى ولو كان ذلك ممكناً بدرجة معينة. إننا نقول "بدرجة معينة" لأن العديد من الأمراض وخصوصاً الأمراض العصبية

<sup>194</sup> . Monk of Mt. Athos p. 113. cf. Saint Silouan p. 173

<sup>195</sup> . St. Gregory Palamas. Triads, 1, 3, 17

<sup>196</sup> . St. Thalassios. Philok. 2. p. 326, 20

<sup>197</sup> . Ibid. p. 310, 50

<sup>198</sup> . St. Gregory Palamas. Triads, 1, 3, 5,. CWS p. 33

<sup>199</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 315, 46

<sup>200</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 64, 52



يكون فيها عمل رؤية الله هو في ذاته فوق كل شيء. إنه "الشركة مع الله" أي الاتحاد بالحية الإلهية"<sup>194</sup>.

إننا لا نستطيع شخصياً أن نجد عدم إتفاق بين هذين الشاهدين. إنهما يُعبران ببساطة عن نفسيهما بكلمات مختلفة ولهما في ذهنهما مفاهيم مختلفة أرادا أن يدحضاهما.

على أية حال هو أمر واقع أنه حينما يصبح عقل الإنسان متحداً بالله "فإنه يرى الأمور الروحية بوضوح"<sup>195</sup>. وحالة اللاهوى التي للعقل تحثه على إكتساب المعرفة الروحية للكائنات المخلوقة<sup>196</sup>. وإذا تحرر العقل من الهوى ويبقى مستثيراً باستمرار من خلال تأمل الكائنات المخلوقة، فإنه يصير مثل النور<sup>197</sup>.

العقل الذي حصل على الشفاء ينال رؤية الله. فهو لا يرى جوهر الله طبيعياً ولكنه يرى فعله فقط. عندما يرى القديسون النور فإنهم يرونه "عندما يكتسبون شركة الروح المؤلّهة". وهذا يعني أنهم حينما يتحدثون بالله فإنهم يرون ثوب تأليهم، أي "عقلهم المتمجد والممتلئ من نعمة الله الكلمة، والذي يكون جليلاً بما يفوق القياس في مجد الله"<sup>198</sup>. هذه هي الطريقة التي يتمجد بها العقل.

ومن بعد ذلك يزدهر الفرح الروحي في العقل "عندما ينخرط العقل في رؤية الحقائق العقلية فإن فرحه بها يكون لدرجة أنه يصعب زحزحته بعيداً عنها"<sup>199</sup>. وإذا يتحد بالله فإنه يصبح "حكيماً، صالحاً، قوياً، شفوفاً، رحيماً، طويل الأناة. وبإختصار فإنه يحتوي في داخله على كل الصفات الإلهية تقريباً. ولكن عندما يتعد العقل عن الله ويلتصق بالأشياء المادية فإنه يصبح إما متساهلاً مثل بعض الحيوانات الأليفة أو يحارب الناس مثل الحيوانات المتوحشة ليحصل على هذه الأشياء"<sup>200</sup>.

وكنتيجة لشفاء العقل يحصل الجسد أيضاً على الشفاء. ومن الطبيعي أنه عندما نتكلم عن شفاء الجسد فإننا لا نعني تحرره من المرض حتى ولو كان ذلك ممكناً بدرجة معينة. إننا نقول "بدرجة معينة" لأن العديد من الأمراض وخصوصاً الأمراض العصبية

<sup>194</sup> . Monk of Mt. Athos p. 113. cf. Saint Silouan p. 173

<sup>195</sup> . St. Gregory Palamas. Triads, 1, 3, 17

<sup>196</sup> . St. Thalassios. Philok. 2. p. 326, 20

<sup>197</sup> . Ibid. p. 310, 50

<sup>198</sup> . St. Gregory Palamas. Triads, 1, 3, 5,. CWS p. 33

<sup>199</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 315, 46

<sup>200</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 64, 52

تنبع من موت العقل، ولكننا نتكلم بالأكثر عن تحرر الجسد من الشهوات الجسدية. يقول القديس مكسيموس: "عندما ترى أن عقلك يتأمل في الصورة العقلية للعالم بوقار وبر فإنك تستطيع أن تتأكد أن جسدك أيضاً يظل طاهراً وبلا خطية"<sup>201</sup>.

إن العقل الذي يتأمل في النور الإلهي يحفظ أيضاً الجسد نقياً مما يسمى بالشهوات الجسدية. أولاً يتلقى العقل عربون الخيرات الآتية ثم يصعد بعد ذلك نحو "العقل الأول"، وإذا يتقدس فإنه "يتحول هو ذاته مع الجسد المتصل به ليجعله أكثر إلهية". وهكذا فإنه يُعد "إحتواء الجسد بالروح القدس في الدهر الآتي". وطالما أن الجسد سوف يتذوق الأشياء الأبدية الحسنة فإنه من الضروري أن يُعد لهذا أيضاً في هذه الحياة الحاضرة"<sup>202</sup>.

وكل القديسين الذين يحيون هذه الحياة يتبعون نفس الطريقة لشفاء وتطهير العقل وهكذا فإنهم يتلقون نفس التعليم. إننا نؤمن أن القديسين ليس لهم رؤيتهم الذاتية الخاصة بهم وليس لهم أوضاع عقائدية مختلفة. بل لأن لهم نفس الخبرة، فإن لهم نفس التعليم. ولو كنا نرى إختلافات في بعض النقاط فذلك مرجعه أننا نفسر تعاليمهم بإفتراضات مسبقة خاطئة. لو أننا حاولنا أن نرى التعبير المختلف لكل قديس (طالما أنه على الرغم من أنهم يقتنون جميعاً نفس معرفة الله إلا أنهم لا يقتنون نفس الحكمة)، وإذا حاولنا أن نتقصى عن المعنى الحقيقي لكل كلمة، فلن نجد تعاليم مختلفة. نحن في الواقع مشغولون وبلا خبرة في الأمور الروحية وبعيدون عن التقليد الكنسي الحي، لذلك فنحن نرى إختلافات لدى الآباء القديسين.

يكتب بولس الرسول قائلاً: "... بل كونوا كاملين في فكر واحد ورأي واحد" (١كو: ١٠). يفكر القديسون بنفس الطريقة. ويؤكد القديس غريغوريوس بالاماس على أن "هذه المعرفة التي تفوق المنطق مشتركة لدى كل أولئك الذين آمنوا بالمسيح فوق المفاهيم"<sup>203</sup>.

يوضح كل ما أوردناه أن العقل الذي تأثر بالشهوات هو مريض وضعيف ومائت ومحروم من حالته الطبيعية، ومحتاج للشفاء. تصف الطريقة الأرثوذكسية النسكية كيفية شفاء العقل. هذا الشفاء لا غنى عنه لأنه من خلاله يتطهر العقل ويكتسب معرفة الله الروحية، وهذه المعرفة الروحية هي التي تتضمن خلاص الإنسان.

<sup>201</sup> . Ibid. p. 91, 52

<sup>202</sup> . Triads, 1, 3, 33

<sup>203</sup> . Ibid. 2, 3, 66

## (ب) القلب

إن أحد تضرعاتنا الرئيسية للرب هو بخصوص الخلاص: "فلنُصلِّ للرب من أجل السلام السماوي ومن أجل خلاص نفوسنا". وهكذا فإن أغلب الأواشي (الصلوات الشفعية أثناء القداس) تنتهي بالكلمات: "صلوا من أجل خلاص نفوسنا". ليس خلاص النفس هو خلع شيء ما، ولكنه ليس المسيح. إنه ليس حالة سلبية ولكن إيجابية، وبصورة رئيسية هو الشركة والاتحاد مع المسيح. هذه الشركة تحدث بصورة أساسية في القلب. وبالتالي لكي يحصل الإنسان على الخلاص يجب عليه أن يجد قلبه. وعندما يمنحنا الله أن نجد قلبنا نكون سائرين في طريق الخلاص. إن كلمات الأنبا بامبو في هذا الموضوع مميزة: "إنك تستطيع أن تخلص لو كنت تقتني قلباً"<sup>204</sup>. أن يقتني المرء قلباً يعني أن يجد قلبه الذي من خلاله سيقوده الله.

يفسر القديس مرقس الناسك كلمات الرب: "ها ملكوت الله داخلكم" (لو ١٧ : ٢١) قائلاً: "إنه من الضروري في المقام الأول أن يقتني المرء نعمة الروح القدس التي تنشط القلب وهكذا يدخل ملكوت السموات بمقدار هذه الطاقة المنشطة"<sup>205</sup>. من أجل ذلك يجد العديد من الآباء أنه من الضروري أن يجد المرء مكان القلب الذي ينشط بنعمة الله لأنه عندئذ يصير الله معلماً للمسيحي، وينقاد بالروح القدس في أمان.

## ما هو القلب

عندما يتكلم الكتاب المقدس والآباء عن القلب فإنهم يعنون القلب الروحي، ولكن أحياناً أيضاً القلب الجسدي. فالقلب هو كلا الإثنين. فهو كلاً من العضو الجسدي، وكذلك مركز وجودنا الذي فيه نشترك وتتحده بالله. هذان المعنيان يلتقيان معاً عند نقطة ما ولكنهما يختلفان في نفس الوقت. وسوف نتناول ذلك بتحليل أكثر فيما يلي.

فلنتناول قبل كل شيء القلب الروحي. من الصعب على أي أحد أن يعطي تعريفاً للقلب الروحي لأن "القلب هو حقاً هاوية لا يمكن قياس عمقها"<sup>206</sup>. الإنسان الجسداني الذي يحكمه المنطق ويعيش في ظلمة الحياة بعد السقوط من المستحيل أن يعرف هذا

<sup>204</sup> . Sayings, p. 166

<sup>205</sup> Philokalia 1, p. 138, 149

<sup>206</sup> . St. Makarios. Philok. 3, p. 321, 83

القلب الروحي. وهكذا يكون من غير الممكن أن نجد تعريفاً قادراً على وصف الواقع الذي يجتثره الإنسان الروحاني لا يستطيع المرء سوى أن يصيغ مواصفات وصور.

الإنسان الروحاني الذي يحيا بالصلاة يكتشف "أن قلبه ليس فقط عضواً حمياً أو مركز حياته النفسية ولكنه شيء من الصعب تعريفه ومع ذلك فهو قادر على أن يكون على اتصال بالله مصدر كل وجود"<sup>٢٠٧</sup>.

القلب هو المكان الذي تنمو فيه كل الحيلة الروحية وهو المكان الذي تنشطه قوة الله. "هذا القلب العميق" يكون مجهولاً لدى الكثيرين ليس فقط للآخرين ولكن لنفس الإنسان أيضاً لأن نعمة الله تصنع خلاص الإنسان في قلبه سراً. وللأرشمندريت صوفرونوس قول مميز: "إن أرض المعركة في الحرب الروحية هي أولاً وبصورة رئيسية قلب الإنسان ذاته والذي يحاول أن يكتشف قلبه الخاص سوف يُقدّر قول داود النبي أن "القلب عميق" (مز ٦٤: ٦). تُعاش حياة المسيحي الحقيقية في هذا القلب العميق مخفية ليس فقط عن الأعين الغريبة ولكن أيضاً عن صاحب القلب ذاته. يجد الشخص الذي يدخل هذه الخبايا السرية نفسه في مواجهة مع سر الوجود. كل من أمعن في تأمل ذاته الداخلية بكثرة وبقلب طاهر يعلم كيف يكون من المستحيل أن يكتشف حركات القلب الروحية لأن القلب في أعماقه لا يستطيع أن يلم بحالة الوجود حيث لا توجد حركات"<sup>٢٠٨</sup>.

يسمي بطرس الرسول القلب الإنسان الخفي: "إنسان القلب الخفي" (١بط ٣: ٤). إنه حقاً المكان الذي يتقدس فيه الله: "قدسوا الرب الإله في قلوبكم" (١بط ٣: ١٥). كما أن نعمة الله تشرق في القلب: "...إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم" (٢بط ١: ١٩). وعلى الرغم من اتحاد الإنسان بالله في القلب يبقى القلب "الأصغر" ويبقى الله "الأكبر": "لأن الله أعظم من قلوبنا" (١يو ٣: ٢٠).

لقد أشرنا لهذه النصوص الكتابية لا لكي نُظهر كيف يصف الكتاب والآباء القلب، وهذا ما نستطيع أن نفعله في فصل آخر، ولكن لكي نوضح أن علة نصوص في الكتاب المقدس وكتابات الآباء تتكلم عن القلب.

لقد قلنا من قبل أن العقل هو عين القلب، وأشرنا في علة مواضع إلى أن الآباء يربطون العقل بالقلب. وفي الحقيقة فإن القلب والعقل شيء واحد. يقول القديس

207 . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 233

208 . Ibid. p. 10

مكسيموس المعترف: ".... لكي ننظف العقل الذي يسميه الرب "القلب" <sup>٢٠٩</sup> ". العقل هو عين النفس والقلب هو مركز الوجود الإنساني ومركز العالم الروحاني. ولكن يبدو أن هذين متحدان معاً. إنه أمر واضح جداً أن القديس غريغوريوس بالاماس عندما يتكلم عن نقاوة القلب يمضي في تحليل العقل ونقاوته <sup>٢١٠</sup> .

ومن المؤكد أنه يجب علينا أن نضع في أذهاننا ما فحصلته في الفصل السابق عن أن الآباء يسمون العقل جوهر النفس الذي هو في القلب، كما يسمونه أيضاً نشاط النفس الذي يتكون من الأفكار: "يسمى أيضاً نشاط العقل المتكون من أفكار وصور عقلية عقلاً. العقل هو أيضاً القوة المحركة لهذه الأشياء والتي يسميها الكتاب المقدس قلباً" <sup>٢١١</sup> . القديس نيسيفوروس المتوحد يحلل الإنتباه ويصفه قائلاً أن بعض الآباء يصف الإنتباه على أنه حفظ العقل، ويسميه البعض الآخر حفظ القلب، والآخرون اليقظة، والبعض الآخر السكون الروحي. "ولكن كل هذه الأسماء تعني نفس الشيء ومثلما يحدث عندما يتحدث أحد عن الخبز فإنه إما يسميه رغيفاً أو لقمة أو قطعة هكذا أيضاً نفهم هذا الأمر" <sup>٢١٢</sup> . وهكذا بحسب قول القديس نيسيفوروس المتوحد فإننا سواء نقول حفظ العقل أو حفظ القلب فكلاهما شيء واحد. وهذا يعني أن العقل يتحد بالقلب ويتطابق معه في علم لاهوت الآباء. وبالتالي فإن كل ما كتبناه في الفصل السابق عن العقل ينطبق أيضاً على القلب بالمثل ولكننا سوف نتكلم هنا بالأكثر عن القلب.

يظهر أيضاً الارتباط بين العقل والقلب في تعليم القديس ديداوخوس الذي من فوتيك. فهو يعلم أنه منذ لحظة العماد فإن نعمة الله "تكون مخفية في أعماق القلب" وفي نفس الوقت تخفي وجودها عن إدراك العقل. وعندما يبدأ شخص ما في أن يحب الله "بصلق كامل" فإنه "من خلال إدراك العقل تنقل النعمة شيئاً من غناها للنفس". ولكنه عندما يفرغ نفسه من كل غناه المادي "فإنه يكتشف عندئذ المكان الذي تختفي فيه نعمة الله" <sup>٢١٣</sup> . يقول القديس ديداوخوس في فصل آخر أن النعمة تأتي من خلال المعمودية لتقيم في أعماق النفس "أي في العقل". وعندما نتذكر الله بحرارة "نشعر بالشوق الإلهي ينبع في داخلنا من أعماق قلبنا" <sup>٢١٤</sup> .

<sup>209</sup> . Philokalia 2, p. 109, 73

<sup>210</sup> . EF p. 409-10

<sup>211</sup> . Ibid. p. 410, 3

<sup>212</sup> . Writings, p. 32. Gk. Philok. 4, p. 26

<sup>213</sup> . Philok. 1, p. 279, 77

<sup>214</sup> . Ibid. p. 280, 79

وهكذا توضح هذه النصوص الرابطة بين العقل والنفس والقلب.

يميز القديس ديدوخوس بين ما هو معروف في الكتاب المقدس وبين ما يُحسُّ بواسطة العقل حيث سادت في عصره هرطقة الـ Messalians ( فكرة وجود نعمة الله والشیطان معاً في نفس المكان في النفس). وهو يؤكد على أنه " قبل المعمودية تحت النعمة النفس على الخير من الخارج على حين يكمن الشيطان في أعماقها محاولاً أن يسد كل طرق العقل للإقتراب مما هو إلهي. ولكن منذ لحظة الميلاد الثاني من خلال المعمودية يبقى الشيطان خارجاً والنعمة في الداخل"<sup>215</sup>. لا تتواجد إذاً النعمة مع الشيطان في نفس المكان. النعمة الإلهية تبهج الجسد بفرح يفوق الوصف من خلال خاصية الإدراك التي للعقل، على حين أن الشياطين من الخارج تأسر النفس بالقوة من خلال الحواس الجسدية وخصوصاً عندما تجدنا متراخين في الحرب الروحية"<sup>216</sup>.

عندما نتصرف بحسب شهوات الجسد تختفي نعمة الله الموجودة في أعماق قلبنا الروحاني منذ المعمودية. وبالتالي فإننا نجاهد لكي نُظهر هذه النعمة من خلال حياة الجهاد المكلل بالنعمة. وهذا يعني أنه يجب علينا أن نجاهد لكي نُبعد الضباب الذي يغطي قلبنا بعيداً. يتساءل القديس ديدوخوس أنه طالما أن الشيطان طُرد خارج القلب بالمعمودية " فكيف يستطيع إذاً ذلك المتطفل المطرود خارجاً بهذه الطريقة المشينة أن يعود ويقيم مع السيد الحقيقي الذي يعيش الآن بحرية في مسكنه الخاص"<sup>217</sup>!؟

لقد وضعنا هنا تعليم القديس ديدوخوس هذا لكي نوضح أن نعمة الله تدخل القلب العميق في داخل عمق القلب الروحي من خلال المعمودية. وعندما يختفي هذا القلب بالشهوات يكون علينا أن نجاهد بشدة لكي نُظهره.

يعلم ثيولييتوس مطران فيلادلفيا أن القلب أي العقل يُستعلن عندما يحيا المرء في حياة السكون: "عندما تضع حداً للتشتيت الخارجي ونتحكم أيضاً في الأفكار الداخلية فإن العقل سوف يبدأ في الإرتفاع للكلمات والأعمال الروحية"<sup>218</sup>. إنه بحثنا قائلًا: "ضع نهاية للأحاديث مع العالم الخارجي وصارع مع أفكارك الداخلية حتى تجد موضع الصلاة النقية والمسكن الذي يقيم فيه المسيح"<sup>219</sup>.

<sup>215</sup> . Ibid. p. 279, 76

<sup>216</sup> . Ibid. p. 280, 79

<sup>217</sup> . Ibid. p. 285, 84

<sup>218</sup> . Writings, p. 385f, 8. Gk. Philok. 4, p. 6

<sup>219</sup> . Ibid. p. 386, 9

يبدو في هذا النص أن القلب هو المكان الذي يُستعلن من خلال الجهاد المكلل بالنعمة والمكان الذي يصير فيه المسيح ظاهراً. هذا الأمر معروف للإنسان الذي نقى قلبه من الشهوات ومن كل الأعمال الآثمة. أما بالنسبة للشخص الساقط الذي يحيا بعيداً عن الله فإن القلب يكون مخفياً وغير معروف بالمرّة وهو لا يعلم حتى إن كان موجوداً على حين أن الشخص الذي يعيش حياة إلهية يعرف القلب كواقع.

يقودنا هذا التعليم لنرى أن كشف القلب هو في الحقيقة كشف الشخص. فعندما يكتشف شخص ما القلب حيث يُستعلن المسيح ويملك من خلال الجهاد المكلل بالنعمة فإنه يصبح "شخصاً" طالما أن الشخص هو إلى حد بعيد على مثال المسيح. كشف القلب هو إذاً كشف الشخص.

إننا لا ننوي في هذه النقطة أن نعرض علم الوجود الإنساني كما هو معروض في كتابات آباء الكنيسة الذين كتبوا دراسات مهمة في هذا الموضوع. إننا نؤمن كما ورد في تعاليم الآباء (عن الكتاب المقدس) أن صورة الله هي (إمكانية أن نصير على مثال) الله وأن التمثل بالله هو الصورة على صعيد الواقع. وبنفس الطريقة فإن الإنسان المخلوق بالله والمتجدد خلال المعمودية في الكنيسة هو شخص بحسب الطاقة الكامنة فيه. وعندما يحصل على المثال أو التشابه من خلال الجهاد الشخصي ونعمة الله في الأساس فإنه يصير إذاً شخصاً حقيقياً. وهكذا فإننا نؤكد على أن كل الناس هم "أشخاص" من جهة علم الوجود بل ولكن من جهة علم اللاهوت الخلاصي فلسنا جميعاً "أشخاصاً" طالما أننا لم نصل بعد إلى المثال أو الشبه مع الله. إننا نريد أن نؤكد في هذه النقطة بالذات على حياة الشخص النسكية التي غالباً ما يتجاهلها اللاهوتيون المعاصرون. ولكننا نفعل ذلك دون أن نريد أن نتجاهل "وجود" الشخص.

إن كل كتابات الأرشمندريت صوفرونيوس عن هذا الموضوع مميزة. "في الكيان الإلهي يشكل الأقيوم عنصر الوجود السري الأكثر عمقاً. وبالمثل في الكيان البشري فإن الأقيوم هو الأساس الجوهرى. "الشخص" Persona هو "إنسان القلب الخفي في العدمية الفساد.... الذي هو قدام الله كثير الثمن" (بط ٣: ٤). إنه الجوهر الغالي في وجود الإنسان مجملته والذي يظهر في قدرته على معرفة الذات، وحرية الإرادة، وفي اقتنائه لطاقة الإبداع، وفي موهبته للمعرفة ليس فقط للعالم المخلوق ولكن أيضاً للعالم الإلهي. وإذا

يستغرق الإنسان في الحب فإنه يشعر بالاتحاد مع محبوبه الذي هو الله. ومن خلال هذا الاتحاد يعرف الله، وهكذا يندمج الحب مع المعرفة في فعل واحد"<sup>220</sup>.

إن الشخص هو " إنسان القلب الخفي". هذه هي الصيغة الوحيدة التي يمكن صياغتها عن الشخص لأنه لا يمكن تعريفه بمصطلحات علمية إذ أنه، شركة واتحاد باطني مع المسيح. وتاماً مثلما لا نستطيع أن نعطي تعريفاً للكنيسة ولكننا نعرفها فقط على أنها جسد المسيح هكذا الحال بالنسبة للشخص الإنسان أي القلب الذي يحدث فيه شركة باطنية بين الله والإنسان.

"من الممكن صياغة معرفة علمية وفلسفية، ولكن الشخص Person هو فوق التعريف وبالتالي لا يمكن التعرف عليه من الخارج، ما لم يستعلن هو ذاته عن ذاته. وحيث أن الله هو الله السري هكذا يقتني الإنسان أعماقاً سرية. ليس الإنسان هو صانع الوجود ولا هو نهايته. فالله هو الألف والياء وليس الإنسان. تكمن خاصية مشابهة الإنسان مع الله في غط وجوده. ومثال الله في الوجود هو المثال أو الشبه الذي يتحدث عنه الكتاب المقدس (تكوين ١ : ٢٦)"<sup>221</sup>. وبمقدار ما لا يمكن تعريف الشخص، كذلك لا يمكن أيضاً تعريف القلب الذي هو الشخص.

فالشخص هو حقيقة يولد بنعمة الله. "يولد الشخص من فوق وبالتالي لا يخضع لقانون الطبيعة. يسمو " الشخص" فوق الحدود الأرضية ويتحرك في مجالات أخرى. ولا يمكن حسبانه من الأرض فهو مفرد فريد في نوعه"<sup>222</sup>. وحيث أن الشخص هو القلب فإننا نستطيع أن نقول أن القلب أيضاً يولد ثانية من فوق. هذه ليست حالة طبيعية لكنها فقط بواسطة نعمة الله التي تجعل الإنسان قادراً على تمييز مكان القلب.

هذا الميلاد الثاني للشخص هو في الواقع إستعلان من الله. فالشخص هو "مولود جديد من فوق. توجد زهرة شديدة الحساسية تتجلى في داخلنا وهي الأقنوم أو "الشخص". ومثل ملكوت الله لا يأتي الشخص بمراقبة" (لوقا ١٧ : ٢٠).

العملية التي فيها تلخل الروح البشرية في مجال الأبدية تتنوع من واحد لآخر منا"<sup>223</sup>. وهكذا يولد "الشخص" من فوق مثل القلب.

<sup>220</sup> . Archim. Sophrony. His life is mine, p. 44

<sup>221</sup> . Ibid. p. 43

<sup>222</sup> . Ibid. p. 43

<sup>223</sup> . Ibid. p. 42



"الله يستعلن نفسه أساساً من خلال القلب، كحب ونور". في هذا النور يتأمل الإنسان مبادئ الإنجيل كإنعكاس للأبدية السماوية على الأرض، ومجد المسيح في حال كونه الابن الوحيد للأب؛ هذا المجد الذي رآه التلاميذ على جبل طابور. هذا الإعلان الشخصي يجعل الإعلان العام للعهد الجديد مألوفاً روحياً"<sup>٢٢٤</sup>.

لقد فحصنا هذه الأمور لكي نوضح أنه عندما يكشف شخص ما قلبه فإنه يكون عندئذ بالحقيقة "شخصاً". لقد أردنا أيضاً أن نوضح أن القلب هو المكان الذي ينكشف من خلال حيلة الجهاد المكلل بالنعمة والذي فيه يُستعلن الله. إنه هناك حيث يدرك الإنسان نور الله، وهناك حيث ينخر القلب بحب الله له وبمحبة الله يحصل الإنسان على إدراك القلب، ولكن من المستحيل أن يفهم كل الحياة الموجودة هناك.

وبحسب تعاليم الآباء فإن هذا القلب الروحي موجود في القلب الجسدي باعتباره عضواً في الجسد. لقد قلنا اللازم عندما درسنا من قبل مكان النفس والعقل. ونفس الأشياء تنطبق على القلب الروحي أيضاً. يشير القديس غريغوريوس بالاماس إلى كلمات الرب: "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة قتل زنى فسق سرقة شهادة زور تجديف" (مت ١٥: ١٩). وقول القديس مقاريوس: "القلب يوجه كل الأعضاء. وعندما تمتلك النعمة القلب، فإنها تسود على كل الأفكار وكل الأعضاء، لأنه هناك في القلب يكمن العقل وكل أفكار النفس" ويكتب أن: "قلبنا هو مكان القوة العقلية، وهو العضو العقلي الأول في الجسد"<sup>٢٢٥</sup>. يدعم القديس غريغوريوس التعليم القائل أن القلب الروحي موجود في عضو القلب الجسدي مشيراً إلى كلمات بولس الرسول: "أنتم رسالتنا مكتوبة في قلوبنا معروفة ومقروءة من جميع الناس. ظاهرين أنكم رسالة المسيح مخدومة منه مكتوبة لا بحبر بل بروح الله الحي، لا في ألواح حجرية بل في ألواح قلب لحمية" (٢كو ٣: ٣-٢) وإلى تعليم القديس مكسيموس المعترف القائل: "عندما يأتي الله ليقم في قلب مثل هذا فإنه يكرمه بأن يحفر فيه كلماته الخاصة من خلال الروح القدس تماماً مثلما فعل في لوعي العهد"<sup>٢٢٦</sup>.

عندما يعود العقل من تشتته، فإنه يجد القلب اللحمي أولاً ثم يدخل بعد ذلك القلب الروحي الذي هو القلب العميق. هذه هي الخبرة المشتركة لكل الذين يمارسون صلاة يسوع والعمل المقدس لعودة العقل للقلب. "يتعلم الناسك أسرار الروح العظيمة من خلال

<sup>224</sup> . Ibid. p. 44

<sup>225</sup> . St. Gregory Palamas. Triads, 1, 2, 3, CWS p. 43

<sup>226</sup> . Triads, 1, 3, 41

الصلاة النقية. إنه ينزل داخل قلبه الداخلي، في داخل قلبه الطبيعي أولاً، ثم يتوغل في تلك الأعماق التي هي ليست لحمية بلرة. إنه يجد قلبه العميق، ويصل لجوهر وجوده الروحي العميق الفائق للطبيعة، وإذ يتطلع فيه فإنه يرى أن الوجود الإنساني ليس شيئاً غريباً وخارجاً عنه ولكنه مرتبط بوجوده الخاص إرتباطاً وثيقاً<sup>٢٢٧</sup>.

وهكذا يستطيع المجاهد في حياة السكون هذه أن يميز بين القلب الروحي والقلب اللحمي. إنه يدرك وجود وطاقة كلاً من هذين القلبين. في البداية يجد العقل القلب الجسدي أولاً ثم يكتشف أيضاً القلب الروحي، ويكون قادراً على إدراك حركات كلا القلبين في نفس الوقت. لذلك لا يوجد خلط في هذه الحالة.

يقول القديس نيقوديموس من الجبل المقدس والذي ينتمي للتقليد الأرثوذكسي، أن القلب الجسدي هو مركز طبيعي وخارج عن الطبيعي وفائق للطبيعة<sup>٢٢٨</sup>. إنه مركز طبيعي لأن القلب هو الوحيد من كل أعضاء الجسد البشري الذي صُنِعَ أولاً. يقول القديس باسيليوس: "إن القلب هو الأول الموجود بالطبيعة في الخليقة الحيوانية"<sup>٢٢٩</sup>. إنه مركز خارج عن الطبيعة لأن منه تأتي كل الشهوات وأفكار التجديف. يجب علينا بالطبع أن نفسر ذلك لنعني أنه بحسب ما قيل أنه بعد المعمودية المقدسة تكون نعمة الله موجودة في مركز القلب، على حين يعمل الشيطان من الخارج. لقد قال بطرس الرسول لحنانيا: "يا حنانيا لماذا ملاً الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس...؟" (أع ٥: ٣). ولقد إقترح الشيطان قلب يهوذا: "فحين كان العشاء وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان الإسخريوطي أن يسلمه.." (يو ١٣: ٢). وبالمثل أيضاً فإن تعاليم السيد المسيح عن القلب معروفة: "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة قتل زنى فسق سرقة شهادة زور تجديف" (مت ١٥: ١٩). والقلب هو أيضاً مركز فائق للطبيعة لأن نعمة الله تعمل هناك. يقول بولس الرسول: "أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الأب" (غل ٤: ٦). ويكتب في موضع آخر: "محبة الله قد إنسكبت في قلوبنا" (رو ٥: ٥). ويكتب القديس ثالاسيوس أن القلب الصالح يُخرج أفكاراً صالحة لأن أفكاره تتناسب مع مخزن كنزه<sup>٢٣٠</sup>.

إن حقيقة خروج الأفكار الصالحة وتلك الشريرة من القلب لا تعني أن النعمة والشيطان موجودان في نفس المكان وفي نفس الوقت: "يُخرج القلب أفكاراً صالحة

<sup>227</sup> . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 47

<sup>228</sup> . Handbook of Council. CWS p. 154-157

<sup>229</sup> . Ibid. CWS p. 154

<sup>230</sup> . Philok. 2, p. 312, 85

وشريرة من ذاته". ولكن الأفكار الشريرة لا تتولد من طبيعته ولكن كنتيجة لتذكّار الشر. القلب يتخيّل أغلب أفكاره الشريرة من هجمات الشياطين. إننا نشعر في أي واقعة مثل هذه أنها تتبع من القلب<sup>٣٣١</sup>.

يؤكد القديس ديدوخوس أيضاً على أن نعمة الله التي تأتي من المعمودية تحفي وجودها في أولئك الذين تعمدوا "منتظرة لترى أي طريق سوف تخضع له النفس". عندما يحفظ شخص ما وصايا المسيح ويتذكر إسم المسيح بلا توقف، فإن نار النعمة الإلهية تشتعل حتى إلى أعضاء الإدراك الخارجية للقلب التي للمعرفة، وتحرق "الزوان الموجود في حقل النفس". وفي هذه الحالة تطفئ نفخة الروح القدس سهام الشيطان قبل أن تصل للجسد. إنها تطفئ السهام النارية بينما لا تزال تكون في منتصف الطريق<sup>٣٣٢</sup>.

تحدث إذاً المعركة العظمى في القلب. عندما يغلب المسيح هناك وينهزم الشيطان يأتي السلام الداخلي والخارجي. لذلك أهم عمل للمحارب هو أن يدخل إلى قلبه الخاص ويشن حرباً مع الشيطان هناك وأن ييغضه<sup>٣٣٣</sup>. القلب الذي هو المركز الطبيعي والخارج عن الطبيعة والفائق للطبيعة، هو مصدر الحياة الجسدية والروحية، ولكنه من الممكن أن يكون أيضاً مصدر الموت الروحي.

## سمات القلب

يتضح مما كتبناه أننا لا نستطيع أن نعطي تعريفاً دقيقاً للقلب الروحي إلا أننا نستطيع أن نقول أن القلب هو ذلك المكان الذي يُستعلن من خلال حيلة الجهاد المكلل بالنعمة والذي فيه يستعلن الله ذاته ويقيم. هذا المكان مدرك حسياً للشخص العائش بصورة أساسية في التقليد الأرثوذكسي.

لقد أعطى الآباء القديسون الذين اختبروا هذه الحقيقة علة سمات وصور لهذه الحياة. سوف نحاول فيما يلي أن نتأمل هذه السمات أو التعريفات التي تُظهر القلب ودوره في الحياة الروحية بكلّيتها بصورة أوضح.

<sup>331</sup> . St. Diadochos of Photiki. Philok. 1, p. 284, 83

<sup>332</sup> . Ibid. p. 285, 85

<sup>333</sup> . St. Makarios. Gk. Philok. 4, p. 24

إن القلب هو المكان الذي يسكن فيه الله: "ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم" (أف ٣: ١٧). "لأن محبة الله قد إنسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا" (رو ٥: ٥). ونملاً مثلما يولد الفحم اللهب "هكذا يفعل الله الذي يسكن في قلبنا منذ المعموديتنا". وإذا وجد مجال فكرنا خالياً من رياح الشر وإذا كان فكرنا محروساً بحفظ العقل، عندئذ سيُلهب عقلنا بالثيوريا مثلما يضيء اللهب الشمعة<sup>٣٣٥</sup>. وطالما أن الله يقيم هناك فإن "كل كنوز الحكمة والمعرفة الروحية" تحتبى هناك. "إنها تُستعلن في القلب بمقدار تطهيرنا بواسطة الوصايا"<sup>٣٣٥</sup>. وفي مرآة النفس "يُصور يسوع المسيح وينعكس بنور ذاك الذي هو حكمة وقوة الله الأب". يجب علينا أن نطلب ملكوت الله داخل قلبنا ولو نظفنا عين العقل فسوف نجد حقاً ملكوت الله والبذرة واللؤلؤة والخميرة وأشياء أخرى كثيرة. سوف نجد اللاهوتية في قلوبنا: "قال المسيح أن ملكوت السموات في داخلنا مشيراً إلى أن اللاهوتية تقيم في قلوبنا"<sup>٣٣٦</sup>.

وإذا يسكن الله في قلوبنا، فإنه يُعلم ويكتب تعاليمه وناموسه. وهكذا يكون القلب هو المكان حيث تكتب وصايا الله. يتكلم بولس الرسول عن أولئك "الذين يُظهرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم" (رو ٢: ٥). "يكتب الله نواميسه الخاصة في القلب"<sup>٣٣٧</sup> وهناك لا يعرف الشخص فقط "الجواهر ولكنه أيضاً بعلماً يمر خلالها جميعاً فإنه سوف يرى الله ذاته بمقدار ما"<sup>٣٣٨</sup>. عندما يأتي الله ليقيم في قلب مثل هذا "فإنه يمجده بأن ينقش كلماته الخاصة عليه من خلال الروح القدس"<sup>٣٣٩</sup>. وهكذا إذ احتضن القديسون الله في قلوبهم صاروا مستحقين أن يُكتب ناموس الله في قلوبهم، إكتسبوا فكر المسيح بحسب ما هو مكتوب: "وأما نحن فلنا فكر المسيح" (١كو ٢: ١٦). فكر المسيح الذي تلقاه القديسون لا يجلب معه فقداناً للقوة العقلية ولا يأتي "كجزء مكمل مضافاً لعقلنا" ولا "يعبر بصورة جوهرية أساسية في عقلنا، ولكنه بالأحرى يضيء قوة عقلنا بطبيعته الخاصة ويطابق نشاط عقلنا على نشاطه". وهذا يعني أن قوة عقلنا تضله بطاقة المسيح دون أن تفقد. "أن نمتلك فكر المسيح" يعني كما يقول القديس مكسيموس "أن يكون لنا الفهم بحسب ذاك الذي

<sup>334</sup> . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 180, 104

<sup>335</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 109, 70

<sup>336</sup> . Philotheos of Sinai. Philok. 3, p. 25, 23

<sup>337</sup> . Maximus, Philok. 2, p. 158, 81

<sup>338</sup> . Maximus, Philok. 2, p. 158, 80

<sup>339</sup> . Ibid.

للمسيح، وفهم المسيح من خلال كل الأشياء"<sup>٢٤٠</sup>. فيفكر الشخص بحسب إرادة الله ويتذكر الله على الدوام. ينطبق نفس الشيء على قوة الرغبة فيرغب الشخص باستمرار فيما يريغه الله، ويرغب في الله بلا شبع. يشير القديس بطرس الدمشقي للقديس باسيليوس الكبير الذي يقول أنه عندما يجد الله قلباً خالياً من كل أمور وتعاليم العالم فإنه عندئذ "يكتب عليه تعاليمه الخاصة كما لو كان لوحاً نظيفاً"<sup>٢٤١</sup>. وبالتالي تكون المسألة في هذه الحالة مسألة "وعي بالتعاليم". يعرف المرء تعاليم الكنيسة من الخبرة طالما أن له حية الله في قلبه. يجب علينا أن نجاهد لكي نجعل المسيح يقيم في قلبنا لأنه عندئذ سوف يقوم الله بنفسه "بتعليمنا كيف نثبت في نواميسه"<sup>٢٤٢</sup>.

إن القلب هو الجحيم الذي ينزل إليه المسيح ويحرق نفس الإنسان. ومثلما نزل المسيح إلى الجحيم وحرر نفوس الأبرار، هكذا ينزل المسيح إلى عمق القلب. يعلم القديس مقاريوس أنه عندما نسمع أن الرب نزل إلى الجحيم وحرر النفوس يجب أن نفكر أن هذه الأشياء ليست بعيدة عما يحدث الآن. فالقبر هو القلب. والرب يأتي "إلى النفوس الموجودة في الجحيم والتي تدعوه" أي في أعماق القلب وبعد حوار مع الموت، "إذ يرفع الحجر الثقيل الذي يحزن النفس ويفتح القبر فإنه يقيمنا لأننا كنا أمواتاً بالحقيقة ويحرق نفسنا السجينة من سجنها المظلم"<sup>٢٤٣</sup>.

إن القلب هو الأرض التي تُزرع فيها حبة الخنطة بيد الرب. ويقول القديس مكسيموس: "حبة الخنطة هي الرب الذي يُزرع روحياً في قلوب أولئك الذين يقبلونه بواسطة الإيمان"<sup>٢٤٤</sup>.

القلب هو الكنيسة والمذبح، ذلك المكان المقدس الذي فيه يتمجد ويتقدس الرب. يُعلم بطرس الرسول قائلاً: "قدسوا الرب الإله في قلوبكم" (١بط ٣: ١٥). ويرى القديس مقاريوس أن كل الأمور المنظورة هي إنعكاس للأمور الخفية. فالكنيسة المريئة ترمز وتعكس صورة كنيسة القلب. والكاهن الذي يرفع الأسرار هو رمز "الكاهن الحقيقي لنعمة المسيح"<sup>٢٤٥</sup>. وفي هذه الكنيسة الروحية الحقيقية التي هي أعماق القلب تستمر عبادة أبدية في الإنسان القائم: "مكلمين بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية، مترنمين

<sup>240</sup> . Ibid. 83

<sup>241</sup> . Peter of Damascus. Philok. 3, p. 154

<sup>242</sup> . Abba Philemon. Philok. 2, p. 349-350

<sup>243</sup> Philok. 3, p. 337

<sup>244</sup> . Philok. 2, p. 140, 11

<sup>245</sup> . Philok. 3, p. 334, 113

ومرتلين في قلوبكم للرب" ( أف ٥ : ١٩). القلب الخالي من الأفكار الشريرة والذي ينشط بالروح القدس " هو قُدس حقيقي حتى قبل الحياة الآتية"<sup>٢٤٦</sup>. فالقلب هو كنيسة ومذبح. يُعلم القديس يوحنا الدرجي قائلاً: " أن تقيم حراسة منظمة على القلب شيء، ولكن أن تكون أسقفاً على القلب فهذا شيء آخر". في الحالة الأولى يكون العقل مُشرعاً ولكن في الحالة الثانية يكون العقل أسقفاً يقدم ذبائح روحية"<sup>٢٤٧</sup>. القلب هو أيضاً قُدس حيث تكون النار"<sup>٢٤٨</sup>. إن هذا ما شعر به التلميذان في رحلتهم إلى عمواس عندما كان المسيح يتحدث إليهما: "ألم يكن قلبنا ملتهباً فينا إذ كان يكلمنا في الطريق ويوضح لنا الكتب" (لو ٢٤ : ٣٢). القلب هو "حجرة إستقبل للرب"<sup>٢٤٩</sup>.

القلب هو الإناء الذي يحوي زيت النعمة الإلهية. ويرى القديس مقاريوس المصري أن "الخمس عذارى السهارى اللائي حملن في آنية قلوبهن الزيت الذي لم يكن موروثاً في طبيعتهن، إذ أنه نعمة الروح القدس، كن قدرات على أن يدخلن مع العريس إلى حجرة العرس"<sup>٢٥٠</sup>. القلب هو إذاً الإناء الذي يحفظ فيه الشخص اليقظ نعمة الروح القدس ويدخل بالتالي حجرة العرس ليتتهج بإحتفال العريس.

القلب هو الحقل حيث الكنز مخفي الذي من أجله يبيع الذي يحده كل شيء لكي يشتريه"<sup>٢٥١</sup>.

القلب هو صورة العهد الجديد، أو بالأحرى فإن العهد الجديد أيضاً هو نقاوة القلب ويقظة وحراسة العقل"<sup>٢٥٢</sup>. العهد القديم هو أيقونة للنسك الجسدي الحسي الخارجي أما "الإنجيل المقدس أو العهد الجديد فهو أيقونة اليقظة التي هي نقاوة القلب"<sup>٢٥٣</sup>.

القلب هو سماء حيث يكون الإتضاع وتذكرُ الله " ثابتين من خلال اليقظة والإنباه وأيضاً مع صلاة متواترة لا تلين في مقاومة العدو فهناك يكون مكان الله في سماء القلب"<sup>٢٥٤</sup>.

<sup>246</sup> . St. Gregory of Sinai. Acrostics, 7. Writings, p. 38

<sup>247</sup> . John of the Ladder. Step 28. CWS p. 280

<sup>248</sup> . Ibid. Step 26. CWS p. 230

<sup>249</sup> The Art of Prayer. P. 187

<sup>250</sup> . Philok. 3, p. 313, 65

<sup>251</sup> . Matt. 13, 44 and St. Maximus, Philok. 2, p. 109, 71

<sup>252</sup> . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 181, 113

<sup>253</sup> . Ibid. 112

<sup>254</sup> . Philotheos of Sinai. Philok. 3, p. 17, 4

في القلب يوجد عربون الروح القدس: "الذي ختمنا أيضاً وأعطى عربون الروح في قلوبنا" (٢كو: ١: ٢٢).

القلب هو الألواح المكتوب عليها أحرف الله: "أنتم رسالتنا مكتوبة في قلوبنا معروفة ومقروءة من جميع الناس. ظاهرين أنكم رسالة المسيح مخدمون منا مكتوبة لا بحبر بل بروح الله الحي. لا في ألواح حجرية بل في ألواح قلب لحمية" (٢كو: ٣: ٣-٢).

القلب هو المكان حيث يسطع نور الله: "لأن الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح" (٢كو: ٤: ٦).

في القلب يصبح الإنسان متأكداً من البنوة وهناك يسمع صوت الله بوضوح قائلاً: "بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب" (غل: ٤: ٦). وحيث أن الله يقيم هناك فهناك هو المكان الذي يتكلم فيه مع الإنسان وهناك تُسمع كلمة الله بوضوح وتميز.

في القلب النقي توجد أيضاً العينان التي تُرى بها أسرار الله: "كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته، مستتيرة عيون أذهانكم لتعلموا ما هو رجاء دعوته" (أف: ١: ١٧-١٨). كما أن سلام الله يملك في القلب: "وليملك في قلوبكم سلام الله" (كو: ٣: ١٥).

القلب هو القيثارة وأوتارها هي المشاعر، وريشة العازف هي الذهن الذي من خلال الإدراك يحرك الريشة باستمرار بتذكر الله "التي منها تمتلئ النفس بالخلوة الغير موصوفة ويستضاء العقل الإلهي بالإستارة الإلهية"<sup>٢٥٥</sup>.

القلب هو النبع الذي منه تنبع المياه خلال الصلاة وإحترار المشاعر "من الروح المعطي الحياة"<sup>٢٥٦</sup>. القلب هو إنساننا الداخلي<sup>٢٥٧</sup>.

الرسل والآباء يستعملون هذه الصور والسمات لكي يعبروا عن القلب. نستطيع أن نقول بإختصار أن القلب هو "إنساننا الداخلي". إنه المكان الذي يُستعلن خلال حياة الجهاد المكمل بالنعمة، والذي فيه يُستعلن الله ويقيم. إنه الكنيسة الروحية حيث تقام

<sup>255</sup> . Callistos the Patriarch. Writings, p. 271, 2

<sup>256</sup> . St. Gregory of Sinai. Writings, p. 82f

<sup>257</sup> . St. Gregory Palamas. To Xenik. Gk. Philok. 4, p. 109

الليتورجية الإلهية الدائمة، وحيث يُقدّم لله تسبيح دائم، هذا المكان المجهول للكثيرين ولكنه معلوم للقديسين، هو الذي يعطي حياة للإنسان.

## مرض القلب

من المعروف على مدار التقليد الكتابي الأبائي أنه عندما يكف قلب الإنسان عن أن يسلك بحسب إرادة الله، ويفعل رغبات الشيطان، فإنه يمرض ويموت. إننا نتكلم عن المرض والقساوة والنجاسة والموت الروحي للقلب. وسوف نرى بعض مظاهر القلب المريض في هذا الفصل.

يدخل الشيطان قلب الإنسان ويجعله أسيراً: "فحين كان العشاء وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان الإسخريوطي أن يسلمه..." (يو ١٣ : ٢). لا يوجد شك في أن عقله كان موجوداً في الأسر لعدة سنوات من قبل. وتماماً مثلما هو مستحيل على النار والماء أن يمرا خلال نفس الماسورة فإنه مستحيل على الخطية أن تدخل القلب دون أن تطرق أولاً على بابه في صورة خيال يثيره الشيطان<sup>٢٥٨</sup>. فلخيال هو الذي يقود غواية الشيطان إلى داخل القلب. والخيال في الإنسان الساقط الذي هو أذكى من الفكر وأغلظ من العقل هو بداية الشر. من أجل ذلك ينصحنا الآباء أن نبقي على خيالنا نقياً أو أفضل من ذلك أن نحيا بطريقة لا تثير الخيال بل بالأحرى تميم الخيال. إنه فقط عندما يُمات ذاك بتوبة عظيمة وحزن داخلي كثير يستطيع الإنسان حينئذ أن يتكلم باللاهوت.

يكتب الآباء عن هلاك القلب. ويؤخذ هذا بمعنى أن نعمة المسيح تكون غير فعالة في القلب وأن المركز الفائق للطبيعة تحول إلى مركز مخالف للطبيعة. إن هلاك القلب هو فقدان الخلاص.

وأحد أمراض القلب هو الجهل ونسيان الله. فعندما يفقد القلب نعمة الله فإنه يصير معتماً ومظلماً ومختلفاً. وهذا هو ما رأيناه في اليهود والهرطقة الذين قرأوا الأسفار المقدسة ومع ذلك لم يفهموها بالمرّة لأن قلوبهم كانت مغطاة ببرقع: "لكن حتى اليوم حين يُقرأ موسى البرقع موضوع على قلوبهم" (٢كو ٣ : ١٥).

<sup>258</sup> . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 170, 45



من خلال القلب يكتسب المرء الثقة في الله، وفي القلب يُستعلن الله فهو يتكلم ويفسر كلمته. وعندما يكون القلب مختفياً يكون الإنسان في ظلام عميق. والقلب الجاهل هو الجحيم: "الجحيم هو الجهل لأن كليهما مظلم؛ والهلاك هو النسيان لأن كليهما يشمل الإنطفاء"<sup>٢٥٩</sup>.

القساوة والتقسي هما مرض آخر للقلب. فلأنه لا يقبل نعمة الله التي تغير كل شيء فهو يبقى قاسياً. لقد قال إستفانوس أول الشهداء لليهود: "يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والأذان" (أع ٧: ٥١). إن هذه القساوة هي ما يحملها الكبرياء وسوف يدان عليها الإنسان: "ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك غضباً في يوم الغضب وإستعلان دينونة الله العادلة" (رو ٢: ٥). القلب القاسي هو بوابة جديدة للمدينة التي عندما تُغلق لا تسمح بدخول أحد. ولكن القلب الذي يعاني من الشدائد والضيق سوف يفتح من ذاته مثلما فعل مع بطرس<sup>٣١</sup>. ومن واجبا ألا نخلق الجو المؤذي إلى قساوة القلب: "لا تقسوا قلوبكم كما في العصيان" (عب ٣: ٨). لقد واجه الرب مثل هذه القلوب الصلبة عدة مرات. فبعد معجزة الخمس خبزات والعاصفة "كانت قلوبهم غليظة" (مر ٦: ٥٢). وفي موضع آخر قال الرب للشعب: "أحتي الآن قلوبكم غليظة" (مر ٨: ١٧). وعندما واجهه الرجال الذين كانوا يراقبونه هل يشفي في السبت: "نظر حوله إليهم بغضب حزناً على غلاظة قلوبهم" وشفى الرجل ذا اليد اليابسة (مر ٣: ٥).

النجاسة هي مرض آخر للقلب. عندما يفقد القلب نعمة الله وتعمل الأفكار الشريرة فيه فإنه من الطبيعي أن يصير نجساً، ويرى نيسيئاس ستيثاتوس أن نجاسة القلب ليست فقط أن يكون لدى الشخص أفكار نجسة، ولكنها تحدث أيضاً عندما يفتخر بنجاحه ويتنفع بفضائله وتكون لديه أفكار عظيمة أي يكون مغروراً بحكمته ومعرفته لله، ويلوم إخوته المتكاسلين والغير مباليين. يظهر ذلك بوضوح في مثل الفريسي والعشار<sup>٣٢</sup>. إن كل شهوة تأتي لقلبه حتى لو لم تظهر خارجياً هي نجاسة وزنا. لقد قال الرب: "كل من نظر لإمرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه" (مت ٥: ٢٨). ولكن أيضاً كل شهوة أخرى حتى لو لم تكن جسدية بالمعنى الضيق، ولكنها تكون ضد مشيئة الله فهي تدنيس للقلب وتكون بالتالي مرضاً ويكون القلب مريضاً.

<sup>259</sup> . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 114, 62

<sup>260</sup> . Ibid. p. 111, 21

<sup>261</sup> . Nicetas Stethatos. Practical chapters, ch. 48

بالثلث أيضاً يكون القلب الغبي مريضاً. يتكلم الكتاب عن عابلي الأوثان الذين يعبدون الأشياء المخلوقة دون الخالق قائلاً: "إظلم قلوبهم الغبي" (روا : ٢١).

عدم الإستقامة هو مرض آخر للقلب. فالقلب الذي يفعل مشيئة الشرير لا يكون مستقيماً طالما أن إستقامة القلب هي ممكنة فقط عندما يكون القلب في حالته الطبيعية، أي عندما يكون مكان سكنى الله. لقد وبَّخ بطرس الرسول سيمون الساحر الذي أراد أن يقتني موهبة الله بالفضة: "لأن قلبك ليس مستقيماً أمام الله" (أع : ٨٤ : ٢١).

الصلابة أيضاً هي مرض للقلب. فالشهوات في القلب تجعله صلباً. وتظهر هذه الصلابة خارجياً. من أجل ذلك يتكلم التقليد الأرثوذكسي بوضوح عن اللطف وبالأكثر عن اللطف الداخلي دون الخارجي. يجب على القلب أن يكون بسيطاً ومهذباً. فالرجل ذو القلب البسيط يكون لطيفاً أيضاً من الخارج. يوجد إذاً لطف خارجي لا يأتي من لطف القلب، أو بالأحرى هو في تضاد واضح مع الصلابة الموجودة في القلب، ويوجد أيضاً لطف خارجي ينبع من ويعكس اللطف الداخلي.

يكتب الأرشمندريت صوفرونيوس عن القديس سلوان (الذي عاش في جبل آثوس باليونان) قائلاً: "حتى سرعة البديهة التي التصقت بالأب سلوان، مهما كانت الظروف، لم تترك فيه أي شيء مشين، فلم يكن يعرف كيف يزدرى أو يستخف بأحد. لقد كان غريباً عن الرياء وكان نبيلاً حقاً ولكن فقط بالطريقة التي يستطيع فيها أن يكون المسيحي نبيلاً"<sup>٢٦٢</sup>.

عندما يوجد إذاً رياء ونفاق وسخرية وبغضة فإنه من المؤكد أن القلب يكون مريضاً طالما أن سلوكه يكون وقحاً.

يوجد مرض آخر للقلب وهو التهاون الداخلي. فبدلاً من أن تتمركز لنة القلب حول محبة الله وتبتهج بها، فإنه يدور حول الأشياء الجسدية ويتمتع بها، تلك الأشياء التي تغضب الله. القلب المتهاون هو سجن للنفس وخصوصاً في ساعة الموت. ويرى القديس مرقس الناسك أن "القلب المتهاون يصبح سجنًا وسلسلة للنفس عندما يترك هذه الحيلة"<sup>٢٦٣</sup>. تشبع شهوات النفس طالما أنه يوجد جسد ولكن عندما تتحرر النفس من الجسد سوف لا تكون قادرة عندئذ على أن تشبع طالما أنه ستنفصها الأشياء المادية. وهكذا فإن هذه الشهوات وخصوصاً تهاون النفس إذ لا تجد إشباعها فإنها سوف تخنق النفس.

<sup>262</sup> . Archim. Sophrony, Saint Silouan. P. 53

<sup>263</sup> . Philok. 1, p. 111, 20

هذه هي الشياطين التي تتحدث عنها كتابات الآباء. وهذا هو السبب الذي يجعل القلب المتهاون سجنًا وسلسلة للنفس في وقت الرحيل من هذه الحياة.

تنقل نفس الإنسان المريضة والميتة مرضها وظلامها لكل الكيان النفسجسماني. فأي شيء يفكر فيه أو يشتهي يكون ميتاً. من أجل ذلك يقول الأبا دوروثيوس أنه بمقدار ما نكون معرضين للشهوة بمقدار ما يجب علينا ألا نثق في قلبنا بالمرة. لأن الحاكم الملتوي يجعل حتى الأمور المستقيمة ملتوية<sup>264</sup>. وينصح القديس مرقس الناسك قائلاً: "لا تطع قلبك حتى تستطيع أن تستأصل الشر"<sup>265</sup>.

يجب إذاً على القلب المريض أن يُشفى ولو حدث أنه لم يُشفى فإن كل كيان الإنسان يكون مريضاً.

## شفاء القلب

إن أقصى غاية للإنسان هي أن يصل لمعرفة الله لأن هذا هو خلاصه. وبالطبعي عندما نقول "معرفة الله" فإننا لا نعني المعرفة العقلية ولكن نقصد "الشركة في الوجود". وهكذا فإن معرفة الله هي الشركة مع الله. وأينما يحصل المرء على هذه الشركة فهناك يكون الخلاص. ولكن هذه الشركة تحدث في أعماق القلب حيث يلتقي الله بالإنسان، وهناك يكشف الله معرفته، وهناك يحصل الإنسان على معنى لوجود الله.

ولكي تحدث هذه الشركة ورؤية الله، يجب على القلب أن يكون نقياً. لقد أكد الرب ذلك قائلاً: "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (مت ٥: ٨). القلب الذي سقط مريضاً وصار ميتاً يحتاج لأن يُشفى ويتنقى لكي يحصل على معرفة الله. فالقلب النقي هو أداة المعرفة الأرثوذكسية لذلك سوف نهتم فيما يلي بكيفية شفاء القلب.

التوبة هي الدواء الشافي الأول. وعلى القلب أن يتوب ويعود لحالته الطبيعية. فإذا قادت حياة الخطية القلب للحالة الغير طبيعية، فإن حياة التوبة سوف تعيده لحالته الصحيحة، وسوف تعطيه حياة. يقدم القديس يوحنا الدرجي تعريفات محددة للتوبة: "إن التوبة هي تجديد المعمودية. التوبة هي ميثاق مع الله عن بداية جديدة في الحياة. التوبة هي شراء الإلتضاع. التوبة لا تثق أبداً في راحة الجسد. التوبة هي وعي دقيق ومراقبة أكيدة

<sup>264</sup> . Abba Dorotheos. SC p. 526, 202, 2. cf. CS 22, p. 251

<sup>265</sup> . Philok. 1, p. 122, 177

للدات. التوبة هي التصالح مع الله...التوبة هي تنقية الضمير...<sup>٣٦٦</sup>. يخبرنا نفس القديس في موضع آخر عن أنه يجب على كل أولئك الذين تدنسوا بعد المعمودية أن يتنقوا ويزيلوا الفار من ذواتهم بواسطة نار القلب المستمرة وزيت الرحمة الإلهية<sup>٣٦٧</sup>. رحمة الله ونار القلب تشفي الشخص من مرضه.

ويزداد الإنسحاق بمقدار ما تكون التوبة عميقة. والقلب المنسحق هو ذاك الذي يعيش في توبة. يقول داود النبي الملك: "ذبائح الله هي روح منكسرة. القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحقره" (مز ٥١: ١٧). الله يسكن في القلب المنسحق. وكل من يأتي إلى الملك لكي يحصل على إلغاء الدين الذي عليه يحتاج لأن يمتلك "إنسحاقاً لا يُعبر عنه"<sup>٣٦٨</sup>. ويرى القديس نيسيتاس ستيثاتوس أن العلامات المميزة للحق لا توجد في الوجوه والأشكال والكلمات، ولا يقيم الله في هذه الأشياء ولكن الحقيقة تقيم مثل الله "في القلوب المنسحقة وفي أرواح الإلتضاع وفي النفوس المستتيرة بمعرفة الله"<sup>٣٦٩</sup>.

عندما نتحدث عن إنسحاق القلب يجب علينا أن نصف كيف يصبح القلب منسحقاً وما هو هذا الإنسحاق. القديس مرقس الناسك يبدأ بأن يقول بأنه من المستحيل على شخص ما أن يتخلص من الشر بدون إنسحاق قلبه وبعد ذلك يعرف بدقة ما يجعله منسحقاً: "القلب يصبح منسحقاً بضبط النفس ثلاثة أضعاف: في النوم والطعام والراحة الجسدية"<sup>٣٧٠</sup>. الراحة الجسدية تؤدي إلى التهاون مع النفس الذي يؤدي إلى الأفكار الشريرة. والإنسحاق يأتي من: "العزلة الحكيمة والصمت التام"<sup>٣٧١</sup>. وإذا يعود القديس مرقس الناسك لهذا الموضوع فإنه يؤكد على أن اليقظة والصلاة والقبول بصبر على ما يأتي على الإنسان تشكل جميعها قلباً منسحقاً وهي لا تؤذيه ولكنها تفيد<sup>٣٧٢</sup>. الجهاد الجسدي والحرمان من الضروريات يحدث ألماً في القلب يكون مفيداً وصحياً للشخص. يشدد القديس فيلوثيوس السينائي على حقيقة أنه يجب علينا أن نفعل كل ما نقدر عليه لكي نتغلب على كبرياء قلبنا ونحدد الطرق لتحقيق ذلك. نستطيع أن نكسر القلب ونسحقه بأن نتذكر حياتنا السابقة التي هي حياة آدم قبل السقوط، وبأن نتذكر كل الخطايا

<sup>266</sup> . Ladder. Step. 5. CWS p. 121

<sup>267</sup> . Ibid. Step 7. CWS p. 144

<sup>268</sup> . Ibid. Step 28. CWS p. 277

<sup>269</sup> . Natural chapters, ch. 32

<sup>270</sup> . Philok. I, p. 143, 210

<sup>271</sup> . Gregory of Sinai. Acrostics, 104. Writings, p. 59

<sup>272</sup> . Philok. I, p. 111, 19

التي إقترناها منذ الطفولة، ماعدا الخطايا الجسدية بالطبع "لأن تذكر هذه يكون مؤذياً". وتذكر الخطايا يولد دموعاً ويحركنا لكي نعطي شكراً قلبياً لله. كما أن دوام إمتلاء العقل بتذكر الموت يؤدي إلى الحزن المقدس. وبالمثل تتضع النفس بتذكر آلام ربنا والبركات العديدة التي حصلنا عليها من الله<sup>٢٧٣</sup>.

الإنسان الجسداني الذي هو بعيد عن الله يُعرف بقساوة وغلاظة قلبه. أما إنسان الله الذي يتلقى الروح القدس فإنه يتميز بروقة قلبه. فالقلب يصير حساساً ولطيفاً عندما يتنقى من الشهوات وينسحق.

يصف الآباء أيضاً الإنسحاق الضار. فيرى القديس مرقس الناسك أنه "يوجد إنسحاق قلبي لطيف يجعله يتوب بعمق، ويوجد إنسحاق قلبي عنيف وضار يحطمه تماماً"<sup>٢٧٤</sup>. يحدث النوع الصالح من الإنسحاق في روح التبتك وفي جو الصلاة. وهذا يعني أن القلب المنسحق يصلي لله بلا إنقطاع. إنه لا ييأس ولكن رجاؤه يكون في محبة الله العظيمة للإنسان. إنه يتميز إذا بالرجاء. لقد أدرك القديس سمعان اللاهوتي الجديد والطبيب الروحاني المختبر أن الحزن الطويل للقلب والذي هو في غير أوانه "يُظلم ويربك العقل". إنه يُبعد الصلاة النقية والتبكيك عن النفس ويخلق خزاناً مؤلماً للقلب يؤدي إلى صلابة وقساوة مفرطة. هذه هي الطريقة التي تجلب بها الشياطين اليأس<sup>٢٧٥</sup>.

إذاً الإنسحاق الذي لا يكون ملتحفاً بالتبكيك والصلاة يؤدي إلى إظلام أكثر للشخص ويكون مرتعاً مفضلاً للشيطان ليث اليأس وعدم الرجاء. أما الإنسحاق الحقيقي للقلب الذي كما قلنا لا يكون مؤذياً للقلب يتميز بوجود الصلاة والتبكيك والرجاء في الله.

القلب المنسحق يأتي مع الصلاة وتكون له نتائج عديدة جداً. يقدم ناسك مجهول الاسم فوائد هذه الطريقة الصحية قائلاً:

"١- دع قلبك ينسحق بالصلاة أيها الراهب، بحيث تنكسر تماماً بقوة الشيطان بعيداً عن قلبك بالتمام.

<sup>273</sup> . Philok. 3, p. 20, 13

<sup>274</sup> . Philok. 1, p. 111, 18

<sup>275</sup> . CS 41, p. 49. Ch. 1, 63. gk. Pilok. 3, p. 244, 46

٧- وتاماً مثلما يخاف الإنسان من أن يمسك حديداً ملتهباً ومشتعلاً، هكذا يخاف الشيطان من إنسحاق القلب إذ أن إنسحاق القلب يكسر مكره تماماً.

٨- بمجرد أن يتعرض القلب المتراخي والغير منسحق للخيال الشيطاني، فإنه يقبله للحال، ويتأثر بفكرة الخيال بعمق، ولكن القلب المنسحق لا توجد فيه أى مكان لأي خيال.

٩- حيث يوجد إنسحاق القلب يهرب كل شر الشيطان ويحترق كل فعل شيطاني.

١٤- إسحق قلبك بالصلاة بحيث تنكسر الخطية بعيداً عن قلبك.

٢٥- هل رأى الشيطان قلباً مجروحاً بإنسحاق الصلاة؟ لقد تذكر على الفور الضربات التي تحملها المسيح من الإنسان وبالتالي إرتعب وفقد شجاعته.

٢٦- أيها المحبوب إكسر الشيطان بإنسحاق قلبك بحيث تستطيع أن تدخل متصراً إلى فرح سيدك.

٢٧- إسحق قلبك بالصلاة بحيث ينكسر الشيطان الذي يخدعك إلى أجزاء صغيرة<sup>٣٧١</sup>.

لكي نفسر إنسحاق القلب يجب علينا أن نتكلم عن ألم القلب كما يجب علينا أن نقول من البداية أنه عندما نتكلم عن الألم في القلب فإننا نشير بصورة رئيسية إلى القلب الروحي. فالقلب الروحي هو الذي يتوجع ويتألم. وعندما تأتي هذه الآلام بواسطة نعمة الله فإنها لا تكون ذات نتائج مأسوية للقلب الجسدي. هذا يعني أنه بينما ينسحق القلب الروحي ويتألم من الحزن الفرح للحياة في التوبة، يكمل القلب الجسدي مسيرته الطبيعية دون أية آثار سيئة. لا يستطيع أطباء القلب في أغلب الأحيان أن يجدوا المرض، لسبب بسيط وهو أن قلب الشخص العضوي المتألم لا يكون مريضاً.

وجع القلب يكون أمراً ضرورياً لأن الحياة النفسية الأكثر صرامة تكون مزيفة وغير مثمرة بدونه<sup>٣٧٢</sup>. وبالطبع لكي يوجد وجع القلب هذا الذي هو ضروري للحياة الروحية يجب على المرء ألا يشبع جوع الجسد تماماً. يقول القديس مرقس الناسك أنه "تماماً مثلما لا يتزاوج الخروف والذئب هكذا لا يتحد القلب المتألم مع الشبع لولادة الفضائل"<sup>٣٧٣</sup>.

<sup>276</sup> . Anonymous hesychast; Neptiki theoria, p. 171-174 ( in Greek)

<sup>277</sup> . John of the Ladder. Step 7. CWS p. 144

<sup>278</sup> . Philok. 1, p. 144, 217

كل الفضائل تولد من خلال وجع القلب وتكون الحية المسيحية الخالية من الألم مزيفة.

إن ألم القلب ضروري للخلاص: "يجب علينا أن ندرك أن العلامة الحقيقية للعمل الروحي وثمن النمو هو ألم الجهاد الذي هو الإحساس بخطيتنا المخزية، عندما نسقط عند قدمي يسوع بحزن ودموع مثل المرأة الخاطئة في بيت سمعان الأبرص في بيت عنيا. لقد سمعته المرأة يقول: "مغفورة لك خطاياك". الذي بلا ألم لا يحمل ثمراً لأن "الصلاة بدون ألم تحسب كسقط" وذلك بحسب قول القديس مار إسحق السرياني. يكشف ألم القلب والجهاد الجسدي عطية الروح القدس، تلك العطية المنسكبة على كل مؤمن في المعمودية المقدسة، والتي تنظمس في الشهوات بسبب إهمالنا لإتمام الوصايا، ولكن التي تنتعش ثانية بالتوبة من خلال رحمة الله الفائقة الوصف.

"لا تكف عن أعمال الجهاد بسبب الألم المصاحب لها، وإلا تُدان بعدم الإثمار وتسمع الكلمات: "خذوا منه الوزنة" (مت ٢٥: ٢٨). كل جهاد في طريق تدريب النفس سواء كان جهاداً جسدياً أو عقلياً عندما يكون غير مصحوب بالألم ولا يتطلب أقصى جهد سيكون بلا ثمر." ملكوت السموات يُغصّب والغاصبون يختطفونه" (مت ١١: ١٢). لقد عمل العديد من الناس ولا يزالون يعملون بدون ألم، ولكنهم بسبب غياب الألم يكونون غرباء عن الإثمار بسبب غياب الألم وهم أيضاً خارج شركة الروح القدس، لأنهم تجنبوا شلة الألم.

"أولئك الذين يعملون بضعف ولا مبالاة قد يمارسون مجهودات عظيمة، ولكنهم لا يحصلون ثمراً لأنهم لم يتألموا. وبحسب قول النبي فإننا لن ننجح في أن نولد روح الخلاص في أرض قلبنا، ما لم تنسحق خاصرتنا وتضعف بالصوم، وما لم ندخل في ضيق الإنسحاق، وما لم ننألم مثل امرأة في مخاض". لأنه مكتوب: "بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله" (أع ١٤: ٢٢) <sup>٣٩</sup>.

هذا الألم الموجود في القلب الروحي والذي يُحس أيضاً عضوياً بدون أن يكون ضاراً، عندما يكون مطابقاً لما يؤكد عليه التقليد الأرثوذكسي، فإنه يكون عندئذ ضرورياً لخلاصنا لأنه يساعد كل قوى نفسنا لكي تكون مُركزة هناك. وعندئذ تكون النفس مرتبطة بالقلب بأكثر سهولة وتعود إليه. وهذا الألم الذي يحدث جرحاً غالباً ما يكون مصحوباً بالبكاء بصورة ما. وهذه تسمى "دموعاً" وينفجر الإنسان في الدموع بصوت عال وهذا يسمى "حزناً". ونحن نعلم من كتابات آبائنا أن هذا الجرح الذي يُسهّم في الخلاص

يشعر به الشخص بصورة مؤلمة أكثر من الجرح الجسدي. ولكن كما سنرى فيما يلي فإن إنسحاق القلب يخلق لذة تفوق الوصف.

يكتب القديس ثيوفان الناسك عن هذا الجرح الذي يخلق ألماً فائقاً للطبيعة قائلاً: "إعتن بأن يكون إنتباهك في قلبك وليس في رأسك، وتمسك بذلك ليس فقط عندما تكون واقفاً للصلاة ولكن في كل الأوقات أيضاً. حاول أن تكتسب نوعاً من الألم في قلبك. والجهاد المستمر سوف يحقق لك ذلك بسرعة. لا يوجد شيء مميز في ذلك: فظهور هذا الألم لا يعني الجرح على حين أنه ألم بصورة أساسية. هذا الجرح ليس جرحاً عضوياً وألماً عضوياً يهدد الحياة. ولكنه جرح من الحب المُسكر الذي تشعر به النفس الثابتة، مثل ذاك الذي شعر به الإبن الضال وهو في اتحاد العناق الإلهي. إنه ألم تكفيري، وحلاوة لا يشبع منها، وتأمل مستيكي لا يمكن وصفه، ورابطة غير منحلة مع الله، وشهوة لترك هذه الحياة، وحوار حب مع الله. هذا الألم سيساعدك على أن تجمع كل قوى نفسك في هذا الجهاد المحبوب، وسوف يعطيك الله ما تطلب إذ يرى جهادك. وبعد ذلك سوف تحدث بعض التغيرات والحالات الإلهية في قلبك"<sup>280</sup>.

يشهد القديس يوحنا الدرجي لحقيقة من المحتمل أن تكون من خبرته الخاصة، عن أن بعض الناس يشعرون بهذا الألم الفائق للطبيعة وبوجع القلب هذا لدرجة أن الدم ينسكب بالفعل من قلبهم الجروح ومن أفواههم: "لقد رأيت أناساً وصلوا للحد الأقصى من الحزن لدرجة تدفق الدم من قلب متألم مجروح من خلال أفواههم، وعندئذ تذكرت القول: "ملفوح كالعشب ويابس قلبي" (مز ١٠٢: ٤)"<sup>281</sup>.

إنهمار الدموع هو نتيجة أخرى لهذا الألم. لقد بارك الرب أولئك الحزانى قائلاً: "طوبى للحزانى لأنهم يتعزون" (مت ٥: ٤). الحزن الإلهي والدموع التي تنتج عنه هي إذاً وصية للمسيح، فالدموع هي طريق الحياة. وتاماً مثلما تكون التوبة والحزن طريقاً للحياة كذلك أيضاً الدموع التي تتدفق من القلب الثائب المنسحق. عندما نتحدث عن الدموع يجب علينا أن نشير إلى أنه توجد دموع داخلية للقلب ودموع خارجية للجسد. وعادة ما ينتحب القلب ويغتسل بنهر من الدموع. المجاهد الروحي الذي يعيش في روح التقليد الأرثوذكسي عادة ما ينخطف ويديه على قلبه باكياً. وغالباً ما تظهر دموع القلب هذه خارجياً. وفي بعض الأحيان تكون مخفية. ولكن هلم نتأمل الآن في قيمة الدموع.

<sup>280</sup> . Ibid. p. 127

<sup>281</sup> . Step 7. CWS p. 144



القديسون يَحْتُونُ المسيحي على البكاء لأن القلب في هذا الجو يتنقى ويكتسب حساسية روحية تجعله يتغلب على قساوته. فيحشا القديس إسحق قائلاً: "بلبل خديك بدموع عينيك"<sup>٢٨٢</sup>. إنه يحشا بالأخص على أن ندعو مريم ومرثا لكي تعلمانا "صرخات الحزن"<sup>٢٨٣</sup>. ويعلمنا القديس نيلوس السينائي أن نصلي أولاً من أجل موهبة الدموع<sup>٢٨٤</sup> وهكذا إذ نصلي بدموع فكل ما نطلبه سوف يُسمع<sup>٢٨٥</sup>.

إن قيمة الدموع عظيمة. والآباء الذين إختبروا هذه الحقيقة معاً يتفقون معاً فى هذا. فالدموع هي معمودية: "ينوع الدموع بعد المعمودية أعظم من المعمودية ذاتها، حتى وإن كان فى هذا القول جراءة"<sup>٢٨٦</sup>. الدموع هي علامة الميلاد الثاني للإنسان. ويرى الأب بيمن أن "البكاء هو الطريقة التي تعطيها لنا الأسفار وآباؤنا عندما يقولون "إبك" فإنه لا يوجد حقاً طريق آخر غير ذلك"<sup>٢٨٧</sup>. إنه كما قلنا طريق للحياة. ومن المستحيل علينا أن نعرف ذواتنا بدون دموع. وهذا يعني أننا لو تحققنا من أننا خطاة وهذه علامة على النعمة الإلهية فينا، ولو أننا إكتسبنا عطية معرفة الذات وتبكيته، فإننا سنبدأ عندئذ في البكاء بصورة تلقائية. من أجل ذلك "لا يستطيع أحد أن يترك نفسه الميتة ويذهب يتحب على آخر"<sup>٢٨٨</sup>.

الدموع في الإنسان تظهر أن "الله لمس عينيه وأعطاه بصيرة روحية"<sup>٢٨٩</sup>. الدموع تفتح عيني الروح. وكما يعلم الأنبا أرسانيوس، فالدموع هي أمر ضروري أيضاً لأن الإنسان سيضطرب للبكاء في وقت ما في أي مناسبة. إن الذي يبكي بإرادته هنا على الأرض، سوف لا يبكي في الحياة الآتية. وعلى العكس فالذي لا يبكي هنا "سوف يبكي إلى الأبد في الحياة الأخرى"<sup>٢٩٠</sup>.

يقول القديس سمعان اللاهوتي الجديد الذي يتميز مع آخرين بأنه لاهوتي الدموع Theologian of tears أن الدموع هي علامة الحياة. ومثلما يبكي الأطفال عندما يخرجون من بطون أمهاتهم وتكون هذه علامة للحياة، هكذا يكون الحال مع الولاة الروحية. والدموع هي جزء من الميلاد الثاني للإنسان. لا يسمى الطفل حياً ما لم يبكي. من أجل ذلك

<sup>282</sup> . St. Isaac the Syrian. Ascetical homilies, p. 91  
<sup>283</sup> . Ibid.  
<sup>284</sup> . St. Neilos the Ascetic. Gk. Philok. 1, p. 177, 5  
<sup>285</sup> . Ibid. 6  
<sup>286</sup> . Ladder. Step 7. CWS p. 137  
<sup>287</sup> . Sayings. P. 155, 119  
<sup>288</sup> . Barsanuphius and John. Q. 341. (In Gk.)  
<sup>289</sup> . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 111, 15  
<sup>290</sup> . Sayings. P. 16, 41

وبحسب قول القديس سمعان فإن "الدموع والحزن يلازمان الطبيعة الإنسانية منذ الولادة"<sup>291</sup>. لقد قال ذلك لأن العديد من الأشخاص في هذا الوقت تمسكوا بأنه ليس لكل الناس نفس الطبيعة وبالتالي لا يستطيع الكل أن يذرفوا الدموع. ولكن ليس الحال هكذا.

ويضيف القديس أن الدموع ضرورية للنفس تماماً مثلما يكون الطعام والشراب ضرورياً للجسد. والذي لا يبكي كل يوم وكل ساعة "سوف يحطم نفسه ويجعلها تنفى جوعاً"<sup>292</sup>. عندما يكتسب شخص ما ميلاً للصالح والغيرة والصبر والإتضاع ومحبة الله فإن نفسه تكون مثل الصخرة "التي ستصبح ينبوعاً للدموع"<sup>293</sup>.

لقد سجل القديس سمعان المعلومة الموجودة أيضاً في الكتاب المقدس أن "بعض البالغين ذرفوا الدموع في لحظة معموديتهم إذ إبتلوا بالتبكي عند حلول الروح القدس ولكنها لم تكن دموع الألم الموجهة، ولكنها كانت أحلى من العسل... لقد ذرفت هذه الدموع من أعينهم بدون ألم وبلا صوت"<sup>294</sup>.

هذه الأمور تُظهر من ناحية أن الدموع ضرورية لحياتنا الروحية، ومن ناحية أخرى أنها طريق للحياة وأنها غذاء للنفس. وبالإضافة إلى ذلك فهي لها علة صور وهذا ما أتمنى أن أركز عليه فيما يلي.

يُعلم نيسيتاس ستيثاتوس تلميذ القديس سمعان اللاهوتي الجديد أن دموع التوبة شيء ودموع التبكي هي شيء آخر. فالأولى تكون مثل النهر الذي يفيض ويكتسح جميع جدران الخطية على حين أن الأخيرة تكون للنفس كالطر الساقط على الحقول ومثل الجليد على العشب "فهى تغذي بذرة المعرفة وتجعلها منتعشة وثمرتة"<sup>295</sup>. إنه يؤكد أيضاً على أن مذاقة الدموع قد تجلب لشعور القلب العقلاني في بعض الأحيان المرارة والألم وأحيان أخرى الفرح والسعادة. دموع التوبة تجلب المرارة والألم، ودموع القلب النقي الذي حصل على حريته من الشهوات هى دموع اللذة والحلاوة الغير موصوفة<sup>296</sup>. ونفس الفرق يوجد تقريباً بين دموع مخافة الله ودموع محبة الله<sup>297</sup>.

<sup>291</sup> . CWS p. 314

<sup>292</sup> . Ibid.

<sup>293</sup> . CWS p. 313

<sup>294</sup> . Ibid.

<sup>295</sup> . Practical chapters, ch. 70

<sup>296</sup> . Ibid. 69

<sup>297</sup> . Callistus and Ignatius. Writings, p. 231, 58

توجد آثار عديدة للدموع. فهي تنقي قلب الإنسان من لوثة الخطايا ثم بعد ذلك تنير القلب. ويُعلم الآباء بأنه عندما يأتي الشيطان لنفس شخص ما، فهو يُسقط فيه صوراً متعددة ثم يمضي تاركاً صنم الخطية في القلب. الدموع تطرد هذا الصنم بعيداً وعندئذ يغتسل مكان القلب، وتختفي السحابة التي غطته. يعلم الأنبا بيمن قائلاً: "إن النبي يريد أن يتنقى من أخطائه فليتنقى منها بالدموع"<sup>٢٩٨</sup>. ويقول في موضع آخر: هلمَّ نبكي في كل ضيقنا في حضرة الصلاح الإلهي حتى يظهر رحمته علينا"<sup>٢٩٩</sup>. وهكذا حيثما يوجد الحزن فهناك لا يوجد نقد أو إفتراء"<sup>٣٠٠</sup>. وفي الواقع تأكد لنا بخبرتنا في الكنيسة أن الدموع تستطيع أن تغسل عنا الخطية مثلما تغسل المياه شيئاً مكتوباً"<sup>٣٠١</sup>. ودموعنا يأتي الروح القدس ويحل على قلوبنا وينقينا ويغسلنا من قذارة الشر"<sup>٣٠٢</sup>.

الدموع تنقي ليس فقط النفس، ولكنها تنيرها أيضاً. وفي الواقع إن نعمة الله التي تأتي من خلال التوبة تنير قلب الإنسان وتقدس. لا بد أن لجة الحزن التي هي حزن عظيم تُبصر التعزية. مع نقاوة القلب تأتي الإستنارة: "الإستنارة هي طاقة تفوق الوصف، يتلقاها الشخص بطريقة غير معروفة وبراهم بطريقة غير مرئية". الحزن يجلب الراحة، وذلك بحسب تطويب المسيح. هذه الراحة هي عزاء النفس الحزينة. والمعونة الإلهية هي تجديد النفس المكتئبة بالأسى والتي "تحول الدموع المؤلمة إلى دموع عديمة الألم بطريقة رائعة"<sup>٣٠٣</sup>. ويعلم نيسيتاس ستيثاتوس أنه ما من أحد يستطيع أن يبلغ لتشابه مع الله ما لم يتنقى أولاً من خلال الدموع الحارة من القذارة الموجودة في داخله وما لم يحفظ وصايا المسيح. وبهذه الطريقة نتحرر من التشويه الباطني"<sup>٣٠٤</sup>، ونصبح قادرين على التمتع بمجد الله.

يشير الآباء أيضاً للدموع الضلال. من الممكن أن تنشط بعض الدموع بواسطة الشيطان. فعندما يبكي شخص ما ثم يفتخر ببكائه يكون مُضِللاً. من أجل ذلك يحذرننا الآباء: "لا تنتفخ مغروراً، لو ذرفت الدموع عندما تصلي"<sup>٣٠٥</sup>. لا يجب أن يتفاخر أحد ويفكر أنه أعلى من الآخرين كثيرين. فالهدف من دموعنا هو أن نغتسل من خلالها من قذارة الشهوات. ومن الممكن

<sup>298</sup> . Sayings. P. 155, 119

<sup>299</sup> . Ibid. 122

<sup>300</sup> . Ladder. Step. 10. CWS p. 156

<sup>301</sup> . Ibid. step 26 summary, CWS p. 259

<sup>302</sup> . St. Isaac the Syrian, The Ascetical Homilies, p. 91

<sup>303</sup> . Ladder. Step 7. CWS p. 143

<sup>304</sup> . Gnostic chapters, ch. 34

<sup>305</sup> . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 111, 15

أن نفقد عقلنا عندما ننسى الهدف من الدموع ونفتخر: "ينسى العديد من الناس الذين ينفرون الدموع لأي شيء تكون الدموع، ويضلون بالتالي في حماقتهم"<sup>٣٦</sup>.

توجد أنواع عديدة من الدموع مثل الدموع العاطفية، ودموع التمرکز حول الذات، ودموع الشيطان، ودموع الله وما إلى ذلك. ولكن يجب علينا أن نجاهد لكي نحول تلك الدموع العاطفية أيضاً. نحن أبناء الكنيسة على البكاء حتى ولو كان يوجد فيه عنصر التمرکز حول الذات وبعد ذلك نستطيع أن نتحول ونجد الخلاص من خلال لوم النفس ومن خلال تحويل إنتباهنا نحو ذواتنا ونحو خطايانا، بالكف عن الأحاديث مع الآخرين وبالحدیث مع الله ناظرين إلى بؤسنا الشخصي.

إنني أؤمن أن الوضع الرهيب الذي يوجد فيه العديد من الناس يكون بسبب حقيقة أننا أصبحنا غرباء عن الدموع، فنحن لا نبكي. وبالتالي عندما نتثقل بأعمال عديدة، وعندما تصبح أعصابنا متوترة، وعندما يكون مناخنا الداخلي في حالة رثة، يجب علينا عندئذ أن نحاول أن نبكي بفكر من لوم النفس. لو حاولنا فسيرسل الله نعمته وسوف تصبح الدموع طريقة حياة وبالتالي سيتنقى قلبنا من الشهوات.

التوبة والحزن والإنسحاق والدموع ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالنار التي تتولد في القلب. التوبة تحصل بمعونة من النار التي يضرمها الروح القدس في قلب الإنسان. يتحدث الرب عن هذه النار التي يضرمها في القلب قائلاً: "جئت لألقي ناراً على الأرض فماذا أريد لو اضطرمت" (لو ١٢: ٤٩). وإذا يقترب المسيح من القلب يشتعل القلب بالنيران بسبب وجود الشهوات كما سنحلله فيما يلي. هذا هو الإلتهاب الذي شعر به التلميذان أثناء رحلتهم نحو عمواس: "ألم يكن قلبنا ملتهباً فينا إذ كان يكلمنا في الطريق ويوضح لنا الكتب" (لو ٢٤: ٣٣).

هذه النار التي تحرق شهوات القلب يشعر بها الإنسان كأنها نور. عندما إختبر بولس الرسول ذلك كتب قائلاً: "حتى يأتي الرب الذي سينير خفايا الظلام ويظهر آراء القلوب" (١كو ٥: ٥). ويعبر بطرس الرسول عن خبرته الشخصية عندما يكتب قائلاً: "إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم" (٢بط ١: ١٩). يختبر القلب نعمة الله أولاً كنار حارقة للخطية والشهوات ثم عندما تحترق الشهوات بعيداً فإنه يختبر نعمة الله كنور ينير إنساننا الداخلي بجملمته.

هذا التعليم عن أننا نختبر نعمة الله كنار أولاً ثم كنور يحلله القديس يوحنا الدرجي. إنه يقول أنه عندما تأتي النار السماوية لتحل في القلب، فإنها تحرق البعض بسبب أنهم مازال ينقصهم النقاوة، بينما تثير البعض الآخر "بحسب درجة كمالهم". هذا الشيء نفسه يُسمى "كلاً من النار التي تلتهم والنور الذي ينير". هذا هو السبب الذي يجعل البعض يخرجون من صلواتهم كما لو كانوا خارجين من فرن مشتعل، ويشعرون بالشفاء من الدنس، على حين يشعر آخرون عندما تنتهي الصلاة وكأنهم يبرزون متألقين بالنور ولا يسين ثوب الإلتضاع والفرح<sup>٣٠٧</sup>.

عادة ما يتلقى الجسد أيضاً هذه النار التي يتلقاها قلب الإنسان. وهكذا يظن الإنسان كأنه في الجحيم ويصطلي بنيران الجحيم. وهذا مهم ويؤول للخلاص. وهذا أمر هام وصحي. لأن توبة مثل هذه تشفي النفس. ونحن نعلم جيداً أنه كلما عظمت التوبة كلما صار الشفاء أكثر فاعلية. وأيضاً كلما إختبرت نار التوبة كلما توفرت متطلبات رؤية الله الغير مخلوق.

وبحسب بولس الرسول فإن الله نار آكلة (عب ١٢: ٢٩). يقول القديس يوحنا الدرجي أن كل عملنا يستمر حتى تدخل نار الله إلى قدسنا الذي هو القلب. والله كنار آكلة يبيد "كل الشهوات، وكل مثيرات الشهوة، وكل الميول، وكل قساوة قلب في الداخل وفي الخارج، ما هو مرئي وما هو روحي"<sup>٣٠٨</sup>.

التوبة هي عمل ولحظة النعمة ولكننا لا بد أن نساعد التوبة الحقيقية على الجئي، أي أن نساعد نار الله لتأتي في قلوبنا. بالإضافة إلى ذلك فإن كل الحياة النسكية هي تعاون وتوافق بين الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية. يَعْلَمُ الآبَاءُ أَنَّنَا نَغْتَسِلُ مِنَ الشَّهَوَاتِ "إِذَا مِنْ خِلَالِ الأَلَمِ الإِرَادِيِّ أَوْ مِنْ خِلَالِ الحَنِّ اللّائِرَادِيَّةِ". الألم الإراي هو الحزن المقدس، والتوبة، والإحساس بنار التوبة. الحَنُّ اللّائِرَادِيَّةِ هِيَ تَحَارِبُ حَيَاتِنَا الْمُتَعَلِّقَةِ. "عندما تأتي الإرادية أولاً لا تتبعها اللاإرادية"<sup>٣٠٩</sup>. من أجل ذلك يجب أن نجاهد باستمرار لنجعل التوبة والنار الإلهية تتولد في داخلنا، حتى ننجو من الحن اللاإرادية. لا بد أن نحافظ في قلوبنا على نار التوبة والإحترار الذي ينتج عنها. يخاف الشيطان من راهب يعيش في الحزن ولا يجرؤ على الإقتراب منه. وبالتالي فإن الراهب المؤمن واليقظ هو الذي "حافظ على نار دعوته غير منطفئة، والذي يضيف كل يوم ناراً على نار وحاسة على حماسة وغيره على غيره"<sup>٣١٠</sup>.

<sup>307</sup> . Ladder. Step 28. CWS p. 280

<sup>308</sup> . Ibid. Step 26. CWS p. 230

<sup>309</sup> . Nicetas stethatos. Natural chapters, ch. 9

<sup>310</sup> . Ladder. Step 1. CWS p. 80

تولد الصلاة القلبية في قلب ذاك الذي يمتلك هذه النار. من أجل ذلك فإن أحد متطلبات صلاتنا هي أن تأتي هذه الصلاة لكي تحرق الخطايا والشهوات من جهة ولكي تعطينا الصلاة النقية من جهة أخرى: "عندما تأتي النار لتقيم في القلب فإنها تُنهض الصلاة" وكنتيجة لذلك تنزل نار الروح القدس في نفسنا<sup>311</sup>. من أجل ذلك فإن الأمر واضح: "لا تكف عن الصلاة طالما بنعمة الله لن تنطفئ نار الحماسة وماء الدموع"<sup>312</sup>.

هذه النار المباركة المضطربة في قلوبنا بواسطة مجي النعمة المتآزرة مع التوبة والدموع هي التي تجلب الميلاد الثاني الروحي لنا. وبمساعدة هذه النار يتحول كل كيانه الداخلي وتتغير أيضاً العديد من تعبيرات جسدنا. يكتب القديس ثيوفان الناسك قائلاً: "منذ اللحظة التي يبدأ فيها قلبك بالإشتعال بالحرارة الداخلية يبدأ تحولك الداخلي. هذه الشعلة البسيطة سوف تلتهم وتذيب كل شيء داخلك مع الوقت، وسوف تبدأ وتكمل في جعل كيائك روحياً حتى الملاء. وفي الواقع حتى تبدأ هذه الشعلة في أن تحرق سوف لا يكون هناك أية روحانية على الرغم من كل جهاداتك لكي تحصل عليها. وبالتالي فإن توليد شرارتها الأولى هي كل ما يهم في هذه اللحظة، وتأكد من أنك توجه كل مجهوداتك نحو هذه الغاية. لكن يجب عليك أن تدرك أن هذا الإشتعال لا يمكن أن يحدث داخلك بينما لا تزال الشهوات قوية وعنيفة حتى لو كانت غير مُشبعة في الواقع. الشهوات هي الرطوبة التي توجد في وقود كيائك والخشب الرطب لا يشتعل. لا يوجد شيء آخر نفعله سوى أن نجلب داخلنا الخشب الجاف من الخارج ونشعله بحيث نسمح للهب الصادر منه أن يجفف الخشب الرطب، حتى يحف هذا بدوره بدرجة كافية لكي يبدأ في إلتقاط الشعلة ببطء. وهكذا سوف يبدأ إشتعال الخشب الجاف في تشتيت الرطوبة قليلاً قليلاً وسوف ينتشر حتى يشتعل كل الخشب.

"إن كل قوى النفس ونشاطات الجسد هي وقود كيانه، ولكن طالما أن الإنسان لا يلتفت إلى ذاته فإن كل هذه تتشبع برطوبة شهواته وتصبح غير فعالة. وحتى تطرد الشهوات خارجاً فإنها تقاوم النار الروحية بشنة. تتغلغل الشهوات داخل كل من النفس والجسد وتتغلب حتى على روح الإنسان ذاتها، وعلى وعيه وحرته. وبهذه الطريقة تسود عليه كلية. وإذ أن الشهوات تتحالف مع الشياطين، فإن الشياطين أيضاً تسود على الإنسان من خلالها، على الرغم من أنه يظن خطأ أنه سيد نفسه. وإذا تولد الروح من

<sup>311</sup> . Ibid. Step 28. CWS p. 279

<sup>312</sup> . Ibid.

نعمة الله، تكون هي أول من تنتزع ذاتها من هذه القيود. وإذا تمتلئ الروح من مخافة الله تحت تأثير النعمة، فإنها تكسر كل رابطة مع الشهوة، وإذا تتوب عن الماضي فإنها تصر من الآن فصاعداً على أن ترضي الله وحده في كل شيء، وعلى أن تحيا لأجله فقط، وعلى أن تسير بحسب وصاياه"<sup>313</sup>.

يكتب القديس ثيوفان عن هذه النار المقدسة: "بحسب القديس برصنوفوس فإننا عندما نتلقى في قلبنا النار التي أتى الرب لكي يلقبها على الأرض، فإن كل قوانا الإنسانية تبدأ في الإحترق داخلنا. عندما تشتعل النار بالإحتكاك المستمر وتبدأ الأخشاب في الإحترق بها فإنها إذ تضطرم سوف تبدأ في الطقطقة وإصدار الدخان حتى تشتعل جيداً. ولكن عندما تشتعل جيداً فإنها تبدو مختزقةً بالنار وتحدث نوراً مبهجاً ودفئاً بلا دخان ولا طقطقة. هذا ما يحدث داخل البشر.

إنهم يتلقون النار ويبدأون في الإشتعال ولا يستطيع أحد أن يعلم كمية الدخان والطقطقة الموجودة إلا أولئك الذين إختبروها. ولكن عندما تشتعل النار جيداً يكف الدخان والطقطقة ولا يسود في الداخل سوى النور.

هذه الحالة هي حالة نقاوة، والطريق إليها طويل، ولكن الله هو الأكثر رحمة والأكثر قوة. من أجل ذلك فإنه أمر واضح أنه عندما يتلقى شخص ما نار الشركة الواعية مع الله فإن ما ينتظره ليس سلاماً بل جهاداً عظيماً. ولكن منذ ذلك الحين فصاعداً سوف يجد الجهاد حلواً ومملوءاً بالثمر، على حين أن العمل كان قبلاً مرّاً ويحمل ثمراً قليلاً أو يكون بلا ثمر"<sup>314</sup>.

وكلما تحرق النار المباركة الشهوات، كلما يجتبرها الشخص كنور يضيء القلب. يُعلم هيزيخيوس القس أنه مثلما ينظر الشخص إلى الشمس ولا يستطيع إلا أن يملأ عينيه من النور، "هكذا فإن النبي يتطلع دائماً ويقصد داخل قلبه لا يمكن أن يفشل في أن يستنير"<sup>315</sup>. إن القلب الذي لا يتلقى صوراً وأشكالاً وخيالات الأرواح الشريرة يتأقلم بالطبيعة لكي يلد من داخله "أفكاراً ممتلئة نوراً"، فالفهم يحدث ناراً. وأكثر من ذلك فإن الله الذي يقيم في قلوبنا منذ معموديتنا "سوف يلهب عقلنا لكي يتأمل" إذا وجد خالياً من رباح الشر ومحروساً بحفظ العقل"<sup>316</sup>. إن القلب المفرغ من الخيالات "يلد صوراً عقلية

<sup>313</sup> . The Art of Prayer. P. 204f

<sup>314</sup> . Ibid. p. 156

<sup>315</sup> . Philok. 1, p. 180, 108

<sup>316</sup> . Ibid. 104

إلهية سرية تتجول داخله"<sup>٣٧</sup>. والقلب يصبح أداة للروح القدس ويكتسب معرفة الله. وكل أفكار وأعمال وخیالات الشخص الذي تخلص من الشهوات تكون لاهوتية. والإنسان بجملته يزداد معرفة للاهوت ويتدفق كلام اللاهوت من الكلمة والصمت، والفعل والسكون. وتسقط شمس البر في القلب النقي الذي هو "سما القلب" و"مكان الله"<sup>٣٨</sup>.

لقد تكلمنا من قبل عن النار التي تأتي إلى داخل القلب، الذي هو "قُدس الله". يولد وجود النار إحتراراً في القلب والجسد. وأحد طاقات النار هي الإحترار. يعبر القديس دياдохوس عن هذا الإحترار الذي يُخلَق في القلب، ويقول أنه عندما تكتسب النفس معرفة ذاتها فإنه ينبع منها شعور مهمين بالإحترار نحو الله. يستنزف هذا الإحترار بسهولة. ولكن الإحترار المتولد من الروح القدس يهب سلاماً ويدوم. إنه لا يتشتت خارج القلب ولكنه من خلال القلب يجعل "الإنسان بكليته يتمتع بحب بلا حدود". الإحترار الأول هو إحترار طبيعي، على حين أن الثاني يكون روحياً"<sup>٣٩</sup>. إن الإحترار الذي يتدفق مثل النبع يركز على قلب الإنسان بحيث تأتي الصلاة النقية داخله. يجب على الذي يمارس هذا التدريب الروحي أن يعلم أن الإحترار الروحي لا يأتي لا من اليمين ولا من الشمال ولا من فوق، ولكنه "ينبع في القلب مثل نبع ماء من الروح القدس المعطي الحياة". إنه موجود بالقلب. "هذه الصلاة هي وحدها التي يجب عليك أن تشتهي أن تجدها وتفتنيها في القلب تلك التي تحافظ على عقلك باستمرار خالياً من الخيالات ومتجرداً من الصور العقلية والأفكار"<sup>٤٠</sup>. إن مجي هذا الإحترار داخل قلبنا مهم لأن قُوى النفس سوف تتركز بهذه الطريقة هناك وستصبح صلاة غير مشتتة. يعلم القديس ثيوفان الناسك قائلاً: "هذه النار هي من عمل نعمة الله، وهي ليست نعمة خاصة ولكنها مشتركة للجميع. إنها تظهر عندما يصل شخص ما لمستوى معين من النقاوة في نظام حياته الأخلاقي العام. وعندما يضطرم هذا اللهب الصغير، أو عندما يتكون إحترار دائم في القلب، تسكن خيرة الأفكار. إن ما يحدث في النفس هو نفس ما حدث مع المرأة نازفة الدم: "وقف نرف دمها" (لو٨: ٤٤). في هذه الحالة تقترب الصلاة من الديمومة، وتكون صلاة يسوع وسيطاً لتحقيق ذلك. هذا هو الحد الذي تستطيع الصلاة المقدمة من الإنسان ذاته أن ترتفع إليه. أظن أن ذلك واضح لك جداً.

<sup>317</sup> . Ibid. p. 190, 156

<sup>318</sup> . Philotheos of Sinai. Philok. 3, p. 17, 4

<sup>319</sup> . St. Diadochos. Philok. 1, p. 278, 74

<sup>320</sup> . st. Gregory of Sinai. Gk. Philok. 4, p. 86ff



"بالإضافة إلى ذلك فمن الممكن أن يُمنح نوع آخر من الصلاة في هذه الحالة، والتي تأتي للإنسان بالنعمة بدلاً من أن تكون مقدمة منه. يحل روح الصلاة على الإنسان ويقوده إلى أعماق القلب، كما لو كان مأخوذاً بيده ومقاداً بالقوة من حجرة إلى أخرى. تكون النفس هنا مأسورة بقوة كاسحة، وتبقى بالداخل بإرادتها طالما أن قوة الصلاة الكاسحة هذه لا تزال تمتلك نفوذاً عليها. أنا أعرف درجتين من هذا الاكتساح. ففي النوع الأول ترى النفس كل شيء وتكون واعية لذاتها وللوسط الخارجي. إنها تستطيع أن تفكر وتحكم ذاتها. بل وتستطيع حتى أن تفسد هذه الحالة لو أرادت ذلك. يجب أن يكون هذا أيضاً واضحاً لك.

"ولكن الآباء القديسين وخصوصاً القديس إسحق السرياني يذكرون درجة ثانية للصلاة تمنح للإنسان أو تحل عليه. يعتبر القديس إسحق أن هذه الصلاة التي يسميها دَهْشاً أو نَشْوة أعلى من تلك الموصوفة أعلاه".<sup>321</sup>

وكما أشار القديس ديادوخوس سابقاً أنه من الممكن أن يشعل المرء إحتراراً طبيعياً. وهذا يعني أنه يوجد نوعان من الإحترار: طبيعي، وفائق للطبيعة. يكتب القديس ثيوفان الناسك ثانية عن هذا الموضوع وعن آثار الإحترار الفائق للطبيعة قائلاً: "إن الإحترار الحقيقي هو عطية إلهية، ولكن يوجد أيضاً إحترار طبيعي الذي هو ثمرة مجهوداتنا الخاصة وحالاتنا العابرة. والإثنان يبعدان عن بعضهما البعض كبعد السماء عن الأرض. ولا يكون واضحاً في المراحل المبكرة أي نوع من الإحترار تقتني ولكن ذلك سيظهر فيما بعد. إنك تقول أن أفكارك تحرك خارجاً وأنها لا تدعك تقف أمام الله بثبات. هذه علامة على أن إحترارك لا يأتي من الله ولكن من ذاتك.

"أول ثمرة للإحترار الإلهي هو تجميع الأفكار إلى واحد، وتركيزها الدائم على الله. تأمل في المرأة نازفة الدم التي جف ينبوع دماها فجأة. بنفس الطريقة عندما تتلقى إحتراراً من الله يتوقف سبيل الأفكار. ما هو الضروري إذا؟ حافظ على إحترارك الطبيعي ولكن لا تعطيه أية قيمة وإعتبره مجرد نوع من الإعداد للإحترار الإلهي. وبعد ذلك إذ تحزن على ضعف صدى الإحترار الإلهي في قلبك صلي له بلا إنقطاع وبألم قائلاً: "إرحمني. لا تحجب وجهك عني! فليشرق وجهك علي!". وبالإضافة إلى ذلك زد من حرمان جسدك من الطعام والنوم والعمل وما إلى ذلك، وضَع كل شيء بين يدي الله".<sup>322</sup>

<sup>321</sup> . The art of Prayer. P. 65f

<sup>322</sup> . Ibid. p. 159

بالإضافة إلى ذلك لابد أن نشير إلى أنه مثلما هو الحال في العديد من المسائل الأخرى، فإن الشيطان يكون هنا أيضاً قادراً على أن يجلب إحتراراً في القلب لكي يشتت إنتباهنا بعيداً عن الله. عندما يشتت الإحترار المضطرم إنتباهنا بعيداً عن الله وتكف الصلاة عن أن تكون نقية، بحيث يميل المرء لأن يكون مُثاراً، فإن هذه تكون علامة على كون هذا الإحترار شيطانياً. إن المجاهد الروحي الحكيم والصالح لا يعجب بذاته ولا يدع عقله يهرب من الإحساس بالخطية، ومن إختبار التوبة، ومن تذكر الله بلا ملل بإتضاع عميق.

على أية حال فإن إحترار القلب ينتقل إلى الجسد أيضاً. ويعارض القديس غريغوريوس بالاماس إدعاء برلعام بأن الجسد لا يشترك في الصلاة ويقول أن هذا ليس تعليماً أبائياً أرثوذكسياً. ليست النفس فقط هي التي تتلقى عربوناً للصلوات المزمعة، ولكن الجسد أيضاً بالمثل<sup>333</sup>. الميلاد الثاني للنفس يتضمن الميلاد الثاني للجسد. الحزن لا ينتهي عند النفس، ولكنه "ينتقل من النفس للجسد وللحواس الجسدية"<sup>334</sup>. نعمة الله الموجودة في النفس تنتقل أيضاً إلى الجسد. يستخدم القديس غريغوريوس كدليل من الكتاب المقدس حالة موسى الذي أشرق وجهه وكذلك إستفانوس الذي صار وجهه كوجه ملاك<sup>335</sup>. يحدث ذلك أيضاً مع الإحترار إذ ينتقل إحترار الروح إلى الجسد. عندما يضاء المصباح العقلي أثناء الصلاة الدائمة وعندما يرفع العقل الحب في لهب طويل من خلال الشئوريا الروحية، فعندئذ "يرتفع الجسد أيضاً ويحترق بطريقة غريبة ويبدو لناظره كما لو كان خارجاً من نار فرن مرثي"<sup>336</sup>. وبالمثل فإن حلاوة المسيح هي أيضاً علامة على الإحترار المحسوس عقلياً والذي "إذ يستمر في التضرع لله يستطيع أن ينتقل إلى الجسد"<sup>337</sup>.

هذا الإحترار يكون ضرورياً للحياة الروحية لدرجة أن القديس يوحنا الدرجي يقر بأنه لو فقدنا هذه الغيرة المباركة والمحبة يجب علينا أن نبحث عن السبب بعناية ونجعل أنفسنا "تحصن نفسها بكل غيرتها وإشتياقها" لكي تستعيد ثابته<sup>338</sup>.

يظهر أيضاً حضور النعمة في القلب بحدوث قفزة قلبية. يقول القديس غريغوريوس بالاماس مع القديس باسيليوس الكبير والقديس أنثاسيوس الكبير أن قفزة القلب هي

<sup>323</sup> . Triads, 1, 3, 33

<sup>324</sup> . Ibid.

<sup>325</sup> . Triads, 1, 3, 31

<sup>326</sup> . Triads, 1, 3, 32

<sup>327</sup> . Ibid.

<sup>328</sup> . Ladder. Step 1. CWS p. 76

علامة على النعمة: يقفز القلب "في غيرة محبة الخير"<sup>٣٢٩</sup>. ويقول في موضع آخر أنه عندما تقفز النفس حباً للوحيد المُشتهى، فإن "القلب أيضاً يتحرك، مشيراً بقفزاته الروحية إلى أنه في شركة مع النعمة، كما لو كان مستعجلاً لكي يلتقي بالرب عندما يأتي بجسده على السحاب بحسب الوعد"<sup>٣٣٠</sup>. وهكذا يصبح القلب مستعداً الآن ليستقبل الملك السماوي.

بهذه الوسائل يتنقى القلب ويُشفى من قذارة الخطية الموجودة. وتتحول الشهوات وبدلاً من أن تخدم الشيطان وأعمال الخطية الخاصة به، تخدم الله. وهكذا يتنقى القلب ويستعد لأن يرى الله. سوف نتأمل فيما يلي في تنقية القلب هذه والنتائج التي تقدمها للإنسان.

قال الرب: "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (مت ٥: ٨). يبحث القديس يعقوب أخو الرب قائلاً: "طهروا قلوبكم يا ذوى الرايين" (يع ٤: ٨) ويأمر بطرس الرسول قائلاً: "أحبوا بعضكم بعضاً من قلب طاهر بشلة"<sup>٣٣١</sup> (١ بط ٢: ٢٢).

القلب النقي يعاين الله و"الكنوز الموجودة فيه"<sup>٣٣٢</sup> إنه يرى الله الذي هو "الكمال الأعلى لكل البركات"<sup>٣٣٣</sup>. إن العهد القديم هو أيقونة للنسك الجسدي الخارجي، على حين أن الإنجيل أو العهد الجديد هو أيقونة لنقاوة القلب. فالصوم، وضبط النفس، والنوم على الأرض، والوقوف، والسهر، وكل الممارسات النسكية الجسدية الأخرى حسنة لأنها تحفظ الجزء الحسي من الجسد من ارتكاب أعمال الخطية. إنها تهذيب لإنساننا الخارجي وحارس ضد الشهوات النشطة. وفي نفس الوقت فهي تقي ضد خطايا الفكر. ولكن "نقاوة القلب أو سهر وحفظ العقل التي صورتها هي العهد الجديد، سوف لا تبحث فقط كل الشهوات والشور من قلبنا، ولكنها سوف تُدخل أيضاً الفرح، والرجاء، والتبكي، والحزن، والدموع، والمعرفة بذواتنا، والمعرفة بخطايانا، وتذكر الموت، والإلتضاع الحقيقي، وحب الله والإنسان الغير محدود، والإشتياق القلبي الشديد للإلهيات"<sup>٣٣٤</sup>.

يعطي الآباء القديسون إنذاراً كبيراً لنقاوة القلب الداخلية دون أن يغفلوا الممارسات النسكية الخارجية التي هي مُهذبة على أية حال. الممارسات النسكية الخارجية تُعدُّ أرضية للجهاد الداخلي. ولكن لو بقي شخص ما في الممارسات النسكية الخارجية ولم يتجه نحو الداخلي بنفس المقدار، فإنه يعيش في زمن العهد القديم. يشتمل الجهاد لتنقية

<sup>329</sup> . Triads, 1, 3, 2

<sup>330</sup> . Ibid. 1, 3, 32

<sup>331</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 109, 72

<sup>332</sup> . Ibid. p. 158, 80

<sup>333</sup> . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 181, 112f

القلب على تبديد غيوم الشر من أهواء القلب بحيث نستطيع أن نرى شمس البر الذي هو المسيح "وبحيث تستطيع عناصر جلاله أن تسطع إلى حد ما في العقل"<sup>334</sup>.

ولكن ما هو القلب النقي؟ ما هو نوع القلب النقي؟ يصف القديس سمعان اللاهوتي الحديد القلب النقي ويقول أن القلب النقي هو الذي لا يضطرب بالشهوة، وهو أيضاً الذي يتجنب أي ميل للعقل لأي شيء شرير أو نجس وهو الذي يحتوي داخله على شيء واحد فقط وهو تذكر الله بحب لا يمكن إخماده<sup>335</sup>. القلب النقي هو الذي يستولي عليه الفرح الغامر "ويتطلع إلى عربون الخيرات التي وعد بها الله القديسين وإلى تلك الخيرات الأبدية بمقدار ما تستطيع الطبيعة البشرية...."<sup>336</sup>. يتكلم آباء آخرون أيضاً عن القلب النقي. فالقلب النقي هو الذي ليس لديه إندفاع طبيعي نحو أي شيء، والذي فيه يكتب الله نواميسه كما على لوح<sup>337</sup>. القلب النقي هو الذي لا يسمح لأي فكر شرير بأن يدخل النفس<sup>338</sup>. القلب النقي هو ذاك الذي يدين نفسه على نبذ وصية الله أو على إهمال أو على قبول فكر عداوة<sup>339</sup>. يكون الشخص نقي القلب عندما يجاهد لكي لا يحكم على الزاني أو الخاطئة أو الخارجين على القانون، ولكنه يتطلع إليهم جميعاً بعين نقية: "إنه لا يحتقر ولا يدين ولا يمقت أحد أبداً ولا يصنّف الناس إلى درجات"<sup>340</sup>. يؤكد القديس مقاريوس على ما يعنى القلب النقي قائلاً: "لو رأيت شخصاً ما ليس له إلا عين واحدة فلا تصنع أى حكم في قلبك، بل أنظر إليه كما لو كان صحيح البدن. ولو كان هناك أحد مبتور اليد فلا تنظر إليه كمبتور بل أنظر للمُعاق كأنه مستقيم وللمشلول كأنه سليم"<sup>341</sup>.

كيف يستطيع المرء أن يكتسب نقاوة القلب والتي تعني شفاؤه من الشهوات بحق؟ إذ يحلل القديس غريغوريوس بالاماس التعليم اللاهوتي القائل بأن طاقة النفس تكون في أفكارها، وأن جوهرها يكون في القلب، يقول أن طاقة العقل في الأفكار تتنقى بسهولة بصلاة الكلمة الواحدة. ولكن لا يظن أحد في هذه الحالة أنه تنقى تماماً ما لم تنقى كل قوى النفس الأخرى وما لم يتنقى أيضاً جوهر العقل الموجود في القلب. إنه يكون موهوماً

<sup>334</sup> Philotheos of Sinai. Philok. 3, p. 18, 8

<sup>335</sup> Practical and theological chapters, ch. 3, CS 41, p. 81, 32

<sup>336</sup> Ibid. p. 81f, 35

<sup>337</sup> St. Maximus. Philok. 2, p. 159, 81

<sup>338</sup> Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 196, 193

<sup>339</sup> St. Theodoros, Gk. Philok. 1, p. 171, 193

<sup>340</sup> St. Macarius. CWS p. 111. Hom. 15, 8

<sup>341</sup> Ibid.

لو فُكِّرَ هكذا. عندما يرى شخص ما نجاسة قلبه يجب عليه أن يستعمل كل القوى الأخرى في الصلاة. إنه يطهر الجزء النشط بالممارسة، والجزء المعرفي بالمعرفة، والجزء المتأمل بالصلاة وهكذا يصل من خلالها إلى "نقاوة القلب والعقل الحقيقية الكاملة التي لا يحصل عليها أحد إلا من خلال الكمال في الأفعال، والندم المستمر، والثبوتية، (رؤية الله) والصلاة في حالة ثبوتية"<sup>٣٤٢</sup>. يقول القديس سمعان اللاهوتي الجديد أن نقاوة القلب لا تتحقق بواسطة وصية واحدة فقط ولكن من خلال كل الوصايا. ولا يمكن تنقية القلب بدون عمل الروح القدس. وقاماً مثلما يستعمل الحداد أدواته والنار كذلك لأنه لا يستطيع أن يصنع أي شيء بدونها "هكذا بالمثل يستطيع شخص ما أن يفعل كل شيء باستعمال أدوات الفضائل ولكنها لن تنظف القذارة والفساد من النفس. إنها ستكون ضعيفة وبلا فائدة بدون وجود نار الروح القدس"<sup>٣٤٣</sup>.

يؤكد الأب بيمن بالأخص على عمل كلمة الله. ومثل الماء الذي يقطر قليلاً قليلاً على صخرة، هكذا تكون كلمة الله لينة على حين يكون القلب قاسياً. "عندما يسمع شخص ما كلمة الله باستمرار ينفتح قلبه لمخافة الله"<sup>٣٤٤</sup>.

يؤكد الآباء القديسون على قوة الصلاة وخصوصاً صلاة الكلمة الواحدة أي "صلاة يسوع". يتنقى الإنسان من خلال هذه الصلاة بمعاونة الروح القدس. يقول هيزنجيوس القس أنه من المستحيل علينا أن نطهر قلوبنا وأن نُخرج منها أفكار الشهوة والأعداء الروحيين "بدون التضرع المستمر ليسوع المسيح"<sup>٣٤٥</sup>. يولد التضرع لإسم يسوع فرحاً وهُدوءاً في القلب. "ولكنه يسوع المسيح ابن الله والذي هو الله ذاته علة وخالق كل البركات الذي ينقي القلب بالتمام"<sup>٣٤٦</sup>.

يؤكد الآباء على قيمة الصلاة في تحويل الشهوات وتنقية القلب<sup>٣٤٧</sup>. يقول القديس غريغوريوس السينائي أنه توجد طريقتان للصلاة الداخلية والاتحاد "أو بالأحرى مدخلان، واحد من كل جانب من جوانب الصلاة العقلية التي تنشط في القلب بواسطة الروح". وهذا يعني أنه يوجد طريقتان للصلاة العقلية واتحاد العقل والقلب. يكون الواحد عندما

<sup>342</sup> . WF, p. 410f

<sup>343</sup> . CS 41, p. 80. 3, 29

<sup>344</sup> . Sayings. P. 162, 183

<sup>345</sup> . Philok. 1. p. 166, 28

<sup>346</sup> . Ibid. p. 177f, 91

<sup>347</sup> . See Hesychios Ibid. p. 192, 170; p. 172, 62; p. 195, 184. Callistus and Ignatius, Writings p. 243, 75

تتولد الطاقة في القلب وتقل الشهوات من خلال التضرع المستمر لإسم المسيح ومن خلال الحرارة المتولدة، أما الطريق الثاني فيكون عندما " تجذب الروح العقل لنفسها وتقيله في أعماق القلب، مُحددة حركاته المعتادة"<sup>٣٤٨</sup>. على أية حال فإنها حقيقة أنه عندما ينتقى القلب، فإنه تستمر فيه دائماً ليتورجية إلهية، وتُنشد التسابيح لله. ويمكن تطبيق ما أكد عليه بولس الرسول هنا: "مكلمين بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية مترنمين ومترنلين في قلوبكم للرب" (أف: ٥: ١٩). هذه الصلاة هي الأكثر قبولاً عند الله.

ومن البديهي أنه عندما ينتقى قلب شخص ما، فإنه يجب عليه ألا يفتخر بذلك، لأنه لا توجد خليقة أنقى من الملائكة الغير جسدية. ومع ذلك حينما رفع يوسفوروس ذاته، تحول إلى الشيطان وأصبح نجساً: "لقد حسب الله تفلخره نجاسة"<sup>٣٤٩</sup>. وهكذا فإن نقاوة القلب هي أمر حساس جداً وهي تتحقق بمجهود كبير وبصورة أساسية بواسطة معونة الله وطاقته. ويكون القلب النجس أعمى حتى ولو كانت النجاسة من أفكار الكبرياء. ونتائج نجاسة القلب متعددة وسوف نشير فقط إلى بعضها.

إن الذي يجاهد لكي يحفظ قلبه طاهراً يكون المسيح ذاته، مُشرع القلوب، كمعلم له والذي يشركه سراً في إرادته<sup>٣٥٠</sup>.

يختبر القلب النقي ما يسمى سكون القلب<sup>٣٥١</sup>. إنه يعيش في سلام الله: "وليملك في قلوبكم سلام الله" (كو: ٣: ١٥). كما أنه يتغلب على الجبن: "لو أن شخص ما حقق نقاوة القلب فإنه يكون قد تغلب على الجبن"<sup>٣٥٢</sup>. إنه لا يخاف شيئاً ولا حتى الموت لأن الخوف من الموت هو نتيجة لنجاسة القلب. وهو يتحرر من الأفكار والكلمات والأعمال الشيطانية<sup>٣٥٣</sup>. وهو يقتني صمت القلب الداخلي والسكون الخالي من كل الأفكار<sup>٣٥٤</sup>. فيصبح قلبه "مُتقبلاً تماماً للروح القدس" ويعكس صورة الله بوضوح<sup>٣٥٥</sup>. إنه يطرد إحتقان الأعضاء الذي تخلقه الإهتمامات الجسدية، ويفتح ذاته، وهذا هو الرجاء بالله. "يشير إتساع القلب إلى الرجاء بالله على حين يشير إحتقان الأعضاء إلى الإهتمام الجسداني"<sup>٣٥٦</sup>.

<sup>348</sup> . Philok. 4 in Gk. , 15 Chapters, ch. 1, p. 71, 1

<sup>349</sup> . Philotheos of Sinai. Philok. 3, p. 19, 11

<sup>350</sup> . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 195, 186

<sup>351</sup> . Ibid. p. 179, 100

<sup>352</sup> . St. symeon the New Theologian. CS 41, p. 51. 1, 67

<sup>353</sup> . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 183, 122

<sup>354</sup> . Ibid. p. 179, 100

<sup>355</sup> . Abba Philemon. Philok. 2, p. 354

<sup>356</sup> . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 134, 114

"إن الذي يرى في قلبه زرعاً جيداً وغير مائت يقتنى وجهاً مبتهجاً ومشرقاً. لسانه يترنم بتراتيل وصلوات، ويكون لطيفاً جداً في الحديث"<sup>٣٥٧</sup>. إن القلب النقي الذي تخلص من الخيال لا يخطئ: "من المستحيل على الخطية أن تدخل القلب بدون أن تطرق أولاً على قلبه في صورة خيال يثيره الشيطان"<sup>٣٥٨</sup>.

إن نقاوة القلب هي شفاء القلب، وهذا ما يبدو من خلال رؤية النتائج التي قدمناها من قبل. حيث يُستبعد المرض الذي هو الشهوات ويصبح القلب في حالة جيدة. ولكن ينصح الآباء أن الإنبه والحراسة من جانبنا قبل وأثناء وبعد التنقية هي أمر هام. فيجب أن يكون هناك سهر وحفظ للقلب مستمر. ويجب علينا أن نكون منتبهين لقلبنا لأنه لو جُرح، يذبل كل الجسد، مثلما يحدث عندما يصاب قلب النبات فيذبل بكليته<sup>٣٥٩</sup>.

يحدثنا أشعياء المتوحد على أن نفحص ذواتنا كل يوم وأن نفهم قلبنا وأن نطرد كل ما هو شرير خارجاً: "إفحص نفسك كل يوم في حضرة الله، يا أخي، واكتشف أي الأهواء موجود في قلبك وأطرده خارجاً فتهرب بذلك من دينونة الله. كن منتبهاً لقلبك يا أخي وراقب أعداءك لأنهم بارعون في الخبث"<sup>٣٦٠</sup>. يكون هذا الإنبه ضرورياً حتى حينما يكون الشخص مازال خاطئاً جداً. لأنه عندما يترك الخطية ويعود لله "تجده توبته كلية"<sup>٣٦١</sup>. "يتكلم الكتاب المقدس في العهد القديم والجديد في كل موضع عن حفظ القلب"<sup>٣٦٢</sup> ويورد نصوص مثل هذه: "إن ذاك الذي يقيم باستمرار داخل قلبه الخاص يُنتزع من مغريات هذا العالم لأنه يعيش في الروح القدس ولا يستطيع أن يعرف شهوات الجسد"<sup>٣٦٣</sup>. بعد أن نحاول أن نحافظ على عقلنا نقياً وأن نطرد بعيداً الأفكار والخيالات الشريرة يجب علينا أن نضبط لساننا وبطننا لكي نحافظ على قلبنا نقياً. لأن الثمرة والنهم هما الأشياء التي تدنس العقل ثم بعد ذلك تدنس القلب أيضاً طالما أن العقل هو الذي يمد القلب بالغذاء. "سأل أخ الأنبا تيثوس Tithoes كيف يمكن أن أحفظ قلبي فأجابته الرجل الشيخ قائلاً: كيف نستطيع أن نحفظ قلوبنا عندما تكون أفواهنا ومعدتنا مفتوحة؟"<sup>٣٦٤</sup>.

<sup>357</sup> . Nicetas Stethatos. Practical chapters, ch. 33

<sup>358</sup> . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 170, 45

<sup>359</sup> . Ibid. p. 175, 68

<sup>360</sup> . Philok. 1, p. 26, 20f

<sup>361</sup> . Ibid. 22

<sup>362</sup> . Ibid. 23

<sup>363</sup> . St. Diadochos. Philok. 1, p. 270, 57

<sup>364</sup> . Sayings. P. 198, 3

إنني أعتقد أن كل هذه الأمور أظهرت بوضوح أنه لكي يحصل المرء على حياة مسيحية واعية ولكي يحصل على الخلاص، يجب عليه أن يجد سلام القلب. لقد إعتاد أحد النساك أن يعطي هذا الرد على أسئلة الناس المختلفة: " إسأل قلبك فماذا يقول لك قلبك". ومثلما شرحنا فإن القلب هو ليس مجرد المشاعر ولكن المكان الذي يُستعلن بالنعمة من خلال النسك والذي يُستعلن الله فيه.

يجب علينا أن نكتسب حساً نحو ذلك. و كل الحياة النسكية في المسيح تهدف إلى ذلك. وعندما نجد القلب يجب علينا أن نبذل كل جهد لكي يُشفى من أمراضه الروحية. إننا جميعاً مرضى القلوب ويجب علينا أن نُشفى. والوصول إلى القلب وشفائه هما أساساً الوصول للخلاص.

## (ج) الإدراك والأفكار

يلعب الإدراك مع الأفكار دوراً مهماً في مرض وشفاء النفس. ومن خلالهما يستثار المرء للشر وتتحول الأفكار البسيطة إلى أفكار مركبة وكنتيجة لذلك تتولد الشهوة التي تقود الشخص لإرتكاب الخطية. من أجل ذلك على النظام العلاجي الأرثوذكسي أن يفحص موضوع الأفكار ومعنى الإدراك. وهذا هو السبب الذي سيجعلنا نفحص موضوع الإدراك من جانب، وموضوع الأفكار من الجانب الآخر، لكي نرى كيف يتحقق شفاء نفوسنا.

### (١) الإدراك

لقد قلنا من قبل أن نفس الإنسان المخلوقة من قبل الله هي مُدركة وعاقلة. ويكتب القديس ثالاسيوس قائلاً أن الله خلق الكائنات المدركة والعاقلة "بحيث تكون ذات قدرة على إستقبال الروح القدس وعلى إكتساب معرفة عن الله. ولقد أوجد الحواس والأشياء الحسية لكي تخدم هذه الكائنات"<sup>٣٦٥</sup>. وعلى حين تقتني الملائكة إدراكاً وعقلاً فإن الإنسان يمتلك إدراكاً وعقلاً وحواساً حيث أن الإنسان هو عالم مصغّر وهو يستقطب في نفسه كل الخليقة. وهكذا يعرف الإنسان الله من خلال العقل والإدراك. والطاقة الإدراكية للنفس ترتبط بالطاقة العقلية ولا يوجد تطابق بين الإثنين كما سنرى فيما يلي.



لقد رأينا عندما تكلمنا عن النفس، أنها خلقت على صورة الله. حيث أن الله ثالث: عقل وكلمة وروح. فكذلك النفس لها عقل وكلمة وروح وهذا يعني أننا نضع بعض الإفتراضات: **الإفتراض الأول** هو أنه بحسب تعليم القديس غريغوريوس بالاماس فإن تمثيل الإنسان لسر الثالث لا يعني أنه يجب علينا أن نفهم الثالث بطريقة مجسمة، ولكن الإنسان هو الذي يفهم بطريقة ثالوثية<sup>366</sup>.

هذا يعني أن الله الثالث لا يمكن تفسيره على أساس الإنسان، ولكن الإنسان هو الذي يُفسر على أساس الله الثالث. وهذا التفسير ليس مجرد تفسير نفسي إنساني، ولكنه استعلاني. وهذا يعني أن الإنسان لا يستطيع أن يدرك هذه الحقيقة إلا في حالة واحدة فقط وهي عندما يكون في نطاق الاستعلان مثلما عاش كل القديسين. **والإفتراض الثاني** هو أنه على الرغم من أن الإنسان يمتلك عقلاً وكلمة وروحاً بحسب النظام الثالوثي للوجود إلا أن عقله وكلمته وروحه ليسوا أقانيم مثلما هو الحال مع أقانيم الثالث القدوس ولكنهم قُوَى للنفس. إذاً "هذه الثلاثة غير منفصلة عن بعضها البعض إلا أنه ليس لها طابع الأقنوم"<sup>367</sup>.

العقل هو عين النفس، والذي يسميه بعض الآباء القلب؛ والكلمة هي معرفة روحية "مزروعة في العقل حيث أنها موجودة معه باستمرار"<sup>368</sup>. ومثلما يعلن المسيح الكلمة عن إرادة العقل الذي هو الأب هكذا أيضاً تعلن كلمة الإنسان عما يدركه ويختبره العقل. وتاماً مثلما هو مستحيل أن تولد كلمة بدون روح هكذا أيضاً ترتبط في الإنسان الكلمة بالروح<sup>369</sup>. وتاماً مثلما الروح القدس الذي هو أقنوم خاص هو "حب يفوق الوصف من الأب نحو الإبن المولود الفائق الوصف هو ذاته"<sup>370</sup>، هكذا أيضاً روح الإنسان هي دفقة ما للعقل "تتضمن على إمتداد للوقت وتزامن مع كلمتنا وتتطلب نفس الفواصل، وتتقدم من عدم الكمال إلى الكمال"<sup>371</sup>.

لقد قلنا هذه الكلمات لكي نُظهر وضع وقيمة الكلمة في نفس الإنسان. الكلمة هي التي تعبّر عن خبرة وحياة العقل وهذا يتحقق في الروح.

<sup>366</sup> . Amphilochiou Rantovits. The Mystery of the Holy Trinity in St. Gregory Palamas. P. 47. In Gk

<sup>367</sup> . Ibid. p. 50

<sup>368</sup> . Ibid.

<sup>369</sup> . St. Gregory Palamas. 150 Chapters, ch. 36, p. 121ff

<sup>370</sup> . Ibid.

<sup>371</sup> . Ibid.

وفي العديد من كتابات الآباء كما هو الحال مع القديس مكسيموس المنعترف تسمى "الكلمة" "المنطق الرمزي" logisticon . والكلمة في الإنسان ثقلاً داخلياً، ولكنها يُعبر عنها أيضاً خارجياً. و الصمت الخارجي لا يعنى أنه لا توجد كلمة داخلية. ولكن بعد دراسة لكتابات الآباء نستطيع أن نؤكد بقليل من الحذر أن الكلمة تكون داخلية وخارجية ومتحدة بالعقل، على حين أن الإدراك المرتبط بالذهن هو العضو الذي من خلاله يُعبر عن الكلمة.

وهكذا نستطيع أن نقول أنه يوجد فرق دقيق بين الكلمة والإدراك، مثل ذاك الفرق الموجود بين الكلمة والذهن. يعلم القديس ثلاثيوس أن "الإدراك بالطبيعة يخضع للوغوس"<sup>٣٣</sup>. والإنسان المدرك عليه أن يخضع لله الكلمة. وبحسب القديس غريغوريوس بالاماس فإن الذهن ليس هو عين النفس، ولكن العقل هو عين النفس على حين أن الذهن يتعامل مع ما هو حسي وما هو عقلي. إنه يكتب قائلاً: "عندما يتكلم شخص ما عن عيني النفس التي تختبر الخيرات السماوية، لا يخلط بينها وبين الذهن. فالأخير يمارس قدراته على الأشياء الحسية والعقلية"<sup>٣٤</sup>. وهذا يعني أنه ليس الذهن بل العقل هو الذي يعرف الكنوز السماوية، وببساطة فإن الذهن يجعل الأمور التي يختبرها العقل قابلة للتفكير، أي أن الله يُستعلن للعقل، ولكن الذهن يسجل هذه الخبرة بجمل إدراكية.

إنه عادة ما يقال عن الإنسان أنه كيان مدرك بمعنى أن لديه إدراكاً وأنه يفكر. ولكن في اللاهوت الأبائي، الشخص المدرك ليس هو ببساطة ذاك الذي عنده إدراك أو كلام، ولكنه ذاك الذي من خلال الكلمة والإدراك يطلب أن يجد الله وأن يتحد به<sup>٣٥</sup>. فالشخص الذي ينقي عقله حيث يُستعلن الله، ثم بعد ذلك يُعبر عن هذه الخبرة الداخلية من خلال الكلمة والذهن يكون شخصاً مدركاً. وبخلاف هذا الإطار يكون الإنسان بدون كلمة وحينئذ لا يكون مختلفاً عن الحيوان الأعجمي. يجب علينا أن نشق أن هذا الإنسان وإن كان يقتني إدراكاً وكلمة، ولكن لأنه غير متصل بالله فهو ميت. وهكذا فالنفس الميتة تُظهر موت الكلمة أيضاً.

وهكذا كانت تعمل الكلمة في الإنسان قبل السقوط. لقد أدرك العقل الله قبل السقوط وعبرت الكلمة عن خبرات العقل. "العقل النقي يرى الأمور بصورة صحيحة والإدراك المُدرَّب يرتبها"<sup>٣٦</sup>. وبحسب لاهوت القديس ثلاثيوس الذي أشرنا إليه من قبل

<sup>٣٢</sup> . Philok. 2, p. 313, 5

<sup>٣٣</sup> . Triads. 1, 3, 34

<sup>٣٤</sup> . St. Theognostos. Philok. 2, p. 367, 35

<sup>٣٥</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 367, 35

فإن الإدراك يخضع للكلمة بالطبيعة ويهذب ويُخضع الجسد، على حين أنه أمر مهين للإدراك، أن يخضع لما هو عديم الإدراك أي للجسد، "وأن يشغل نفسه بشهوات مشينة". إنه أيضاً عمل فاسد للنفس أن تترك الخالق وتبعد الجسد<sup>٣٧٦</sup>. وهكذا نفس الإنسان قبل السقوط كانت على علاقة بالله وكانت الكلمة تعبر عن هذه الخبرة والحياة بمساعدة الذهن الذي هو أداة خاصة للجسد.

ولكن بعد السقوط أتى الموت للنفس، وكنتيجة لذلك أصبح من المستحيل على العالم الداخلي للنفس أن يعمل بكليته بطريقة طبيعية و أن تستمر جميع الوظائف الداخلية متناغمة. لقد إرتبك عقل الإنسان، وإختفى وراء الشهوات وهُزم بظلمة لا يمكن إختراقها. وإذ أصبحت الكلمة لا تعبر عن خبرة العقل تطابقت مع الذهن. وهكذا إرتفع الإدراك فوق العقل وأصبح هو صاحب النفوذ في الإنسان الساقط الآن. وهذا هو في الحقيقة مرض الكلمة والإدراك. فلقد تغذى الإدراك بدرجة زائلة وأصبح مرتفعاً لوضع أعلى من العقل وأسر الكلمة. والإدراك المتغذي بدرجة زائلة هو مصدر الشذوذ الأعظم في الكيان الروحي. وهنا يثور الكبرياء مع كل طاقات التمرکز حول الذات، ذاك الذي هو مصدر كل شذوذ.

يكتب الأرشمندريت صوفرونيوس عن حركات الإدراك في الإنسان الساقط وعن الشذوذ الذي يخلقه في كل الكيان الروحي. إنني سأقتبس النص بجمليته لأنه معبر جداً: "إن الجهاد الروحي هو جهاد متشعب ولكن الجهاد ضد الكبرياء يفتح بصورة أعمق وهو الأكثر خطراً. الكبرياء هو الدرجة القصوى لمقاومة الناموس الإلهي وتشويه نظام الوجود الإلهي ويجلب في أعقابه الخراب والموت. يعلن الكبرياء عن نفسه بصورة جزئية على المستوى الجسدي ولكن بصورة رئيسية على مستوى الفكر والروح. إنه يدعي أفضليته، ويقا تل من أجل النفوذ الكامل، وسلاحه الرئيسي يكون الذهن المدرك.

وعلى سبيل المثال، سوف ينبذ الإدراك وصية لا تدينوا لثلاث تدانوا (مت ٧: ١) معتبراً إياها هراء، مؤكداً على أن القدرة على الإدانة هي خاصية مميزة للإنسان تجعله أعلى من كل العالم وتعطيه القوة لكي يسود.

ولكي يؤكد الإدراك على تفوقه، فإنه يشير لإنجازاته ولإبداعاته، مورداً عدة أدلة مقنعة زاعماً أن تثبت وتأكيد الحقيقة كان يقع في دائرة سلطانه كما في خبرات التاريخ القديمة جداً.

إن الإدراك العامل بطريقة غير شخصية هو بطبيعته ليس إلا واحد من مظاهر الحياة في الشخصية الإنسانية، وواحد من طاقات الشخصية. ولكن حيثما يختص الأمر بأولوية في الكيان الروحي للإنسان، فإنه يبدأ في المحاربة ضد مصدره الذي هو مصدر وجوده الشخصي.

وإذ يرتفع الإنسان كما يظن للأمور العالية، وينزل كما يعتقد لأدنى السفليات فإنه يتوق إلى أن يصل لحدود الوجود لكي يحيط به، وعندما لا يستطيع تحقيق ذلك فإنه يستسلم ويقرر أن الله غير موجود.

ثم إذ يستمر في الصراع على السيطرة والنفوذ فإنه يقول لنفسه بشدة وبطريقة مأسوية في نفس الوقت: لو أنه يوجد إله كيف يمكن أن أقبل ألا أكون أنا هذا الإله؟

وإذ لا يستطيع أن يصل لحدود الوجود وإذ ينسب هذه اللانهاية لذاته فإنه يقف بكبرياء ويعلن: لقد إستكشفت كل شيء ولم أجد ما هو أعظم مني في أي مكان. أنا هو الله إذاً.

كما أنها حقيقة أنه عندما يتركز كيان الإنسان الروحي على الذهن، فإن الإدراك يسود ويصبح أعمى لا يبصر أي شيء يتجاوزه، وينتهي بأن يرى نفسه على أنه العنصر الإلهي.

يصل التخيل الذهني حينئذ إلى أقصى حدوده، فيسقط في نفس الوقت في الظلام الدامس<sup>٣٧٧</sup>.

لا يوجد إنسان حكيم يقدر أن يقتنى كلمة نقية وذهناً نقياً بدون الله. يقول القديس غريغوريوس السينائي: "القديسون هم فقط الذين صاروا حكماء بحسب الطبيعة من خلال النقاوة. لم يستطع ولا واحد من الحكماء في الكلام أن يكون له ذهن نقى لأنهم أفسدوه بالأفكار الشريرة من البداية"<sup>٣٧٨</sup>.

لكي نرى فساد الإدراك في الإنسان الساقط وما يفعله لكل كيانه الروحي سوف نفحص ثلاثة مستويات يدخل فيها الإدراك الساقط.

المستوى الأول هو في علاقتنا بالله. فعلى حين أن العقل هو الذي إختبر الله إلا أن الإدراك الساقط هو الذي يأخذ على عاتقه مهمة القيام بذلك. وهكذا يحاول الإدراك أن يخلق البراهين لكي يظهر وجود الله، وهذا يكون بالطبيعة أمراً يستحيل الوصول إليه بالمرّة، لأن البرهان الوحيد على وجود الله هو خبرة العقل النقي. وهكذا إذ يحاول الإدراك الساقط أن

<sup>377</sup> . Archim. Sophrony: Saint silouan, P. 165f

<sup>378</sup> . Acrostics, 2. Writings, p. 37

يتقدم بمفرده على طريق معرفة الله فإنه يفضل إما لأنه لا يلتقي بالله للمرة أو لأنه يخلق صورة خاطئة عن الله. وهكذا إختلقت عدة نظريات فلسفية عن الله وعدة أديان على مر العصور.

ولقد حدثت البدع التي هزت كنيسة المسيح بسبب تصور الإدراك المتكبر هذا. من أجل ذلك يؤكد الآباء على أن القديسين لا يتكلمون عن اللاهوت بطريقة أرسطو أي من خلال الإدراك والفلسفة، ولكن بطريقة الصيد أي من خلال الخبرة (مثل الرسل من خلال الروح القدس) بعد التطهير الداخلي وكشف العقل.

والحديث الذي دار بين القديس غريغوريوس بالاماس وبرلعام الفيلسوف حول هذه النقطة هو حديث مميز. لقد أكد برلعام على أن إدراك الإنسان وحده يستحق أن يتلقى معرفة الله وأن هذا هو أنبل عنصر في الوجود الإنساني. ثم ادعى أن ما رآه الأنبياء في العهد القديم وما رآه الرسل على جبل طابور كان رمزاً، وبالتالي فإن الفلاسفة كانوا يمتلكون معرفة عن الله أكثر أصالة من الأنبياء والرسل. وهكذا سمى رؤية النور الغير مخلوق "أدنى من إدراكنا". وفي رده على ذلك علّم القديس غريغوريوس أن رؤية القديسين لله لا تأتي من الخارج ولكن من الداخل من خلال التحول والتنقية الداخلية. وبالتالي فإن النور ليس مجرد رمز خارجي مادي، ولكنه رمز طبيعي أي أنه طاقة للنعمة الغير مخلوقة. إن النور الغير مخلوق ليس خيلاً ولا رمزاً يذهب ويحيى وبالتالي هو "ليس أدنى من طاقة الإدراك" ولكنه "يفوق الوصف وغير مخلوق وغير زمني ولا يدنى منه، وشديد الضياء ولا نهائي وغير محدود وغير مرئي للملائكة والبشر، وجمال أصيل وغير قابل للتغيير، وهو مجد الله ومجد المسيح ومجد الروح القدس وشعاع الألوهية"<sup>379</sup>.

إنه يكتب رداً على رأي برلعام أن النور الغير مخلوق هو "أدنى من إدراكنا" قائلاً: "إيه أيتها الأرض والسماء، وكل أولئك الذين يرون في نفوسهم نور ملكوت الله وجمال الدهر الآتي ومجد الطبيعة الإلهية، هل أنتم جميعاً أدنى من الإدراك؟"<sup>380</sup>. إن النور الغير مخلوق هو مجد الطبيعة الإلهية وجمال الدهر الآتي.

إن طريقة تفكير برلعام، عن وضع الفلسفة في مستوى أعلى من رؤية الله، دفعت القديس غريغوريوس بالاماس إلى تسميته فيلسوفاً بدلاً من شخص يرى الله، وهذه الطريقة في التفكير هي طريقة كل الهرطقة الذين أرادوا أن يستبدلوا الإعلان بالفلسفة، ورؤية الله

<sup>379</sup> . Hagiorite Tome. Gk. Philok. 4, p. 191

<sup>380</sup> . Triads. 3, 1, 23

يستطيعوا تحديد مرضهم. وهكذا إذ يستخدمون إدراكاً كثيراً قد يؤدي ذلك إلى إستدلالات خاطئة. وعندما يمتد ذلك ليشمل العلاقات المتبادلة أيضاً، فإن هذا يؤدي إلى تدميرهم وإلى تولد أهواء الحكم على الآخرين والإدانة التي لا ترضي الله. لا يتميز سلوكنا الشخصي نحو أخينا الإنسان بالإدراك بل بالحب. إننا نتجنب إدانة الآخرين وتصنيفهم إلى فئات مختلفة. ونحاول بالأخص أن نفعل عكس ما يمليه علينا الإدراك البشري. ونحاول ألا نرى الخطية والأعمال الشريرة في أخينا، ولكن أن نجبه ونحنو عليه. وبحسب قول القديس مقاريوس المصري، يجب على المسيحيين أن يجاهدوا "لئلا يضعوا أي نوع من الأحكام على أي أحد، لا على زاني ولا على خطاة ولا على الأشخاص المضطربين. بل يجب عليهم أن يتطلعوا لكل الناس بذهن واحد وعين نقية...". يجب علينا أن نتصرف من جهة ضعفات الآخرين بنفس الطريقة التي نتصرف بها عندما نقابل شخصاً معاقاً جسدياً، فلا نتفرس في إعاقته ولا نحكم عليها"<sup>٣٨٢</sup>.

ونحن كأبناء روحيين نواجه الناس في شخصهم. بمعنى أننا نجرد ذواتنا من كل صورة ووصف وفكرة، ونصلي حتى يعلن لنا الله مشكلة الشخص الحقيقية ويرشدنا لكي نعطيه العلاج الشافي الصحيح، وهكذا يهمننا كل شخص في شخصه. وبهذه الطريقة نتجنب إدانة الشخص صاحب النفس العليلة، ونتجنب تصنيف الناس إلى فئات، ونحاول أن نقدم علاجاً شخصياً حقيقياً شافياً. هذا يعني أننا نقف بصفة شخصية أمام الشخص الذي يعترف.

يتضح، مما قيل، أن الإنسان الساقط خاضع لقوة وسلطان الإدراك في علاقته مع كل من الله وقريبه. إن "قاعدة العقل" التي هي قاعدة كل الحضارة الغريبة، هي أساس كل شذوذ داخلي وخارجي. لذا نحاول نحن الذين نعيش في الكنيسة الأرثوذكسية أن نستعيد الأشياء وهدفنا مضاعف. إننا نجاهد من ناحية أن نحد من سلطان الإدراك ومن ناحية أخرى أن نكتشف عقلنا. فنحن نستطيع أن نرى من خلال الحقيقة القائلة أن عقل الإنسان الساقط يكون في ظلام عميق، وأن إدراكه يشكل المصدر الوحيد للوجود وأنه يجب علينا لكي نصل لحالة ما قبل السقوط، ولكي نقادحلية بحسب الطبيعة، أن نضع كلاً من مصطلح عقل، وإدراك في مكانه الطبيعي كما وصفنا من قبل. بمعنى أنه يجب علينا أن نحد من الإدراك، وأن ننمي العقل، ويجب علينا أن نجعل الكلمة تتولد من العقل المستنير، ثم نصيغ بعد ذلك معرفة العقل في كلمات وجمال.

<sup>382</sup> . St. Macarius. Hom. 15, 8. CWS p. 111

يلعب الخضوع لمشيئة الله دوراً فعالاً في الحد من الإدراك. إننا نحاجد ألا نضع ثقة في حكمنا الخاص ورأينا الخاص، الذي يأتي من الإدراك. ويقول القديس دروثيوس: "في كل الأشياء التي تأتي علي، لا أبتغي أبداً أن أذهب طالباً حكمة إنسانية، ولكنني أعمل دائماً بالقوة الصغيرة التي أمتلكها أياً كانت، وفي نفس الوقت أترك كل شيء لله"<sup>٣٨٣</sup>. وفي الواقع يوجد للقديس فصل كامل عنوانه: "في أن الإنسان يجب ألا يعتمد كلية على حكمه الخاص"<sup>٣٨٤</sup>. وعندما يجد الشيطان، في شخص ما، قليلاً من التشبث بالرأي أو البر الذاتي "فإنه سوف يحطه إلى أسفل من خلال ذلك"<sup>٣٨٥</sup>.

وبالمثل نحن مطالبون بأن نطيع إرادة الله بدون تمييز، كما هو معبر عنه في الكتاب المقدس وفي كتابات آباء الكنيسة. وبلا شك سوف يتمرّد ويعترض إدراكنا، ولكن يكون من الضروري، على الرغم من ذلك، أن نخضعه لإرادة الله. وطالما أنه من الممكن ألا نعرف إرادة الله في تفاصيل عديدة في حياتنا اليومية، فإننا مطالبون بأن نطيع أب رוחي ليقودنا في رحلتنا الروحية. وبحسب قول القديس دروثيوس "لا يوجد من هو أكثر بؤساً، ولا من يؤخذ على حين غرة، من الإنسان الذي ليس له من يقوده على الطريق لله"<sup>٣٨٦</sup>. عدم الطاعة هو إذاً الموت، على حين أن الطاعة هي الحياة. يكتب القديس يوحنا الدرجي قائلاً: "إن الطاعة هي التخلي التام عن حياتنا الخاصة، ويعبر عنها بوضوح في أعمالنا الجسدية. أو على العكس، فإن الطاعة هي إماتة الأطراف على حين يبقى الذهن حياً. الطاعة هي حركة بدون تساؤل، وموت يُقبل بحرية وحياة بسيطة، وخطر يُواجه بدون قلق. إنها سفر آمن ورحلة شخص نائم. الطاعة هي قبر للمشيئة وقيامة للتواضع.. أن نطيع هو أن نضع جانباً القدرة الشخصية على الحكم... الطاعة هي عدم الثقة في النفس حتى يوم المات في كل أمر حتى في الأمور الصالحة"<sup>٣٨٧</sup>.

الطاعة هي إماتة الإرادة الشخصية والفهم الشخصي، لا لكي نمت الشهوة ولكن لكي تتحول. إن الطاعة التي تمارس بالطريقة المقترحة من قبل الكنيسة لا تدمر الإدراك ولكنها تشفيه واضعة إياه في وضعه الطبيعي. إنها إذاً الحياة. ولقد أظهرت خبرة الكنيسة الطويلة أن أياً من يستطيع أن يكون مطيعاً يستطيع أن يشفى من مرض نفسه الداخلي وأن يتحول كل علله الداخلي. فالطاعة هي وسيلة لنمو الإنسان.

<sup>٣٨٣</sup> . Abba Dorotheos. CS Ch. 22, p. 252, 11

<sup>٣٨٤</sup> . Ibid. ch. 5, p. 122

<sup>٣٨٥</sup> . Ibid. p. 123

<sup>٣٨٦</sup> . Ibid. p. 122

<sup>٣٨٧</sup> . Ladder. Step 4. CWS p. 91f

إننا نحاول أن ننقي العقل عن طريق الحد من الإدراك خلال التوبة والحياة الكنسية النسكية، بحيث يستتير العقل بطاقة الله الغير مخلوقة. ويتحقق ذلك من خلال اليقظة والصلاة ( صلاة القلب العقلية بصورة أساسية) وبكل الحياة العاملة والمتأملّة. يستقبل العقل النعمة من خلال كل الوسائل المخلدة بواسطة التقليد الأرثوذكسي، وينتعش ويرتفع لوضعه الصحيح، ثم يلقي نعمة على الإدراك بالمثل. وهكذا يصبح الإدراك خادماً للعقل الحاصل على النعمة وبذلك نعود لحالتنا الطبيعية.

يكون إذا الإدراك الذي لا يخضع لهذا العقل المغمور بالنعمة مريضاً، ويولد إنحرافات لا يمكن حصرها في حياتنا، على حين أنه عندما يخضع للعقل فإنه يكون سليماً وطبيعياً. هذا هو التدريب النسكي العلاجي الذي للكنيسة.

## (٢) الأفكار Logismoi

تعمل الأفكار الشريرة في الجزء الإدراكي للنفس، وتثير الشهوة وتحاول أن تأسر عقل الإنسان بحيث يرتكب الخطية. وهكذا فإن من يريد أن يظهر علله الداخلي وأن يتحرر من الخطية ومن أسر عقله يجب عليه أن يحافظ على إدراكه آمناً من تأثير الأفكار الشريرة. لذلك سنحاول في هذا الفصل أن نحلل ما هي هذه الأفكار، وما هي أسبابها، وما هي نتائجها في كيانتنا الروحي، وأخيراً ما هي الوسائل التي تشفيها منها. هذا الموضوع حاسم جداً لأن موتنا الروحي أو حياتنا الروحية تعتمد على مواجهتنا له. وبالإضافة إلى ذلك فإننا سوف نرى فيما يلي العديد من الأمراض العضوية التي تنتج من الأفكار الغير ملجمة.

## ما هي الأفكار

عندما يتكلم الآباء عن الأفكار فإنهم لا يعنون الأفكار البسيطة، ولكن الصور والتصورات التي تكمن وراءها أفكار متعلقة بها بإستمرار. تسمى الصور مع الأفكار logismoi وتعني الأفكار الشريرة. "قد تأخذ الصور في بعض الأحيان صورة مرئية على حين أن البعض الآخر يكون تقريباً نتاج الذهن ولكن في أكثر الأحيان يكون خليطاً من الإثنين. وحيث أن الصور المرئية تولد أيضاً بعض الأفكار فإن النساك يسهمون كل الصور " أفكاراً مقتحمة"<sup>٣٨</sup>. أحياناً ما تستخدم الأفكار الشيطانية المتنوعة ما تجلبه الحواس



للعقل كوسيلة، وأحياناً أخرى تحرك الخيال والذاكرة المفككة وتهاجم الشخص ويكون هدفها الأقصى هو أسرته.

وبحسب قول القديس هيزيخيوس القس فإن معظم الناس لا يعون أن هذه الأفكار ليست إلا "صوراً للأشياء المادية والعلية"<sup>389</sup>.

وكما يظهر في هذا النص، فإن الخيال يلعب دوراً مهماً جداً في تكوين الصور فينا. وهكذا، نستطيع أن نقول أن الأفكار هي الجبل الذي يربط العديد من الصور والتصورات والتي تكون أغلبها ذكريات من الماضي. قال أخ هُوجِم بذكرات من الماضي: "إن أفكارى هي جبال قديمة وجديدة، إذ تزعجني الذكريات وصور النساء"<sup>390</sup>.

تقتني كل الأمور عناصرها الداخلية ( كلمات وتصورات عقلية)، والتي من خلالها تتكلم وتتواصل مع الإنسان. وبحسب القديس غريغوريوس السينائي يسمى الكتاب المقدس أيضاً هذه "الكلمات" التي للأشياء "أفكاراً". تسمى أيضاً كلمات الأشياء صوراً ذهنية والعكس صحيح. إن عملها "ليس مادياً في حد ذاته ولكنه يأخذ صورة أشياء مادية وتتغير هيئته"<sup>391</sup>. تستخدم كلمات الأشياء من قبل الشياطين، وبالتالي يمكن أيضاً أن تسمى كلمات الشياطين<sup>392</sup>. يصف القديس غريغوريوس السينائي الأفكار الشريرة أو بالأحرى إنقضاضها "بالنهر الجاري"، الذي من خلال الموافقة على الخطية يتحول إلى طوفان يغرق القلب<sup>393</sup>.

إنني أعتقد أنه عندما نتحدث عن الأفكار، ونحاول أن نشير بدقة لطبيعتها، يجب علينا أن نرجع للتصنيف الذي وضعه القديس مكسيموس. إنه يقول أن بعض الأفكار تكون بسيطة وتكون الأخرى مركبة. فتكون الأفكار الغير مرتبطة بالشهوة بسيطة. وأما الأفكار المغملة بالشهوة فتكون مركبة، وتتكون من "صورة ذهنية مصحوبة بشهوة"<sup>394</sup>. عندما تصاحب ذكرى شيء ما الشهوة، فإنها تجعل التفكير محملاً بالشهوة أو مركباً. وأعتقد أنه من الجيد عند هذه النقطة، أن نحدد الفرق بين الشيء والصورة الذهنية والشهوة مثلما يحملها القديس مكسيموس. إن الذهب والمرأة والرجل وما إلى ذلك هي أشياء. والذكرى

<sup>389</sup> . Philok. 1, p. 189, 154

<sup>390</sup> . Sayings. P. 101, 1

<sup>391</sup> . Acrostics, 66. Writings, p. 49

<sup>392</sup> . Acrostics, 67. p. 49

<sup>393</sup> . Acrostics, 64. p. 48

<sup>394</sup> . Philok. 2, p. 79, 84

البسيطة للذهب والمرأة والرجل هي صورة ذهنية. أما الشهوة فهي "حب طاغي أو كراهية مشوشة لواحدة من هذه الأشياء نفسها". تتكون الصور الذهنية الشهوانية من فكرة مركبة من شهوة وصورة ذهنية. من أجل ذلك يجب علينا أن نجاهد لكي نفصل الشهوة عن الصورة الذهنية، بحيث يبقى الفكر بسيطاً. ومن الممكن أن يحدث هذا الفصل من خلال الحب الروحي، وضبط النفس.<sup>395</sup>

تثير الأفكار الشهوانية، إما قوة النفس الشهوانية، أو تؤدي إلى خلل في قوتها الحسية أو تظلم إدراكها.<sup>396</sup>

يؤكد إيفاجريوس على وجود أفكار تُقطع، وعلى وجود أفكار تُقطع. تُقطع الأفكار الشريرة الأفكار الجيدة، ولكن تُقطع أيضاً الأفكار الشريرة بالأفكار الجيدة. إنه يقدم مثلاً: يُقطع فكر إضافة الغباء لمجد الله بالشیطان الذي يوحي بفكر إضافة الغباء بهدف الظهور بصورة المضيف في أعين الآخرين. وبالمثل فإن فكر إضافة الغباء للحصول على المجد البشري يُقطع "عندما يأتي فكر أفضل" يحثنا على أن نكون مضيفين من أجل الله ومن أجل الفضيلة.<sup>397</sup>

إذاً هو أمر ممكن أن يبدأ الفكر كفكر شرير، ولكن من خلال جهادنا الشخصي وإلهام الروح القدس يتحول إلى فكر صالح، والعكس صحيح. على أية حال، سوف نحل هذا الأمر بإستفاضة أكثر فيما بعد عند الحديث عن الشفاء من الأفكار الشريرة. ونحن نرى هنا، على الأقل، أنه توجد أفكار تُقطع وأخرى تُقطع، أفكار جيدة وأفكار سيئة.

## سبب الأفكار الشريرة

إن ما كتبناه عن طبيعة الأفكار الشريرة يُظهر أيضاً أسبابها، وبحسب رأي القديس غريغوريوس السينائي فإن أصل وسبب الأفكار الشريرة يكمن في "إنقسام الذاكرة الواحدة البسيطة من خلال معصية الإنسان".<sup>398</sup> وكانت ذاكرة الإنسان قبل السقوط بسيطة، أي لم تكن تقتني شهوة، وكانت متجهة نحو الله بالتمام. لقد كانت كل قوى النفس متمركزة حول الله ثم إنقسمت هذه الذاكرة الواحدة على الفور بعد المعصية. يعلم

<sup>395</sup> . Ibid. p. 89, 42f

<sup>396</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 85, 20

<sup>397</sup> . Philok. 1, p. 42,6

<sup>398</sup> . Acrostics, 60. Writings. P. 48

القديس ثلاثيوس أن الأفكار الشريرة تنبع من ثلاثة مصادر: الحواس، والذاكرة، ومزاج الجسد، وأسوأها التي تأتي من الذاكرة.<sup>399</sup>

إنني أعتقد، أن القديس إسحق السرياني يعطينا نقطة بداية لكي نرى بأكثر وضوح أسباب الأفكار الشريرة، وما هي الأمور التي تثيرها. إنه يعلم أنه "تنشأ حركة الأفكار في الإنسان من أربعة أسباب. أولاً من الإراقة الطبيعية للجسد، وثانياً من تخيل الأشياء الخسيسة التي يسمعها ويراهها الإنسان في العالم، وثالثاً من الاستعداد الذهني ومن إنحرافات النفس، ورابعاً من حروب الشياطين التي تشن علينا حرباً في كل الشهوات. وبالتالي فطالما أن الشخص يبقى في هذا العالم، فإنه لا يستطيع أن يتجنب الأفكار والحرب".<sup>400</sup>

يكمن السبب الرئيسي للأفكار الشريرة في حرب الشيطان. وتكون أغلب الأفكار الشريرة من الشيطان، حيث يهدف الشيطان إلى جعل الإنسان يخطئ سواء بالفكر أو بالفعل. ولقد شن حرباً حتى ضد السيد المسيح نفسه، ولكنه لم ينجح بالطبع. تفعل الشياطين، التي تحاول باستمرار الإمساك بنفسنا، ذلك "بواسطة الأفكار الشهوانية" بحيث أنها قد تجعلها تخطئ إما في الفكر أو بالفعل.<sup>401</sup>

عندما يفكر الإنسان في الشر فإنه يخطئ بالفكر، على حين أنه عندما يفعل مشيئة الشيطان ويشبع شهوته فإنه يخطئ بالفعل. ويسمى إرتكاب الخطيئة "الخطيئة بالفعل". تبذر الشياطين الأفكار باستمرار بهدف أسر العقل. ويتعرف القديسون على "بذور الشياطين" وبحسب هذه المعرفة يعطون النصيحة للناس.<sup>402</sup>

يقول القديس غريغوريوس السينائي: إن الأفكار هي كلمات الشياطين، وبوادر الشهوات. يأتي الفكر أولاً ثم تُرتكب الخطيئة.<sup>403</sup> وبحسب إيليا القس، فإن الشياطين تشن حرباً ضد نفسنا من خلال الأفكار أولاً وليس من خلال الأشياء: "يكون السمع والنظر المسؤولين عن الحرب التي تُشن من خلال الأشياء، وتكون العادة والشياطين المسؤولين عن الحرب التي تُشن من خلال الأفكار".<sup>404</sup> وهكذا تزرع الشياطين الأفكار النجسة والمذرية باستمرار.

<sup>399</sup> Philok. 2, p. 309, 46

<sup>400</sup> St. Isaac the Syrian. Ascetical Homilies, p. 20

<sup>401</sup> St. Maximus. Philok. 2, p. 68, 20

<sup>402</sup> Sayings. P. 9, 11

<sup>403</sup> St. Gregory of Sinai. Acrostics, 67. Writings p. 49

<sup>404</sup> Philok. 3, p. 36, 18

يوجد لكل شهوة شيطانها الملائم لها. ويؤكد القديس يوحنا الدرجي على أن الأفكار النجسة والمذرية في القلب تكون من شيطان القلب المخادع<sup>405</sup>. ويكون مكر الشياطين في هذه الحرب عظيماً، ولا يستطيع أن يميزها سوى القديسين ذوي العقل النقي وأصحاب موهبة البصيرة. من أجل ذلك يكتب القديس يوحنا الدرجي، أنه رأى في أحد المرات شيطان العجب يعمل بصورة ثنائية، فأظهر في أخ ما أفكار العجب وفي نفس اللحظة أعلن هذه الأفكار لأخ آخر، بحيث حصل الثاني على المديح من قراءة الأفكار، وهكذا سقط في خطية وشهوة العجب<sup>406</sup>. وهكذا تكون حرب الشيطان من خلال الأفكار أصعب من الحرب المشنونة من خلال الأشياء المادية<sup>407</sup>.

ولكن عادة ما يأخذ الشيطان فرصته من خلال الشهوات الموجودة في نفسنا بهدف إطلاق حرب الأفكار الملائمة. إنه يعرف الشهوات الموجودة، ويشير النفس في هذه المواضع. "تمد الشهوات المخفية في النفس الشياطين بالوسائل التي تثير الأفكار الشهوانية فينا"<sup>408</sup>.

وحيث أن الشهوة الرئيسية التي تتولد منها كل الشهوات الأخرى، هي حب الذات، فإنه في شهوة حب الذات يكون أساس "الثلاثة صور الأكثر شيوعاً للشهوة"<sup>409</sup>. عندما يميل قلب الإنسان نحو التساهل فإنه يصبح مصدراً للأفكار الشريرة. تنبع الأفكار والكلمات المريضة من القلب محب للذة<sup>410</sup>. توجد لدينا أفكار إرادية وأفكار لإرادية، أي أفكار تأتي إلينا دون أن نطلبها وأفكار تأتي من إرادتنا الخاصة لأن الأفكار اللاإرادية تأتي من الخطية السابقة، على حين تأتي الأفكار الإرادية من إرادتنا الحرة. وهكذا نستطيع أن نقول أن الأفكار الإرادية هي سبب اللاإرادية<sup>411</sup>. إن أسباب الأفكار هي الشهوات وأسباب الشهوات هي أفعال الخطية<sup>412</sup>.

ونستطيع أن نقول بوجه عام، أن الأفكار الآتية من الشياطين تأسر العقل وتقوده ليفعل الخطية في الفكر وبالفعل. وعندما تتكرر هذه الخطية عدة مرات وتكون العادة لدى الشخص فإن الشهوة تتولد. ثم بعد ذلك تأتي الأفكار الشريرة المناسبة من

<sup>405</sup> . Ladder. Step 15. CWS p. 185

<sup>406</sup> . Ibid. Step 22. CWS p. 203

<sup>407</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 63, 91

<sup>408</sup> . Ibid. p. 60, 31

<sup>409</sup> . St Thalassios. Philok. 2, p. 324, 87

<sup>410</sup> . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 121, 162

<sup>411</sup> . Ibid. p. 142, 190

<sup>412</sup> . St. Gregory of Sinai. Acrostics, 62. Writings, p. 48

الشهوات التي هي جراحات النفس بصورة ما. فقد يجرح شيء ما الجسد وكنتيجة لذلك يسبب هذا الجرح تهيجاً، وهكذا تستمر المشكلة وتتفاقم أكثر.

ينوه الرب في عدة مواضع من تعليمه إلى أن الأفكار الشريرة تأتي من داخل القلبية "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة قتل زنى فسق، سرقة شهادة زور تجديف" (مت ١٥: ١٩).

ويذكر لوقا الإنجيلي أن جدلاً دار بين تلاميذ المسيح عن "من يكون الأعظم فيهم" "ولكن عندما علم يسوع فكر قلبهم أخذ ولداً وأقامه عنده" (لو ٩: ٤٦). وعندما ظهر الرب بعد القيامة قل لتلاميذه: "مابالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم" (لو ٢٤: ٣٨). تُظهر كل هذه النصوص أن المسألة تنبع من داخل قلب الإنسان. وفي الواقع يكون العقل هو أول من يُهاجم من قبل الأفكار، ولكن بعد ذلك تعمل الشهوات في القلب ويتنهب الشيطان الفرصة من خلالها ليضع أفكاره الخاصة موضع التنفيذ. من أجل ذلك نقول أن المسألة تأتي من داخل القلب.

ترتبط تعاليم القديس ديدوخوس بذلك. ينتج القلب أفكاراً حسنة وشريرة. ولكن على أي الأحوال فهو لا ينتج الأفكار الشريرة بالطبيعة، ولكن من تذكارات الشر الذي للخطية الأولى التي إرتكبتها، والتي أدت إلى العاقبة. وتتولد معظم الأفكار الشريرة من القلب كنتيجة لشر الشياطين. وعلى الرغم من ذلك فنحن نشعر أنها تنبع من القلب. يجعل عقل الإنسان، الذي يستجيب بدرجة كبيرة، الأفكار المزروعة فيه بواسطة الأرواح الشريرة كأنها أفكاره الخاصة. ويحدث نفس الشيء أيضاً مع الجسد. فحيث يبتهج الجسد بالإطراء الخادع، وحيث أنه يوجد اتحاد بين النفس والجسد فإن الأفكار المزروعة في النفس بواسطة الشياطين تبدو وكأنها نابعة من القلب<sup>٤١٣</sup>. يقوم العقل بتغذية القلب وينقل أي شيء يمتلكه سواء كان صالحاً أم سيئاً للقلب بصورة مباشرة. وحيث أن أغلبنا يكون عديم الخبرة في هذه الحرب الروحية، وحيث أن هذا الانتقال يحدث بسرعة شديدة، فإننا نشعر أن الأفكار ناتجة عن القلب.

وبخلاف الشيطان والشهوات فإن الأمور تولد الأفكار في ذاتها. ولكن كما يُعلم القديس غريغوريوس السينائي فإن الأمور في ذاتها تولد أفكاراً بسيطة، على حين أن إحياءات الشيطان تولد أفكاراً شريرة<sup>٤١٤</sup>. إذاً ليست الملاءمة سيئة، ولكن ما هو سيء هو

<sup>413</sup> . St. Diadochos of Photike. Philok. 1, p. 284, 83

<sup>414</sup> . Acrostics, 68. Writings p. 49

الشهوات المذرية الموجودة داخلنا والإثارة التي تحدثها الشياطين. "مثلما هو أمر مستحيل أن نوقف الرحي عن الدوران" وعن طحن الحنطة أو التبن الذي نلقيه فيها، هكذا هو الحال مع عقلنا فهو يكون في حركة مستمرة. فالأمر يعتمد علينا إن كنا نعطيه تأملاً روحياً أم أعمالاً للجسد. من أجل ذلك فعندما نكون مشغولين بإهتمامات علمية وبأمر جسدية، وعندما ننشغل بمحادثات غير مفيدة وغير هادفة فإن "هذه الأفكار الدنيا تتضاعف في داخلنا"<sup>415</sup>. إذاً ليس إستعمال العالم، وكوننا من العالم، سيئاً ولكن الأمر السيء هو إستعدادنا الخاص وتشبثنا برأينا الخاص.

وتوجد بالتأكيد أفكار جيدة، بخلاف الأفكار الشريرة، وتأتي تلك من الله. ولكن كيف نستطيع أن نميز هذه الأفكار؟ يجب على المبتدئين منا في الحياة الروحية أن يسألوا الآباء الروحيين المختبرين، وخصوصاً أولئك الذين يمتلكون موهبة تمييز الأرواح. يوجد على أية حال تعليم عام يقول بأنه عندما يقترح فكر ما شيئاً علينا ويكون مصحوباً بالفرح، فإن هذه تكون علامة على أن الفكر من الله على حين تكون أفكار الشياطين مملوءة بالإضطراب والإكتئاب. يُعلم القديس برصنوفوس قائلاً: "عندما يقترح عليك فكر أن تفعل شيئاً بحسب مشيئة الله وتجد فرحاً في هذا الأمر، وفي نفس الوقت حزناً يجارب ضده فاعلم أن هذا الفكر هو من الله... إن الأفكار الآتية من الشيطان تكون ممتلئة بالإضطراب والإكتئاب وتجرب الإنسان خلفها بصورة سرية وخفية، إذ يرتلي الأعداء ثوب الحملان، أي أنهم يغرسون الأفكار الصحيحة في مظهرها ولكنها تكون في داخلها "ذئاب خاطفة"<sup>416</sup>.

يجب علينا أن نلاحظ أن الفكر قد يكون قادراً على إحداث فرح، ومع ذلك يكون آتياً من باطل ومن قلب متهاون. من أجل ذلك لا يمكن تمييز الأفكار إلا بواسطة من تذوق نعمة الروح القدس، ومن تطهر من الشهوات الموجودة في النفس. يجب على أولئك الذين تنقصهم الخبرة أن يستشيروا آباء رוחيين مختبرين، لأن الشيطان يقترح أفكار بر على حين كونها غير بارة.

والآن، بعدما حددنا ما هي الأفكار وماهي الأسباب التي تسببها، يجب علينا أن نتطلع بإختصار إلى الأنواع المختلفة من الأفكار. تشبه الأفكار الشهوات، وتوجد لكل شهوة فكر. ويصنفها القديس كاسيان إلى ثمانية، ويحلل أفكار الشر الثمانية التي هي: "الطمع، والنجاسة، والبخل، والغضب، والإكتئاب، والفتور، وتقدير الذات، والكبرياء"<sup>417</sup>.

<sup>415</sup> . St. Cassian of Rome. Philok. 1, p. 97f

<sup>416</sup> . Barsanuphius and John. Q59. ET p. 52f

<sup>417</sup> . Philok. 1, p. 73

يقول القديس ثالاسيوس أنه توجد ثلاثة أفكار رئيسية: الطمع والكبرياء والبخل. وأما باقي الأفكار الشهوانية فتأتي في إثرها<sup>٤٨</sup>. تتماشى هذه الأفكار الثلاثة مع الثلاثة شهوات العامة العظمى: التهاون، ومحبة المجد، ومحبة القنية، والتي جرب بها السيد المسيح.

يجب علينا أن ننوه عن فكر عظيم مشين، الذي هو فكر التجديف. إذ أدرك القديس يوحنا الدرجي مدى شر وخطورة أفكار التجديف، بالإضافة إلى حقيقة كونها تهاجم أساساً أولئك الذين يجاهدون في الحياة الروحية، فقد خصص فصلاً كاملاً لكي يصفها، مقدماً الطرق التي نخلص بها ذواتنا من هذه الأفكار. إنه يكتب أن فكر التجديف يأتي من الكبرياء، فهو يهاجم الشخص حتى أثناء القداس وأثناء الاستعداد للتناول المقدس. إنه يهاجم العقل ويشتهه عن كلمات الصلاة، كما أنه يكف الكثيرين عن الصلاة ويقطع الكثيرين من تناول. كما أنه يجعل أجساد البعض تبلى من الحزن. ينصحنا القديس يوحنا الدرجي ألا ننظر لنفوسنا على أننا سبب أفكار التجديف، فهي كلمات الشيطان التي تهدف لتغريبنا عن الله وعن كنيسته<sup>٤٩</sup>.

ومع ذلك فإن الأفكار الشريرة هي بداية حرب الشيطان ضدنا. ينمو الفكر المزروع من الشيطان حتى تتركب الخطية ويقود للشهوة. من أجل ذلك سنحاول فيما يلي أن نرى نمو الأفكار الشريرة هذا في ضوء خبرة الآباء القديسين. يعلم القديس مكسيموس أن الأفكار الشهوانية المثارة بالشهوات المخفية في النفس تحارب العقل وتجبره على الموافقة على الخطية. وعندما ينهزم العقل في هذه الحرب فإنها "تقوده للخطية بالفكر، وعندما يحدث ذلك فإنها تحته وهو في حل أسره، أن يرتكب الخطية بالفعل". وبعد الفعل تراجع الشياطين التي سببت خراب النفس بواسطة هذه الأفكار، ولكن يبقى شبح أو صنم الخطية في العقل<sup>٥٠</sup> وهكذا تأسر الأفكار العقل وتقوده في أسره للخطية. ولو لم يبعد الشخص صنم الخطية بتوبة، قوية مستمرة، فإنه يكون مصدراً للشذوذ في الكيان الروحي.

هذا ما يجد بوجه عام نمو فكر مقتحم، والمسار الذي يأخذه. ولكن من الأفضل أيضاً أن نرى ذلك، ببعض التفاصيل كما وصفه الآباء أيضاً.

يعمل الفكر، الذي يكون قد دخل إدراك النفس، على أسر العقل. ثم يهدف إلى الحث على شعور باللذة يمكن أن تقدمها شهوة أو أخرى موجودة بالنفس. تسمى هذه

<sup>٤٨</sup> Philok. 2. p. 324. 88

<sup>٤٩</sup> Ladder. Step 23. CWS p. 211f

<sup>٥٠</sup> Philok. 2. p. 70. 31

المرحلة غواية، ولا تحسب كخطية<sup>٤٢١</sup>. ثم تجذب البهجة المستديرة التي تقدمها الشهوة إنبه العقل<sup>٤٢٢</sup>. وعندما لا ينزع العقل نفسه بعيداً عن الملذات المقترحة فإنه يجد ذاته منجذباً، وتبدأ الأحداث المفضلة معها، ثم يتبع ذلك الإتحاد بها، ثم الموافقة عليها. تأسر اللذة المتزايدة العقل بجملته، والإراقة أيضاً. وهكذا تصبح مقاومة الشخص ضعيفة ثم يرتكب الخطية. وعندما يتكرر الأسر تتكون عادة الشهوة " ثم تصبح كل قوى الإنسان الطبيعية في خدمتها"<sup>٤٢٣</sup>. وهكذا يكون وجود كل من اللذة وإستمرارها مهماً جداً لإحداث الأسر ولتنشيط الشهوة. من أجل ذلك ينصح الآباء بإماتة اللذة، على قدر الإمكان، والأفضل من ذلك تحويلها عندما تأسر عقل الإنسان. يقول الأنبا دوروثيوس أنه عندما تعود الرغبات الشهوانية للظهور ثانية في نفوس أولئك الذين هيأوا حرباً، فإنها تنبذ على الفور<sup>٤٢٤</sup>.

يكتب هيزيخيوس عن مزج وتوحيد أفكار النفس مع غواية الشيطان من خلال الخيال: "تصبح أفكاره مضفورة مع الخيال الذي يثيره الشيطان"، وهكذا يصل للموافقة عليها ولفعلها<sup>٤٢٥</sup>. يلعب الخيال دوراً هاماً خصوصاً في الحالات التي يكون فيها الشخص أو الشيء بعيداً عنا. ولكن أيضاً عندما يكون الشخص أو الشيء مرئياً، أي عندما يكون مرتبطاً بلحواس، فهنا أيضاً يضخم الخيال الأمور ويزيد من جمالها بهدف أسر العقل وقيادته للموافقة. وبالتالي نستطيع، من وجهة النظر هذه، أن نقول أن الأفكار الشهوانية تعمي وتربك العقل وتملأه بصور نجسة وتحمله " بغير إرادته وبالقوة نحو أعمال الخطية"<sup>٤٢٦</sup>.

يبدو أن حرية الإنسان تعطي موافقتها، ليس فقط في الوقت الذي تتلقى فيه الغواية والعرض الذي يعرض الفكر الشيطاني، ولكن أيضاً عندما تظلم عين وأذن النفس بكامل حريتها. وكما يُعلم فيلوثيريوس السينائي، فإن السبب الذي يجعل المرء ينظر للأمور بروح زنا، هو أن "العين الداخلية تصير زانية ومظلمة" والسبب الذي يجعل المرء يريد أن يسمع عن الأمور الخاطئة هو أن "أذني نفوسنا تصغي لما همست به الشياطين الشريرة في داخلنا"<sup>٤٢٧</sup>. وإذا فسد إنسان ما داخلياً فإن عين قلبه تتدنس، ثم تفسد أيضاً حواس جسده الخارجية. من أجل ذلك يجب على المرء أن يجاهد داخلياً أولاً. وبالمثل فإنه عندما يبقى المرء على الأفكار

421 . Archim. Sophrony, Saint Silouan. P. 134

422 . Ibid.

423 . Ibid. p. 134f

424 . Abba Dordtheos. CS p. 197

425 . Philok. 1, p. 169f, 43

426 . Abba Dorotheos. CS p. 195

427 . Philok. 3, p. 29, 33



داخله وينميها، تنبع اللذة ويصل العقل للموافقة ولل فعل. "مثلما يفتقد البيض المدفأ في الروث، هكذا أيضاً الأفكار الشريرة التي لا يُعترف بها، تفتقد أعمالاً شريرة"<sup>٤٢٨</sup>.

يُظهر ما قلناه بوضوح نتائج الأفكار المسهبة والمستمرة. وسوف نعرض هذه النتائج في الفصل التالي.

## نتائج الأفكار الشريرة

عندما يطول فكر ما في داخلنا، فإننا نصبح عبيداً للإجذاب: "عندما يتوانى فكر ما في داخل إنسان، فإن هذا يشير إلى تعلقه به"<sup>٤٢٩</sup>. الإجذاب هو تعلق الشخص بالأمر المخلوق ورغبته في تحقيقها وإكتساب هذه الأشياء فقط. وعندما يتحرر العقل من الطعام السماوي ومن تذكر الأشياء السماوية، فإنه يقدم نفسه باستمرار للأشياء الحسية والمخلوقة التي للعالم. فيسمى هذا إجذاباً. إذ يقاد العقل إليه بواسطة الفكر الذي يتوانى في داخله.

يصبح الشخص مفراطاً، ولا يستطيع ضبط نفسه. "إن الذي يعج ذهنه بالأفكار ينقصه ضبط النفس"<sup>٤٣٠</sup>. "إن الشخص الذي لا يحارب في فكره فكر الخطية، ولا يقول أي شيء ضده فإنه يرتكبها بالجسد"<sup>٤٣١</sup>.

عندما يتلذذ فكر شرير في شخص ما، ولا يجد معارضة، ولكنه يُنفذ فإنه يقوي الشهوة فيه ثم بعد ذلك يحاربه ويقهره أكثر"<sup>٤٣٢</sup>.

تتلفنا الأفكار وتسحقنا وتخلق أيضاً مشاكل في علاقاتنا الشخصية. "إننا نقضي كل وقتنا مفسدين ذواتنا بالأفكار التي تملكها الواحد ضد الآخر وقاهرين أنفسنا"<sup>٤٣٣</sup>.

تدنس وتلوث الأفكار الشريرة نفسنا<sup>٤٣٤</sup> فهي تخربها وتسممها: "هذا هو مكر الشرير، وهو يسمم كل نفس بهذه السهام"<sup>٤٣٥</sup>.

<sup>428</sup> Ladder. Step. 26, Summary. CWS p. 257

<sup>429</sup> St. Mark the Ascetic. Pilok. 1, p. 132, 89

<sup>430</sup> Ibid. p. 129, 40

<sup>431</sup> Sayings. P. 101, 1

<sup>432</sup> Abba Dorotheos. CS p. 242f

<sup>433</sup> Ibid. SC p. 300, 86. CS p. 145

<sup>434</sup> Sayings. P. 60, 4

<sup>435</sup> Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 170, 44

" الرجل الذي يُحمل بعيداً بأفكاره يكون أعمى بها، وعلى حين أنه يستطيع أن يرى العمل الفعلي للخطية، فإنه لا يستطيع أن يرى أسبابها"<sup>٤٣٦</sup>. يعطي قبول الأفكار هذا للشيطان سلطاناً عليه، ويستطيع أن يقوده حتى للإنتحار، طالما أنه لا يستطيع مقاومة قوة الشيطان. يحط الفكر النجس من قدر النفس<sup>٤٣٧</sup> ويلقي بنفس الإنسان أرضاً.

تثير الأفكار الشهوانية قوة الشهوة في النفس وتربك القوة الحسية والإدراك. "إنه بهذه الطريقة تتبدل قدرة العقل على التأمل الروحي وعلى نشوة الصلاة"<sup>٤٣٨</sup> ويموت الإنسان بدون الله.

إن أيّاً من يشعر باستمرار بأنه مضطرب بالأفكار، وبأن أعضائه ملتهبة، يُظهر أنه بعيد عن شذى الروح القدس<sup>٤٣٩</sup>.

وبالإضافة إلى ذلك تُفقد الحميمة مع الله: "عندما تتحد النفس بالأفكار الشريرة والدينئة فإنها تفقد إتقادها الحميم بالله"<sup>٤٤٠</sup>. لا يستطيع الله أن يتحد مع شخص يكون عقله مدنساً باستمرار بأفكار شريرة ونجسة. ويشمئز الله من شخص يقبل أفكاراً نجسة بينما هو واقف للصلاة، مثلما يشمئز ملك أرضي من شخص يذير وجهه في حضرته ليتكلم مع أعداء سيده<sup>٤٤١</sup>.

ليس فقط أن الشخص ذا الأفكار الشريرة يفقد حميمته مع الله، وشذى الروح القدس، ولكنه أيضاً ينفصل تماماً عن الله "إذ أن الأفكار النجسة تفصل الله عن الإنسان". لا يعلن الله أسراه للذي تستحوذ عليه الأفكار الشريرة<sup>٤٤٢</sup>. يقول الأنبا دوروثيوس بوضوح تام: "يستطيع فكر واحد شرير أن يحول الإنسان بعيداً عن الله عندما يُدخله داخله ويلتصق به"<sup>٤٤٣</sup>.

وطالما أن الأفكار تفصل الإنسان عن الله، فهي تتبعها إنحرافات جسدية أخرى. إذ تتسبب الأفكار في الكآبة والإحساس بعدم الأمان والأمراض الجسدية. ولقد وعي الأطباء أيضاً هذا الأمر، من أجل ذلك ينصحوننا ألا نتمادى في التفكير في أمور ما، وألا نقلق.

<sup>436</sup> St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 170, 44

<sup>437</sup> St. Thalassios. Philok. 2, p. 312, 91

<sup>438</sup> St. Maximus. Philok. 2, p. 85, 20

<sup>439</sup> Nicetas Stethatos. Practical chapters, ch. 57

<sup>440</sup> St. Maximus. Philok. 2, p. 280

<sup>441</sup> Ladder. Step 28. CWS p. 280

<sup>442</sup> Sayings. P. 135, 1

<sup>443</sup> Abba Dorotheos. CS p. 190

فمثلاً يستطيع فكر واحد أن يجعل الإنسان غير قادر على النوم ليلية بكاملها. وهكذا نقول أن الأفكار تجعل الإنسان مضطرباً بل وتحطم أعصابه. لقد قال الأنبا دوروثيوس: "يأتي فكر ما ويضايقني".<sup>٤٤٤</sup>

إن نتائج الأفكار الشريرة هي حقاً مزعجة، ولقد أشرنا إليها بإختصار شديد، ولكننا إستطعنا أن نستشهد بنصوص آباءية أكثر. لقد حاولنا أن نشير للانحرافات العامة التي تحدثها في كياناتنا النفسجسماني.

يجب على طريقة العلاج النفسي، على أية حال، أن تصف أيضاً الطرق التي يُشفى بها الناس من الأفكار الشريرة الشيطانية، ولقد أتينا الآن لهذا الموضوع بعينه.

## شفاء الأفكار الشريرة

مثلما هو الحال مع كل أمراض النفس والجسد، هكذا أيضاً بالنسبة للأفكار، يوجد علاج وقائي وعلاج شفائي بعد المرض، وسوف نبحث كلاهما.

يتمثل العمل الوقائي في محاولة عدم ترك الفكر يدخل إلينا ويأسر عقلنا. يتحقق ذلك باليقظة والانتباه، والسكون، وقطع الأفكار الشريرة. يُعلّم بولس الرسول تلميذه تيموثاوس أن يكون يقظاً باستمرار قائلاً: "وأما أنت فإصح في كل شيء" (٢ تي ٤: ٥). وتحتوي كتابات الآباء على تحليل مسهب لهذا الجهد.

تسمى أيضاً اليقظة حفظ الأفكار. يُعلّم القديس يوحنا الدرجي أن حفظ الأفكار هو شيء، على حين أن مراقبة العقل هو شيء آخر. فمراقبة العقل أعلى من حفظ الأفكار.<sup>٤٤٥</sup> يكون ذلك صحيحاً بالمعنى الذي عرفناه فيما سبق، أن العقل هو عين النفس الذي هو القلب أيضاً، على حين أن الفكر هو ما يعمل في ذهن الإنسان.

ومحاولة حفظ الذهن طاهراً هو شيء، على حين أن محاولة حفظ العقل الذي هو القلب نقياً هو شيء آخر. وعلى الرغم من ذلك تكون نقاوة الأفكار مطلوبة، لأنه من المستحيل الحفاظ على داخل الإنسان بلا خطية في حالة إمتلاكه أفكار شريرة.<sup>٤٤٦</sup> ووصية الآباء هي أن نركز عقلنا أي (طاقة النفس في جوهرها)، وأن نراقب الأفكار، وأن نحارب أفكار الشهوة.<sup>٤٤٧</sup> إنه أمر ضروري

<sup>٤٤٤</sup> . Sayings. P. 68, 1

<sup>٤٤٥</sup> . Ladder. Step 26. CWS p. 239f

<sup>٤٤٦</sup> . Philotheos of Sinai. Philok. 3, p. 29, 33

<sup>٤٤٧</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 309, 45

أن ننتبه لأفكارنا وذكرياتنا وميولنا<sup>٤٤٨</sup>. وفي الواقع لكي نحافظ على هذا الجهد في عقلنا نقياً ولكي نمتلك تذكراً مستمراً لله يجب علينا أن نبذ الأفكار الحسنة أيضاً لأنه حتى مع الأفكار الحسنة يَكُونُ العقل بالترجيح علة الإنعزال عن الله.

يُعلِّم سلوانس الراهب قائلاً: "لقد تعلَّم القديسون كيف يحاربون العدو، ولقد عرفوا أن العدو يستخدم الأفكار الملحّة لكي يخدعنا، وهكذا تجنبوا مثل هذه الأفكار طوال حياتهم. ويبدو للوهلة الأولى أنه لا يوجد شيء خاطيء في فكر مُلح، لكنه يبدأ للتو في تحويل العقل عن الصلاة، ثم بعد ذلك يوقظ الإرتباك. وبالتالي يكون نبذ الأفكار الملحّة، مهما كانت تبدو صالحة، أمراً ضرورياً. وما هو ضروري أيضاً بالمثل هو أن يمتلك المرء عقلاً نقياً في الله"<sup>٤٤٩</sup>.

لا يجب علينا أبداً أن نمتلك ولا فكر واحد في قلبنا، سواء كان بلا معنى أو ذا معنى<sup>٤٥٠</sup>. ويجب علينا أن نحمي عين النفس من كل فكر مثلما نحمي عين الجسد من كل شيء مؤذٍ.

عندما يتعود المرء على هذا الجهد المقدس، المتمثل في التنحي عن كل الأفكار، فعندئذ يتذوق العقل صلاح الله، ويكتسب النقاوة بحيث يستطيع أن يميز الأفكار "ويخزن في كنوز ذاكرته تلك الأفكار الحسنة والمرسلة من الله، على حين أنه يطرد تلك الأفكار الشريرة الآتية من الشيطان"<sup>٤٥١</sup>.

تسمى يقظة النفس هذه وحفظ الأفكار السكون الداخلي. وهكذا لا يكون السكون في التعليم الأرثوذكسي مجرد السكون عن المثيرات الخارجية (هذا أيضاً هو بداية السكون وخصوصاً بالنسبة للمبتدئين) ولكنه سكون القلب بصورة رئيسية. ينصح القديس ثالاسيوس قائلاً: "سد حواسك بالسكون وأجكُم على الأفكار التي تهاجم قلبك"<sup>٤٥٢</sup>. وبحسب القديس يوحنا الدرجي فإن "سكون الجسد هو المعرفة الدقيقة للمشاعر والإدراكات الشخصية والتعامل معها، لكن سكون النفس هو المعرفة الدقيقة للأفكار الشخصية وهو ذهن لا يمكن التمكن منه". وأصدقاء السكون هم التفكير الشجاع المصمم ومراقبة أبواب القلب، وقتل الميول المقتحمة والتخلص منها<sup>٤٥٣</sup>. وعندما يثابر

<sup>448</sup> . Sayings. P. 60, 4

<sup>449</sup> . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 168

<sup>450</sup> . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 171, 49

<sup>451</sup> . St. Diadochos of Photike. Philok. 1, p. 259f, 26

<sup>452</sup> . Philok. 2, p. 308, 22

<sup>453</sup> . Ladder. Step 27. CWS p. 261f

شخص ما في هذا الجهاد، وخصوصاً عندما يكون العقل مأسوراً بملكوت الله، فعندئذ تتلاشى الأفكار مثلما تختفي النجوم عندما تشرق الشمس<sup>٤٥٤</sup>.

وبخلاف اليقظة وسكون العقل، يوجد طريق آخر لمنع العقل من التوتر وهو تجنب الأسباب التي تثير الأفكار. يعطي القديس مكسيموس مثلاً ليوضح كيف يجب علينا أن نجاهد لنحافظ على نقاوة القلب. وكما نعلم، فإن شياطين الشهوة إما تثير قوة النفس الشهوانية أو تربك قوتها الحسية وإدراكها. من أجل ذلك يجب على الراهب أن يراقب أفكاره، وأن يتخلص من أسبابها: "تستثار القوة الشهوانية للنفس بأفكار الشهوة نحو النساء. وتأتي مثل هذه الأفكار من الإفراط في الطعام والشراب، ومن الحديث المتكرر عديم المعنى مع النساء، ويمكن قطع هذه الأفكار بالجوع والعطش، والسهر والإنعزال عن المجتمع. تضطرب القوة الحسية بأفكار الشهوة من جهة أولئك الذين أساءوا إلينا، ويأتي هذا من التهاون والكبرياء ومحبة الأمور المادية. إنه بسبب هذه الرذائل يشعر الشخص الخاضع للشهوات بالإستياء والإحباط أو بالأحرى بالفشل في الوصول لما يريد. تقطع هذه الأفكار عندما تُنبذ الرذائل التي تثيرها وتتلاشى من خلال محبة الله"<sup>٤٥٥</sup>.

ويجب على المرء، بالإضافة إلى ذلك، أن يجاهد ضد الشهوات لكي يتخلص من الأفكار طلالاً أن الشياطين تجد فرصة لزرع الأفكار الملائمة من خلال هذه الشهوات. ينصح القديس مكسيموس من جهة شهوة الزنا قائلاً: "صم وإبقَ ساهراً وإعمل وتجنب مقابلة الناس". ومن جهة الغضب والإستياء: "لا تهتم بالشهرة ولا بالإحتقار ولا بالأمور المادية". ومن جهة الضغينة: "صل لأجل الذي أساء إليك وسوف تحصل"<sup>٤٥٦</sup>.

يوجد جهاد آخر، وهو تقليل محبة اللذة التي في القلب<sup>٤٥٧</sup> لأن الأفكار تحاول أن تلهب اللذة وتجذب العقل. ومن الضروري أيضاً أن ينال المرء من محبة اللذة التي للجسد، بالإضافة إلى محبة اللذة التي للقلب. يجب على المجاهد في الجهاد الداخلي أن يتخلص من كل شيء يثير لذة وراحة الجسد، لأنه لو إستسلم شخص ما للذة وراحة الجسد "فإنه حتماً سيقاد بالقوة حتى لو لم يكن يريد ذلك إلى الأثوريين لكي يخدم نبوخذ نصر"<sup>٤٥٨</sup>. ولو لم يقف المرء وقفة حازمة مع نفسه من جهة موضوع اللذة فلن يكون قادراً على الإحتفاظ بحريته الداخلية أو إكتسابها.

<sup>454</sup> Ilias the Presbyter. Philok. 3, p. 59, 91

<sup>455</sup> Philok. 2, p. 85f, 20

<sup>456</sup> Ibid. 84f, 13

<sup>457</sup> St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 121, 162

<sup>458</sup> Abba Dorotheos. CS p. 195

ومثلما أشرنا في موضع سابق، يجب علينا أن نتجنب الأشياء والأشخاص التي تثير الأفكار الشريرة في داخلنا. أجاب أحد النساك على سؤال أخ قال أنه كان يجاهد مع تذكارات النساء ومع شهوات الماضي قائلاً: "لا تخف من الميت بل إهرب من الحي وقبل كل شيء إثبت في الصلاة"<sup>459</sup>. لسنا بالتأكيد مطالبين بتجنب كل الناس. يكون ذلك ممكناً للقليلين الذين يطلبون النقاوة الكاملة لكي يعطوا أنفسهم لله بالكلية. ولكن يجب علينا أن نتجنب أولئك الناس الذين يمثلون غواية بالنسبة لنا، ليس لأنهم أرياء ولكن لأننا نحن أنفسنا ضعفاء داخلياً ومعرضون للمرض. عندما يتخذ شخص ما مبدءاً أن يراقب عقله وأن ينتبه للأمور والأشياء والأشخاص، فإنه يستطيع أن يتعلم أيّاً منها تثير شهوته<sup>460</sup>.

تساعدنا مخافة الله على التحرر من حرب الأفكار. ومخافة الله هي عطية الله للإنسان، والذي يتلقى هذه العطية يجاهد كل يوم لئلا يفعل أي شيء لا يرضي الله، أو بالأحرى هو لا يجاهد فحسب، ولكن نار مخافة الله تذيب كل فكر يقترب. وحتى لو لم نكن نمتلك هذه المخافة، فعلى الأقل، فلنجاهد بأنفسنا لكي نخلق الإحساس بحضور الله وبالدينونة الآتية: "مثلما يذوب الشمع أمام النار هكذا يذوب الفكر النجس أمام مخافة الله"<sup>461</sup>. مخافة الله هي الراعي الذي يقود الغنم الذي هو الأفكار، وبدون المخافة الراعية سوف ترتبك الأفكار<sup>462</sup>.

وبالإضافة إلى هذه الأشياء، يكون الجهاد والحياة النسكية طريقة للعلاج. يساعد الصوم والسهر وصلاة العقل على تجنب الأسر من قبل الأفكار المقتربة. "إضعف جسدك بالصوم والسهر وسوف تلفظ أفكار اللذة المميتة"<sup>463</sup>، "تحكم في جسدك وصل باستمرار، وبهذه الطريقة سوف تتحرر سريعاً من الأفكار التي تنبع من إنشغال ذهنك"<sup>464</sup>. يعلم القديس مرقس الناسك، أنه لو لم نكن نريد أن نتحرك بالأفكار الشريرة، يجب علينا أن نقبل مذلة النفس وضيق الجسد. ولا يجب أن يكون ذلك في مناسبات معينة فقط ولكن دائماً وفي كل مكان وفي كل الأمور"<sup>465</sup>.

من الممكن أن يستعمل المرء هذه الأمور التي ذكرت لكي يمنع المرض بسبب الأفكار، ولكنها مطلوبة أيضاً لو كان مريضاً بالفعل كوسيلة للشفاء من الأفكار. ولكن دعونا ننظر، بطريقة أكثر تحليلاً، إلى كيفية شفاء النفس التي تأثرت بالأفكار.

<sup>459</sup> . Sayings. P. 101, 1

<sup>460</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 95, 78

<sup>461</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 308, 26

<sup>462</sup> . Elias the Presbyter. Philok. 3, p. 65, 136

<sup>463</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, 308, 25

<sup>464</sup> . Ibid. p. 326, 17

<sup>465</sup> . Philok. 1, p. 143, 207

يجب على المرء، في المقام الأول، ألا يضطرب بالمرءة. يحاول الشيطان أن يحط بـ **الرجل** في الشخص، ثم إرتباكاً لكي يتداخل بأكثر نشاط في النفس ويأخذها في الأسر. من أجل ذلك يُعلّم القديس مكسيموس قائلاً: "أصمد بشجاعة ضد الأفكار التي تشتت عليك وخصوصاً أفكار التوتر والفتور"<sup>466</sup>. إن مواجهة الأفكار بشجاعة هي إستشهاد آخر. ينصح كل الآباء ألا يتوتر المرء عندما تهجمه أفكار شيطانية. يقول القديس برصنوفوس: "عندما تأتي الأفكار لا ترتبك، ولكن إفهم ما تريدك أن تفعله، وقاومها بدون توتر مستعيناً بالرب". ليس أمراً رديئاً أن يدخل اللص المنزل، ولكن الرديء هو أن يأخذ ما يجده في المنزل"<sup>467</sup>.

يسمح بعض الناس للأفكار أن تدخل عقلهم وقلوبهم لكي يدخلوا في حوار معها، ولكي يتغلبوا عليها بقوة المسيح. يفعل ذلك القليلون الذين تباركوا بنعمة المسيح بغزارة، والذين يريدون أن يدخلوا في حرب مع الشيطان وجهاً لوجه بهدف تطهيره. على أي الأحوال، لا يكون ذلك ممكناً لأغلب المسيحيين الذين لا يستطيعون الخوض في هذه الحروب العسرة والخطيرة. لذا يجب على أغلينا أن يزدري بالأفكار المفتحة.

يجب علينا أن نقول أنه كلما كان الإنسان أقل خبرة في الأمور الروحية كلما كان أكثر بطئاً في إدراك دخول الفكر. وعادة ما يدرك المجاهدون الروحيون المختبرون الفكر قبل أن يدخل إدراكهم بل وحتى عندما يستعد ليشن الحرب على الجاهد. يدرك البعض الفكر عندما يحدث إتحاد معه، أو عندما يكون على وشك الفعل، أو حتى بعدما تكون الخطية قد إرتكبت بالفعل. "لا يواجه الشخص العديم الخبرة روحياً أفكار الخطية إلا بعد أن تكون قد تقدمت دون أن تكون ملحوظة خلال مراحل التطور الأولى. أي بعدما تكون قد إكتسبت درجة من القوة، حيث تكون الخطورة قد إقتربت من الوقوع في الخطية بالفعل"<sup>468</sup>. على أية حال يجب على الشخص أن يحارب الأفكار في الحال أينما يلاقيها. وكلما كان أكثر تمسكاً في هذه اللعبة كلما أدرك الفكر في المراحل الأولى لتطوره.

يوجد طريق أفضل من الحوار مع الأفكار، وهو الإزدراء بها وقطعها. يعرض الأرشمندريت صوفرونيوس تعليم القديس سلوانس عن أفضل طريق لمحاربة الأفكار قائلاً: "لقد إعتاد الشيوخ أن يقولوا أن خبرة الآباء القديسين تُظهر عدة طرق لمحاربة الأفكار المفتحة، ولكن أفضلها هو ألا يتحاور المرء معها.

<sup>466</sup> . Philok. 2, p. 58, 52

<sup>467</sup> . Barsanuphius and John ( in Gk. ) p. 223, q. 448

<sup>468</sup> . Arch. Sophrony. Saint Silouan. P. 135

"سوف يُواجه العقل الذي يتناقش مع مثل تلك الأفكار بتطورها الثابت، وسوف يرتبك بالمقايضة، وسوف يتشتت عن تذكر الله وهذا هو ما تسعى الشياطين وراءه، أي تحويل العقل بعيداً عن الله وجعله يرتبك، وبالتالي سوف لا يخرج نقياً.

"بينما كان إستفانوس الناسك (الذي كان يتغذى ثمر من يديه) يحضر (السلم - الدرجة السابعة) كان يتعارك مع الأفكار المقتحمة، مثلما كانت عادته، وهكذا وجد نفسه يجاهد ضد الشياطين.

"والقديس مرقس، الذي من ثراس، إذ حاول أن يعزي نفسه قبل رحيله من هذه الحياة بأن يعدد جهاداته بقي معلقاً في الجو لمدة ساعة مما يوحي بأنه كان من الممكن أن يحدث ذلك للأبد.

"أما آباء آخرون فكانوا أكثر تمييزاً في جهادهم الروحي"<sup>٤٦٩</sup>.

إذاً ليس آمناً وخصوصاً في بداية الحياة الروحية أن ندع الأفكار تدخل القلب. "ولكن يجب علينا أن نقاومها وننبذها على الفور عندما ندرکها"<sup>٤٧٠</sup>. إن لفظ الفكر هو طريقة جيدة وخصوصاً للمبتدئين في هذا الجهاد.

يجب علينا أن نرفض ما يقوله الفكر لنا بدون أن ندخل في حوار معه، وبهذه الطريقة نضعف الشهوة أيضاً و"إذ نحارب بهذه الطريقة فإننا نتغلب على الشهوة ذاتها قليلاً قليلاً وبمساعدة الله"<sup>٤٧١</sup>. ويسمى ذلك مقاومة الفكر. لقد قال شخص ما للأنبا بيمن: "لدي أفكار كثيرة يا أنبا بيمن وتجعلني عرضة للخطر". فقله الشيخ خارجاً وقال له: "إجعل صدرك يتسع دون أن تأخذ شهيقاً". فأجاب الرجل بأنه لا يستطيع، فرد عليه الشيخ قائلاً: "إن كنت لا تستطيع أن تفعل ذلك فبالمثل أنت لا تستطيع أن تمنع الأفكار من أن تحدث ولكنك تستطيع أن تقاومها"<sup>٤٧٢</sup>. لا نستطيع إذاً أن نمنع الأفكار من المجيء إلينا ولكننا نحتاج أن نضادها. وتتكون المضادة من جهة من إزدراء لفظي ومن جهة أخرى من ألا نفعل ما تقوله: "إذا لم نفعل أي شيء حيالها فهي تفسد مع الوقت أي أنها تتحلل"<sup>٤٧٣</sup>. وتماماً مثلما يغلث شخص ما على ثعبان أو عقرب في زجاجة فإنه يموت مع الوقت "هكذا الحال مع الأفكار الشريرة، حيث تقترحها الشياطين ولكنها تختفي من

<sup>469</sup> . Ibid. p. 66

<sup>470</sup> . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 170, 44

<sup>471</sup> . Abba Dorotheos. CS p. 243

<sup>472</sup> . Sayings. P. 144, 28

<sup>473</sup> . Ibid. p. 142, 20



خلال الصبر"<sup>٤٧٤</sup>. عندما دفع فكر ما الأنبا أغاثون للإدانة قل: "لا تفعل ذلك يا أغاثون وهكذا سكن الفكر"<sup>٤٧٥</sup>. وبالمثل قضى الأنبا دوروثيوس والأنبا لوكيوس خمسين عاماً يسخران من غواياتهما بأن يقولوا لفكر مغادرة مكان نسكهما: "سوف نترك هنا بعد هذا الشتاء" وعندما كان الصيف يأتي كانا يقولان: "سوف نذهب بعيداً عن هنا بعد الصيف" وهكذا أمضيا كل الوقت وسخرا من الشياطين"<sup>٤٧٦</sup>. وهكذا يساعدنا تأجيل موعد إشباع الفكر على التخلص منه.

توجد طريقة أخرى للشفاء، وهي الجهاد لئلا ندع الأفكار تدوم. يكمن الجهاد في ألا ندع فكر بسيط يثير الشهوة، وألا نعطي موافقة لفكر شهواني. "تمنع كل من هاتين الصورتين للمقاومة الأفكار ذاتها من البقاء"<sup>٤٧٧</sup> لأن الفكر الذي يبقى سوف يلد أفكاراً أخرى، ويخلق علة مشاكل في العالم الداخلي وسوف يأخذ عقلنا للأسر.

وبالمثل لا يجب علينا أن ندع الفكر البسيط يصير فكراً مركباً أو فكراً شهوانياً، ولكن يجب علينا أيضاً أن نحول الفكر المركب لفكر بسيط. يتكون الفكر المركب من شهوة وصورة ذهنية. وبالتالي يتعين علينا أن نفصل الشهوة من الصورة الذهنية بضبط النفس وبالحب الروحاني، وعندئذ سوف يصبح الفكر بسيطاً"<sup>٤٧٨</sup>.

يجب على العقل أن يقطع اللذة المرتقة، طالما أن الفكر المقتحم سيحاول أن يشعل لذة حسية لتأسر العقل"<sup>٤٧٩</sup>. يعلم القديس مكسيموس أنه يجب علينا أن نقتل ليس فقط شهوات الجسد، ولكن أيضاً أفكار النفس الشهوانية"<sup>٤٨٠</sup>.

وبخلاف قطع الأفكار والإزدراء بها، فإنه من الضروري أن نطردها بعيداً ويتأتى ذلك بدرجة كبيرة بواسطة الصلاة. يعلم القديس غريغوريوس السينائي أن المبتدئ لا يستطيع أن يطرد الفكر بعيداً ما لم يفعل الله ذلك. بينما يستطيع القوي أن يشن حرباً مع الأفكار ويطردها بعيداً، ولكننا نكرر أنه حتى هذا يفعل ذلك بمعونة الله. "عندما تأتي الأفكار إصرخ لربنا يسوع مرات عديدة وبصبر، وهي سوف تراجع لأنها لا تستطيع أن تحتمل حرارة القلب الناتجة عن الصلاة، وهي تهرب كما لو كانت إحترقت بالنار". عندما نتلفظ بإسم

<sup>٤٧٤</sup> . Ibid. p. 142, 21

<sup>٤٧٥</sup> . Ibid. p. 20, 18

<sup>٤٧٦</sup> . Ibid. p. 68, 2

<sup>٤٧٧</sup> . St. Maximus. Philok. 2 p. 97,87

<sup>٤٧٨</sup> . Ibid. p. 89, 43

<sup>٤٧٩</sup> . Arch. Sophrony. Saint Silouan. P. 134

<sup>٤٨٠</sup> . Philok. 2, p. 163, 97

يسوع في الصلاة فإنه يدفع الشيطان، ويخلق حضور النعمة الإلهية حرارة القلب. وهكذا تُحرق الأفكار الشريرة وتُدفع خارج العقل. لو كان أحد تعوزه طاقة الصلاة، فليحاكي موسى رافعاً يديه وعينيه للسماء وعندئذ سوف يدفع الله بنفسه الأفكار بعيداً<sup>٤٨١</sup>. ومثلما يتشتت الدخان في الجو هكذا تتشتت الأفكار الشريرة بإستدعاء إسم المسيح<sup>٤٨٢</sup>.

لا يمكن أن نتخلص من الأفكار الشيطانية بواسطة التفكير البشري. بل يجب علينا أن نتخلّى عن كل فكر حتى لو كنا حكماء، وأن نلقي كل رجائنا على الله قائلين: "دبر يا رب الأمر كما تريد وكما تعلم..."<sup>٤٨٣</sup>. هذا النص مهم لأن العديد من الأشخاص يحاولون في وقت التجربة أن يواجهوها بالذكاء البشري، ومهما كان الذكاء مقتدرًا فإنه لا يستطيع أن يكون أقوى من فكر الشيطان. لأننا في جهادنا ضد الفكر نحارب ضد الشيطان وليس ضد فكر بسيط.

تُظهر الصلاة، مع اليقظة، الذهن من كل صور الأفكار الشريرة، وهكذا يصير ذهننا واعياً لكل من رذائل أعدائنا والفائدة العظمى التي للصلاة واليقظة<sup>٤٨٤</sup>. يصبح المجاهد الروحي من خلال الصلاة واعياً بوضوح بكل الفكر، ويعمل له دراسة مترنة، ويكون بهذه الطريقة واعياً بنتائجه دون أن يقوم بتنفيذه. من أجل ذلك، فإنه عادة ما يعرف النساك (الذين إختبروا هذا المجال الروحي والذين لا يسمحون للفكر بأن يدخلهم) حيلة الخطية والخطأ جيداً دون أن يكونوا قد إختبروها بصفة شخصية.

لو كانت بذور العدو هي النار، فإن الرجاء بالله من خلال الصلاة هو الماء الذي يطفئ النار<sup>٤٨٥</sup>. يقول الأنبا يوحنا القصير: "إنني أجلس في قلايتي وأكون واعياً بالأفكار الشريرة الآتية ضلي، وعندما لا أمتلك أية قوة ضدها فإنني أحتمي في الله بالصلاة، وبذلك أنقذ من يد العدو"<sup>٤٨٦</sup>.

توجد طريقة فعالة للتخلص من الأفكار، وهي الإعراف بها لأب روحي مختبر. يقول القديس يوحنا كاسيان: "تماماً مثلما يبذل الثعبان الذي يُجلب خارج جحره المظلم إلى النور كل جهد لكي يهرب ويخفي ذاته، هكذا أيضاً الأفكار الخبيثة التي يجلبها المرء إلى الخارج

<sup>481</sup> . Writings p. 75, 4

<sup>482</sup> . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 179, 98

<sup>483</sup> . Abba Dorotheos. SC p. 514, 193

<sup>484</sup> . Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 189, 154

<sup>485</sup> . Abba Poemen. Sayings. P. 158, 146

<sup>486</sup> . Ibid. p. 75, 12

بالإعتراف الصريح فهي تطلب أن تغادره"<sup>٤٨٧</sup>. لا يوجد شيء يؤذي الراهب ويجلب سعادة كبرى للشياطين مثل إخفائه لأفكاره عن أبيه الروحي"<sup>٤٨٨</sup>، وتنحرف كل حياته الروحية بهذه الطريقة ويصبح لعبة في أيدي الشيطان الذي يستطيع أن يفعل معه ما يحلو له. من أجل ذلك يُعلّم القديس يوحنا كاسيان أنه لا يوجد شيء أكيد يقود للخلاص مثل الإعتراف بأفكارنا الخاصة لأكثر الآباء تمييزاً، ومثل أن نقاد بواسطتهم بدلاً من أن نقاد بأفكارنا وحكمنا الخاص"<sup>٤٨٩</sup>. "إن الذي يخفي أفكاره يبقى بدون شفاء"<sup>٤٩٠</sup>. ولهذا يجب علينا أن نعتز بالفكر الثابت، وأن نحضره لأبينا الروحي المسئول عن خلاصنا: "إكشف لأبيك أي فكر يمكث فيك ويُدخلك في حرب، وهو بمعونة الله سوف يشفيك"<sup>٤٩١</sup>. وعندما نتكلم عن فكر ثابت فإننا نعني الفكر الذي لا يمضي بعيداً، على الرغم من إعتراضنا وإزدراءنا وصلاتنا، ولكنه يستمر في شن الحرب ضدنا، مثل الفكر الشهواني المتحد بالشهوة.

يستشهد القديس يوحنا الدرجي بحالة الراهب الذي قابله في Coenobium وكان معلقاً كتاباً صغيراً في منطقتة كان يكتب فيه أفكاره كل يوم ويربها كلها لراعيه"<sup>٤٩٢</sup>.

قد يكون الراعي المفرز جاهلاً، بحسب العالم ولا يعرف حكمة العالم، ولكنه يعرف حكمة الله. كان الأنبا أرسانيوس معتاداً على الذهاب لأب مفرز، كان بسيطاً وجاهلاً وأمياً، ليسأله عن أفكاره. ولقد سأله أخ آخر قائلاً: "كيف يمكن لك يا أنبا أرسانيوس بكل ثقافتك اليونانية والرومانية العظيمة أن تسأل هذا القروي عن أفكارك؟" فأجاب: "لقد تعلمت بالفعل الرومانية واليونانية ولكنني لا أعرف حتى أبجدية هذا القروي"<sup>٤٩٣</sup>.

عندما يتعلم المرء أن يفتح ذاته على الله، من خلال أب روحي، وأن يكشف كل جراحاته الناتجة عن الأفكار، وأن يكشف الأفكار ذاتها، وفي نفس الوقت ينصت لنصيحته، فإنه يتخلص من كل فكر ويصير في سلام داخلي ويعلم ماذا يعني سلام المسيح.

وإذ نعتز لأبينا الروحي، فإننا نطلب أيضاً صلاته وبركته. يرجع القديس يوحنا ذهبي الفم لكلمات السيد المسيح لرسله، عندما كانوا داخلين بيتاً ليعطوه السلام، ويقول أنه غالباً وبدون أن يزعمنا أحد، فإننا نكون في حرب أفكار ونكون متوترين وتنهض فينا الشهوات الماكرة تجلب

<sup>487</sup> . Philok. 1, p. 103

<sup>488</sup> . Ibid.

<sup>489</sup> . Ibid. p. 106

<sup>490</sup> . Barsanuphius and John. Q. 317. ET p. 87

<sup>491</sup> . Ibid. Q 142. ET p. 58

<sup>492</sup> . Ladder. Step 4. CWS p. 105

<sup>493</sup> . Sayings. P. 8, 6

هذه الحرب كلمات القديسين التي هي بركتهم، وهذا يجلب هدوءاً أكثر في داخلنا. "وعند هذه الكلمة تهرب بعيداً عن أنفسنا كل شهوة شيطانية وكل فكر غير لائق"<sup>٤٩٤</sup>.

ومثلما أكدنا بالمثل في موضع آخر، فإننا نستطيع أن نتخلص من الأفكار بأن نتعهد الفضائل المختلفة. نخلصنا ضبط النفس والحجة من الأفكار الشهوانية"<sup>٤٩٥</sup>. ونتخلص من الأفكار الشريرة بسرعة بضبط الغضب والشهوة"<sup>٤٩٦</sup>. ويساهم أيضاً السهر بمقدار كبير: "يكون الراهب السهران صياداً للأفكار، ويستطيع بسهولة، في هدوء الليل، أن يلاحظها ويمسك بها"<sup>٤٩٧</sup>.

كما تقطع قراءة ناموس الله وسير القديسين الأفكار. من أجل ذلك تكون لكلمات الرسل والآباء وسيرتهم أيضاً قوة كبيرة وتعطي سلاماً للنفس.

توجد طريقة أخرى، وهي خلق أفكار حسنة. ولقد لاحظنا بالفعل من قبل أنه يجب علينا أن نقطع ونطرح عنا كل فكر حتى ولو كان فكراً حسناً، وخصوصاً في وقت الصلاة. ولكن في بعض الأحيان الأخرى، وخصوصاً عندما نكون في بداية الحياة الروحية، نستطيع أن نتعهد الأفكار الحسنة. ولكننا نحتاج أيضاً أن نكون يقظين لئلا نتعهد الخيال من خلالها، لأننا بهذه الطريقة قد نكون نوعاً شيطانياً من الروحانية. "تعهد الأفكار الحسنة بالرعاية، بحيث تجدها ثانية في الدهر الآتي"<sup>٤٩٨</sup> فتتلقى كل شيء بفكر حسن. حتى ولو كان كل شيء قبيحاً فلنتلقه برباطة جأش، وبعد ذلك سوف يجعل الله انحرافات الأشياء مستقيمة. "تقبل برباطة جأش إختلاط الخير بالشر، وبعد ذلك سوف يسوي الله كل تفاوت"<sup>٤٩٩</sup>. بل دعونا نحول الأفكار الشريرة إلى أفكار حسنة.

ومن أحد أفضل الطرق للشفاء من الأفكار والتخلص منها، هو أن نبقي على عقلمنا في الجحيم يحترق بلهيب جهنم. يعلم القديس سلوانس قائلاً: "إذ كان القديس مكاريوس الكبير يطير عبر الفراغ لم يكن يكف عن قمع نفسه، وعندما كانت الشياطين التي سبقته تصرخ نحوه من بُعد أنه قد هرب منها أجابها قائلاً أنه لم يفلت منها بعد. لقد أجاب بهذه الطريقة، لأنه كان معتاداً أن يبقى ذهنه في الجحيم، وبالتالي كان يتملص من الشياطين حقاً.

<sup>494</sup> . Hom. On ITim. 5, 9, para. 14. PG 51, 334. NPNF vol. 13

<sup>495</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, 308, 14

<sup>496</sup> . Ibid. 17

<sup>497</sup> . Ladder. Step 20. CWS p. 196

<sup>498</sup> . Abba Dorotheos. CS p. 186

<sup>499</sup> . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 121, 159

"كان الأب بيمن الكبير قد تتلمذ بخبرة طويلة عن الحرب ضد الشياطين، وكان يعلم أن أكثر الأعداء خطورة وقوة هو الكبرياء، من أجل ذلك حارب كل حياته لكي يكتسب الإلتضاع، وهكذا قال لتلاميذه: "ثقوا يا أولادي أنه حيثما يوجد الشيطان أوجد أنا أيضاً". ولكنه في أعماق قلبه إذ كان يعرف مدى صلاح ورحمة الرب كان يثق أنه سيخلصه. إن قمع النفس بهذه الطريقة هو أفضل الطرق للحفاظ على الذهن نقياً من كل فكر شهواني".

ولكي يبقى المرء على ذهنه في الجحيم ولكي تحترق كل أفكاره بنيران الجحيم، يحتاج لحالة متشبعة بالتوبة، وخصوصاً التوبة العظيمة المتقدة، التي هي عطية من نعمة المسيح. ولو كانت هذه غير موجودة، فعلى الأقل، فليذكر الشخص باستمرار فكر الموت المرتقب ودينونته في الجحيم. يكون هذا الفكر كافياً لينقي العقل ويخلص الشخص من طغيان الأفكار.

عندما يتحرر الشخص، بهذه الطريقة النسكية بأكملها، من طغيان الأفكار ويكون كل من القلب والعقل نقيين، فإنه يمتلك عندئذ بطاقة الروح القدس ويختبر شفاء نفسه وتحرر النفس من كل جراحاتها، وتصبح هيكلًا للثالوث القدوس. ويصبح الشخص كاهناً حقيقياً لنعمة الله، ويمتلك عربوناً لأمر ملكوت السموات الحسنة.

هذا هو الإنسان الطبيعي الحقيقي، الإنسان المتحد بالله بواسطة النعمة.



الباب الرابع

# علم الأمراض الأرتوذكسي





إذ كان القديس يوحنا الإنجيلي يستعد ليتكلم عن معجزة شفاء المفلوج، أخذ يصف لنا بركة بيت حسدا والموقف الذي كان سائداً أثناء زيارة الرب لها. بيت حسدا لها خمسة أروقة: "في هذا كان مضطجعاُ جمهور كثير من مرضى وعمي وعرج وعسم يتوقعون تحريك الماء" (يوه: ٥: ٣).

والكنيسة هي أيضاً بركة فهي بيت حسدا الروحية. إننا جميعاً أعضاءها المنهزمون بالموت والفساد والفناء بكل نتائجه، وننتظر عند هذه البركة راجين شفائنا الروحي.

يفسر القديس يوحنا ذهبي الفم المعجزة التي صنعها الرب في بيت حسدا. إنه يتساءل: "أي نوع من الشفاء هذا؟ أي سر يستعلن لنا هنا؟". ثم يجيب أن البركة تصف وتضاهي ما سيحدث في المستقبل، وهذا في الواقع هو المعمودية: "لقد كان على وشك أن يعطي المعمودية التي لها قوة كبيرة وعظيمة جداً. المعمودية التي تغسل من كل خطية وتجلب الإنسان للحياة عندما يكون قد مات".<sup>١</sup>

وحيث أن المعمودية هي أول الأسرار التي ندخل بواسطتها الكنيسة، فإننا نستطيع أن نعد الرمز ونقول أن الكنيسة هي بيت حسدا الروحية أي المصححة والمستشفى الروحية، فإذا يتذوق كل المسيحيين محبة الله وصلاحه نحو البشر فإنهم يشعرون في نفس الوقت بالفقر الروحي. إننا نرى قوة الأهواء فينا، ونلموس الخطية في أعضائنا، لأن نعمة الله تلقي الضوء على حالتنا الداخلية. هذا هو السبب الذي يجعلنا نشعر بالمرض. هذا الشعور هو بداية الشفاء أو لكي نعبر عن ذلك بصورة أفضل فلنقل أنه بداية رؤية الله طالما أن التوبة والحزن الداخلي يكونا مستحليين في إنسان جسدي. لا يختبر هذه الحقيقة الداخلية إلا الذي يشارك في نعمة الله.

توجد في المستشفيات عيادات خاصة للأمراض. والكنيسة التي هي مستشفى ومصححة روحية لها عيادة الأمراض الخاصة بها. إننا لا نحاول أن نخلق إرتباكاً من جهة هذه المصطلحات، ولكننا نعتقد بقوة أن دراسة الأهواء هي علم الأمراض. من أجل ذلك سوف نلقي هنا نظرة مطولة على موضوع الأهواء. سوف نعرف "الأهواء" وسوف نذهب للتمييز بين الأهواء، ثم نفحص بطريقة تحليلية بقدر المستطاع شفاء الأهواء.

هذا التفسير ضروري لأنه يشكل روح الأرثوذكسية. إننا مقتنعون أن ما يقوله المرء عن كونه أرثوذكسياً يجب أن يشتمل على عدة عناصر رئيسية. يجب على المرء أولاً أن يرجع إلى سقوط الإنسان من الحيلة الإلهية ومأساة حالة السقوط. ثم بعد ذلك يجب عليه أن يتكلم عن الولادة الثانية من خلال المعمودية المقدسة وإستمرارية الولادة الثانية التي

<sup>١</sup> . PG 59, 203. Homily 36 on John. FC 33, p. 352

تحدث في الكنيسة. لا يكون التعليم عن الولادة الثانية أرثوذكسياً عندما ينادي بحدث وقتي يحدث خلال إيمان بالمسيح خارجي، لأن الولادة الثانية تستمر خلال حياتنا بكليتها ولا توجد حدود للكمال الذي لا يعرف القيود لدينا حالة بطرس الرسول الذي منح رؤية النور الغير مخلوق على جبل طابور. لقد تحولت عينه وهكذا رأنا مجد الرب. ومع ذلك فقد أنكر المسيح بعد بضعة أيام. وبلا شك قادته لحظة التجلي الإلهي العظيمة للتوبة والبكاء. لقد ظهرت سقطته كأمر عظيم بالمقارنة بعظم الرؤيا. إننا على أي الأحوال، نلاحظ هنا أن قوة ناموس الخطية كانت قوية لدرجة أنها أدت إلى السقوط حتى بعد التأكد من ألوهية المسيح. وما يخفف من الأمر هو أنه عندما رأى بطرس مجد الرب كان ذلك قبل المعمودية التي حدثت في يوم الخمسين. لم تكن طبيعة الرسول قد تقوت بعد بطاقة الروح القدس.

إننا نرى نفس الشيء بالمثل في بولس الرسول، الذي على الرغم من أنه شعر بالاتحاد الوثيق مع المسيح حتى أنه استطاع أن يقول: "فلحيا لا أنا بل المسيح يحيا في" (غل ٢: ٢٠) إلا أنه قال معبراً عن كل ألم البشرية: "ولكنني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي. ويحيي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت" (رو ٧: ٢٣-٢٤).

سنحاول فيما يلي أن نلقي نظرة على ناموس الخطية الذي هو "الناموس الآخر". إننا نعتقد أن هذا الباب، الذي أطلقنا عليه علم الأمراض، سوف يكون أحد الأبواب الرئيسية في هذا الكتاب. سوف نحاول أن نكون تحليليين جداً لبعض النقاط ذاكرين كل الأهواء مثلما قدمها المسيح والرسل والآباء، لأننا نريد أن نشير للواقع البغيض الذي أصابنا والذي غالباً ما نكون مع الأسف غير واعين له.

## ١ - ما هي الأهواء

إن كلمة هوى بالإنجليزية Passion مشتقة من فعل "Pascho" أي "يتألم" ويشير إلى المرض الداخلي. وبحسب قول فيلوثيئوس السينائي فإن: "تعريف الأهواء في المعنى الحرفي هي تلك التي تكمن بصورة شهوانية في النفس لمدة طويلة"<sup>٢</sup>. سوف نرى فيما يلي كيف تصير الخطية هوى، إننا نرى هنا أن نؤكد بالأخص على حقيقة أنه عندما تتكرر

<sup>٢</sup>. Philok. 3, p. 29, 35

خطية بإستمرار وتكمن في النفس لوقت طويل فإنها تسمى هوى. يذهب الآباء إلى أبعد من ذلك إذ يفسرون الفرق بين الهوى والخطية. فالهوى هو "الحركة الحادثة في النفس" على حين أن فعل الخطية "هو ما هو ظاهر في الجسد".<sup>3</sup>

لقد شرح الرب تعليمه عن الأهواء في عدة نقاط. وهذا التعليم مسجل في البشائر. إننا نشير فقط لبضع نصوص هنا لأننا سوف نعود لذلك الموضوع فيما بعد. لقد أجاب الرب على سؤال الفريسيين: "لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزاً بأيديهم غير مغسولة" موجهاً الانتباه نحو الإنسان الداخلي: "لأنه من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة زنى فسق قتل سرقة طمع خبث مكر عهارة عين شريرة تجديف كبرياء جهل. جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الإنسان" (مر ٧: ٢١-٢٣).

لقد قال في تفسير مثل الزارع، وبالأخص عند الحديث عن البذور التي وقعت "بين الأشواك"، أن الأهواء هي الأشياء التي تخرق البذرة ولا تسمح لها بالإثمار: "والذي سقط بين الشوك هم الذين يسمعون ثم يذهبون فيختنقون من هموم الحياة وغناها ولذاتها ولا ينضجون ثمرًا" (لو ٨: ١٤).

يعلم بولس الرسول أيضاً أن الأهواء توجد في قلب الإنسان. وإذ يتكلم عن الحالة قبل المعمودية التي هي الحياة الجسدية يكتب قائلاً: "لأنه لما كنا في الجسد كانت أهواء الخطايا التي بالناموس تعمل في أعضائنا لكي نثمر للموت" (رو ٧: ٥). وإذ يصف حياة عابدي الأوثان يكتب قائلاً: "لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الهوان" (رو ١: ٢٦).

وهكذا تكمن الأهواء في نفوسنا وتخلق مشاكل مروعة في كل كياننا، كما سنرى في عدة مواضع فيما يلي. وبحسب تعليم القديس غريغوريوس بالاماس فإن الشخص الذي يجب فعل الشر يكره نفسه الخاصة، ويمزق عنه ويبتل صورة الله التي هي نفسه "ويختبر معاناة مشابهة لمعاناة المجنون الذي يقطع لحمه بنفسه إلى قطع صغيرة بلا شفقة وبدون أن يشعر بذلك". إنه يفعل مثله إذ "يتسبب عن جهل في أكثر أنواع الأذى بؤساً ويمزق جماله الفطري الخاص".<sup>4</sup> فالهوى إذاً هو إظلام، وإبطال، وتلطix، الصورة أي جمال الله.

يجب علينا عندما نتحدث عن الأهواء أن نحدد طبيعتها بأكبر دقة، هل هي يا ترى قوى تدخل نفسنا يجب علينا أن نستأصلها، أم أنها قوى طبيعية للنفس أفسدت بالخطية وإنعزالنا

<sup>3</sup>. Nicetas Stethatos. Practical chapters, ch. 37

<sup>4</sup>. 150 Chapters, 40

عن الله؟ يعتقد كل التقليد الكتابي الآبائي في الرأي الثاني. من أجل ذلك يجب علينا أن ندرس فيما يلي النفس وأجزائها بحيث يمكننا حينئذ أن نرى كيف تفسد هذه القوى.

يعلم القديس غريغوريوس بالاماس أنه مثلما أن الله هو عقل وكلمة وروح، هكذا أيضاً النفس تقتني عقل وكلمة وروح. وتكون روح النفس "حركة معينة للعقل، والتي على أية حال، تشمل إمتداداً زمنياً في تلاحم مع كلمتنا يتطلب نفس الفوارق الزمنية ويتقدم من عدم الكمال إلى الكمال".<sup>5</sup> وبحسب هذا القديس فإن الطبيعة الثلاثية للنفس هي عقل وكلمة وروح. وطبيعة المعرفة هي كونها عقلية مدركة حساسة، وأما ثلاثة العقل الذي يتجه نحو ذاته ويرتفع نحو الله فهي العقل والمعرفة والحب.

وبخلاف هذا التصنيف، يستعمل القديس غريغوريوس بالاماس رئيس أساقفة تسالونيكي التصنيف السائد في وقت الفلاسفة اليونانيين القدماء، القائل أن نفس الإنسان واحدة على الرغم من إمتلاكها عدة قوى.<sup>6</sup> وتنقسم لثلاثة أجزاء: الإدراك والقوة الراغبة والقوة الإنفعالية<sup>7</sup> وتشكل القوة الراغبة والقوة الإنفعالية ما يسمى الجزء الحسى للنفس، وأما الكلمة فهي الإدراك<sup>8</sup>. وهكذا إذ نمضي في تقديم موضوع الأهواء يجب علينا أن نفهم الأجزاء الراغبة والإنفعالية للنفس عندما نتكلم عن الجزء الحسى من النفس الذي هو مدنس ويجب أن يشفى. إننا قد نضيف إلى تعليم هذين الأبين الكيرين في الكنيسة تعليم القديس دوروثيوس، الذي إذ يستعمل أحد نصوص القديس غريغوريوس اللاهوتي يكتب قائلاً أن النفس ثلاثية التركيب: "تقتني قوى راغبة وإنفعالية وإدراكية".<sup>9</sup>

يجب على هذه القوى الثلاثة أن تتحول نحو الله وهذا هو وضعها الطبيعي. وبحسب القديس دوروثيوس الذي يتفق مع إيفلاجريوس فإن "النفس المدركة تعمل بصورة طبيعية عندما يشترك جزءها الراغب للفضيلة ويجاهد جزءها الإنفعالي ليحصل عليها ويكرس الإدراك ذاته لتأمل الكائنات".<sup>10</sup> ويكتب القديس ثالاسيوس أن الوظيفة الحقيقية للجانب الإدراكي للنفس هو التكريس لمعرفة الله على حين أن وظيفة الجانب الحسى (الراغب

<sup>5</sup> . Ibid. 36

<sup>6</sup> . cf. ibid . p. 144ff and Amphilochiou Rantovits: The Mystery of the Holy Trinity according to St. Gregory Palamas, p. 55. In Gk.

<sup>7</sup> . EF 410, 3

<sup>8</sup> . St. Gregory Palamas, To Xenii, Gk. Philok. 4, p. 100

<sup>9</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 89, 35

<sup>10</sup> . Abba Dorotheos. CS p. 229. SC p. 478, 176

<sup>11</sup> . Ibid. CS p. 230. SC 480, 179

والإنفعالي) هو الإهتمام بضبط النفس والحب<sup>١٢</sup>. وفيما يخص هذا الموضوع يتفق نيقولا س كاباسيلاس مع الآباء السابقين ويقول أن الطبيعة البشرية كانت قد خلقت لأجل الإنسان الجديد. لقد أعطينا "الفطنة بحيث نعرف الله، والرغبة بحيث نسرع نحوه، ولدينا ذاكرة بحيث نحمله داخلنا" طالما أن المسيح هو النموذج الأصلي للإنسان<sup>١٣</sup>.

وبحسب ما قيل فإن الإنسان لم يُصنع بالأهواء، إذ أنها تعمل في الوقت الحالي في الإنسان الجسداني الذي لا يمتلك عمل الروح القدس. ليس للأهواء لا جوهر ولا أقنوم. وتماماً مثلما لا يمتلك الظلام وجوداً جوهرياً ولكنه غياب النور، كذلك الحال مع الأهواء: "لقد أعدت النفس الطريق للأهواء وأعطتها مكاناً ثابتاً في ذاتها بأن انحرفت بعيداً عن الفضيلة من خلال محبة اللذة"<sup>١٤</sup>. إننا نستطيع أن نوضح ذلك بطريقة أفضل، بأن نقول أن الأهواء هي إنحراف لقوى النفس فالله لم يخلق الإنسان بأهواء الهوان. وكما يقول القديس يوحنا الدرجي: "إن الشر أو الهوى ليس شيئاً مزروعاً بالطبيعة في الأشياء، وليس الله هو خالق الأهواء. وعلى الجانب الآخر فإن العديد من الفضائل الطبيعية أتت إلينا منه"<sup>١٥</sup>. وجود الفضائل هو الحالة الطبيعية للإنسان على حين أن الأهواء هي الحالة الغير طبيعية. لقد شوهنا وأفسدنا طاقات النفس وحولناها من الحالة الطبيعية للحالة الغير طبيعية.

وبحسب القديس يوحنا الدرجي فإن الله لم يتسبب في الشر ولم يخلقه "لقد أخذنا خصائصنا الطبيعية وحولناها إلى أهواء"<sup>١٦</sup>. يعطي نفس القديس عدة أمثلة ليوضح هذا: "بذرة الإنجاب" طبيعية فينا ولكننا نحولها إلى زنا. والغضب الذي أعطاه الله لنا ضد الحياة ولكي نشن حرباً ضد الشيطان هو طبيعي ولكننا إستعملناه ضد القريب. إن لدينا حافز طبيعي لكي نتفوق في الفضيلة ولكننا بدلاً من ذلك نتنافس في الشر. تثير الطبيعة فينا الرغبة في المجد، ولكنه مجد سماوي من أجل الفرح بالبركات السماوية. ومن الطبيعي بالنسبة لنا أن نتكبر ضد الشياطين. الفرح هو ملك لنا بالطبيعة ولكنه يجب أن يكون فرحاً لحساب الرب ولصالح فعل الخير للقريب. لقد أعطتنا الطبيعة إستياءً ولكن يجب أن يكون هذا ضد أعداء نفوسنا. لدينا رغبة طبيعية للطعام ولكن ليس للإسراف<sup>١٧</sup>.

<sup>12</sup>. St. Thalassios. Philok. 2, p. 316, 52

<sup>13</sup>. Nicholas Cabasilas. The Life in Christ. Bk. 6, p. 190

<sup>14</sup>. Abba Dordtheos. CS p. 188

<sup>15</sup>. step 26. CWS p. 238

<sup>16</sup>. Ibid. p. 251

<sup>17</sup>. Ibid. p. 251

من أجل ذلك، يؤكد الآباء باستمرار على حقيقة أن الأهواء، مثلما نعرفها في الحالة الساقطة، هي حياة غير طبيعية ودافع غير طبيعي: "إن الهوى الملوّث هو دافع للنفس مضاد للطبيعة"<sup>١٨</sup>. إذ يشرح القديس مكسيموس طبيعة هذا الدافع المضاد للطبيعة الذي للنفس فإنه يسميه "حب غاشم أو كراهية غاشمة نحو شخص ما أو شيء حسي ما"<sup>١٩</sup>. ويكتب في موضع آخر أن الرذيلة هي استعمال خاطئ لصورتنا الذهنية عن الأشياء، والذي يؤدي إلى سوء استخدام الأشياء ذاتها. إنه إذ يأخذ مثال الزواج يقول أن الإستعمال الصحيح للقاء الجنسي هو إنجاب الأطفال أما الشخص الذي يطلب فيه اللذة الحسية فقط فهو "يستعمله بصورة خاطئة لأنه يحسب الرذيلة على أنه جيد وعندما يلتقي مثل هذا الرجل جنسياً مع امرأة فإنه يسيء إستعمالها" وينطبق نفس الشيء على الأمور الأخرى<sup>٢٠</sup>.

✦ يسود الإفتخار على الجزء الإدراكي <sup>intellect</sup> لنفس الإنسان الساقط، وتسود الإنحرافات الجسدية على الجزء الراغب، وأما الجزء الإنفعالي فتسوده أهواء الكراهية والغضب والضعينة.

إهتم القديس مكسيموس بالحياة الطبيعية والغير طبيعية للنفس، وقام بتحليلها بإستفاضة. وكتب أن القوى الطبيعية للنفس هي الإدراك والرغبة والقوة الإنفعالية. والإستعمال الطبيعي للإدراك هو "حركة نحو الله في أبسط سعي" وللرغبة هو "إنجاء نحو الله وحله بإشتياق" وللقوة الإنفعالية هو "جهاد للحصول على الله وحله". وهذا يعني أنه عندما يعيش شخص ما بصورة طبيعية فإنه يريد أن يعرف الله تماماً، ويرغب في الله فقط، ويجاهد لكي يحصل على الله، أي لكي يحصل على الشركة مع الله ويكون الحب هو نتيجة هذا الدافع الطبيعي. يكتسب الإنسان المتحد بالله حالة الحب المباركة، طالما أن الله محبة. يقول الكتاب المقدس: "تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك" (مر ١٢ : ٣٠). عندما يستخدم شخص ما قوى نفسه الثلاثة هذه بطريقة غير طبيعية، تكون نتيجة الإدراك جهلاً روحياً، ونتيجة الرغبة محبة الذات، ونتيجة القوة الإنفعالية طغياناً، وهكذا يصبح الشخص مستعبداً تماماً للشيطان ويُفسد جمال النفس<sup>٢١</sup>.

ويحلل القديس مكسيموس في موضع آخر طبيعة سوء الإستعمال. سوء إستعمال القوة الإدراكية هو جهل وغباء، وسوء إستعمال القوة الراغبة والإنفعالية هو الكراهية والإبالية.

<sup>18</sup> . St. Maximus. Philok. 2 p. 56, 35

<sup>19</sup> . Ibid. p. 67, 16

<sup>20</sup> . Ibid. p. 67, 17

<sup>21</sup> . Monk Artemiou Rantosavlievits: the Mystery of Salvation according to St. Maximus the Confessor. p. 130, note. ( In Gk.)

ويؤدي الإستعمال السليم لهذه القوى إلى معرفة روحية وتمييز أخلاقي وحب وضبط للنفس، وبالتالي لا يوجد شيء مخلوق من قبل الله شرير<sup>٢٢</sup>. وتعني حقيقة أنه لا يوجد شيء طبيعي شرير، أن الشر يكون موجوداً عندما نقوم نحن بتشويه القوى. يستعمل أيضاً القديس مكسيموس عنة أمثلة. ليست الأطعمة هي الشريرة ولكن النهم، ليس إنجاب الأطفال ولكن النجاسة، ليست الأشياء المادية ولكن البخل، ليست الكرامة ولكن الكبرياء<sup>٢٣</sup>.

إن سوء إستعمال قوى النفس هو الخطيئة والمرض. ويرى القديس دوروثيوس أن الرذيلة هي "مرض للنفس يجرمها من صحتها الطبيعية التي هي الفضيلة"<sup>٢٤</sup>.

وهكذا نستطيع أن نتكلم عن مرض الإنسان الذي يجب أن يشفى منه. إذ أن نجاسة النفس هي "ألا تعمل بحسب الطبيعة"، وتتولد من هذه الحالة أفكار الأهواء في العقل. تظهر الحالة الطبيعية لنفس الإنسان التي هي الصحة بلا منازع عندما تبقى أجزاؤها الحسية (أي قوتها الراغبة والإنفعالية) بلا هوى في مواجهة المثيرات<sup>٢٥</sup>. وحيث أن نفس الإنسان متناسقة ولها عنة قوى، فإنه عندما تعرض إحلى قواها تعرض باقي القوى أيضاً<sup>٢٦</sup>.

يُعلم القديس غريغوريوس بالاماس، أنه تماماً مثلما يؤدي سوء إستعمال معرفة الأمور المخلوقة إلى تولد "الحكمة التي تصبح حماقة"، هكذا يؤدي أيضاً سوء إستعمال قوى النفس إلى تولد "الأهواء البغيضة"<sup>٢٧</sup>.

الأهواء هي إذاً دافع غير طبيعي في قوى النفس، وتحول للأجزاء الحسية والمدركة للنفس بعيداً عن الله، ونحو الأشياء المخلوقة. ويظهر ذلك في حقيقة أنه عندما يُشفى شخص ما داخلياً بواسطة عمل نعمة الله مع جهاده الخاص، فإن قوى النفس الحسية لا تقمع ولا تُصدّ ولكنها تتحول نحو الله. إنها تندفع نحوه وتحصل على المعرفة والشركة معه. أشار القديس غريغوريوس بالاماس لبرلعام النبي أصر على أن الألم والحزن لا ينتميان للصلاة ولكن ينبغي على المرء أن يمت القوى الحسية أثناء الصلاة لكونها شريرة. وعلم القديس غريغوريوس قائلاً أنه توجد "أهواء مباركة، وأنشطة مشتركة للجسد والنفس، والتي بخلاف تسمير الروح في الجسد، فإنها تخدم في إعطاء مجد للجسد شبيه

<sup>22</sup>. Philok. 2. p. 83, 3

<sup>23</sup>. Philok. 2. p. 83, 4

<sup>24</sup>. SC p. 342, 106. cf. CS p. 166

<sup>25</sup>. Philok. 2, p. 89, 35

<sup>26</sup>. Palamas. EF p. 410

<sup>27</sup>. Triads. 2, 2, 19. CWS p. 54

مجد الروح". لا تنتقل هذه الأنشطة من الجسد العقل ولكن من العقل الجسد<sup>٢٨</sup>. من أجل ذلك فإننا لا نحاول أن نقتل الأهواء عندما نحاول أن نحصل على الشفاء، ولكننا نعيد توجيهها كما سنشرح فيما بعد.

تكون الدموع والحزن والتوبة والألم، التي هي وسائل فعالة لشفاء النفس، هي بعينها الأشياء التي تطهر أجزاء النفس الحسية والمدركة.

ونريد في ختام هذا الجزء أن نؤكد، بصورة رئيسية، على أن أهواء الجسد هي طاقات للنفس قد تشوهت. وعندما ينقص النفس الحب وضبط النفس تشوه أهواء أجزاء النفس الإنفعالية والراغبة. وتثار هذه الأهواء من خلال الحواس<sup>٢٩</sup>. وتكون أهواء الحياة الجسدية (بمعنى غياب الروح القدس) حركة غير طبيعية للنفس، وبالتالي تكون هي موتها ومرضاها.

## ٢- أنواع الأهواء وتطورها

والآن بعدما رأينا طبيعة الأهواء، فنحن مستعدون لتأمل كيفية تصنيفها وكيفية تطورها. وسنشرح في نفس الوقت في سردها، لأننا نعتقد أن هذا سيساعد المسيحيين الذين يجاهدون الجهاد الحسن. ونحن نحتاج أن نقوم بتشخيص الأهواء لكي نشفي منها.

إن التعليم عن الأهواء لا يوجد في كتابات الآباء فقط ولكن في الكتاب المقدس أيضاً. فيتكلم بولس الرسول عن الجسد، وهو أمر معروف أن الإنسان الجسداني بالنسبة له هو ذاك المحروم من طاقات الروح القدس: "لأن الجسد يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد وهذان يقاوم أحدهما الآخر" (غل ٥: ١٧). ثم بعد ذلك يعرف أعمال الجسد التي هي الأهواء الجسدية: "وأعمال الجسد ظاهرة التي هي زنى عهارة لحجاسة دعارة عبادة أوثان سحر عداوة خصام غيرة سخط تحزب شقاق بدعة حسد قتل سكر بطر وأمثال هذه التي أسبق فأقول لكم عنها كما سبقت فقلت أيضاً إن الذين يفعلون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله" (غل ٥: ١٩-٢١).

وفي رسالته إلى أهل رومية، يسرد بولس الرسول أعمال الخطية والأهواء التي تطعن كل كيانتنا. ويكتب عن أولئك الذين هجروا الله وعبدوا الأوثان قائلاً: "وكما لم

<sup>٢٨</sup> 28. Triads. 2, 2, 12. CWS p. 51

<sup>٢٩</sup> 29. Maximus. Philok. 2, p. 59f, 65



يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق  
مملوئين من كل إثم وزنا وشر وطمع وخبث مشحونين حسداً وقتلاً وخصاماً ومكرراً  
وسوءاً، ثمانية مفترين مبغضين لله ثالين متعظمين مدعين مبتدعين شروراً غير طائعين  
للوالدين بلا فهم ولا عهد ولا حنو ولا رضى ولا رحمة" (روا: ٢٨-٣١).

إنه يصف لتلميذه تيموثاوس حالة الناس في الأيام الأخيرة قائلاً: "لأن الناس  
يكونون محيين لأنفسهم محيين للمال متعظمين مستكبرين مجدفين غير طائعين لوالديهم  
غير شاكرين دنسين بلا حنو بلا رضى ثالين عديمي النزاهة شرسين غير محيين للصالح  
خائنين مقتحمين متصلفين محيين للذات دون محبة الله لهم صورة التقوى ولكنهم منكرون  
قوتها" (٢ تي ٣: ١-٥).

تُظهر النصوص الثلاثة التي إستشهدنا بها حالة الإنسان المتعد عن الله. إنه حقاً  
رسم نفس psychogram، وأشعة سينية مهمة لتصوير نفس الإنسان الذي تحكمه  
الأهواء. ولكننا سوف نستمر في التأمل في التحليل الموجود في كتابات الآباء.

يرى القديس مكسيموس، أن الهوى الرئيسي الذي تنبع منه كل الأهواء هو محبة  
الذات. يكون الإنسان محباً للذات عندما يحب نفسه بإفراط ويعبد ذاته. وعندما يبتعد  
إهتمام الإنسان بعيداً عن الله ولا يكون مهتماً بالاتحاد به ويعمل مشيئته، فإنه عندئذ يتجه  
بالضرورة نحو ذاته راغباً في إشباع ذاته كل حين. يقول القديس مكسيموس: "إحفظ  
نفسك من أم الرذائل تلك التي هي محبة الذات". ويعرف محبة الذات قائلاً أنها "محبة  
غاشمة للجسد" وهي تولد أول ثلاثة أفكار شهوانية وهي الأكثر عمومية وهي "النهم  
والبخل وتعظيم الذات" ثم "تتولد أية رذائل إضافية من هذه الثلاثة"<sup>30</sup>.

وفي موضع آخر إذ يصف النتائج الرهيبة لمحبة الذات، فإنه يسميها الأم التي يأتي منها  
عدة بنات. تتسبب الثروة والنهم في الإفراط والبخل، ويتسبب تعظيم الذات في أن  
يكره المرء قريبه. وتكون محبة الذات التي هي أم الرذائل في كل هذه الأشياء<sup>31</sup>.

يصف القديس مكسيموس بالتفصيل في رسالته "إلى ثالاسيوس" سلسلة أنساب  
محبة الذات والتي يرتبها في فئتين. يضع في الفئة الأولى الأهواء التي تؤدي إلى لفنة حسية،  
وفي الفئة الأخرى تلك التي تعمل على إقصاء الألم بعيداً. فيضع في الفئة الأولى الأهواء

<sup>30</sup> . Maximus. Philok. 2, p. 75, 59

<sup>31</sup> . Ibid. p. 84, 7

التالية: "النهم - الكبرياء - تعظيم الذات - الإنتفاخ - البخل - الطغيان - التكلف - التباهي - الحماقة - الجنون - الوقاحة - الخيال - الإزدراء - الإهانة - التمرد - كلام العيث - الفجور - الإباحية - التفتخر - الطياشة - الغباء - العنف - السخرية - الثرثرة - الكلام في غير أوانه - الكلام الغير محتشم وكل شيء آخر من هذا القبيل".

أما الفئة الثانية فيضع فيها الأهواء التالية: "غضب - حسد - كراهية - عداوة - ضغينة - إستغلال - إغتياب - إفتراء - أسى - عدم ثقة - يأس - ذم في عناية الله - فتور - تبلد - قنوط - إكتئاب - جبن - حزن - حزن في غير أوانه - دموع - جنون - نحيب - غيرة - حسد - حقد وكل ما يغتنم الفرصة لأية لذة"<sup>32</sup>.

يضع القديس غريغوريوس بالاماس تصنيفاً آخر. ولقد أشرنا إليه في الفصل السابق وهو أن النفس تنقسم إلى ثلاثة أجزاء: الجوانب الإدراكية والإنفعالية والراغبة. وأول مولود شرير للجزء الراغب هو محبة القنية، والثاني هو البخل. والمولود من الجزء الإدراكي هو محبة المجد، والعلامة المميزة للجزء الإنفعالي من النفس هي النهم الذي يأتي منه "كل نجاسة الجسد"<sup>33</sup>. وتعبير آخر فإنه تولد من محبة الذات، التي هي سيلة وأم كل الأهواء، الثلاثة أهواء العامة أي محبة المجد والبخل والتهاون. وتنبع من هذه الثلاثة كل الأهواء الأخرى التي تدنس نفس وجسد الإنسان.

يعمل القديس مرقس التاسك على تقييم الأهواء، وعلى إيجاد الأمهات التي تلد أهواء أخرى، ويكتب أنه توجد ثلاثة أهواء عظيمة والتي عندما تُهزم وتُذبح تُزال كل قوى الأرواح الشريرة الأخرى بسهولة. وهذه الثلاثة العظمى هي الجهل الروحي الذي هو مصدر كل الشرور، والنسيان "بكل ما يتعلق به ويساعده"، والكسل الذي "يحبك حجاباً مظلماً يلف النفس بالضباب". ويقوم الكسل والنسيان والجهل "بتدعيم وتقوية الأهواء الأخرى"<sup>34</sup>.

هذا الاختلاف بين الآباء الثلاثة ليس اختلافاً جوهرياً. فمحبة الذات والنسيان والكسل والجهل بالله هي جميعها مناهجاً مهيباً تنمو فيه كل أهواء محبة المجد والتهاون والبخل. لقد أشار كل واحد من الآباء إلى هوى مختلف بحسب جهاده الشخصي، وبحسب الموضوع الذي أراد أن يؤكد عليه. لم يكن الآباء يتفلسفون أو يحللون كل نفس عندما

<sup>32</sup> . Rantosavlievits: The Mystery of Salvation according to Maximus the Confessor.

P. 131, note.1. ( In Gk)

<sup>33</sup> . St. Gregory Palamas. To Xen. Gk. Philok. 4, p. 100ff

<sup>34</sup> . St. Mark the Ascetic. Writings p. 28

سردوا قائمة هذه الأهواء، ولكنهم كانوا دائماً يتحدثون من خبراتهم الشخصية. ويجب علينا، بالإضافة إلى ذلك، أن نشير إلى أن محبة الذات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالجهل والسيان والكسل، لأن تركيز الإهتمام على الذات لابد وأن يجلب نسياناً وجهلاً بالله يؤدي إلى ولادة كل الخطايا الأخرى والأهواء.

ويرى القديس يوحنا الدمشقي أن النفس لها ثلاثة أجزاء: الإدراكي والإنفعالي والراغب. وخطايا الجزء الإدراكي هي الكفر والهرطقة والحقاقة والتجديف وعدم الشكر "وقبول الخطايا النابعة في الجزء الحسي من النفس". وخطايا الجزء الإنفعالي هي القساوة والكراهية وإنعدام الحنو والضعينة والحسد والقتل "والبقاء في مثل هذه الأمور باستمرار". وخطايا الجزء الراغب هي النهم والطمع والسكر والنجاسة والزنا والدنس والإباحية ومحبة الأشياء المادية والرغبة في المجد الباطل والذهب والثروة ولذات الجسد. يسرد نفس القديس قائمة الأفكار الثمانية التي تقوم بكل شر والتي ترتبط طبيعياً بالأهواء المقابلة لها، طالما أن الخطايا تأتي للوجود وتنمو إلى أهواء من خلال الأفكار. هذه الأفكار الثمانية هي أفكار النهم والنجاسة والبخل والغضب والإكتئاب والفتور وتعظيم الذات والكبرياء<sup>35</sup>.

وعلى حين أن تصنيف الأهواء الذي فحصناه يطابق تصنيف أجزاء النفس إلى حد بعيد، إلا أنه يجب علينا الآن أن نمضي لتصنيف آخر نلجأ في التعليم الأبائي، والذي تنقسم فيه الأهواء إلى أهواء جسدية وأخرى نفسية. فتوجد للنفس الأهواء المرتبطة بها، كما توجد للجسد الأهواء اللحمية المرتبطة به.

ومن المعروف جيداً في التعليم الأبائي أن نفس الإنسان قبل السقوط كانت مفتوحة على الله، وكانت تتغذى بنعمة الله. وكان على الإنسان، بلا شك، أن يجاهد لكي يصل للشركة والاتحاد الكامل مع الله، ولكن على الرغم من ذلك فإنه تذوق نعمة الله في ذلك الوقت. وهكذا كانت النفس تتغذى بالنعمة الغير مخلوقة، وكان الجسد يتغذى "بالنفس الممتلئة بالنعمة". لقد تذوق الإنسان بكلية مذاقة عطايا الله. ومنذ السقوط انفصلت النفس عن الله المصدر الحقيقي للحياة "وطلبت التغذية من الجسد". وبهذه الطريقة ولدت أهواء النفس. وأما من جهة الجسد فإذا لم يجد حياة في النفس إتجه نحو الأشياء الخارجية وكنتيجة طبيعية لذلك صار مستعبداً للمادة ومحبوساً في دائرة الفساد. وهكذا ظهرت الأهواء الجسدية المحبة للذة، وأصبح الإنسان يجاهد لكي يجلب الحياة والفرح من الأشياء المادية<sup>36</sup>. هذا هو موت الجسد وخصوصاً موت النفس. إلا أننا لو بذلنا جهداً من

<sup>35</sup> . Pilok, 2, p. 337

<sup>36</sup> . P. Nela, Zoon theoumenon, p. 203-204, In Gk.

خلال النسك والحياة في المسيح، لكي نوجه أنفسنا نحو الله لكي نتغلب منه فعندئذ يتغلب الجسد "من النفس المثلثة بالنعمة"، وهكذا يتقدس الإنسان بمجملته. إننا نرى ذلك في قديسي الكنيسة الذين تعطلت فيهم وظائف الجسد في بعض الأحيان.

ويرى القديس مكسيموس أن بعض الأهواء تناسب الجسد والبعض الآخر النفس. يتسبب الجسد في الأهواء الجسدية، على حين تتسبب الأشياء الخارجية في أهواء النفس<sup>٣٧</sup>. إننا نجد نفس التمييز بين الأهواء في تعليم إيليا القس الذي يقول: "أهواء الجسد هي شيء وأهواء النفس هي شيء آخر"<sup>٣٨</sup>.

يتولى القديس يوحنا الدمشقي مهمة سرد قائمة أهواء الجسد وأهواء النفس. وأهواء النفس هي النسيان والكسل والجهل التي تُظلم من خلالها عين النفس وبالتالي تسيطر كل الأهواء الأخرى على النفس. وهذه هي عدم التقوى - التعليم الخاطئ وكل نوع من المهرطقة - التجديف - الغيظ - الغضب - القساوة - التوتر - اللاإنسانية - الضغينة - الإغتياب - النقد - الإكثتاب - الخوف - الجبن - المشاكسة - الغيرة - الحسد - تعظيم الذات - الإفتخار - الرياء - الكذب - الشك - الطمع - محبة الأشياء المادية - الرغبة الشريرة - التعلق بإهتمامات العالم - الفتور - عدم الشجاعة - عدم الشكر - التذمر - الزهو - الخيال - التباهي - التبجح - محبة القوة - محبة الشهرة - الخداع - الوقاحة - عدم الإحساس - التملق - الخيانة - التظاهر - التردد والموافقة على الخطايا التابعة من الجزء الحسى من النفس والبقاء فيها بإستمرار". وتكون أيضاً الأفكار المتجولة ومحبة الذات هي جذور ومصدر كل الشرور التي هي البخل وفي النهاية الخبث والمكر.

ويرى القديس يوحنا الدمشقي أن أهواء الجسد، هي النهم والطمع والتهاون والسكر والأكل في الخفاء وسهولة المعيشة بوجه عام، والنجاسة والزنا والإبالية والدنس وزنا المحارم واللواط ومضاجعة البهائم والشهوات النجسة، وكل هوى آخر يكون غير طبيعي وأحق، والسرقه وتدنيس المقدسات والإحتلاس والقتل وكل نوع من الترف الجسدي وإشباع أهواء الجسد، وخصوصاً عندما يكون الجسد في صحة جيدة. توجد أهواء جسدية إضافية وهي: إستشارة العرافين - السحر - مراقبة التباشير والدلائل - التزين - التفاخر - الظهور الأحق - إستخدام أدوات التجميل - تلوين الوجه - إضاعة الوقت - أحلام اليقظة - التحايل - سوء إستخدام ملذات هذا العالم بطريقة شهوانية. وأهواء

<sup>37</sup> . Philok. 2, p. 59, 64

<sup>38</sup> . Philok. 3, p. 63, 122

أخرى للجسد وهي الحياة في سهولة جسدية "التي إذ تجعل العقل غليظاً تجعله تريباً وبهيمياً ولا تدعه يرفع نفسه أبداً نحو الله وممارسة الفضائل"<sup>39</sup>.

يلخص القديس غريغوريوس السينائي كل تعليم الآباء عن أهواء الجسد وأهواء النفس ويكتب قائلاً: "توجد أسماء مختلفة للأهواء ولكنها تنقسم إلى أهواء للجسد وأهواء للنفس. وتنقسم الأهواء الجسدية إلى أهواء مسببة للحزن وأخرى مسببة للخطية. ثم تنقسم الأهواء المسببة للحزن إلى تلك الخاصة بالمرض والأخرى الخاصة بالعقاب. أما أهواء النفس فتتنقسم إلى الأهواء الخاصة بالأجزاء الإنفعالية والراغبة والإدراكية للنفس. تنقسم أهواء الجزء الإدراكي إلى أهواء التخيل وأهواء الفهم. وتكون جميعها إما إرادية من خلال سوء الإستعمال، أو غير إرادية من خلال الضرورة. وتسمى الأخيرة أهواء غير مخزية ويصفها الآباء على أنها تنتج عن الخصائص الخيطة والطبيعية. بعض الأهواء هي أهواء للجسد وأخرى للنفس. البعض هي أهواء الرغبة والأخرى هي أهواء الجزء الإنفعالي على حين أن البعض الآخر هي أهواء الإدراك؛ بعضها أهواء العقل والأخرى أهواء الفهم.

تتحد كل هذه مع بعضها البعض بطرق متنوعة، ولها تأثير الواحدة على الأخرى: فالأهواء الجسدية تؤثر على أهواء الرغبة، وأهواء النفس على الأهواء الإنفعالية وأهواء الإدراك على أهواء العقل، وأهواء العقل على أهواء الفهم والذاكرة<sup>40</sup>.

يجب علينا، على الرغم من ذكر وتصنيف الأهواء، أن نلاحظ أن الأهواء لا تنفصل بعضها عن بعض بطريقة محددة. فالواحدة ترتبط بالأخرى بطريقة وثيقة، وبهذه الطريقة يتدنس الشخص تماماً ويموت. تصبح النفس مريضة من خلال الأهواء ويموت العقل. وهكذا يصبح الشخص عابد وثن، ولا يستطيع أن يرث ملكوت السموات. قول بولس الرسول واضح ومقسم: "فإنكم تعلمون هذا، أن كل زان أو نجس أو طماع الذي هو عابد للأوثان، ليس له ميراث في ملكوت المسيح والله" (أف ٥: ٥).

يوجد أيضاً تصنيف آخر للأهواء، وهو أهواء الرهبان وأهواء العلمانيين. وحيث أن طريقة حياة الرهبان الذين يمارسون النسك في أديرة تختلف عن حياة العلمانيين، فإن بعض الأهواء تسود في موقف وتسود الأخرى في موقف آخر.

يكتب القديس يوحنا الدرجي، أن أصل كل الشرور في الناس الذين يعيشون في

<sup>39</sup> . Philok. 2, p. 335

<sup>40</sup> . Acrostics, 77. Writings. P. 50f

العالم هو البخل، ولكنه يكون النهم في الرهبان<sup>41</sup>. ولكي يشرح ذلك، فإنه يشير إلى أن بعض الأهواء تبدأ من الداخل وتظهر على الجسد، على حين أن البعض الآخر يأتي من خارج إلى داخل النفس. تحدث الأولى في الرهبان غالباً "بسبب نقص المثيرات الخارجية" على حين تحدث الأخيرة عادة في الذين يعيشون في العالم<sup>42</sup>. وبالمثل فإن الأهواء التي تظهر في المرض تختلف في الرهبان عنها في العلمانيين. فعندما يمرض أهل العالم فإنهم يعانون من النهم والزنا. أما الرهبان فإذا يمتلكون الدعم المادي فإنهم يجدون أنفسهم مطعونين بصفة أساسية بشياطين الكآبة وعدم الشكر<sup>43</sup>. يُظهر ذلك أن الإنسان لا يحارب بنفس التجارب دائماً، ويعتمد ذلك على حالته الروحية وطريقة حياته وعوامل أخرى أيضاً. إن الشيطان متعدد المصادر، ويعرف كيف يحارب كل شخص بحسب حالته.

لقد أشرنا من قبل، أن بعض الأهواء تتميز بكونها أمهات والبعض الآخر بنات. فبعض الأهواء تلد والبعض يولد من الآخر. لقد تعلم القديس يوحنا الدرجي من الرجال المقدسين أن النهم هو أم النجاسة، وتعظيم الذات هو أم الفتور. وهذا يعني، أنه عندما يتمكن الفتور منا فمن الممكن أن نكون متأكدين أن هوى تعظيم الذات يعمل فينا. وبالمثل فإن الإكتئاب والغضب هما بنات لهذه الثلاثة. وتعظيم الذات هو أم الكبرياء. ولقد تعلم أيضاً أنه لا يوجد تمييز ولا نظام في الأناس عديمي العقل، بل بالأحرى إرتباك وإضطراب. أحياناً ما تتولد النكات الغير لائقة من النجاسة، وأحياناً أخرى من تعظيم الذات. أحياناً ما يأتي فرط النوم من حياة سهلة، وأحياناً أخرى من الصوم أو من الفتور، وفي أحيان ثالثة من إحتياج طبيعي. تتولد الثروة أحياناً من النهم، وأحياناً أخرى من تعظيم الذات. وأحياناً ما يتولد الفتور من حياة سهلة، وأحياناً أخرى من ضعف مخافة الله. والتجديف هو الإبن الحقيقي للكبرياء، ولكنه عادة ما يأتي من الإستعداد لإدانة القريب أو من حسد الشياطين. تأتي قساوة القلب، في بعض الأحيان، من الأكل حتى الشبع، وغالباً ما تأتي من عدم الحساسية والتعلق. والتعلق هو الإلتصاق بأي شيء حسي، ويأتي من النجاسة أو البخل أو تعظيم الذات، بالإضافة إلى أشياء أخرى أيضاً. يأتي الخبث من التخيل ومن الغضب، والرياء من الإتكالية وتوجيه النفس. وبوجه عام فإن اللنة الحسية والخبث هما المولدان لكل الأهواء<sup>44</sup>.

<sup>41</sup> . Ladder. Step 26. CWS p. 239

<sup>42</sup> . Ladder. Step 15. CWS p. 182

<sup>43</sup> . Ibid. Step 26. CWS p. 233

<sup>44</sup> . Ibid. Step 26. CWS p. 233

ومن المهم في هذا الموضوع، أن نبحث عن كيفية تطور الخطية إلى هوى. وذلك لأن الآباء الخبراء في هذا الجهاد الداخلي لا يكتفون بمجرد سرد قائمة الأهواء ببساطة، ولكنهم يذهبون إلى تسجيل أسبابها وتطورها. وبحسب القديس ثالاسيوس تتولد الأهواء من خلال هذه الأشياء الثلاثة: "الذاكرة ومزاج الجسد والحواس"<sup>45</sup>. فالشخص الذي يثبت عقله في الأمور الحسية، متغرباً عن المحبة الروحية وضبط النفس، قابلاً لعمل الشيطان، يُصبح موضعاً للإثارة. "تثار الأهواء بواسطة الحواس، عندما يغيب ضبط النفس والمحبة الروحية"<sup>46</sup>.

عندما تنحل أحقاء الحواس الأكثر سيادة، فإن الأهواء تتصاعد "وتتحرك طاقة الأهواء الأكثر ذلاً"<sup>47</sup>. وعندما تفلت عدم منطقية الحواس من سلاسل ضبط النفس، فإنها تولد أسباب الأهواء<sup>48</sup>. وفي الحقيقة ومثلما أشرنا من قبل عندما يلهو عقل الإنسان بشيء حسي ما "فإنه يتعلق به بوضوح بهوى معين مثل الرغبة أو التوتر أو الغضب أو الضغينة"<sup>49</sup>. من أجل ذلك، فإن الجهاد الموصوف من قبل الآباء هو ألا ندع عقلنا يدخل في أسر أي شيء أو فكرة حسية، لأن ذاك يتبعه الهوى والكارثة في الحال. وهكذا تُزرع بذور المأساة في نفسنا بواسطة دخول عقلنا في الأسر.

وبخلاف دخول عقلنا في الأسر، فإن الشهوة تلعب دوراً مهماً في خلق الأهواء. يصف القديس يعقوب أخو الرب هذه الحالة قائلاً: "ولكن كل واحد يجرب إذا انجذب وإنخدع من شهوته. ثم الشهوة إذا حبلت تلد خطية والخطية إذا كملت تنتج موتاً" (يع ١: ١٤-١٥). عندما سأل أخ الأنبا شيشوي: "ماذا أفعل حيال الأهواء؟" أجابه الشيخ قائلاً: "كل واحد يجرب إذا انجذب وإنخدع من شهوته"<sup>50</sup>.

وفي تحليل أكثر إستفاضة، فإن تطور الأهواء يحدث كما يلي. يرى القديس مكسيموس أن الذاكرة تجلب أولاً بعض الأفكار الخالية من الهوى داخل العقل. وعندما يتوانى هذا الفكر يتحرك الهوى. وتكون الخطوة التالية هي الموافقة، وتؤدي الموافقة إلى إرتكاب الخطية فعلاً<sup>51</sup>.

<sup>45</sup> . Philok. 2, p. 320f, 32

<sup>46</sup> . Philok. 2, p. 321, 34

<sup>47</sup> . Gk. Philok. 3, p. 274, 6

<sup>48</sup> . Ibid.

<sup>49</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 65

<sup>50</sup> . Sayings, p. 185, 44

<sup>51</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 62, 84

يوضح هيزيحيوس القس المسار الذي تتبعه الأهواء. تأتي الإثارة أولاً، ثم يتبعه بعد ذلك إمتزاج أفكارنا الخاصة بأفكار الشيطان. ثم تأتي موافقتنا وبعد ذلك يأتي "الفعل الملموس الذي هو الخطية ذاتها"<sup>52</sup>. وعندما تتكرر الخطية عدة مرات يتولد الهوى.

يكتب القديس غريغوريوس بالاماس، في التقليد الأرثوذكسي للعلاج الشافي، قائلاً أن التهاون هو بداية الأهواء الجسدية ومرض النفس. ويكون "أول من يعاني في هذه الحالة هو العقل" أي أن العقل هو أول من يُهْلَجَم، فهو يحرك الأهواء الشريرة ويجلب تحيل الأمور الحسية إلى داخل النفس من خلال الحواس، ويصير معرضاً لهذه الخطايا. ويحدث تأثير هذه الصور من خلال العينين بصورة رئيسية<sup>53</sup>.

يصف القديس يوحنا الدرجي، بصورة تحليلية، كيف يتطور هذا الفكر حتى يصبح هوى. فالإثارة والإرتباط والموافقة والأسر والصراع والهوى هي جميعها أشياء مختلفة. وإذا تحليلها فإنه يكتب قائلاً أن الإثارة هي كلمة أو مجرد صورة عارضة بسيطة تظهر في القلب للمرة الأولى. وهذه ليست خطية. الإرتباط هو الإتحاد مع ما ظهر سواء كان بهوى أو بغير هوى. وأحياناً ما تكون هذه الحالة غير مستحقة للوم. أما الموافقة فهي خضوع النفس بإبتهاج لما كانت قد واجهته. يكون هذا جيد أو حسن بحسب حالة الناسك. والأسر "هو خطف القلب بالقوة وضد الإرادة، وهو توان مستمر مع ما كنا قد واجهناه". ويكون الحكم على الأسر مختلفاً بحسب ما إذا كان يحدث في وقت الصلاة أو في وقت آخر. "الصراع" يعني قوة مساوية لتلك التي تقود الهجوم، أي صراع وحرب النفس لكي لا ترتكب الخطية. وقد تؤدي هذه الحرب إما إلى الإكليل أو إلى العقاب. وأخيراً يأتي الهوى الذي مثلما قلنا هو شيء "يَكْمُنُ في النفس لزمان طويل" ويسود على النفس بسبب العادة المستمرة لكي تستسلم له. ويتطلب هذا الهوى توبة مناسبة أو دينونة مستقبلية<sup>54</sup>.

وبالإضافة لهذا الوصف عن كيفية تطور الفكر إلى هوى، فإن الآباء يصفون أيضاً تطوراً آخر وهو كيفية ظهور الأهواء مع السن.

يقول القديس غريغوريوس بالاماس أن الأهواء تتطور منذ الطفولة المبكرة بالترتيب التالي: تأتي أولاً أهواء الجزء الراغب للنفس التي هي القنية والطمع. فالطفل الصغير يريد أن يحكم قبضته على الأشياء، وعندما يكبر إلى حد ما فإنه يريد الأموال. وفيما بعد ومع

<sup>52</sup> . Philok. 1, p. 170, 46

<sup>53</sup> <sup>53</sup> . To Xen. Gk. Philok. 4, p. 105

<sup>54</sup> <sup>54</sup> . Ladder. Step 15. CWS p. 182



"تقدم السن" يتكون هوى محبة المجد الذي يُرى في صورتين: الأولى هي محبة المجد العلمية، التي تبغي "أدوات الزينة والملابس الثمينة"، وأما الثانية فهي محبة تعظيم الذات، التي تهلج البار وتظهر نفسها في الخداع والرياء، والتي من خلالها يتكرر ما يششت الغنى الروحي للنفس. وفي النهاية يتكون التهاون بعد القنية ومحبة المجد. والتهاون هو النهم "الذي يأتي منه كل نوع من نجاسة الجسد". وفي نفس الوقت يعطي القديس غريغوريوس بالاماس ملحوظة مهمة: على الرغم من أن التهاون "والثيرات الطبيعية نحو التناسل تميز الأطفال الرضع" إلا أنها ليست علامات تدل على نفس مريضة". فالأهواء الطبيعية غير ملومة طالما أنها مخلوقة من قبل الرب الصالح "بهدف جعلها وسيلة لكي نسلك في أعمال صالحة". يكون الهوى شرير "عندما نصنع تدبيراً للجسد لإشباع شهواته". وبإختصار فإنه بحسب القديس غريغوريوس فإن أهواء القنية والنهم تتكون في الرضع، وأهواء محبة المجد في الطفولة، وتأتي فيما بعد ذلك أهواء التهاون<sup>55</sup>.

إنه أمر صحيح، أنه من الصعب التمييز بين أهواء كلا من الجسد والنفس، وذلك لأن الشيطان الذي يثيرها يكون عادة متخفياً ولا نستطيع تمييزها. من هنا تأتي الحاجة إلى معالج جيد يعرف الحيلة الداخلية الخفية، ويكون إناءً للروح القدس بهدف التمييز والشفاء. هذا التمييز هو أحد المواهب العظمى لنعمة الروح القدس. يعطي القديس يوحنا الدرجي مثلاً، أنه قد يحدث في بعض الأحيان، فيما تجلب ماءً من بئر، أن تجلب أيضاً "ضفدعاً"، على غفلة ويربط هذا المثل بالفضائل. فعندما نكتسب الفضائل قد نجد أنفسنا أحياناً متورطين في الرذائل التي تكون متشابكة معها بطريقة غير مدركة. كما يقدم القديس أيضاً عدة أمثلة، فمن الممكن أن يعلق النهم بإضافة الغرباء، والنجاسة بالحبّة، والمكر بالتمييز، والخبث بالحكم الصائب، والإزدواجية بالتأجيل، والإهمال والعناد والتصميم وعدم الطاعة بالوداعة، ورفض التعلم بالصمت، والخيال بالفرح، والكسل بالرجاء، والنقد بالحبّة، والفتور والكسل بالسكون، والفظاظة بالعفة، والحميمية بالتواضع<sup>56</sup>. ويتضح بذلك أن المرء يحتاج لمقدار كبير من اليقظة لكي يكتشف الأهواء. لأننا قد نظن أننا ذوي فضيلة على حين نكون عاملين لحساب الشيطان ومتعهدين الأهواء في الواقع. يجب علينا أن نكون يقظين "للضفدع" الذي يكون غالباً تعظيم الذات. ويدنس هذا الهوى الطاعة للوصايا.

<sup>55</sup> . To Xen. Gk. Philok. 4, p. 100-105

<sup>56</sup> . Ladder. Step 26. CWS p. 237

ومحسب نفس القديس، فإن شيطان البخل غالباً ما يشبه الإنضاع، ويشجع شيطان تعظيم الذات أو التهاون الصدقة<sup>57</sup>. من أجل ذلك يجب علينا وقبل كل شيء أن نكون يقظين لنميز خداع الشيطان حتى وأثناء ما ننمي الفضائل. ويذكر القديس حالة ذاك الذي كان قد غلب من شيطان الكسل وكان يفكر في ترك قلايته، ولكن عندما أتى إليه عدة رجال ومدحوه على حياته النسكية "تحول كسله إلى تعظيم الذات". ثم تعجب القديس من الطريقة التي يقف بها شيطان البر الذاتي مقابل كل الأرواح الخادعة الأخرى<sup>58</sup>. وبالمثل يحارب شيطان البخل أولئك الذين هم بلا أهواء بالمرة بشدة. وعندما يفشل في التغلب عليهم، يبدأ في أن يحدثهم عن الأحوال البائسة للفقراء وهكذا يحثهم "على الإهتمام بالأمور المادية"<sup>59</sup>. توجد نقطة أخرى، ينوه عنها الآباء القديسين، وهي الطريقة التي نستطيع بها أن نتحقق من وجود الأهواء. وتوجد، بلا شك، أهمية كبرى لفضيلة التمييز، وللشيوخ عديمي الأهواء الذين سوف يضطلعون على دوافع نفسنا ويصلحوننا. ولكن بخلاف ذلك، توجد لدينا طرق أخرى لكي ندرك وجود وعمل الأهواء. توجد علامة على أن هوى إرادي يعمل فينا، وهي عندما نحزن عندما نلام عليه أو يحاول أحد إصلاحنا. ولكن عندما نقبل اللوم الآتي علينا بهدوء، يكون ذلك علامة على أننا "كنا مغلوبين منه أو غير واعين له"<sup>60</sup>. أي أن اللوم والحزن أو الهدوء يظهر وجود الهوى، وما إذا كان إرادياً أم لا: "تختفي أبشع الأهواء داخل نفوسنا وتأتي للنور فقط عندما نفحص أفعالنا"<sup>61</sup>.

يكتب القديس مكسيموس محاولاً أن يصف بدقة ما هو الهوى قائلاً أن الشيء والصورة الذهنية والهوى هي أمور مختلفة بعضها عن بعض. فالرجل والمرأة والذهب وما إلى ذلك هي أشياء. والصورة الذهنية هي "فكرة عديمة الهوى عن أحد هذه الأشياء" وأما الهوى فهو "عاطفة غاشمة أو كراهية مشوشة لأحد هذه الأشياء"<sup>62</sup>. يكتب الأنبا دوروثيوس مميّزاً بين الخطية والهوى قائلاً، أن الأهواء هي الغضب والبر الذاتي والتهاون والكراهية والشهوات الشريرة وما إلى ذلك. وأما الخطايا فهي أفعال الأهواء. وبالتالي من الممكن أن "يملك شخص ما أهواءً ولكن دون أن يجعلها تعمل"<sup>63</sup>. إننا نفهم أيضاً من هذا النص، أنه من الممكن أن يكون المرء ممتلئاً بالأهواء دون أن يلاحظ ذلك، لأنه لم يحدث

<sup>57</sup> . Ladder. Step 26. CWS p. 239

<sup>58</sup> . Ladder. Step 27. CWS

<sup>59</sup> . Ibid. p. 249

<sup>60</sup> . Abba Dorotheos. CS p. 253. SC p. 530, 202, 18

<sup>61</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 320, 30

<sup>62</sup> . Philok. 2, p. 89, 42

<sup>63</sup> . Abba Dorotheos. Ibid.

أن إرتكب أية خطايا. من أجل ذلك يكون من الضروري الحصول على شفاء تام بواسطة مرشد روحي مختبر.

ويجب علينا، لكي نكمل هذا الفصل، أن نلخص النتائج البشعة للأهواء. لقد قلنا بالفعل، في تداعيات متنوعة، أن الأهواء تमित عقلنا. وسوف نتكلم عن هذا الموضوع بإستفاضة أكثر.

إن إنبعاث الأهواء في "جسد مسن وفي نفس مكروسة" هو تدنيس للنفس<sup>64</sup>.

وتماماً مثلما يحاول عصفور مربوط بالقلمين أن يطير "فينجذب إلى أسفل للأرض" هكذا أيضاً العقل الذي إن لم يكن عديم الهوى فإنه "يعلق بالأهواء وينجذب إلى أسفل للأرض"<sup>65</sup> فهي تربط المرء بما هو أرضي، فالأهواء المشينة تسلسل العقل "وتجعله مرتبطاً بالأمور الحسية"<sup>66</sup>.

عامة ما تدنس الأهواء النفس بعد فترة، تماماً مثلما يجلب الطعام المؤذي للجسد المرض بعد بعض الوقت، أو في الواقع بعد بضعة أيام<sup>67</sup>. على أية حال فإنه أمر واضح أيضاً من هذا النص أن الأهواء تمرض النفس.

إن نفس الإنسان الشهواني هي "ورشة عمل للأفكار الشريرة". ونفس شريرة مثل هذه تجلب ذخائر من الشر<sup>68</sup>.

تموت النفس بالأهواء، وتصير غير قابلة للنصح. ولا تقبل أي إصلاح روحي<sup>69</sup>. "يجلب كل هوى بذرة الموت معه".

الأهواء هي الجحيم، فالنفس الشهوانية تعاقب في كل حين بعاداتها الرديئة، الخاصة بها، وتقتني دائماً الذكرى المريرة، والدمعة المؤلمة لأهوائها التي تحرقها وتأتي عليها. هذا العذاب هو بداية وهو مذاقة صغيرة لعذاب آخر في مواضع العذاب المخيفة "حيث تتلقى الأجساد المعاقبة عذاباً مروعاً ومتنوعاً تحدثه أيضاً للنفوس... هذه النار التي لا يعبر عنها... تلك الظلمة..."<sup>70</sup>.

مكافحة جهاد الفضيلة هي اللاهوى والمعرفة الروحية، التي هي وسائط ملكوت السموات، مثلما تكون "الأهواء والجهل هي وسائط الدينونة الأبدية"<sup>71</sup>.

<sup>64</sup>. St. Mark the Ascetic. Gk. Philok. 1, p. 114, 77

<sup>65</sup>. Pilok. 2, p. 63, 85

<sup>66</sup>. St. Thalassios. Philok. 2, p. 321, 41

<sup>67</sup>. Ladder. Step 15. CWS p. 178

<sup>68</sup>. St. Thalassios. Philok. 2, p. 323, 77

<sup>69</sup>. St. Thalassios. Philok. 2, p. 327, 41

<sup>70</sup>. Abba Dorotheos. SC p. 386, 127. cf. p. 184

<sup>71</sup>. St. Maximus. Philok. 2, p. 71, 34

يفسر القديس غريغوريوس بالاماس النص الذي يشرح كيف خرجت الشياطين من الإنسان المعذب بها ودخلت الخنازير التي إندفعت لتسقط في البحر ويكتب أن "حيلة الخنازير ترمز إلى 'كل هوى شرير لأنه يكون غير طاهر' ولكن أولئك الذين يتمشون برداء ملوث بالجسد هم الخنازير على الأخص".<sup>72</sup>

وهكذا تمت الأهواء العقل تماماً في النهاية وتجلب لنا الدينونة. يحتاج العقل للشفاء الروحي لكي يتحرر ويبتهج في الله. وسوف نتناول الآن موضوع العلاج.

### ٣- شفاء الأهواء

والآن إذ أصبحنا واعين للتدبير العظيم الذي يعمل في كل كيائنا بواسطة الأهواء، يجب علينا أن نتناول موضوع العلاج. هذا الجزء جوهري في الباب الحالي.

يدرك العديد منا أننا مرضى، ويوجد لدينا إحساس بكوننا مرضى روحياً، ولكننا نجهل بصورة كلية أو جزئية كيفية شفائنا. إنني أعتقد أن الأرثوذكسية، في حال كونها علم علاجي، مدينة بشرح هذه الأمور الموضوعية جداً. إننا متأكدون أن أحد الرسائل التي يجب على الكنيسة الأرثوذكسية أن تقدمها للعالم المعاصر المتعثر، هي رسالة مرضه وفي نفس الوقت رسالة شفائه. لذا سوف نهتم فيما يلي بهذه الأمور.

يجب علينا أولاً أن نوضح بعض الأمور، الأولى هي أن شفاء الأهواء هو، بصورة رئيسية، تحويلها، مثلما وصفنا ذلك من قبل. وطلما أن الأهواء عديمة الهوى التي هي طبيعية وغير ملومة كانت قد إنحرفت، فمن المتوقع أننا سوف نغيرها مع العلاج. هذا هو شفاء الأهواء. قال الأب بيمن للأنبيا إسحق: "لم نتعلم أن نقتل الجسد لكن أن نقتل الأهواء".<sup>73</sup> توجد ملاحظة أخرى وهي أن الآباء يعطون اهتماماً كبيراً للعلاج في كتاباتهم. فلياً من يقرأ كتابات القديس مكسيموس عن المحبة سوف يرى أنها تحتوي على مادة علاجية كثيرة. ويجب عليّ أن أعترف أنني عندما أردت أن أقرأ هذا الكتاب، توقعت أن أجد بضعة قواعد عن المحبة ووصفاً لقيمة المحبة، ولكنني لاحظت، بدرجة كبيرة، أن القديس مكسيموس يولي عناية كبرى لموضوع الأفكار والأهواء وشفاء الأهواء، إنه يعطي أهمية

<sup>72</sup> . St. Gregory Palamas. Homily 50. EPE 11, p. 208( In Gk.)

<sup>73</sup> . Sayings, p. 162, 184

كبرى لشفاء الإنسان لأن محبة الله والآخر "تتولد من اللاهوى". والقلب الذي تسوده الأهواء لا يقدر على المحبة. وتوجد ملاحظة إضافية وهي أنه عندما يتحدث الآباء عن شفاء الإنسان، فإنهم يضعون القواعد الرئيسية لهذا الشفاء بمعنى أنهم ينظرون للإنسان برؤية شاملة، ويعطون وصفات أو طرق متنوعة للعلاج. سوف نذكر هذه الطرق فيما يلي، ولكن يجب علينا أن نؤكد على أن كل شخص يحتاج لطريقة علاجية خاصة به. ويعطي المعالج المفضل والمختبر هذه الطريقة لأي أحد يأتي ويسأل باتضاع وطاعة وإستعداد للشفاء. من أجل ذلك سوف نضع الآن القواعد العامة للعلاج. ويجب على كل فرد أن يمارس علاجه الخاص تحت إرشاد روعي "لكائنات حية معاصرة". contemporary living organisms.

إن شفاء مرض نفوسنا هو أمر ضروري على الإطلاق. ولقد رأينا ذلك بالفعل وأشرنا إلى الحالة المشوهة التي تخلقها فينا الشهوات. إن نصوص كثيرة في الكتاب المقدس تتكلم عن ذلك. يعطي بولس الرسول النصيحة التالية لأهل كولوسي: "فلميتوا أعضاءكم التي على الأرض، الزنا النجاسة الهوى الشهوة الردية الطمع الذي هو عبادة الأوثان، الأمور التي من أجلها يأتي غضب الله على أبناء المعصية. الذين بينهم أنتم أيضاً سلكتم قبلاً حين كنتم تعيشون فيها. وأما الآن فإطرحوا عنكم أنتم أيضاً الكل، الغضب السخط الخبث التجديف الكلام القبيح من أفواهكم. لا تكذبوا بعضكم على بعض إذ خلعتكم الإنسان العتيق مع أعماله ولبستم الجديد الذي يتجلد للمعرفة حسب صورة خالقه" (كو: ٥-١٠).

ويرى القديس مكسيموس أن الرسول هنا سمي إراقة الجسد "أرض" و"زنا" هو الإرتكاب الفعلي للخطية، الذي هو الموافقة التي تنفذ فتصبح خطية. كما أنه يسمي الموافقة على الخطية "نجاسة". و"أهواء" هو المصطلح الذي يستعمله عن الأفكار الشهوانية. ويقصد "بالشهوة الردية" الفعل البسيط لقبول الفكر والشهوة. و"الطمع" هو الاسم الذي يعطيه "لما يولد ويعزز الأهواء". يجب على هذه الأمور "الأرضية" التي هي جزء من إراقة الجسد أن تمت<sup>٧٤</sup>. وعندما تمت هذه الأمور الأرضية (وسوف نعرف فيما بعد كيفية إتمامها) وتحول، أي تقدّم لله، فعندئذ نتوقف الطبيعة القديمة بكل أعمالها عن العمل وتبدأ الطبيعة الجديدة في العمل. إنها سوف تكون على صورة الله ومثاله إذ تصبح "شخصاً" Person.

وفي رسالة أخرى، يعطي بولس الرسول نفس التوجيهات قائلاً: "وأما الزنا وكل نجاسة أو طمع فلا يُسمَ بينكم كما يليق بقديسين. ولا القبلحة ولا كلام السفاهة والهزل

<sup>74</sup> . Philok. 2, p. 62, 83

التي لا تليق بل بلخري الشكر" (أف: ٥: ٣٠). ويكتب في رسالة أخرى: "لا نكون معجبين نغاضب بعضنا بعضاً ونحسد بعضنا بعضاً" (غل: ٥: ٢٦).

تظهر كل هذه الأمور ضرورة العلاج. لا يجب على المسيحي، الذي هو مكان إقامة الروح القدس، أن يكون نجساً، أو بلخري لكي يصير هيكلًا للروح القدس ولكي يقيم الله فيه يجب عليه أن يتنقى روحياً أولاً، وبعد أن يصير هيكلًا للروح القدس يحافظ على هذا الهيكل طاهراً.

يُظهر ذلك أيضاً الهدف من العلاج. إننا لا نجاهد مجرد أن نكون أشخاصاً صالحين مُتَكَيِّفِينَ مع المجتمع. وليس هدف العلاج أن نجعل الناس إجتماعيين وأن نعطي ممارسات تتمركز حول الإنسانية، ولكن أن نقودهم للشركة مع الله وأن نجعل رؤية الله هذه نوراً ينيرهم وليس ناراً تحرقهم. يعي الآباء بوضوح هذا الهدف من العلاج، ولكنهم يعرفون أيضاً الأهداف التي يضعها مختلف الأشخاص. يقول القديس مكسيموس أن بعض الناس يمتنعون عن الأهواء "بسبب الخوف البشري" والبعض من خلال ضبط النفس ويخلص البعض الآخر من الأهواء "بواسطة التدبير الإلهي"<sup>75</sup>. يشير الأب دوروثيوس إلى أنه لا يجب على المرء أن يرغب في التحرر من الهوى "بهدف الهروب من عذابه، ولكن لكونه يكرهه بالفعل كما هو مكتوب: كرهتهم كرهاً تاماً"<sup>76</sup>. يدرك القديسون أن بعض الناس يريدون أن يتحرروا من الأهواء لأنها تسبب ألماً عظيماً. ولكن ليس هذا هو الهدف الحقيقي للعلاج الأرثوذكسي. ولكن الهدف الأساسي هو الحصول على شركة مع الله. إننا نعرف جيداً أنه توجد قامات وحالات روحية مختلفة في الكنيسة. فالبعض كما يعلم الآباء يحفظون كلمة الله بسبب الخوف من الجحيم، والبعض الآخر لكي يدخلوا الفردوس، وآخرون يفعلون ذلك حباً في المسيح. النوعية الأولى هي العبيد، والثانية هي القعلة المأجورون، أما الثالثة فهي أبناء الله. إننا نقبل هذه القامات الروحية ولكننا نشدد على أننا نجاهد لكي نصل إلى الفئة الثالثة. فمن المطلوب أن نحقق شفاءً مستمراً حتى نصل لهدف العلاج.

يجب علينا أن نشير إلى أن الشفاء من الأهواء ليس من عمل الإنسان، بل هو عمل الله وحده. يجب على الإثنين أن يعملوا معاً. هذا هو التناغم بين الله والإنسان. فكل شيء في كنيستنا هو إلهي إنساني theandric، فيجب أولاً أن تُعطى نعمة المسيح. يحدث تطهير الإنسان، الذي هو الشفاء، بواسطة عمل المسيح الذي يمنحه خلال كل الحياة

<sup>75</sup>. Ibid. p. 68, 23

<sup>76</sup>. Abba Dorotheos. SC p. 530, 202, 16. cf. CS p. 252f, 16

الروحانية التي يحياها المسيحي في داخل الكنيسة الأرثوذكسية. عادة ما يشدد بولس الرسول في رسائله على هذه الحقيقة. يمتلك الإنسان الجسداني في داخله عمل الأهواء. ولكنه عندما يتلقى نعمة المسيح، فإنه يتحرر من هذا العالم القديم الذي هو عالم الخطية: "لأنه لما كنا في الجسد كانت أهواء الخطايا التي بالناموس تعمل في أعضائنا لكي نثمر للموت. وأما الآن فقد تحررنا من الناموس إذ مات الذي كنا ممسكين فيه حتى نعبده بجملة الروح لا بعق الحرف" (رو٧: ٥-٦).

إن شعب المسيح، الذي يعيش في المسيح، هو فقط الذي يتحرر من الجسد ومن شهوة الجسد التي تشكل عالم الخطية: "ولكن الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات. إن كنا نعيش بالروح فلنسلك أيضاً بحسب الروح" (غل٥: ٢٤-٢٥). وعندما يسلك الشخص بحسب الروح، أي عندما يحصل على نعمة الثالوث القدوس، فإنه يشفى داخلياً: "وإنما أقول إسلوكوا بالروح فلا تكملوا شهوة الجسد لأن الجسد يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد. وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون ما لا تريدون. ولكن إذا إنقذتم بالروح فلستم تحت الناموس" (غل٥: ١٦-١٨). وكلنا نعي تماماً، مثلما أشرنا من قبل، أن أعمال الجسد هي كل الأهواء (غل٥: ١٩-٢١).

إن عملنا الخاص هو أن نشن حرباً ضد الخطية والهوى و"أن نجاهد ونستمر في الحرب وأن نسد ضربات" ولكن "إجتثاث الأهواء وتحويلها بطريقة رئيسية هو عمل الله". ومثلما لا يستطيع المرء أن يرى بدون عيين أو يتكلم بدون لسان أو يسمع بدون أذنين أو يعمل بدون يدين هكذا "لا يستطيع أن يخلص ولا أن يدخل ملكوت السموات بدون يسوع"<sup>٧٧</sup>. إذ أن النفس تستطيع أن تضاد الخطية، ولكنها لا تستطيع بدون الله أن تغلب أو تجتث الشر.<sup>٧٨</sup>

إن ما يحول ويشفي الأهواء هو الإحساس بمحبة الله الذي هو الشركة مع نعمة الله، بالإضافة إلى محبتنا الخاصة لله التي هي ثمرة للروح القدس. ولا يعني إماتة الجزء الحسي من النفس أن نغلق عليه "معطلاً وبلا حركة في ذواتنا" بل أن نحوله عن إتصاله بالشر "إلى محبة موجهة لله"<sup>٧٩</sup>. ولكن هذا التغيير نحو محبة الله لا يحدث بدون حياة المحبة. وعلى أية حال، فعندما يشتعل شخص ما بمحبة الله التي هي هبة إلهية، فإن كل عالمه يتحول ويلتهب

<sup>77</sup> . St. Makarios. Homily 3, 4, CWS p. 48

<sup>78</sup> . Ibid.

<sup>79</sup> . St. Gregory Palamas. Triads. 2, 2, 23

بالنعمة الإلهية ويتقدس. "عندما تسود محبة الله، على العقل، فإنها تحرره من قيوده مقنعة إليه أن يرتفع، فوق ليس فقط الأشياء الحسية بل وفوق هذه الحيلة العابرة أيضاً".<sup>٨٠</sup> توضح هذه الأشياء أن شفاء الأهواء يحدث عندما تعمل نعمة الله ومحبهه. وتُمنح هذه النعمة الإلهية من خلال الأسرار المقدسة. ونُريد بالمثل أن نؤكد على حقيقة أن الإفخارستيا الإلهية وشركة جسد ودم المسيح، هي مساعلة فعالة في جهاد الإنسان لتتقية نفسه. التناول المقدس هو دواء عدم الموت.

ولكن بالإضافة إلى قوة المسيح التي تلعب دوراً مهماً جداً، يجب على الإرادة الإنسانية أن تقوم بدورها. فإذا لم يحدث ذلك، فإنه سيصير من المستحيل أن يتغلب المرء على الشهوات وأن يقهر الشياطين بصورة فعلية، لأن "الذي يغلب الشهوات يصرع الشياطين جرحى".<sup>٨١</sup> "ويطرد شيطان الشهوة الذي سبق أن تمكن من أن يسود عليه".<sup>٨٢</sup> وسوف نرى فيما يلي هذه المشاركة من جانب الإرادة الإنسانية.

يحتاج المرء، قبل كل شيء، لمعرفة الذات. وهذا أمر مهم جداً بالنسبة لنا أن نكون واعين لحالتنا الروحية. إن جهلنا بمرضنا يجعلنا عديمي الشفاء على الدوام. يكتب يوحنا الإنجيلي قائلاً: "إن قلنا إنه ليس لنا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا" (١ يوا: ٨).

يحدد بطرس الدمشقي الأفكار الروحية الثمانية، التي تخص السبعة الأولى منها هذا الدهر وأما الثامنة فتخص الدهر الآتي، وينظر للمعرفة على أنها ثيوريا: "معرفتنا بأخطائنا الخاصة وبصلاح الله".<sup>٨٣</sup> أي أن معرفتنا بأخطائنا الخاصة وبصلاح الله هي ثيوريا (رؤية الله).

وحيث أن الكبرياء تختلط بالشجاعة لذلك "يجب علينا باستمرار أن نحذر من الانصياع لمجرد فكرة أننا حققنا أي نوع من الصلاح".<sup>٨٤</sup> يُعلم الآباء من خلال الخبرة الروحية العظيمة التي عاشوها، أنه ليس من السهل تشخيص أعراض الأهواء بدقة طالما أننا مرضى وأنها إتحدت بطبيعتنا. من أجل ذلك ينصحنا الآباء أن نفتش على أهوائنا بإجتهد: "راقب باستمرار علامات الأهواء وسوف تكتشف أنه يوجد الكثير منها بداخلك".<sup>٨٥</sup>

<sup>٨٠</sup> . St. Maximus. Philok. 2, 65, 3

<sup>٨١</sup> . Ladder. Step 26. CWS p. 248

<sup>٨٢</sup> . Sayings. P. 168, 1

<sup>٨٣</sup> . Philok. 3, p. 108

<sup>٨٤</sup> . Ladder. Step 26. CWS p. 252

<sup>٨٥</sup> . Ibid.



يجب علينا أن "نفحص ذواتنا بلا إنقطاع، لكي نرى أين نحن هل في البداية أم المنتصف أم النهاية"<sup>86</sup> من جهة كل هوى وكل فضيلة وبالأخص من جهة الأهواء. إنه أمر ضروري أن يفعل المرء ذلك، لأن الحياة الروحية هي رحلة مستمرة بهدف الوصول إلى الشركة مع الله. هذا أمر لا غنى عنه لأن الركود والإكتفاه الذاتي يكمنان دائماً في طريقنا الروحي.

وما لا غنى عنه أيضاً هو معرفة الذات، لأنه توجد ثلاثة حالات للإنسان: "حالة تنشيط الهوى وحالة الحد منه وحالة إجتثاثه"<sup>87</sup>. أي أنه ليس كافياً أن نستعمل طرق علاجية مختلفة لكي نوقف عمل الهوى، ولكن يجب علينا أن نحوله إلى حب لله وللناس. إننا نحتاج للسكون الخارجي لكي نمتلك معرفة جيدة بالذات. ويجب علينا أن نوقف الإرتكاب الفعلي للخطية. ومن المستحيل أن نصل لمعرفة الذات طالما أن الحواس تعمل بصورة شهوانية. "من أجل ذلك يجب على المرء أن يراقب العقل في وجود الأشياء وأن يميز إلى أيها يظهر هوى"<sup>88</sup>.

ترتبط معرفتنا بأهوائنا إرتباطاً وثيقاً بالتوبة والإعتراف، والمرحلة الأولى للتوبة هي معرفتنا بخطايانا والإحساس بمرض نفسنا. ويكون التعبير عن التوبة بالإعتراف بخطئنا. إننا نتكلم هنا عن الإعتراف المقدس. يجب علينا أن نقول أنه يوجد نوعان من الإعتراف في النصوص الكتابية والآبائية. الأول هو الإعتراف العقلي الذي نعترف به لله في الصلاة والثاني هو الإعتراف لطبيعتنا الروحية الذي هو أيضاً المعالج لنا. يُعرّف القديس يوحنا الدرجي التبتيت على أنه "عذاب أبدي للضمير الذي يجلب برودة لنار القلب من خلال الإعتراف العقلي"<sup>89</sup>.

يجلب الإعتراف العقلي التبتيت ويعطي التبتيت تعزية لقلب الإنسان. بالإضافة إلى ذلك فإن الإعتراف، هو توبة غير مقبلة، ويحدث في جو من التوبة. إنه حزن القلب الذي يولد "نسياناً للطبيعة". "الإعتراف هو نسيان الطبيعة طالما أنه بسببه سها رجل عن أكل خبزه"<sup>90</sup>.

وبحسب القديس ديلاوخوس يجب علينا أن نقدم لله إعترافاً دقيقاً دفعة واحدة، حتى لمشاعرنا اللاإرادية، وألا نكف حتى "يطمئن ضميرنا من خلال دموع الحب أنه قد غفر لنا"<sup>91</sup>.

<sup>86</sup> . Ibid. CWS p. 239

<sup>87</sup> . Abba Dorotheos. CS p. 167. SC p. 346, 108

<sup>88</sup> . Philok. 2, p. 95f, 78

<sup>89</sup> . Ladder. Step 7. CWS p. 136

<sup>90</sup> . Ibid.

<sup>91</sup> . St. Diadochos of Photike. Philok. 1, p. 295

بالإضافة إلى ذلك، يحثنا القديس على أن نكون يقظين جداً لئلا "ينخدع ضميرنا بأن يعتقد أن الاعتراف الذي قدمه الله كافي"<sup>٩٢</sup>. إنه يقول ذلك لأننا عندما نصلي لله ونعترف بخطايانا فإننا عادة ما نفعل ذلك بطريقة غير كافية وبذلك نحيا في رضا من جهة كوننا قد اعترفنا. هذا هو خداع النفس، من أجل ذلك نحتاج لأن نكون مستعدين دائماً لأننا لو لم نعترف كما يجب، فإنه سوف يملكنا خوف مبهم في ساعة موتنا<sup>٩٣</sup>.

لا يحل إعترافنا لله خلال الصلاة محل إعترافنا بخطايانا لأبينا الروحي، ولا يحل الإعتراف للمعالج الروحي محل الإعتراف خلال الصلاة. فمن الضروري أن يرتبط نوعا الإعتراف معاً، إذ يجب على المرء أن يذهب للأب الروحي بعد الإعتراف خلال الصلاة. لقد أعطى الله للآباء الروحيين السلطان لمغفرة الخطايا: "إقبلوا الروح القدس؛ من غفرتم خطايه تغفر له ومن أمسكنم خطايه أمسكت" (يو ٢٠: ٢٢). ويتضح من هذا النص "عظم المجد الذي منحه الروح القدس للكهنة"<sup>٩٤</sup>. وبحسب القديس يوحنا ذهبي الفم فإن الكهنة الذين يعيشون على الأرض "قد إئتمنوا على وكالة الأشياء السماوية" طالما أن "ما يفعله الكهنة على الأرض يصلق عليه الله من فوق فيؤكد السيد على قرارات عبيده"<sup>٩٥</sup>. من أجل ذلك نحتاج لمراجعة أطباء روحيين من أجل شفائنا. "دعونا فوق كل شيء نعترف أمام كل الناس، فيجب علينا أن نفعل ذلك لأن القاعلة الرئيسية هي أن الجراح التي تُعرف تشفى: "إن الجراح التي تُظهر للناس سوف لا تنمو إلى أسوأ بل ستشفى"<sup>٩٦</sup>. وبالتأكيد فإن الطبيب الجيد هو أمر رئيسي من أجل نجاح الشفاء. يستطيع كل آباء الإعتراف أن يمارسوا سر الإعتراف ولكنهم لا يستطيعون أن يمنحوا الشفاء جميعاً، لأن البعض ينقصهم الكهنوت الروحي كما قلنا في باب آخر.

"لو أن تشخيص الأمراض الجسدية يكون، في بعض الحالات القليلة، غير دقيق، فإن ذلك يحدث بالأكثر مع الأمراض الروحية". "إن تشخيص النفوس يكون غير دقيق بدرجة أكبر " لأن أهواء النفس "تفهم بصعوبة أكبر"<sup>٩٧</sup>. عندما يجد كاهن ما أنه أمر مستحيل أن يعطى شفاء فيجب علينا عندئذ أن نراجع كاهناً آخر لأن "قليلون هم الذين يشفون بدون طبيب"<sup>٩٨</sup>.

<sup>٩٢</sup> . Ibid.

<sup>٩٣</sup> . Ibid.

<sup>٩٤</sup> . St. John Chrysostom. On the Priesthood. III, 4. p. 71

<sup>٩٥</sup> . Ibid. p. 71f

<sup>٩٦</sup> . Ladder. Step 4. CWS p. 93

<sup>٩٧</sup> . Nicetas Strthatos. Natural chapters, ch. 11

<sup>٩٨</sup> . ladder. Step 4. CWS p. 109

لقد أشار أيضاً العديد من الأطباء النفسيين المعاصرين لقيمة الإعراف. إنه أمر جوهري أن يفتح الشخص ولا يغلّق على نفسه، ونحن نقول بلغة الكنيسة أنه عندما يعرف شخص ما كيف يفتح ذاته على الله من خلال أب الإعراف، فإنه يستطيع أن يتجنب العديد من الأمراض النفسية والعقلية بالمثل. إننا نشعر بقيمة الإعراف في الحياة العملية. فالخطية الموجودة تتعبنا جسدياً أيضاً وقد نعاني من المرض الجسدي. تبدأ مرحلة الشفاء عندما نقرر أن نعترف، ويفيض الهدوء على النفس والجسد. ولكن من الضروري بالطبع أن نذهب لنقدم إعرافاً حقيقياً.

وحيث أن الشيطان يعرف قيمة الإعراف، فإنه يبذل قصارى جهده لكي يدفعنا إلى عدم الإعراف أو لكي نعترف كما لو كان شخص آخر هو الذي إرتكب الخطايا، أو أيضاً لكي نعزو بالمسئولية إلى آخرين<sup>99</sup>. على أية حال يحتاج المرء لشجاعة روحية لكي يكشف جرحه لطبيب روحي. ينصح القديس يوحنا الدرجي قائلاً: "قم بتعزية جرحك للشافي". وبالإضافة إلى كشف المرض إلقي باللامة على نفسك وقل بإتضاع: "أبي! هذا جرحي أنا وهذه إصابتي أنا. لقد حدثت بسبب إهمالي وليس بأي سبب آخر. لا يوجد من يلام على ذلك لا إنسان ولا روح ولا جسد ولا أي شيء آخر. إنها كلها من خلال إهمالي"<sup>100</sup>. يجب على المرء ألا يخجل بل بالأحرى أن يتغلب على الخجل من الخطية ومن تعزيتها. ويجب علينا عندما نكشف جراحاتنا الداخلية لمُرشدنا الروحي أن ننظر ونتصرف ونفكر كشخص محكوم عليه. وفي الواقع ينصح القديس يوحنا قائلاً: "إن كنت تستطيع فأسكب الدموع عند قدمي قاضيك وشافيك كما لو كان هو المسيح"<sup>101</sup>. ويؤكد نفس القديس على أنه كان قد رأى أناساً يعترفون مظهرين هذا الوضع المتدلل، وبهذه الأعين الدامعة وبصرحات اليأس حتى أنهم لطفوا من حلة القاضي "وحولوا غضبه إلى رحمة"<sup>102</sup>.

إنه أمر طبيعي أن يشعر المرء بالخجل عندما يكون عليه أن يعترف بجرحه، ولكن يجب عليه أن يتغلب على ذلك: "لا تخفي خطاياك"<sup>103</sup>. وعلى الفور بعد الإعراف والتعزية يأتي سلام داخلي. لقد سُجِّلَت قصة راهب غيور إستولى عليه فكر تجديف فأنهك جسده بالصوم والسهر ومع ذلك لم يشعر بأية معونة. وعندما قرر أن يعترف بهذا

<sup>99</sup> . Ibid. p. 108

<sup>100</sup> . Ibid.

<sup>101</sup> . Ibid. p. 109

<sup>102</sup> . Ibid. p. 109

<sup>103</sup> . Ibid. Step 22. CWS p. 205

الفكر للطبيب الروحي وكتبه على قطعة من الورق شفي في الحال. "وأكد لي الراهب أنه حتى قبل أن يغادر قلالية الشيخ كان مرضه قد ذهب عنه"<sup>104</sup>. يظهر ذلك حقيقة أن الاعتراف ليس عملاً إنسانياً، ولكنه يعمل بقوة الله فالنفس تشفى بواسطة النعمة الإلهية، ولا الصوم ولا السهر ينفعان ما لم يصاحبهما الاعتراف.

عادة ما يتلقى الآباء الروحيون ضربات من أولئك المعترفين عندما لا يعترفون بإتضاع وبمعرفة للذات. تحدث مع الاعتراف عملية روحية وبالتالي يقاوم المريض. ولكن نصيحة الآباء له واضحة: "لا تغضب من إنسان يجري لك عملية، بدون إرادتك، مثل الجراح ولكن أنظر بالأحرى للشيء البغيض الذي استأصله منك، وإذ تلوم نفسك بركه لأنه قدم لك بنعمة الله مثل هذه الخدمة"<sup>105</sup>. يستأصل الاعتراف كل الأشياء الكريهة من النفس، ويؤدي ذلك بالضرورة إلى تحركنا نحو الشفقة على ذواتنا من جهة، ونحو الإحساس بعرفان الجميل للطبيب الروحي من جهة أخرى. إن من يرفض النقد يُظهر وجود الهوى، ولكن أياً من يقبل النقد "يكون حراً من هذا القيد"<sup>106</sup>.

يجب علينا أن نؤكد، من جديد، على أن التوبة المصحوبة بالاعتراف المقدس تشفي جراح المرء. تحرق التوبة، التي يهبها الروح القدس المعزي، القلب، وحيثما يكون الحزن فهناك تشفى كل الجراحات. يمتلك الشخص، الذي يكون في هذه الحالة، كنز البتولية العظيم. ينصح نيسيتاس ستيثاتوس قائلاً: "لا تقل لنفسك لم يعد ممكناً بالنسبة لي أن أستعيد طهارة البتولية لأنني سقطت بعلّة طرق في الدنس وأهواء الجسد". وحتى لو فقد إنسان ما بتوليته فإنه يستطيع أن يكتسبها من جديد من خلال دموع معمودية ثانية التي هي التوبة. من أجل ذلك يكمل نفس الأب القديس قائلاً: "لأنه حيثما يتغلب المرء على آلام التوبة بالإماتة ومجراحة النفس، وحيثما تجري أنهار الدموع من الندم، فإن كل دفاعات الخطية تسقط وتنطفئ كل نار الأهواء، ويحدث الميلاد الثاني السماوي من خلال مجيء الروح القدس المعزي، ومرة أخرى تصبح النفس قصراً للطهارة والبتولية"<sup>107</sup>.

لا يمكن أن يحدث الميلاد الثاني للإنسان بدون الخضوع للآباء الروحيين الذين سوف يشفونه في المسيح: "لو أن إنساناً ما لم يخضع لأب روحي" على مثال المسيح الذي

<sup>104</sup> . Ibid. Step 23. CWS p. 213

<sup>105</sup> . Ilias the Presbyter. Philok. 3, p. 36, 31

<sup>106</sup> . Ladder. Step 23. CWS p. 208

<sup>107</sup> . Natural chapters. Ch. 50

خضع لأبيه حتى الموت على الصليب فإن ذلك يعني أيضاً أنه "سوف لا يولد ميلاداً ثانياً"<sup>١٠٨</sup>. إذاً هذا الميلاد الثاني "يأتي من خلال الخضوع للآباء الروحيين"<sup>١٠٩</sup>.

ولكن عادة ما لا تشفى الأهواء الحقة بعد الإعتراف مباشرة، فالأمر يتطلب جهاداً عظيماً ونسكاً كثيراً لكي تتحرر النفس من أهوائها. ليس الإعتراف الشكلي الذي قد يتم تحت ضغوط نفسية كبيرة هو الذي يجلب غفران الخطايا، ولكن التحرر من الأهواء. إن الشخص الذي لم يتحرر من الأهواء بنعمة المسيح "لم يحصل بعد على الغفران"<sup>١١٠</sup>. وتاماً مثلما لا يستطيع شخص مكث مريضاً لعدة سنوات أن يكتسب الصحة على الفور، فإنه غير ممكن أن يتغلب المرء على الأهواء ولا حتى على واحدة منها "في لحظة سريعة"<sup>١١١</sup>. إنه يحتاج لوقت وحيّة نسكية على الأخص لأن "الأهواء التي تمارس عملياً تشفى أيضاً بالممارسة العملية"<sup>١١٢</sup>. إذاً الذي يمنح اللاهوى هو كبح العواطف، وضبط النفس، والأعمال والجهادات الروحية"<sup>١١٣</sup>.

سوف نحاول فيما يلي أن نصف شفاء الأجزاء الثلاثة للنفس، وأهواء الجسد والنفس، وما هي الأمور التي تسبقها والأمور التي تتبعها. وسوف نصف هنا الطرق العامة لشفاء النفس.

لقد أشرنا في فصل آخر أن القديس غريغوريوس بالاماس قسم النفس لثلاثة أجزاء: الجزء الإدراكي والجزء الإنفعالي والجزء الراغب قائلاً، أنه عندما يتعد المرء عن الله فإن كل قوة في نفسه تصبح مريضة، وتمرض كل النفس بجملتها أيضاً. إذاً الشفاء أمر مطلوب. يكمن الشفاء في الفقر الروحي الذي باركه الرب: "دعونا نحن أيضاً نكون مساكين بالروح بعد أن نضع ذواتنا وتأمّل بالجسد، وألا نمتلك أي قنية" بحيث أننا قد نرث ملكوت السموات"<sup>١١٤</sup>.

إننا سوف نشفي إدراكنا الذي تثور فيه أهواء الطموح بالإتضاع، وسوف نشفي الجزء الراغب حيث تثور أهواء حب القنية والبخل بالتخلص من كل الأهواء، وسوف نشفي الجزء الإنفعالي الذي تثور فيه الأهواء اللحمية بالنسك وضبط النفس. إنه أمر مميز أن القديس غريغوريوس يضع الوحلة والسكون العقلي ضمن طرق شفاء أهواء الطموح:

<sup>108</sup> . Ibid. Ch. 54

<sup>109</sup> . Ibid. Ch. 53

<sup>110</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 312, 101

<sup>111</sup> . Ladder. Summary of Step 26. CWS p. 259

<sup>112</sup> . Nicetas Stethatos. Practical chapters, ch. 34

<sup>113</sup> . Ibid.

<sup>114</sup> . To Xenii. Gk. Philok. 4, p. 106

✠ "الوحلة والبقاء في القلاية هما معونة ممتازة في شفاء هذه الأهواء"<sup>115</sup> ولا تشفى الأهواء اللحمية بطريقة أخرى بخلاف تألم الجسد والصلاة الصادرة من القلب المنسحق الذي هو "مسكين بالروح"<sup>116</sup>.

✠ تُولّد حياة الفقر الثلاثي الحزن الجسدي المتصل بالتضرع الملائم. ويُولّد الحزن الدموع. إن قيمة الدموع في تنقية عقل الإنسان هي عظيمة جداً. يعطي الفقر الجسدي إنسحاقاً للقلب: "يأتي أيضاً إنسحاق القلب من الكبح الثلاثي للنوم والطعام والراحة الجسدية. إذ تتحرر النفس من الشر والمرارة خلال الإنسحاق، فإنها تتلقى الفرح الروحي بدلاً منها"<sup>117</sup>. وتتولد ملامة النفس التي تلعب دوراً كبيراً في حياة الإنسان الروحية من هذا الإلتضاع والحزن الجسدي.

يقوم الفقر المادي، المعبر عنه في عدم القنية والمتحد بالفقر في الروح، بتطهير العقل. ويرى القديس غريغوريوس بالاماس أنه عندما يتحرر العقل من الخواص ويرتفع فوق تيار ضوضاء الأشياء الأرضية، ويعود لذاته فعندئذ يرى "التدني الرهيب الذي إكتسبه من خلال التجول في الأمور العلية" ويستعجل لكي يتخلص منها بالحزن<sup>118</sup>. وهكذا يكتسب العقل نقاوة ويستمتع بالسلام من الأفكار. وعندما يتذوق العقل صلاح الروح القدس "تبدأ النعمة كما من قبل أن تصبغ الصورة بالمثل"<sup>119</sup>. وعندئذ يصبح الإنسان شخصاً، طالما أن إختبار كوننا على صورة الله يجعلنا أشخاصاً. وفي البداية يكون الحزن مؤلماً لأنه يكون مرتبطاً بمخافة الله ولكنه يكون مفيداً جداً. ويمرور الوقت يتولد الحب من نحو الله والتشابه معه. وعندما يعيش المرء الأسى بعمق "فإنه يجلب، كثمرة له، التعزية العذبة والمقدسة التي للمعزي"<sup>120</sup>.

✠ تشبه بداية الحزن الذي بحسب الله "محاولة الحصول على خطبة الله" وحيث أن الخطبة لله تبدو مستحيلة فإن محبي الله يقرعون صدورهم ويصلون. وتكون نهاية الحزن "إتحاد زيجي كامل نقي" بين النفس والله<sup>121</sup>.

<sup>115</sup> . Ibid. p. 103

<sup>116</sup> . Ibid. p. 105

<sup>117</sup> . Ibid. p. 108

<sup>118</sup> . Ibid. p. 109

<sup>119</sup> . Ibid. p. 111

<sup>120</sup> . Ibid. p. 114

<sup>121</sup> . Ibid.

وهكذا وبحسب القديس غريغوريوس بالاماس، فإن شفاء النفس الثلاثية الأجزاء يحدث من خلال الفقر الثلاثي المقابل لأجزائها. يولد الفقر الحزن الذي يعبر عن نفسه بعلّة طرق قبل أن يقود الشخص للشركة مع الله. والحزن هو دواء مسهل للعقل والقلب.

وكما رأينا من قبل فإن القديس يوحنا الدمشقي أيضاً يقسم النفس إلى ثلاثة قوى: **القوة الإدراكية والقوة الإنفعالية والقوة الراجعة**. يحدث علاج وشفاء الجانب الإدراكي من خلال "الإيمان الراسخ في الله وفي التعاليم الأرثوذكسية الحقيقية والغير منحرفة خلال الدراسة المستمرة للكلمات المهمة من الروح القدس خلال الصلاة النقية والدائمة وخلال ذبيحة الشكر لله". ويكون شفاء وعلاج الجزء الإنفعالي للنفس هو "التعاطف العميق مع القريب، والمحبة واللفظ والمودة الأخوية، والحنو والصبر وطيبة القلب". وشفاء الجانب الراجب من خلال "الصوم وضبط النفس، والشدة والتخلص الكامل من المقتنيات وتوزيعها على الفقراء، والرغبة في البركات الأبدية المختزنة، والإشتياق للملكوت الله، والطموح في البنوة الإلهية"<sup>122</sup>.

وصياغة القديس يوحنا الدرجي موجزة: "فلنسلح أنفسنا بالثالوث القدوس ضد الثلاثة بالثلاثة". أي فلتتحالف مع الثالوث القدوس ونسلح أنفسنا ضد الثلاثة التي هي: التهاون والبخل ومحبة المجد بواسطة الثلاثة التي هي: ضبط النفس والمحبة والإبتضاع<sup>123</sup>.

لقد ذكرنا أن الآباء يسمون الجوانب الإنفعالية والراجعة "حسية". وبالتالي فإن النفس تقتني جزءاً إدراكياً وآخر حسياً. يتنقى الجزء الإدراكي بالقراءات الروحية والصلاة، والجزء الحسي بالمحبة وضبط النفس<sup>124</sup>.

وكما أشرنا فإن القديس مرقس الناسك يعتبر أهواء النسيان، الجهل، والكسل، على أنها الثلاثة عمالقة الكبار. وهو يحثنا على أن نشفي النسيان "ببقظة الله" وأن نظرد ظلمة الجهل المدمرة من خلال نور المعرفة الروحية "وأن نتخلص من الكسل" من خلال الغيرة لكل ما هو حسن<sup>125</sup>.

يوجد أيضاً تمييز بين أهواء النفس وأهواء الجسد. تشفى هذه الأهواء بواسطة الممارسات الروحية الملائمة فتتوقف المشتتهات الجسدية وهجمات الجسد بواسطة ضبط

<sup>122</sup> . Philok. 2, p. 337

<sup>123</sup> . Ladder. Step 26. CWS p. 234

<sup>124</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 317, 84

<sup>125</sup> . Philok. 1, p. 159

النفس والصوم والجهادات الروحية. "وتبرد إلتهابات النفس وإحتقان القلب بقراءة الكتاب المقدس وتقهر بالصلاة الدائمة. وتهادئ كل هذه بزيت التبكيث"<sup>١٢٦</sup>.

يضع أيضاً الآباء في نسك الشفاء الخاص بهم الترتيب الذي يجب أن تتبعه الحرب ضد الأهواء. وبحسب نيسيئاس ستيثاتوس فإن الأهواء الرئيسية هي التهاون، والبخل، ومحبة المجد، والتي تتناسب مع الأوجه الثلاثة للنفس. وكما توجد ثلاثة أهواء عامة توجد أيضاً ثلاثة طرق للحرب ضدها: المبدئية والمتوسطة والنهائية. "إن المبدئي الذي دخل الجهاد من أجل التقوى" يحارب ضد روح التهاون. إنه يخضع الجسد بالصوم والنوم على الأرض والسهر والصلوات الليلية. كما أنه يغمر النفس بتذكر عذابات الجحيم وبفكر الموت. أما الذي يكون في الجهاد المتوسط الذي هو بعد التطهر من أهواء التهاون "فإنه يتسلح ضد روح البخل المضاد للتقوى". والذي "عبر خلال المرحلة المتوسطة بالتأمل واللاهوى" والذي دخل غياهب اللاهوت فإنه يحارب ضد روح محبة المجد<sup>١٢٧</sup>. وهكذا يُستهدف التهاون أولاً ثم البخل وفي النهاية محبة المجد. هذا هو ترتيب العلاج.

لقد ذكرنا بيان الطرق العلاجية التي يجب علينا أن نستعملها لكي نشفي القوى الثلاثة المختلفة للنفس، وتكلمنا عن الأهواء الجسدية والنفسية، والثلاثة أهواء العملاقة العظيمة بين الأهواء وما إلى ذلك. والآن يجب علينا أن نفحص الطرق العلاجية العامة التي تنطبق على كل الأهواء.

أولاً وقبل كل شيء يجب على المرء ألا يضطرب في هذا الجهاد الروحي. فالإضطراب مؤذ جداً للنفس المجاهدة. لا يجب علينا أن نصاب بالإحباط عندما يحتشد الهوى ضدنا. "أن نسمح لأنفسنا أن نضطرب بهذه الإختبارات، هو جهل شديد وكبرياء، لأننا نكون غير مدركين لحالتنا ونهرب بعيداً عن العمل". يجب علينا أن نكون صبورين ونجاهد ونستعين بالله<sup>١٢٨</sup>.

والخطوة التالية، هي أنه من الضروري ألا يكون لدينا ثقة كبيرة في ذاتنا، ولكن أن نتكل على الله. "لا يجب علينا بالمرّة أن نشق في قلبنا الخاص، بسبب كوننا شهوانيين. فالحاكم الملتوي يستطيع أن يجعل حتى الأشياء المستقيمة ملتوية"<sup>١٢٩</sup>.

<sup>126</sup> . Nicetas Stethatos. Natural chapters, Ch. 68

<sup>127</sup> . Ibid. Practical chapters, ch. 40-42

<sup>128</sup> . Abba Dorotheos. SC p. 406f, 141. CS p. 194f

<sup>129</sup> . Ibid. SC p. 526, 202, 2. CS p. 251, 2



توجد طرق أخرى، وهي محاربة الأهواء عندما لا تزال صغيرة: "إقتلع الخطية بينما لا تزال صغيرة قبل أن تنتشر وتغطي الحقل". لو كان شخص ما مهملاً، عندما تبدو الخطية خفيفة، فإنه فيما بعد "سوف يجدها سيّداً عديم الإنسانية". إن الذي يحارب ضد الشهوات من البداية "سوف يخضعها سريعاً"<sup>١٣٠</sup>. لأنه أمر واضح أن "إقتلاع نبات صغير هو شيء وإقتلاع شجرة كبيرة هو شيء آخر"<sup>١٣١</sup>. يكون قطع الأهواء في البداية سهلاً ولا يحتاج إلا مجهود قليل، على حين أنها لو كبرت ومضي عليها وقت كبير فإنها "تحتاج مجهوداً كبيراً"<sup>١٣٢</sup>. كلما كانت أصغر سنّاً كلما كان الجهاد ضدها أسهل.

يجب علينا أن نقطع المثيرات والمسببات التي تثير الأهواء. لقد وصفنا من قبل كيف يتطور الفكر إلى هوى. وعندما نراقب أفكارنا، ونلفظ العرض المقدم من الفكر الشرير، فإننا نتجنب توالد وإشتعال الأهواء. إن الذي يرفض الإثارة "يقطع كل ما يأتي بعد ذلك دفعة واحدة"<sup>١٣٣</sup>. وعندما يتلاعب عقلنا بشيء حسي، فإن الأهواء تتولد أو تشتعل بطريقة طبيعية. إنه أمر ضروري أن يتنزع الإنسان نفسه من الشيء الذي أخذ عقله في الأسر. وما لم يُتنزع العقل من هذا الشيء "فإنه لن يكون قادراً على تحرير نفسه من الهوى المؤثر عليه"<sup>١٣٤</sup>. يجب علينا في هذا السياق الروحي أن نبتعد عن الشهوات والأعمال النجسة "ونُظهر أننا نتركها من أجل الخير"<sup>١٣٥</sup>.

إنه تعليم آبائي شهير أن يقطع المرء أسباب ودوافع الخطية. لا يطالبنا الله الذي هو طيب النفوس والأجساد أن نتخلّى عن "علاقتنا بالناس" ولكن أن نقطع الأسباب الشريرة في ذاتنا"<sup>١٣٦</sup>، "إن الذي يكره الأهواء يتخلص من أسبابها"<sup>١٣٧</sup>. لو قاوم المرء الفكر "فإن الهوى يضمحل ويصبح أضعف من أن يحاربه ويغلبه، وهكذا "يسود على الهوى نفسه قليلاً قليلاً بالجهاد المسنود بالله"<sup>١٣٨</sup>. ولكي نُلخّص موضوع قطع أسباب الأهواء والإندفاعات، نستطيع أن نقول أن النصيحة العامة للآباء هي: "في أي وقت يهاجمك الهوى إقطعه بعيداً على الفور"<sup>١٣٩</sup>.

<sup>130</sup> . St. Isaac the Syrian. Ascetical Homilies, 5 p. 43

<sup>131</sup> . Abba Dorotheos. SC p. 360, 114. CS p. 173

<sup>132</sup> . Ibid. SC p. 360, 115. CS p. 174

<sup>133</sup> . St. John of Damascus. Philok. 2, p. 338

<sup>134</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 65, 2

<sup>135</sup> . St. Gregory Palamas. Triads. 2, 2, 24

<sup>136</sup> . St. Cassian of Rome. Philok. 1, p. 84

<sup>137</sup> . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 135, 119

<sup>138</sup> Abba Dorotheos. SC p. 510, 190. EF p. 177, 109. cf. CS p. 243

<sup>139</sup> . Sayings, p. 182, 22

إننا نحتاج لجهاد شديد لكي نقلل الأهواء، كما نحتاج ليقظة روحية "لئلا تزداد بالأكثر". وأيضاً جاهد لكي تكتسب الفضائل، ثم كن يقظاً لكي تحافظ عليها<sup>١٤٠</sup>. وهكذا يتراوح كل جهادنا بين الحرب واليقظة.

إن الجهاد عظيم، كما أنه ليس أمراً سهلاً أن يغير المرء ذاته وأن يظهر نفسه من الأهواء ويملاها بالفضائل، إذ أن تنقية الإنسان تكون سلبية وإيجابية. وبحسب الآباء فإن الحرب الروحية تحدث من خلال حفظ وصايا المسيح، ونحن نعلم أنه عندما يجاهد شخص ما لكي يخضع جسده لنفسه ونفسه لله تتولد فضائل الجسد والنفس<sup>١٤١</sup> يتغذى الجسد في الإنسان الساقط بالمادة والأشياء المادية وتتغذى النفس بالجسد. والآن يجب أن يحدث العكس. يجب علينا أن نتخلص من الحالة الغير طبيعية، ويجب على نفوسنا أن نتعلم أن تتغذى بنعمة الله، وأن يُطعم الجسد بواسطة النفس "المتلثة نعمة"، وعندئذ سيحصل كياننا على التوازن. يتحقق ذلك بأن نعمل على إكتساب فضائل، مثل الإبتضاع والحب والصوم والنسك، والصلاة والطاعة، وما إلى ذلك. إننا نود أن نشير بخصوص تلك النقطة إلى بعض الفضائل الأساسية لتحولنا.

ينفي السلوك في حياة المحبة كل الأهواء. "جاهد أن تحب كل إنسان بالتساوي وعندئذ سوف تلفظ كل الأهواء في نفس الوقت"<sup>١٤٢</sup>.

تكون الصلاة الدائمة التي هي "نداء إسم الله باستمرار دواءً يدمر ليس فقط كل الأهواء، ولكن أيضاً السلوك المرتبط بها". ومثلما يضع الطبيب غياراً على جرح المريض ويفلح ذلك دون أن يعرف المريض كيفية حدوثه هكذا أيضاً نداء إسم الله "يزيل الأهواء دون أن نعلم كيف ولماذا"<sup>١٤٣</sup>.

يقول القديس يوحنا الدرجي أن علاج كل الأهواء هو الإبتضاع: "إن أولئك الذين يمتلكون هذه الفضيلة قد كسبوا الحرب بمجملتها"<sup>١٤٤</sup>. يقول داود الملك والنيبي في المزمور ١٠٤ من جهة وحوش البرية: "تشرق الشمس فتجتمع وفي مأويها تريض". ويفسر القديس يوحنا الدرجي ذلك قائلاً أنه عندما تشرق الشمس في نفوسنا "خلال ظلام الإبتضاع" فعندئذ "تجتمع الوحوش البرية إلى حيث تنتمي في القلوب الشهوانية، وليس

<sup>140</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 66, 11

<sup>141</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 315, 39

<sup>142</sup> . Barsanuphius and John. Q. 324. In Gk.

<sup>143</sup> . Ladder. Step 26. CWS p. 236

في قلوبنا"<sup>١٤٤</sup>. تشرق شمس البر خلال الإبتضاع، وعندئذ تهرب كل الوحوش البرية التي للأهواء. إن ربط قوى النفس مع الفضائل سوف يحررنا من طغيان الأهواء"<sup>١٤٥</sup>.

يُخضع خضوعنا للأب الروحي الممتزج بضبط النفس وحوش البرية التي للأهواء"<sup>١٤٦</sup>.

يجاهد المسيحي لكي "يسلسل حواسه بالنسك وعقله بصلاة يسوع ذات الكلمة الواحدة، وهكذا إذ ينتزع نفسه من الأهواء سوف يجد نفسه ملتصقاً بالرب أثناء الصلاة"<sup>١٤٧</sup>.

"لو أردت أن تتحرر من كل الأهواء، مارس ضبط النفس والمحبة والصلاة"<sup>١٤٨</sup>. توجد بعض الأعمال التي تُوقف حركة الأهواء ولا تسمح لها بالنمو، وتوجد أعمال أخرى تخضعها وتقللها. وعندما يتعلق الأمر بالشهوة فإن الصوم والجهاد والسهر لا يسمح للهوى أن ينمو، على حين أن العزلة والثبوت والصلاة والإشتياق الشديد لله يخضعه ويجعله يخفي. ومن جهة الغضب فإن الإحتمال والتخلص من الحقد، واللفظ مثلاً يوقفونه جميعاً ويمنعونه من النمو، على حين أن الحب وأعمال المحبة والصلاح والخوف يقللونه"<sup>١٤٩</sup>. إن ذاك الذي تخلّى عن الأشياء العالوية من قلبه ويخدم قريبه بمحبة وصلح "يتحرر سريعاً من كل هوى، ويصبح شريكاً في محبة ومعرفة الله"<sup>١٥٠</sup>.

تدفع اليقظة والمقاومة والصلاة إثارة التجربة بعيداً، ويبقى كل شيء خاملاً، أي أن، الإثارة لا تصل للموافقة والهوى. "إذا كان العقل متنبهاً ويقظاً ويلفظ الإثارة على الفور بمقاومتها وإنكارها والتوسل للرب يسوع، فإن نتائجها تبقى غير فعالة"<sup>١٥١</sup>.

لقد منح الله الإنسان عطييتين عظيمتين للنعمة، التي من خلالها قد ينجو "ويخلص من كل أهواء الإنسان العتيق، وهما الإبتضاع والطاعة"<sup>١٥٢</sup>.

إن كلمة الله هي أيضاً وسيلة مساعدة للتنقية وللتحرر من الأهواء. إذ يتكلم بولس الرسول عن السلاح الروحي الذي يجب على كل مسيحي أن يمتلكه، فيشير إلى كلمة الله قائلاً: "وخذوا خوذة الخلاص وسيف الروح الذي هو كلمة الله" (أف ٦: ١٧). إننا نحتاج لأن

<sup>١٤٤</sup> 144. Ibid. p. 252

<sup>١٤٥</sup> 145. St. Thalassios. Philok. 2, p. 310, 65

<sup>١٤٦</sup> 146. Sayings. P. 7, 36

<sup>١٤٧</sup> 147. Ilias the Presbyter. Philok. 3. p. 57, 75

<sup>١٤٨</sup> 148. St. Thalassios. Philok. 2, p. 312. 93

<sup>١٤٩</sup> 149. St. Maximus. Philok. 2, p. 63, 47

<sup>١٥٠</sup> 150. Ibid. p. 55, 27

<sup>١٥١</sup> 151. Hesychios the Priest. Philok. 1, p. 170, 46

<sup>١٥٢</sup> 152. Barsanuphius and John. ET q. 550, p. 119

نضع كلمات الله باستمرار أمام أعيننا: "كرس ذاتك لكلمات الله بغير إنقطاع، فالإنكباب عليها يحطم الأهواء"<sup>١٥٣</sup>. وفي موضع آخر يخبرنا القديس ثالاسيوس أن نجاهد لكي نتمم الوصايا "بحيث نستطيع أن نتحرر من الأهواء"<sup>١٥٤</sup>.

تُشير وصايا الله إلى النفس الثلاثة الأجزاء: "وتسن وصايا المسيح الشرائع للنفس الثلاثة الأجزاء، ويبدو أنها تجعلها صحيحة من خلال ما تفرضه. إنها لا تبدو فقط ولكنها تقتني هذا التأثير بالفعل"<sup>١٥٥</sup>. ثم يذكر القديس ثالاسيوس عدة أمثلة ليوضح ذلك. فمن جهة الجزء الإنفعالي للنفس فهو يشير إلى وصية "إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم" (مت ٥: ٢٢) ومن جهة الجزء الراغب يشير إلى وصية "إن كل من ينظر إلى امرأة ليستهيها فقد زنى بها في قلبه" (مت ٥: ٢٨) ومن جهة الإدراك فوصية: "من لا يترك كل شيء ويتبعني فلا يستحقني" (أنظر مت ١٠: ٣٧-٤٢).

وبحسب القديس فيلوثيوس، فإن المسيح يسن القوانين للنفس الثلاثة الأجزاء من خلال الوصايا. ولكن الشيطان يحارب ضد النفس الثلاثة الأجزاء، وبالتالي يحارب وصايا المسيح<sup>١٥٦</sup>. لو أتمنا وصايا المسيح فإننا نتطهر من أهوائنا التي هي إستعداد سيء "لإنساننا الداخلي"<sup>١٥٧</sup>.

ولقد أشرنا، من قبل، إلى أن الحزن والتوبة والإعتراف، تعتبر من ضمن أكثر الأسلحة فاعلية ضد الأهواء: "أولئك الذين يغشاهم الحمر غالباً ما يُغسلون بالماء، أما أولئك الذين يغشاهم الهوى فيُغسلون بالدموع"<sup>١٥٨</sup>.

تشكل أيضاً الحروب والتجارب المتنوعة في حياتنا، والتي هي "أسباب لا إرادية"، دعماً للتوبة. إن فيروس الشر عظيم ويتطلب نار التوبة المطهرة خلال الدموع. لأننا نغسل من أدناس الخطية إما من خلال الآلام الإرادية التي للنسك، أو من خلال التجارب اللاإرادية. عندما تتقدم الآلام الإرادية التي للتوبة فعندئذ لا تتبعها الآلام اللاإرادية التي هي التجارب العظيمة. لقد دبر الله الأمر بحيث أنه عندما لا يؤدي النسك الإرادي للتطهر، فعندئذ "تُنشِط الأسباب اللاإرادية بصورة أكثر حدة إستعدادنا لجمالنا

<sup>153</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 326, 18

<sup>154</sup> . Ibid. p. 313, 13

<sup>155</sup> . Philotheos. Philok. 3, p. 21, 16

<sup>156</sup> . Ibid. p. 22f

<sup>157</sup> . Abba Dorotheos. SC p. 154, 6. cf CS p. 80

<sup>158</sup> . Ladder. Step 26. CWS p. 253

الأصلي"<sup>١٥٩</sup>. وهذا يعني، أن العديد من التجارب التي تأتي خلال حياتنا تكون بسبب أننا لم نتب بصورة إرادبة. يؤدي حمل صليب التوبة عن إراة ورغبة، إلى تجنبنا لصليب التجارب الغير إرادية والغير مرغوبة.

يوجد سلاح آخر عظيم ضد الأهواء وهو "السكون"، وبالأخص سكون العقل الذي سوف نتحدث عنه في فصل آخر. يؤكد بولس الرسول على أن: "ليس أحد وهو يتجند يرتبك بأعمال الحية" (٢ تي ٢: ٤). ويعلق على ذلك القديس مرقس الناسك قائلاً أن ذاك الذي يريد أن يغلب الأهواء بالإخراط في الأمور العلية، يشبه الذي يريد أن يطفى ناراً مستخدماً القش"<sup>١٦٠</sup>. إن موضوع السكون والعزلة هو بلا شك موضوع عظيم وحساس. فالعزلة ليست صالحة لكل واحد. لأنه لو أن شخصاً ما لديه هوى محتبئ في نفسه، فإنه لا يستطيع أن يشفى في الصحراء طالما أنه لا يوجد هناك ما يثير هذا الهوى. يقول القديس يوحنا الدرجي أنه عندما يجرب شخص مريض بهوى ما في نفسه حيلة الوحلة، فإنه يكون مشابهاً لمن قفز من السفينة في البحر ظاناً أنه سوف يصل للشاطئ على لوح خشبي"<sup>١٦١</sup>.

ونصيحة الآباء عن السكون هي غير متناقضة. فالسكون هو "الإقامة في الله" وهو طهارة العقل، وهذا ما يسمى السكون العقلاني. يساعد الجهاد على تقليل مثيرات الحواس، وعلى تكريس النفس للصلاة، وعلى التحرر من الأهواء. ولكن عندما يهرب شخص ما من الناس بدون إعداد خاص، وبدون مباركة خاصة من مرشد روحي مفرز، ويمضي إلى الصحراء، فإنه لن يستطيع أن يشفى. لأن الصحراء تخفي أهواء الرجل الذي يذهب هناك بدون الإعدادات المطلوبة بدلاً من أن تشفيها"<sup>١٦٢</sup>.

لقد تكلمنا من قبل عن طرق متعددة لشفاء الأهواء بوجه عام. ونتمنى الآن أن نقدم أيضاً العديد من الطرق العلاجية المعينة التي تشفي أهواء معينة.

وبحسب القديس يوحنا كاسيان توجد ثمانية أفكار شريرة: الغضب - الكآبة - الفتور - البر الذاتي <sup>(١)</sup> والكبرياء <sup>(٢)</sup> كيف يمكن أن تشفى هذه الأفكار <sup>(٣)</sup> الثمانية المطابقة للأهواء الثمانية؟ <sup>(٤)</sup> والنجاسة <sup>(٥)</sup> البخل <sup>(٦)</sup>

<sup>159</sup> . Nicetas Stethatos. Natural chapters. Ch. 9

<sup>160</sup> . Philok. 1, p. 117, 107

<sup>161</sup> . Ladder. Step 27. CWS p. 262

<sup>162</sup> . Philok. 1, p. 85

يُشفي النهم بضبط المعلة. "نتجنب فرط الأكل وإمتهاء البطن" بواسطة "صوم النهار" وبواسطة "عدم ترك ملذات الحلق تقودنا للضلال"<sup>١٦٣</sup>.

تُشفي النجاسة بواسطة حفظ العقل من "الأفكار الدنيئة". إنها تُشفي بإنسحاق القلب "والصلاة المكثفة لله والتأمل المستمر في الأسفار المقدسة والعمل اليدوي الشاق يساعد إتضاع النفس أكثر من أي شيء آخر"<sup>١٦٤</sup>.

يُشفي البخل بالتجرد والفقر، مثلما يعلم الكتاب المقدس والآباء<sup>١٦٥</sup>.

يُشفي الغضب الذي يعمي عيون القلب بإحتمال القريب. والسلام الداخلي الذي هو عكس الغضب "لا يتحقق من خلال الصبر الذي يُظهره الآخرون من نحونا، ولكن من خلال إحتمال الأذى بصبر من جهة قريبنا". إنه لا يكفي أن يتجنب المرء الغضب على الناس، ولكن "أيضاً الغضب على الحيوانات وحتى الأشياء الجامدة". وبالإضافة إلى ذلك فإنه يُشفي بكبح ليس فقط "التعبير الظاهري عن الغضب بل وأيضاً أفكار الغضب". لا يجب علينا فقط أن نضبط لساننا في وقت التجربة ولكن "أن ننقي قلبنا من الحقد، وألا نضمّر أفكاراً خبيثة ضد إخواننا". ويكون الشفاء النهائي في "إدراك أنه لا يجب علينا أن نغضب لأي سبب، مهما كان، سواء كان حقاً أم باطلاً"<sup>١٦٦</sup>.

تُشفي الكآبة بحرب توجه "ضد الأهواء الداخلية". يجب علينا أن نحارب "ضد شيطان الكآبة الذي يلقي بالنفس في اليأس. فيجب علينا أن نطرده من قلوبنا". فلنتعهد فقط الحزن "الذي يتمشى مع التوبة من الخطية والمصحوب بالرجاء في الله". ويعني ذلك أن الكآبة تُطرد وتُشفى عندما نحولها بنعمة الله وبشجاعتنا الخاصة إلى حزن روحي، الذي هو حزن التوبة. يجهزنا هذا الحزن الإلهي ويجعلنا طائعين وتواقين لكل عمل صالح "ومرئيين ومتواضعين ولطفاء ومحتملين وصبورين على إحتمال كل الآلام أو الحن التي قد يرسلها لنا الله"<sup>١٦٧</sup>.

لا يُشفى الفتور بأية طريقة أخرى بخلاف "الصلاة، وتجنب الحديث الباطل، ومن خلال دراسة الأسفار المقدسة، ومن خلال الصبر في مواجهة التجربة". ويكون العمل الجسدي أيضاً مطلوباً. لا يسمح آباء مصر القديسون "للرهبان أن يكونوا بدون عمل في أي وقت".

<sup>163</sup> . Ibid. p. 73f

<sup>164</sup> . Ibid. p. 75

<sup>165</sup> . Ibid. p. 81f

<sup>166</sup> . Ibid. p. 83ff

<sup>167</sup> . Ibid. p. 87f

إنهم لا يعملون فقط من أجل إحتياجاتهم "ولكنهم من عملهم يساعدون أيضاً ضيوفهم والفقراء والمساكين، مؤمنين أن أعمال المحبة هذه هي ذبيحة مقدسة مقبولة لدى الله" <sup>١٦٨</sup>.

أما البر الذاتي، فهو متعدد الصور وخفي، ويتطلب إنتهاهاً كبيراً. ويجب على المرء أن يستعمل كل وسيلة ليتغلب على هذا "الحيوان المتعدد الصور". ولا يجب على المرء أن يفعل أي شيء وهو منتظر مديح الآخرين، كما يجب عليه "أن يطرد بإستمرار أفكار البر الذاتي التي تدخل القلب، وأن ينظر لذاته على أنه لا شيء أمام الله" <sup>١٦٩</sup>.

وأخيراً فإن الكبرياء هو الصراع "الأكثر شراً والأكثر عنفاً من كل ما قيل حتى الآن". إنه يشفي خلال الإتضاع، الذي يتحقق من خلال الإيمان ومخافة الله واللطف والتخلي عن المقتنيات. إننا نحصل على الحب الكامل بواسطة هذه الأشياء <sup>١٧٠</sup>.

ولكن الشيطان عدو خلاصنا بارع. من أجل ذلك يجب على المسيحي الذي يجاهد في هذه الحرب أن يكون هو نفسه بارعاً. يظهر دهله الإنسان في الطرق التي يستعملها لكي يخدع الشيطان. إننا نجد في كتابات الآباء العديد من الحالات "الماهرة" التي هرب فيها الشيطان وشُفيت النفس.

✦ عادة ما تميل الأهواء للعودة ثانية <sup>١٧١</sup>. إنها تعود بعد قليل بصورة أقوى، بينما تبدو أنها قد شُفيت أو تلاشت. ومن كلمات السيد المسيح المشهورة كلماته عن الروح النجس: "إذا خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز في أماكن ليس فيها ماء يطلب راحة ولا يجد. ثم يقول أرجع إلى بيتي الذي خرجت منه. فيأتي ويجده فارغاً مكنوساً مزيناً. ثم يذهب ويأخذ معه سبعة أرواح أخر أشر منه فتدخل وتسكن هناك. فتصير أواخر ذلك الإنسان أشر من أوائله" (مت ١٢: ٤٣-٤٥). يعي القديسون ذلك ويتخذون كل الإحتياطات الضرورية.

إننا نود فيما يلي أن نورد بعض طرق ومقترحات الآباء. يجب علينا أن نحارب أساساً ضد الهوى السائد "حيث أنه سيكون بلا جدوى أن نتغلب على الأهواء الأخرى قبل أن نزيل هذا الهوى بالذات" <sup>١٧٢</sup>.

يجب علينا، عندما نحارب إثنين من الأهواء في نفس الوقت، أن نفضّل الإستسلام للهوى الأخف لئلا يغلبنا الهوى الأقوى. يقدم القديس يوحنا الدرجي مثالين. قد يحدث في

<sup>168</sup>. Ibid. p. 89ff

<sup>169</sup>. Ibid. p. 91f

<sup>170</sup>. Ibid. p. 92f

<sup>171</sup>. Ladder. Step 3. CWS p. 86

<sup>172</sup>. Ibid. Step 15. CWS p. 176

٤. بعض الأحيان أن يأتي الأخوة بينما نكون في الصلاة، وعندئذ يتعين علينا أن نفعل أحد أمرين إما ألا نستقبل الأخوة أو أن نكف عن الصلاة من أجل إستقبالهم. إننا كنا سنفضل أن نوقف الصلاة لأن "الحبة أعظم من الصلاة". ويقول القديس في موضع آخر، أنه كان في بلدة ما وبينما كان جالساً على المائدة هوجم بفكر النهم والمجد الباطل، ففضل أن يهزم من المجد الباطل ( أي أن يكون معتدلاً في تناول الطعام وأن يمدح لكونه صواماً) لأنه كان يخاف من النهم أكثر. "وإذ كان يعرف ويخاف من نتائج النهم، أي الشهوة، قرر أن يستسلم للمجد الباطل"<sup>١٧٣</sup>.

يُعلّم الأب يوسف أنه يكون من الأفضل، في بعض الأحيان، أن ندع الأهواء تدخل داخلنا ثم نحاربها هناك، وفي أحيان أخرى أن نقطعها من القلب تماماً، وهكذا أجاب أخ سألته عن هذا الأمر قائلاً: "دعها تأتي وحاربها" موضحاً أنه كان يفضل ذلك. ولكن إذ سألته أخ آخر نفس السؤال، عما إذا كان يجب عليه أن يدع الأهواء تقترب أم أن يقطعها، أجاب قائلاً: "لا تدع الأهواء تأتي داخلك بلمرة ولكن إقطعها على الفور"<sup>١٧٤</sup>. يُظهر ذلك أن المعالج الروحي هو الشخص الذي سوف يعهد إلينا بنوع الجهاد والحرب المناسب بالإضافة إلى الطريقة المناسبة، لأن كل شخص يختلف عن الآخر وتكون كل حالة فريدة.

يذكر القديس يوحنا الدرجي الطرق التي يستطيع بها المرء أن يهزم الشياطين. تبدو هذه الطرق متطرفة ويجب أن ننوه إلى أن هذه الطرق لا يستطيع كل أحد أن يطبقها ولكن فقط "ذاك الذي إنتصر على الأهواء". وبتعبير آخر فإن النقي القلب لديه علة طرق ليصيب الشياطين.

كان أخ يعاني من الإهانة ولكنه لم يكن يضطرب بسببها بلمرة، و كان يصلي في قلبه ومع ذلك بدأ في الاعتراض والعيول من جهة الإهانة التي تعرض لها، بحيث أنه أخفى اللاهوى الذي كان فيه بهوى زائف مختلق.

وتظاهر أخ آخر بأنه مستحق لمركز الأب الرئيس، على حين أنه لم يكن يمتلك أية رغبة فيه بلمرة.

وأخ آخر، كان معروفاً بعفته، ذهب إلى بيت دعارة "بحيث بدا كما لو كان ينوي إرتكاب الخطية" وجذب الزانية إلى حية النسك. وأخ آخر أعطي عنقود عنب، وعندما مضى الأخ الذي

<sup>173</sup> . Ibid. Step. 26. CWS p. 238f

<sup>174</sup> . Sayings p. 87, 3



أحضره أكله الناسك مظهراً ذاته كما لو كان يلتهمه بشراهة، على حين أنه لم يكن في الواقع يتلذذ به بالمرّة، وبهذه الطريقة "جعل الشياطين تنخدع وتتصور أنه نهماً".

لقد كانت كل تلك الأشياء تفعل من قبل أولئك المدعويين "مختلين في المسيح" بهدف خداع الشيطان وإعطاء الفائزة للأخوة بعدة طرق. ولكن هذا يتطلب نقاوة خاصة وبركة خاصة ونعمة من الله. وبالتالي يكتب القديس يوحنا الدرجي من جهة هذه الملاحظات قائلاً أنه يجب على الذين يستخدمون هذه الطريقة أن يكونوا يقظين جداً "لأنهم بينما يحاولون أن يخدعوا الشياطين قد يخدعون ذواتهم"<sup>١٧٥</sup>.

يستطيع المرء بعد جهاد عظيم، وبنعمة الله، أن يشفي أهواءه وأوجاع نفسه وأن يصبح ملكاً. يختبر المجاهد الروحي مثل تلك المواهب بحيث أنه يستطيع أن يردد كلمات الأنبا يوسف: "أنا اليوم ملك لأنني أتسلط على الأهواء"<sup>١٧٦</sup>. وعندئذ يستمتع بحيلة المسيح لأن "ذاك الذي أمت الأهواء وتغلب على الجهل يمضي من حيلة لحيلة"<sup>١٧٧</sup>.

ولكن يجب علينا أن نجاهد باستمرار طالما أننا موجودون في هذه الحيلة ونحمل فساداً وموتاً. من أجل ذلك حتى عندما يتغلب المرء على "كل الأهواء تقريباً" يبقى هناك شيطانان يحاربان إنسان الله. يربك الواحد منهما النفس "بتشتيتها عن محبتها العظيمة لله في غيرة في غير محلها، بحيث لا تريد أن تكون أية نفس أخرى مرضية أمام الله أكثر منها". وهذا يعني أن هذا الشيطان يدفع النفس في غيرة في غير أوانها للوصول للكمال، ولثلاث تكون أية نفس أخرى أكثر إرضاءً لله منها. والشيطان الثاني يقوم بسماع من الله "بالهاب الجسد بشهوة جنسية". يسمح الرب بهذه التجربة لذلك الذي يبلى بلاء حسناً في فضائل عديدة "بحيث يرى الناسك نفسه أقل من أولئك الذين يعيشون في العالم" وهكذا يكسب خلاصه من خلال الإلتضاع والإنسحاق. يجب علينا أن نحارب التجربة الأولى بإتضاع وحب عظيمين، والثانية بضبط النفس والتحرر من الغضب والتأمل المستمر في الموت<sup>١٧٨</sup>. وهكذا يسمح لنا الله أن نحارب من قبل الشيطان على مدار حياتنا لكي يجعلنا منسحقين.

قال أخ للأب بيمن: "لقد مرض جسدي ومع ذلك لم تضعف أهوائي"<sup>١٧٩</sup>. وعلى الرغم من هذه الأمور، فإن المرء في محاولاته لكي يتطهر يختبر حالة اللاهوى المباركة. ومن أجل ذلك نأتي الآن لدراسة حالة اللاهوى المباركة.

<sup>175</sup> . Ladder. Step. 26. CWS p. 248

<sup>176</sup> . Sayings. P. 88, 10

<sup>177</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 328, 53

<sup>178</sup> . St. Diadochos. Philok. 1, p. 294, 99

<sup>179</sup> . Sayings. P. 159, 161

## ٤- اللاهوى

إننا سوف نجتهد لكي نجعل دراستنا عن اللاهوى مختصرة لأن ما قيل من قبل يظهر لنا أيضاً طريقة الوصول لهذه الحالة المباركة.

إن قيمة اللاهوى للحياة الروحية عظيمة جداً. فالذي يصل لهذه الحالة يصبح قريباً لله ومتحداً به. تظهر الشركة مع الله أنه يوجد لاهوى. إن اللاهوى بحسب تعليم الآباء هو "صحة النفس"<sup>١٨٠</sup>. فلو أن الأهواء هي مرض النفس فإن اللاهوى هو حالة الصحة للنفس. اللاهوى هو "قيامه النفس السابقة لقيامه الجسد"<sup>١٨١</sup>. يكون المرء بلاهوى عندما يطهر لحمه من كل فساد ويرفع عقله فوق كل شيء مخلوق ويجعله سيداً لكل الحواس، وعندما يحفظ نفسه في حضرة الرب<sup>١٨٢</sup>. يكون اللاهوى إذاً هو الدخول لأرض الموعد<sup>١٨٣</sup>. يلقي الروح القدس نوره على ذاك الذي إقترب من حدود اللاهوى وصعد بدرجة تناسب نقاوته من جمال الأشياء المخلوقة إلى الخالق<sup>١٨٤</sup>. وبتعبير آخر فإن اللاهوى له قيمة عظيمة وينال إطراء الآباء بإفراط لأنه هو تحرر العقل. لو أن الأهواء تستعبد وتأسر العقل فإن اللاهوى يحررها ويقودها نحو المعرفة الروحية للكائنات ومعرفة الله: "يبحث اللاهوى العقل للوصول إلى المعرفة الروحية للكائنات المخلوقة"<sup>١٨٥</sup>. وبالتالي يقود للمعرفة الروحية<sup>١٨٦</sup>. ويكتسب المرء موهبة الإفراز العظيمة كنتيجة لهذه المعرفة الروحية. يستطيع الشخص الذي يحيا في النعمة أن يميز بين الشر والخير والطاقات المخلوقة من غير المخلوقة وأعمال الشيطان من أعمال الله. "يتولد الإفراز من اللاهوى"<sup>١٨٧</sup>.

يتكلم المعاصرون كثيراً عن الملكية المشتركة والفقر، ولكن خطأ أغلبهم هو أنهم يحدّون الفقر في الخيرات المادية وينسون أنه شيء أبعد من هذه الأشياء. يختبر المرء الفقر الحقيقي عندما يتحرر عقله من كل شيء مخلوق ويكف عن أن يكون عبداً للأمور المخلوقة ويرفع نفسه نحو الله. هذا الفقر الحقيقي الذي للروح يكتسبه الإنسان الذي بلا

<sup>180</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 313,3

<sup>181</sup> . Ladder. Step 29. CWS p. 282

<sup>182</sup> . Ibid.

<sup>183</sup> . Ilias the Presbyter. Philok. 3, p. 49, 14

<sup>184</sup> . Nicetas Stethatos. Practical chapters, Ch. 90

<sup>185</sup> . St. Thalassios. Philok.2, p. 326, 20

<sup>186</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 107,58

<sup>187</sup> . Ibid. p. 69, 25

هوى: "الفقر الروحي هو اللاهوى الكامل، وعندما يصل العقل لهذه الحالة فإنه يهجر كل الأمور العالمية"<sup>١٨٨</sup>.

ولكن يجب علينا أن نعطي تعريفاً للاهوى. تكلم الفلاسفة الرواقيون منذ أزمنة قديمة عن اللاهوى على أنه إماتة النفس الحسية. لقد أكدنا من قبل على أن الجزء الحسى للنفس يتكون من الجانب الإنفعالي والجانب الراجب. وبحسب التفسير القديم فإنه عندما تمت هذه فعندئذ نحصل على اللاهوى.

وعلى أية حال فعندما يتكلم الآباء عن اللاهوى فهم لا يعنون إماتة الجزء الحسى من النفس ولكن تحوله. وحيث أن قوى نفوسنا أصبحت في حالة غير طبيعية من خلال سقوط الإنسان، فإنه من خلال اللاهوى الذي هو التحرر من الأهواء تكون نفوسنا في الحالة الطبيعية.

وبحسب تعليم الآباء، فإن اللاهوى هو الحالة التي لا تخضع فيها النفس لأية دوافع شريرة، ويكون ذلك مستحيلاً بدون رحمة الله<sup>١٨٩</sup>. وبحسب القديس مكسيموس فإن "اللاهوى هو حالة سلام للنفس لا تتحرك فيها بسهولة نحو الشر"<sup>١٩٠</sup>. وهذا يتطلب أن يعني اللاهوى أن لا يعاني المرء من الصور العقلية للأشياء<sup>١٩١</sup>، أي أن تكون النفس خالية من الأفكار التي تتحرك بالحواس وبالأشياء ذاتها. ومثلما حدث في الماضي أن اشتعلت العليقة بالنار دون أن تحترق، هكذا أيضاً يكون الحال في الشخص الذي يعيش في اللاهوى "مهما كان جسده ثقیلاً ومحموماً" لا تربكه ولا تؤذيه حرارة جسده، لا عضوياً ولا عقلياً. إذ أنه في هذه الحالة "يزجر صوت الرب لهيب الطبيعة"<sup>١٩٢</sup>. وهكذا يمتلك الشخص الذي يعيش في اللاهوى عقلاً حراً ولا يرتبك بأي شيء أرضي ولا بحرارة جسده. وبالتأكيد لا يمكن التعبير عن حرية العقل من كل دوافع الجسد ومن الصور العقلية للأشياء، لأولئك الذين يعيشون لا في حالة اللاهوى وإنما يعيشون بطاقات الأهواء. وعلى أية حال فإن ما يسميه العالم طبيعياً فبالنسبة لإنسان الله يكون غير طبيعي. ويختبر ما يسمى فائق للطبيعة على أنه طبيعي. لقد وجهت للقديس سمعان اللاهوتي الجديد إتهامات حول أنه من المستحيل على الناس أن يعيشوا في الحالات الفارقة لطبيعة

■ - St. Thalassios. Philok. 2, p. 318, 90

■ - Ibid. p. 309, 40

■ - Philok. 2, p. 56, 36

■ - Ibid. p. 89, 35

■ - St. John of Karpathos. Philok. 1, p. 298, 3

هذه وأن يجيئوا في حرية من الجسد، فكتب قائلاً أن ذاك الذي لا يحيا في اللاهوى لا يعرف ما هو اللاهوى "ولا يستطيع أن يصلق أن أي إنسان على الأرض يستطيع أن يمتلك هذه الحالة"<sup>١٩٣</sup>. ويكون هذا طبيعياً إلى حد ما "لأنه عندما يحكم شخص ما على شئون قريبه على أنها صالحة أم شريرة فإنه يفعل ذلك مستنداً فقط على حالته هو الشخصية"<sup>١٩٤</sup>. يحكم كل واحد بحسب محتويات حياته هو، وبحسب الطريقة التي يعيش بها هو. على أية حال فإنه من المؤكد بالنسبة لأولئك الذين إختبروا أن العلامة المميزة لشخص يحيا في اللاهوى هي "بقاؤه هادئاً وبلا خوف في كل الأشياء" طالما أن المرء يكون قد تلقى من الله "القوة لكي يفعل أي شيء"<sup>١٩٥</sup>.

نقول كل ذلك لكي نؤكد على حقيقة أن اللاهوى هو حالة طبيعية تماماً، فهي تحول الجزء الحسى وعودته لحياة طبيعية. لقد كان هذا الموضوع هو موضوع جدل كبير دار في القرن الرابع عشر بين القديس غريغوريوس بالاماس وبرلعم الفيلسوف الذي إذ شجب نوع الصلاة التي يمارسها السكونيون، أصر على أن اللاهوى هو إماتة الجزء الحسى. ولكن إذ كان لدى القديس غريغوريوس خبرة شخصية عن هذا الأمر وكان يعبر عن كل خبرة الكنيسة دحض هذه الرؤية: "ولكننا أيها الفيلسوف علمنا أن اللاهوى لا يشتمل على إماتة الجزء الإنفعالي للنفس، ولكن على حمله من الشر للخير وتوجيه طاقاته للأمر الإلهية، وتحويله بعيداً عن الأشياء الشريرة ونحو الأشياء الصالحة"<sup>١٩٦</sup>. إن الشخص الذي يحيا في اللاهوى هو ذاك الذي "يعرف بالفضائل مثلما يعرف رجال الأهواء بالذات الشريرة". يخضع رجال الأهواء عقولهم للهوى، على حين أن الذي يحيا في اللاهوى يخضع الجزء الحسى من النفس الذي هو الجزء الإنفعالي والجزء الراغب "لقوى المعرفة والتمييز الحسنة والعقل في النفس"<sup>١٩٧</sup>. إنه سوف يكتسب معرفة الله بواسطة الجزء المدرك للنفس، من خلال معرفة الأشياء المخلوقة المفهومة بطريقة روحية، وسوف يمارس "الفضائل المناسبة" بواسطة الجزء الحسى حيث أنه سوف يعتنق الحب بواسطة الجزء الراغب، وسيمارس الصبر بواسطة الجزء الإنفعالي"<sup>١٩٨</sup>. وهكذا يكون اللاهوى هو تحول الجزء الحساس وخضوعه للعقل الذي هو مجهز بالقواعد بطبيعته، بحيث يستطيع المرء أن يميل نحو الله

<sup>١٩٣</sup> . CS 41, p. 58

<sup>١٩٤</sup> . CS 41, p. 58

<sup>١٩٥</sup> . Peter of Damascus. Philok. 3, p. 147

<sup>١٩٦</sup> . St. Gregory Palamas. Triads. 2, 2. 19. CWS p. 54

<sup>١٩٧</sup> . Ibid.

<sup>١٩٨</sup> . Ibid.

مباشرة "بواسطة تذكره بغير إنقطاع"، ثم بعد ذلك يصل المرء "لأن يكتسب إستعداداً إلهياً، وتتقدم النفس نحو الحالة الفائقة لكل الحالات، التي هي محبة الله"<sup>199</sup>. وهكذا نفهم أن الجزء الحسى لا يمات ولكنه يمتلك قوة الحيلة العظمى. ويُعلم القديس غريغوريوس في موضع آخر أن صلب الجسد "مع أهوائه وشهواته" لا يعني إماتة كل طاقة للجسد وكل قدرة للنفس أي الانتحار، ولكنه يعني الإبتعاد عن الشهوات والممارسات الدنيئة "وإظهار هذا الهروب منها بصورة قاطعة" أي عدم العودة لها بالمرّة، وهكذا يصير الشخص إنسان الشهوات الروحية ويتقدم بشجاعة مقتدياً بمثل لوط الذي خرج من سدوم. ويختصار نستطيع أن نقول أنه بحسب القديس غريغوريوس بالاماس فإن أولئك الذين يعيشون في اللاهوى لا يمتنون الجزء الحسى للنفس ولكنهم "ييقون عليه حياً وعاملاً للأفضل"<sup>200</sup>.

وهكذا يرتبط اللاهوى بالحب وهو حركة الحيلة. وبحسب القديس يوحنا الدرجي فإنه مثلما يتحد النور والنار واللهب "ليشكلوا نشاطاً معيناً" هكذا يكون الحال مع الحب واللاهوى والتبني.

"لا يمكن التمييز بين الحب واللاهوى والتبني إلا بالاسم فقط"<sup>201</sup>. يرتبط اللاهوى بصورة وثيقة بالحب والتبني: إنه الحيلة والشركة مع الله.

وبالتأكيد عندما نتكلم عن "اللاهوى" فإننا لا نعني أن المرء لا يهاجم من قبل الشيطان. فعند حياتنا يستمر في إزعاج حتى الإنسان الذي يحيا في اللاهوى إذ أنه جرب حتى الرب في البرية بالتجارب الثلاثة المعروفة جيداً. ولكن اللاهوى هو "أن يبقى المرء غير مهزوم عندما تحاربه الشياطين"<sup>202</sup>.

توجد عدة مراحل أو درجات لللاهوى والتي نتمنى أن نذكرها من خلال تقديم تعليم الآباء. يصف القديس مكسيموس أربعة درجات لللاهوى. يُرى النوع الأول من اللاهوى في المبتدئين وهو "الإمتناع التام عن الإرتكاب الفعلي للخطية". وفي هذه المرحلة لا يرتكب الشخص الأفعال ظاهرياً. أما اللاهوى الثاني والذي يحدث في ذوي الفضائل فهو الرفض الكامل لكل قبول عقلي للأفكار الشريرة. واللاهوى الثالث الذي هو هدوء تام لشهوة الهوى يوجد في الشخص المتحد بالله وأما الرابع فهو التطهر الكامل حتى من الصور

<sup>199</sup> . Ibid. p. 54f

<sup>200</sup> . Ibid. 2, 2, 24

<sup>201</sup> . Ladder. Step 30. CWS p. 287

<sup>202</sup> . St. Diadochos of Photike. Philok. 1, p. 294, 98

الخالية من الهوى ويوجد في أولئك الكاملين<sup>٢٠٣</sup>. يبدو من هذا النص أنه بحسب درجة طهارة الشخص يظهر نوع اللاهوى المناسب.

يصنف القديس سمعان اللاهوتي الجديد اللاهوى إلى فئتين. الأولى هي لاهوى النفس والثانية هي لاهوى الجسد. "تستطيع الأولى حتى أن تقدس الجسد بلمعانها الخاص وبضياء الروح القدس ولكن لاهوى الجسد لا يستطيع وحده بدون لاهوى النفس أن يكون ذا نفع لصاحبه"<sup>٢٠٤</sup>. وحتى لو مارس الشخص كل فضيلة عملية فلا يجب عليه أن يفترض أنه وصل للاهوى<sup>٢٠٥</sup>.

يكتب القديس يوحنا الدرجي الموجود في تقليد الكنيسة، أنه يوجد شخص يحيا في اللاهوى ويوجد آخر أكثر لاهوى منه فالواحد يعاف الشر على حين أن الآخر يمتلك "بركة مخزون الفضائل الذي لا ينضب"<sup>٢٠٦</sup>. من الواضح هنا إذاً، أن اللاهوى هو ليس فقط عملاً سلبياً ولكنه عمل إيجابي أيضاً. إنه إكتساب الفضائل الذي هو ثمرة الروح القدس.

يصنف نيسيئاس ستيثاتوس اللاهوى إلى جزئين: يأتي الأول للمجاهدين بعد إتمام الفلسفة العملية، أي بعد الجهاد الحقيقي عندما تمت الأهواء وتبقى دوافع الجسد خاملة وتحرك قوى النفس نحو ما هو طبيعي. وأما اللاهوى الثاني والأكثر كمالاً فيأتي إليهم مع الإلهام بعد بداية الثيوريا الطبيعية.

إن هذا اللاهوى الكامل الذي "يتصاعد من السكون الروحي للأفكار إلى حالة السلام العقلي يجعل العقل بصيراً ومتنبئاً جداً" إذ يصبح عقل الشخص الذي في اللاهوى مدركاً بشلة للأمور الإلهية ولرؤى وإعلانات أسرار الله ويصبح متنبئاً بشدة بالأمور البشرية عندما يرى أناساً عن بعد بينما هم على وشك المجيء إليه<sup>٢٠٧</sup>.

ينصح الآباء بوجه عام بإعطاء إنتباه كبير لموضوع اللاهوى لأنه من الممكن ألا يضطرب المرء بالأهواء عندما تكون الأشياء التي تثيرها غير موجودة ولكن في الحال عندما تتوفر هذه الأشياء فإن الأهواء تشتت العقل. يكون هذا اللاهوى لاهوى جزئي<sup>٢٠٨</sup>.

<sup>203</sup> . Philok. 2, p. 222, 51

<sup>204</sup> . CS 41, p. 58

<sup>205</sup> . St. Theognostos. Philok. 2, p. 365, 29

<sup>206</sup> . Ladder. Step 29. CWS p. 283

<sup>207</sup> . Practical chapters. Ch. 89

<sup>208</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 106, 53

توجد درجات للاهوى ويجب على المرء الذي يناضل لكي يحصل عليه ألا يتوقف أبداً بل أن يناضل باستمرار لأنه لا توجد نهاية للكمال. ويجب علينا أن نؤكد بوجه عام أن غفران الخطايا هو شيء واللاهوى هو شيء آخر. يكتب القديس يوحنا الدرجي قائلاً: "الكثيرون حصلوا على غفران خطاياهم بسرعة ولكن ما من أحد إكتسب اللاهوى بسرعة لأن ذلك يتطلب وقتاً كبيراً وإشتياًقاً بالإضافة إلى عمل الله"<sup>209</sup>. وهذا هو السبب الذي جعلنا نركز في موضع آخر على حقيقة أن الاعتراف وحده لا يكفي، ولكن تحتاج النفس للشفاء، أي أنه يجب علينا أن نكتسب لاهوى جزئياً أو حتى كلياً.

يتضح من هذه الأمور أنه توجد عدة عناصر تميز اللاهوى الحقيقي من اللاهوى الزائف. يكتب القديس يوحنا الدرجي الذي هو خير بحيلة النفس الداخلية وصاحب موهبة الإفراز أن الأهواء والشياطين تهرب من النفس إما لوقت محدد أو للأبد. ولكن القليلون هم الذين يعرفون طرق وأسباب الابتعاد. فالطريقة الأولى هي أن تحتفي الأهواء بالنار الإلهية. والثانية هي أن تبعد الشياطين بعيداً لكي تجعلنا متهاونين بحيث تستطيع أن تهاجم وتسبي النفس فجأة. والطريقة الثالثة هي أن تبعد الشياطين عندما تصبح النفس معتادة على الأهواء "عندما تصبح هي ذاتها الخائن والعدو لذاتها". إن ذلك يشبه ما يحدث للأطفال الذين "إذ يفطمون من ثدي الأم يمحسون أصابعهم بسبب تمكن العادة منهم". وأخيراً يوجد لاهوى آخر يأتي من "بساطة وبراعة شديدة"<sup>210</sup>.

بالإضافة إلى ذلك يظهر الفرق بين اللاهوى الحقيقي والزائف في المواقف التي نتخذها من جهة الآخرين. يرتبط اللاهوى بالحب وبالتالي يظهر موقفنا من جهة الأخوة اللاهوى الحقيقي أو اللاهوى الزائف. إن ذاك الذي "لا يستطيع أن يتغاضى عن خطأ صديقه عندما تحدث بعض التجارب" لا يمتلك اللاهوى. إذ أنه عندما تضطرب الأهواء في النفس فإنها تعمي الذهن "وتمنعه من رؤية نور الحقيقة" ولا يستطيع حتى أن يميز بين ما هو صالح وما هو شرير<sup>211</sup>. يوجد اللاهوى العديم التغير فقط في أقصى صورته في أولئك الذين وصلوا للحب الكامل "وإرتفعوا فوق الأشياء الحسية من خلال التأمل المستمر والذين سموا فوق الجسد من خلال الإلتضاع"<sup>212</sup>. يمتلك الشخص الذي إقترب من الحد الأدنى للاهوى إحتراماً بسيطاً لكل الناس "ويفكر باستمرار حسناً في كل أحد ويراهم

<sup>209</sup> . Ladder. Step 26 summary. CWS p. 259

<sup>210</sup> . Ibid. Step 26. CWS p. 238

<sup>211</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 112, 92

<sup>212</sup> . St. Theognostos. Philok. 2, p. 365, 29

كقديسين وأطهار، ويكون له حكم صائب على الأشياء الإلهية والبشرية" ويتحرر عقل الإنسان الموجود في اللاهوى من كل الأشياء المادية التي للعالم "ويتلع بكلية في الأمور الروحية التي لله. إنه يرى الجمال الإلهي ويُفَضِّلُ بطريقة لا تُلَاقَ بالله أن يتردد على الأماكن الإلهية التي لمجد الله المبارك في صمت بلا كلام وبفرح. وإذا تتحول كل حواسه فإنه يتحد بالناس بطريقة غير مادية مثل ملاك في جسد مادي"<sup>213</sup>. وعندما يتكلم شخص، في اللاهوى، عن خطايا أخ فإنه يفعل ذلك لأحد سببين إما لإصلاحه أو لإعطاء فائدة لشخص آخر. ولكن لو أن شخصاً ما تكلم عن خطايا أخ "لكي يؤذيه أو يسخر منه" فهو لن يهرب من أن يتخلى عنه الله، وسوف يقع إما في نفس الخطية أو خطية أخرى "وإذا يلام ويؤنب بواسطة أشخاص آخرين سوف يلحقه الخزي"<sup>214</sup>.

يتواجد اللاهوى الكامل عندما يبقى الشخص غير متأثر لا بالشئ ولا بتذكره: "عندما تصبح الفضيلة عادة فإنها تقتل الأهواء، ولكنها عندما تُهْمَلُ فإن الأهواء تحيا من جديد"<sup>215</sup>. وبالتالي فإن الشخص الذي يضطرب بالأهواء في بعض الأحيان، ويكون مرتاحاً وهادئاً في أحيان أخرى، لا يكون في اللاهوى. ولكن الذي يحيا في اللاهوى هو بالأحرى ذاك الذي "يتمتع باللاهوى على الدوام وحتى لو كانت الأهواء مازالت موجودة داخله فإنه يبقى غير متأثر بالأشياء التي تثيرها"<sup>216</sup>.

توجد علامة أخرى على وجود اللاهوى الكامل في الإنسان، وهي عدم وجود أي صور عقلية لأي شيء عالمي يجعل عقله يضطرب أثناء الصلاة"<sup>217</sup>.

يقول القديس يوحنا الدرجي أن الكثيرين من الذين يفتخرون معتقدين أنهم في اللاهوى "يكتشفون مدى فقرهم فقط بعدما يموتون"<sup>218</sup>.

يوصلنا هذا التمييز بين اللاهوى الحقيقي والزائف إلى نقطة فحص الخصائص الحقيقية لللاهوى الحقيقي.

الإفراز الحقيقي هو علامة على اللاهوى"<sup>219</sup>. ولقد أشرنا من قبل أنه توجد علامة تميز اللاهوى الحقيقي من الزائف وهي الحب. ونريد الآن أن نمضي إلى درجة أبعد في هذا

<sup>213</sup> . Nicetas Stethatos. Practical chapters. Ch. 90

<sup>214</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 95, 73

<sup>215</sup> . Ibid. p. 106, 54

<sup>216</sup> . St. Theognostos. Philok. 2, p. 364, 25

<sup>217</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 63, 88

<sup>218</sup> . Ladder. Step 23. CWS p. 210

<sup>219</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 309, 43



التمييز. يقول القديس مكسيموس: "بالنسبة لذلك الكامل في الحبة والذي وصل لقمة اللاهوى لا يوجد فرق بين ما هو له وما هو للآخر، ولا بين المسيحيين وغير المؤمنين، ولا بين العبد والحر ولا حتى بين رجل وإمرأة". فهو إذ يرى طبيعة الإنسان الواحدة "فإنه ينظر للجميع بنفس الطريقة ويظهر نفس الابتعاد عن الجميع"<sup>220</sup>. ويقول القديس مكسيموس ثانية أنه طالما أن الله صالح وعديم الهوى بالطبيعة ويحب كل الناس بالتساوي "فهو يجد الإنسان البار لأنه يتحد بالله في إرادته وفي صلاحه يكون رحيماً على الخاطئ وإذ يؤديه في طريق الحياة فإنه يعيده لطريق الفضيلة". والذي يحب يفعل نفس الشيء، فهو يحب البار بسبب طبيعته ونيته الحسنة ويحب الخاطئ أيضاً بسبب طبيعته ومن خلال الحنو<sup>221</sup> وبالمثل يكون الإنسان الذي في اللاهوى هو ذاك الذي لا يضمر حقداً ضد من أذاه أو إفتري عليه<sup>222</sup>. يحب الإنسان الذي في اللاهوى كل الناس "ولا يميز الإلهي من غير الإلهي"<sup>223</sup>. وبالإضافة إلى ذلك فإن الإنسان الذي في اللاهوى يتألم ويصلي لأجل قريبه: "لا تقل أن الذي في اللاهوى لا يعاني من الحزن، لأنه حتى لو لم يتألم على حاله فهو عرضة لأن يتألم على قريبه"<sup>224</sup>.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الشخص الذي يسعى نحو اللاهوى ونحو الله "يعتبر اليوم الذي يمضي بدون مذمة يوماً ضائعاً"<sup>225</sup>. أي أنه ليس فقط لا يحزن بالمهانة والمذمة ولكنه يحزن عندما لا ينتقله أحد. ويظهر ذلك نقاوة قلبه من الأهواء حتى تلك الخفية.

وبوجه عام يكون الشخص الذي في اللاهوى مملوءاً بمواهب الروح القدس، فهو شجرة ممتلئة بثمار بهيجة أي ثمار الروح القدس التي هي الفضائل. عندما يتحدث الآب له عن الفضائل فهم لا يرونها على أنها أعمال أخلاقية ذاتية ولكن كأعمال وجودية بمعنى أن الفضائل لا ترى على أنها أعمال صالحة، أو قيم مجردة ولكن كشخص، على الرغم من أنها ليست شخصية بالطبيعة، بمعنى أنها موجودة بذاتها. فالحب هو الشركة مع الحب الحقيقي الذي هو المسيح والسلام ليس قيمة مجردة ولكنه المسيح ذاته. وينطبق نفس الشيء على البر وما إلى ذلك. وبمقدار ما يكون الشخص الذي في اللاهوى في شركة مع المسيح بمقدار ما تصبح فضائل المسيح فضائله هو أيضاً بصورة طبيعية. إننا لا نرغب أن

<sup>220</sup> . St. Maximus. Philok. 2. p. 70, 30

<sup>221</sup> . Ibid. p. 55, 25

<sup>222</sup> . Ibid. p. 105, 42

<sup>223</sup> . Nicetas Stethatos. Natural chapters. Ch. 44

<sup>224</sup> . St. Mark the Ascetic. Philok. 1, p. 136, 132

<sup>225</sup> . Ladder. Step 4. CWS p. 120

نركز على موضوع الفضائل، ولكننا نقول فقط أنه مثلما توجد أهواء للنفس والجسد هكذا أيضاً توجد فضائل للنفس والجسد. ومثلما توجد مراحل ودرجات للأهواء هكذا أيضاً توجد مراحل ودرجات للفضائل. ومثلما توجد أمهات وبنات للأهواء هكذا أيضاً توجد أمهات وبنات للفضائل. ولكننا لا نعتقد أنه من الضروري أن نسردها هنا ولكننا ننصح القارئ بالرجوع للآباء التاليين: القديس يوحنا الدمشقي بالنسبة لفضائل الجسد<sup>226</sup> والقديس يوحنا الدرجي بالنسبة للفضائل التي تناسب القامات الروحية الثلاثة أي المبتدئين والمتوسطين والمتقدمين<sup>227</sup>.

لو أنه يوجد شخص ما لم يضطرب بأي هوى، ولو أن قلبه يشترك لله أكثر فأكثر، ولو كان لا يخاف الموت بل ينظر إليه على أنه نوم، فإنه يكون عندئذ قد حصل على عربون خلاصه "وإذ يتمتع بفرح لا ينطق به فإنه يحمل ملكوت السموات في داخله"<sup>228</sup>.

لا يحصل المرء على نعمة اللاهوى بطريقة عشوائية، ولكن يتطلب الأمر مجهوداً مكثفاً وجهاداً عظيماً. من أجل ذلك سوف نرى الآن كيف يأتي اللاهوى. وفي الواقع يُظهر ما قلناه في الفصل السابق عن الجهاد لشفاء الأهواء الطريقة التي يكتسب بها المرء اللاهوى. وهنا نريد أن نعبر بإختصار على الطرق المؤدية لأرض الموعد، أي أرض اللاهوى. وسوف يتعين علينا بالضرورة أن نكون موجزين مستشهدين بنصوص آباءية.

"يتولد الإتضاع من الطاعة ومن الإتضاع نفسه يتولد اللاهوى"<sup>229</sup>. فالإتضاع النابع من الطاعة يجلب اللاهوى. ولو أن شخصاً ما تقدم بطريق آخر بخلاف ذلك فلن يستطيع أن يجد ما يريد<sup>230</sup>. لا يتحقق اللاهوى بدون الحب<sup>231</sup>. وحيث أنه توجد درجات للحب وحيث أنه يوجد تداخل بين الفضائل إذ أن الحياة الروحية هي وحدة واحدة ومتصلة معاً فإن حياة الحب تجلب بالتالي اللاهوى ويرتبط اللاهوى إرتباطاً وثيقاً بالحب. يحافظ الحب وضبط النفس على "العقل في اللاهوى في مواجهة الأشياء والصور الذهنية النابعة منها"<sup>232</sup>. اللاهوى هو "مكافأة ضبط النفس"<sup>233</sup>. يساعد الصوم والسهر والصلاة

<sup>226</sup> . St. John of Damascus. Philok. 2, p. 334

<sup>227</sup> . Ladder. Step 26. CWS p. 232

<sup>228</sup> . St. Theognostos. Philok. 2, p. 361, 12

<sup>229</sup> . Ladder. Step 4. CWS p. 109

<sup>230</sup> . St. Theognostos. Philok. 2, 364, 25

<sup>231</sup> . Ibid. 367, 36

<sup>232</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 89, 39

<sup>233</sup> . Ibid. p. 69, 25

بدرجة كبيرة على تولد اللاهوى: "يؤدي الصوم الحكيم والأسهار مع التأمل والصلاة إلى الحد الأدنى من اللاهوى بسرعة" بشرط أن تقتني النفس أيضاً الإتضاع وأن تمتلئ من الدموع وأن تشتعل بحبة الله<sup>٣٣٤</sup>. إن الغذاء الجاف والغير منتظم المتحد بأعمال الحبة "يقود الراهب بسرعة إلى الحد الأدنى من اللاهوى"<sup>٣٣٥</sup>. وعندما يعمل شخص ما بصبر وضبط نفس في كل الأمور وتضرع مستمر، وفي نفس الوقت يحافظ على الأرض التي كسبها بلوم النفس وبإتضاع جم فإنه سوف "يحصل على نعمة اللاهوى في وقت جيد"<sup>٣٣٦</sup>. يقول القديس يوحنا الدرجي أن اللاهوى الحاصل من خلال سكون الجسد لا يبقى غير متزعزع "في أي وقت يصطدم به العالم" على حين أن "اللاهوى الحاصل من خلال الطاعة هو أصيل ويكون غير متزعزع في أي مكان"<sup>٣٣٧</sup>. تلد حالة النقاوة التي تأتي من حفظ وصايا الله اللاهوى<sup>٣٣٨</sup>. ويوضح ذلك أن حفظ وصايا الله له قيمة عظيمة: "يولد حفظ وصايا الله اللاهوى"<sup>٣٣٩</sup>.

ولكن لا يستطيع الإنسان أن يدخل في "مكان الراحة الذي للاهوى وإلى كمال المعرفة الروحية"<sup>٣٤٠</sup> من خلال تمارين الجسد فقط بدون إيمان. يقول أيضاً القديس ثيوغنستس أنه عندما يحصل شخص ما على فضيلة عملية فإنه لا يستطيع الإقتراب من اللاهوى "ما لم يمنح التأمل الروحي عقله معرفة منيرة وفهماً للأشياء المخلوقة"<sup>٣٤١</sup>. هذا النص مهم جداً لأنه يوجد اليوم أيضاً من يقولون أن المرء يستطيع أن يصل للاهوى من خلال الفضيلة العملية. لا يقلل القديس ثيوغنستس ذلك بل يرى أنه يجب أن يصلحها تأمل روحي وتوبة وصلاة وخصوصاً "الصلاة العقلية".

يساعد الحزن الإلهي بدرجة كبيرة على تحقيق اللاهوى. ويقول القديس يوحنا الدرجي "أعد الحزن الطريق للاهوى المبارك لعله أشخاص إذ أنه اجتهد وحرث وتخلص من الخطية"<sup>٣٤٢</sup>. الحزن هو إذاً طريقة حية فهو ينظف النفس ويطهر العقل ويجعله قادراً على إستقبال التعزيزات الإلهية. يرتبط هذا الحزن بالتوبة، وترتبط التوبة الحقيقية ببغض الذات. لقد تكلم الرب عن بغض الحية المرتبط بإتباع المسيح والفوز بملكوت السموات "من

<sup>234</sup> . Nicetas Stethatos. Natural chapters. Ch. 79

<sup>235</sup> . Abba Evagrios. Sayings. P. 54, 6

<sup>236</sup> . St. Theognostos. Philok. 2p. 365f, 30

<sup>237</sup> . Ladder. Step 15. CWS p. 176

<sup>238</sup> . St. Maximus. Philok. 2, p. 112. 91

<sup>239</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 314, 25

<sup>240</sup> . Nicetas Stethatos. Gnostic chapters. Ch. 71

<sup>241</sup> . Philok. 2, p. 369, 46

<sup>242</sup> . Ladder. Step 7. CWS p. 143

يجب نفسه يهلكها ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حية أبدية" (يو ١٢: ٢٥) وأيضاً "إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أبه وأمه وإمرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً" (لو ١٤: ٢٦). ويكتب القديس غريغوريوس بالاماس أن أولئك الذين يعيشون في العالم يجب عليهم أن يغضبوا ذواتهم لاستعمل أشياء هذا العالم بما يتمشى مع وصايا المسيح. إن مثل هذا التغصب الذي يتأصل بالتعود يجعل الأمر سهلاً علينا أن نقبل وصايا الله ونحول حالتنا القابلة للتغيير إلى حالة ثابتة. إن هذه الحالة تجلب بغضة ثابتة "للحالات الشريرة ولإستعدادات النفس" وتولد البغضة اللاهوى<sup>٢٤٣</sup>. وهكذا تصبح بغضة الذات الملتوية والشريرة مصدراً للاهوى. وعندما يمتلك المرء اللاهوى فإن الخطية لا تسلط عليه ويبقى في الحرية وفي قانون الروح القدس<sup>٢٤٤</sup>.

عندما نرى أنه يوجد بعض الأشخاص القائمين في الحيلة الروحية والذين لديهم خطايا قليلة وأهواء صغيرة لا يجب علينا أن نصاب بالصدمة، لأن الله في تدبيره عادة ما يترك بعض البقايا الضئيلة من الأهواء بحيث يكتون أنفسهم ويحصلون على ثروة من الإتضاع لا يستطيع أحد أن يسرقها منهم<sup>٢٤٥</sup>.

هذا هو كنز اللاهوى العظيم. فهو مرتبط بكل الفضائل وبالحيلة الروحية. من أجل ذلك يجب علينا أن نصلي لكي نكتسب اللاهوى المبارك. يحننا القديس يوحنا الدرجي نحن جميعاً الذين إكتسحنا الهوى أن نصلي "إلى الرب بلا إنقطاع لأن كل العائشين في اللاهوى كانوا من قبل في الهوى وتقدموا منه إلى اللاهوى"<sup>٢٤٦</sup>.

ولا يجب علينا في الواقع أن نطلب هذا اللاهوى بكبرياء وتمرکز حول الذات بهدف الحصول على مواهب عظيمة وفائقة للطبيعة. لأنه من الممكن أن يطلب شخص ما هذه الموهبة وتمنح له من قبل الشيطان بهدف تضليله بالباطل. من أجل ذلك يحننا القديس ثيودور غنسطس قائلاً: "لا تطلب اللاهوى لأنك غير مستحق لهذه الموهبة ولكن أطلب الخلاص بإستمرار وسوف تحصل معه على اللاهوى أيضاً"<sup>٢٤٧</sup>.

وعلى الرغم من صلاتنا وجهادنا المكثف فمن الممكن ألا يسمح لنا الله بالتخلص من هوى ما، بحيث أننا قد نختبر اللاهوى إما جزئياً أو كلياً. قد يحدث ذلك إما لأننا طلبنا

<sup>243</sup> . St. Gregory Palamas. Triads. 2, 2, 20. CWS p. 55

<sup>244</sup> . Nicetas Stethatos. Gnostic chapters. Ch. 75

<sup>245</sup> . Ladder. Step 26. CWS p. 239

<sup>246</sup> . Ibid. Step 28. CCWS p. 277

<sup>247</sup> . Philok. 2, p. 366, 32

ذلك من الله في غير أوانه أو عن غير إستحقاق أو بزهو، أو لأننا لو كنا حصلنا عليه لكان يؤدي إلى خداع أو لكننا أصبحنا متهاونين أو مهملين. من أجل ذلك لا يجب علينا أن نحزن "لو أن الله سمح ألا تستجاب طلبتنا إلى حين". يسر الله بأن يجعلنا بلا هوى "في لحظة" ولكن يكون تدبيره من أجل خيرنا مثلما قلنا من قبل<sup>٢٤٨</sup>. وبالإضافة إلى ذلك توجد حالات في تاريخ الكنيسة لأشخاص كانوا قد حصلوا على اللاهوى ثم طلبوا من الله أن يأخذ منهم هذه البركة بحيث يستطيعون أن يحاربوا العدو. فبعلمنا هزم مار إفرايم كل أهواء النفس والجسد بنعمة المسيح "طلب أن تؤخذ منه هذه الموهبة" بحيث لا يسقط في الكسل ويدان على أنه لم يعد يقاوم العدو بعد<sup>٢٤٩</sup>.

يلد اللاهوى الجزئي أو الكلي على شفاء النفس، إذ تحصل النفس على الصحة. وينتعش العقل الذي كان قد مات بالأهواء ويقوم: "يرفع اللاهوى المبارك العقل الفقير من الأرض للسماء ويقيم المسكين من مزبلة الهوى. ويجعله الحب، الذي له كل المجد، يجلس مع الأمراء، أي مع الملائكة المقدسين ومع أمراء شعب الرب"<sup>٢٥٠</sup>.

<sup>٢٤٨</sup> 248 . Ladder. Step 26. CWS p. 237

<sup>٢٤٩</sup> 249 . Peter of Damascus. Philok. 3, p. 152

<sup>٢٥٠</sup> 250 . Ladder. Step 29. CWS p. 285



الباب الخامس

السكون  
كطريقة شفاء





السكون هو أحد الطرق الرئيسية لشفاء النفس بكل معنى الكلمة. وإني أعتقد أننا وضحنا ذلك بالفعل. يطلب الإنسان المعاصر الشفلة لحياته وخصوصاً لحالته الداخلية وذلك لأنه بإختصار مضغوط فوق الطاقة. ومن أجل ذلك تكون أحد الرسائل التي تستطيع الأرثوذكسية أن تقدمها للعالم المعاصر المتضجر واليائس والمتخبط هي رسالة الصمت. إني أعتقد أن لدى التقليد الأرثوذكسي الكثير ليقدمه في هذا المضمار. ولذلك سوف أحاول فيما يلي أن أشرح بالأكثر قيمة السكون وحركة السكونيين من أجل شفاء النفس والعقل والقلب والإدراك. إن لدينا إنطباعاً أن السكون وحركة السكونيين هما بين العلاجات الأكثر أساسية للحصول على الشفاء الداخلي. وحيث أن نقص الصمت هو ما يجلب المشاكل والضغط والقلق وعدم الأمان، بالإضافة إلى الأمراض النفسية والعضوية، فإننا سوف نحاول أن نفحص عن سببها الذي هو ضد السكون. تنتشر الآن الريح الصحراوية التي للحركة المضادة للسكون والتي تعصف وتحرق كل شيء. وهي منتشرة الآن في كل مكان وتشكل السبب الرئيسي للحالة الغير طبيعية. من أجل ذلك سوف نرى السكون كطريقة لشفاء النفس ومضادة السكون كسبب للأمراض النفسية والعضوية.

## ١- السكون

قبل أن نقوم بتعريف السكون دعونا أولاً نتطلع إلى قيمته العظمى في شفاء النفس.

لقد أكد الآباء القديسون، الذين عاشوا النفخة الكاملة للتقليد الأرثوذكسي، على الأهمية الكبرى للسكون الأرثوذكسي. لقد نظر القديس غريغوريوس اللاهوتي للسكون على أنه ضروري للحصول على الشركة مع الله: "من الضروري أن يبقى المرء ساكناً لكي يحصل على حديث واضح مع الله ولكي يعيد العقل ثانية من تجواله بالتدرج".<sup>١</sup> يظهر المرء حواسه وقلبه بالسكون، وبالتالي يعرف الله وتكون معرفته لله هي خلاصه.

يعلن القديس ثالاسيوس الذي يلتزم بهذا الاتجاه إلتماً تاماً: "السكون والصلاة هما أعظم أسلحة الفضيلة لأنهما يطهران العقل ويمنحه بصيرة روحية".<sup>٢</sup> يتطهر عقل الإنسان من خلال السكون، ويصبح بالتالي أداة مقبولة لرؤية الله. وفي الواقع، وكما نعلم من تعليم الآباء، فإن العقل يختلف عن الإدراك. فعندما يختفي العقل بالأهواء فإنه يكف

<sup>١</sup> . PG 95, 1245c

<sup>٢</sup> . Philok. 2, p. 311, 67

عن رؤية أسرار الله (إنه يموت). على حين أنه عندما يتحرر من الأهواء فإنه يصبح ذا بصيرة ويرى الله كنور، وهذا النور هو حياة الإنسان. ومثلما قلنا من قبل، فإن تطهير العقل هذا يأتي من خلال السكون.

ومن المعروف لدى أولئك المنخرطين في دراسة أعمال الآباء ولدى الذين يحاولون أن يعيشوا حياة الهدوء هذه، أنه يوجد سكون للجسد وسكون للنفس ويرتبط الأول بالأشياء الخارجية والثاني بالداخلية. وعادة ما يُقصد بسكون الجسد وضع السكون والمجهود لتقليل التصورات الخارجية والصور المستقبلية والمجوبة للنفس من خلال الحواس. وأما سكون النفس فيعني أن العقل يصل للقدرة والقوة على عدم قبول أي محاولة للضلال. وفي هذه الحالة يكون عقل الإنسان المأخوذ باليقظة والتبكيث متمركزاً في القلب. يتمركز العقل (الطاقة) في مكان القلب (الجوهر) متحدلاً به ويصل بالتالي لمعرفة جزئية أو كلية عن الله.

سكون الجسد هو الحد من الجسد: "بداية السكون هو الراحة الإلهية"<sup>3</sup> والمرحلة المتوسطة هي مرحلة "القوة المعطية إستنارة والرؤية والمرحلة النهائية هي الدهش أو غبطة العقل من جهة الله"<sup>4</sup>. يتحدث القديس يوحنا الدرجي عن سكون الجسد الخارجي قائلاً: "محب السكون يحافظ على فمه مغلقاً"<sup>5</sup>. ولكن ليس فقط أولئك المدعوين آباء متوحدين هم الذين يذكرون ويصفون الجو المقدس للسكون، ولكن أيضاً أولئك المعروفين "كإجتماعيين". ولا يوجد في الواقع في التقليد الأرثوذكسي تعارض مباشر بين السكون والعمل أو بين الآباء المتوحدين والآباء الإجتماعيين. فالمتوحدون إجتماعيون بوضوح وأولئك الذين يعيشون في المجتمع متوحدون بطريقة لا يمكن تصورها.

إننى أود أن أستشهد بالقديس باسيليوس الكبير كمثال للسكون المقدس. إنه يكتب في رسالة لصديقه القديس غريغوريوس عن السكون كبداية لنقاوة النفس وعن سكون الجسد الذي هو كبح اللسان والنظر والسمع والكلمات. وهو يقول على سبيل المثال: "إن البداية الأولى لطهارة النفس هي الهدوء الذي لا يستسلم فيه اللسان لمناقشة شئون البشر، ولا الأعين لتأمل الحدود الوردية أو الأجساد الجميلة، ولا الأذن لإنقاص نغمة النفس بالإستماع للأغاني التي يكون هدفها الوحيد هو التسلية، أو للكلمات المنطوق بها بمكر وتهريج. هذا الهدوء هو ممارسة تميل فوق كل الأشياء لإعطاء إسترخاء لنغمة النفس".

<sup>3</sup> . St. Gregory of Sinai. Acrostics, 111. Writings, p. 61

<sup>4</sup> . Ibid.

<sup>5</sup> . Ladder. Step 11. CWS p. 159

يعبر هذا عن حالة الهدوء التي إستمتع بها هذا الأب القديس في الصحراء، عندما كان يحاول أن يكتسب معرفة الله في جامعة الصحراء بعد الوقت الذي قضاه في المدارس البشرية مكتسباً المعرفة البشرية. وكنتيجة لذلك، يمدنا نجم قيصرية هذا بنص كلاسيكي يوضح أنه حصل على معرفة ممتازة عن حيلة السكون. وهو يكتب قائلاً: "عندما لا يكون الذهن مشتتاً في أشياء خارجية ولا منتشرأً عبر عالمتنا من خلال الحواس، فإنه ينعزل داخل ذاته ويصعد لرؤية الله بإرادته. وبعد ذلك عندما يستنير خارجياً وداخلياً بهذا المجد فإنه ينسى حتى طبيعته الخاصة، وإذا لا يعود قادراً على جذب النفس لأسفل نحو أفكار الطعام أو الإهتمام بتأمين الجسد، يستمتع بالتخلص من الإهتمامات الأرضية ويحول كل إهتماماته نحو إكتساب الخيرات الأبدية..."<sup>6</sup>.

يساعد سكون الجسد على الحصول على سكون النفس الداخلي. ويبدو من التعليم الأبائي أن سكون الجسد حتى لو لم يكن ضرورياً تماماً فإنه مع ذلك مطلوب بشدة في الحيلة الإلهية: "سكون الجسد هو معرفة وتدبير المرء لشاعره وإدراكاته"<sup>7</sup>. ويتكلم القديس يوحنا الدرجي عن هذا السكون، في موضع آخر، مفكراً بالأخص في "أماكن الإقامة المعزولة"<sup>8</sup>.

وبالتأكيد وكما قلنا من قبل، فإن الصحراء وسكون الجسد بوجه عام يساعدان على الوصول للسكون الداخلي الروحي. ولكن الآباء يفهمون حركة السكون على أنها "لا هي الحيلة كناسك ولا إبتعاد المرء في الصحراء ولكن كإقامة في الله بغير إنقطاع"<sup>9</sup>. وعلى الرغم من وجود قيمة عظمت للصحراء لكونها تساعد على الحد من الصور والتصورات الآتية من العالم الخارجي، إلا أن ذلك ليس أمراً مطلقاً. يتميز فكر نيسيتاس ستيثاتوس في هذه النقطة فهو يشير إلى أن الفضيلة ليست قاصرة على مكان معين، وأن هدف الإنسان هو "إستعادة قوى النفس، وتركيز الفضائل العامة في نقطة واحدة فعالة بحسب الطبيعة". وإذا يقول أن هذه الأشياء لا تأتي من الخارج "ولكننا إستمددناها من الخليقة" فهو يستنتج قائلاً: "ليست الصحراء ضرورية لو أن المرء يصل للملكوت السموات بدونها من خلال التوبة وحفظ كل وصايا الله"<sup>10</sup>. إنه أمر متميز أن نيسيتاس إذ يصيغ المشكلة التي تحدث عنها الكثيرون عن إستحالة الوصول لحالة الفضيلة "دون

<sup>6</sup> . St. Basil the Great. FC vol. 13, p. 7. Letter 2

<sup>7</sup> . Ladder. Step 27. CWS p. 261f

<sup>8</sup> . Ibid. Step 21. CWS p. 199

<sup>9</sup> . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 140

<sup>10</sup> . Practical chapters. Ch. 72

الإنعزال والهروب داخل الصحراء" فإنه يكتب قائلاً: "لقد تعجبت أنهم يُعلِّمون أن الذي لا يعرف حدوداً موجوداً في مكان محدود"<sup>11</sup>.

على أية حال فإن الصحراء وسكون الجسد بوجه عام يساعدان المرء على إكتساب سكون الروح، وهذا هو المضمون المقدس الذي سوف نصفه الآن.

يكتب القديس يوحنا الدرجي بطريقة مركزة في كتابه المعروف قائلاً أن سكون النفس هو "معرفة وتدبير المرء لأفكاره بدقة"، "إن سكون النفس هو علم الأفكار وهو ذهن لا تنتهك حرمة. والتفكير الشجاع والمصمم هو صديق للسكون. فهو يبقى على يقظة مستمرة على أبواب القلب، ويقتل أو يلفظ الأفكار الآتية عليه"<sup>12</sup>.

يقول القديس سمعان اللاهوتي الجديد، متكلماً عن السكون الداخلي وواصفاً مناخه المقدس: "السكون هو حالة غير مضطربة للعقل، وهدوء لنفس حرة مبهجة، وأساس لقلب غير مضطرب ولا متزعزع، ورؤية النور ومعرفة أسرار الله، وهو كلمة من الحكمة وعمق لصور الله الذهنية، وغبطة للعقل وحديث نقي مع الله، وعين ساهرة وصلابة داخلية واتحاد مع الله وإستراحة بلا ألم في أعمال نسكية عظيمة"<sup>13</sup>.

يتكلم أيضاً آباء آخرون عن تلك الحالة المقدسة للنفس طالما أن الحياة في المسيح هي خبرة مشتركة لكل القديسين. وبحسب القديس غريغوريوس السينائي فإن "السكون يعني قطع كل الأفكار ماعدا الأفكار الأكثر ألوهية الآتية من الروح القدس خوفاً من فقدان الأعظم بقبول الأولى على أنها صالحة"<sup>14</sup>.

هذا الرفض للصور الذهنية، هو جزء من محاولة الإنسان لتطهير الجزء المدرك من نفسه. يصارع المجاهد في الحياة الروحية لكي يبعد بعيداً الأفكار التي يزرعها الشرير بهدف تحطيم الوحدة الداخلية لقوى النفس وجعل قلب الإنسان مريضاً. إنها حقيقة واقعة أن الأرثوذكسية هي علم علاجي. وإذ قرأنا كتابات الآباء القديسين التي تتحدث عن هذه المواضيع رأينا بوضوح أن المسيحية تشفي النفس المريضة، ويأتي حفظ العقل في المقام الأول بين طرق الشفاء بالإضافة إلى لفظ الأفكار الداخلية ومحاولة قتلها قبل أن تستطيع دخول بوابة القلب.

<sup>11</sup> . Ibid.

<sup>12</sup> . Ladder, Step 27. CWS p. 262

<sup>13</sup> . SC 51, p. 115

<sup>14</sup> . Acrostics, 9. Writings, p. 90

"ما هو السكون إلا حفظ المرء لقلبه بعيداً عن الأخذ والعطاء مع الناس وعن إرضائهم وما إلى ذلك من مثل هذه الأفعال؟ عندما يتكلم الرب مع أحد الكتبة عن الرجل الذي وقع في أيدي اللصوص وسأله من كان قريبه قال: "إنه ذاك الذي صنع معه رحمة" وقال أيضاً: "إني أريد رحمة لا ذبيحة". لو أنك ببساطة تقتني رحمة فإنها تكون أعظم من الذبيحة. أمل قلبك إلى الرحمة، لأن التعلل بالسكون يقود إلى الغطسة قبل أن يستطيع المرء أن يربح نفسه ويصبح بلا خطية. السكون إذاً هو حمل الصليب. فأنت تجد عوناً عندما تكون حنوناً. أما لو أنك كبحت نفسك، كما لو كنت تريد أن تتجنب تجاوز الحدود، فإعلم إذاً أنك فقدت حتى ما تقتنيه. لا تذهب لا إلى الداخل ولا إلى الخارج بل إمض في طريق مستقيم واعياً لإرادة الله لأن الأيام شريرة".<sup>15</sup>

السكون هو قبل كل شيء حفظ العقل ومراقبة المرء لأفكاره، ويعبر عن ذلك القديس ثالاسيوس قائلاً: "سد حواسك بالسكون وأحكم على الأفكار التي تهاجم قلبك".<sup>16</sup>

وعلى أية حل فالقديس غريغوريوس بالاماس هو المدافع الرئيسي عن السكون كما سنرى فيما بعد. لقد ناضل بنعمة المسيح لكي يُؤمن طريقة تنقية القلب والأفكار هذه، والتي هي أحد المتطلبات التي لا غنى عنها لمعرفة الله والشركة معه. وتكلم في موعظته عن دخول العذراء الهيكل عن حية السكون. إنه أمر متميز أن هذا القديس الأثوسي، إذ يتكلم عن خبرة، يرى مريم العذراء كنموذج للسكون العقلي حيث أنها دخلت في شركة مع الثالث القدوس في قدس الأقداس في سكون. إنه يكتب قائلاً أننا لا نستطيع أن نصل لله وندخل في شركة معه ما لم نتطهر وما لم نتخلّى عن أمور الحواس الحسية، وما لم ترتفع فوق الأفكار والمعقولات والمعرفة البشرية وكل فكر. إن هذا هو ما فعلته العذراء بالضبط. لقد طلبت العذراء هذه الشركة مع الله "فوجدت أن السكون المقدس هو مرشدنا. إنه صمت الذهن وتوقف العالم ونسيان الأمور السفلية، والمشاركة في الأسرار العلوية ووضع الصور الذهنية جانباً من أجل ما هو أفضل. وفي الواقع فإن هذه الممارسة هي الدخول الحقيقي في الثيوريا أي رؤية الله، أو بتعبير أفضل فهي النموذج الوحيد لنفس سليمة بحق". وبعد ذلك يصف القديس غريغوريوس الفضائل كعلاجات لأمراض النفس وللأهواء، ولكنه يقول أن الثيوريا هي "ثمرة الشفاء الذي يكون التأليه هو شكله ونهايته". وبتعبير آخر فإن النفس تشفى خلال الفضائل ولكنها إذ تشفى تتحد بالله من خلال الثيوريا التي يقود طريق

<sup>15</sup> . Barsanuphius and John. Q. 314. In Gk.

<sup>16</sup> . Philok. 2, p. 308, 22

السكون إليها. "يتحد الإنسان بالله بواسطة هذه الثيوريا، وليس من خلال التأمل في الكلمات أو الأشياء المرئية، ولكنه يتعلم من خلال الصمت"<sup>١٧</sup>.

إننا نشفى بهذه الطريقة التي للسكون والتعليم الأرثوذكسي إذ "نتحرر من الأشياء الأرضية ونتحول نحو الله". وبواسطة التضرع المستمر "نتلامس إلى حد ما مع هذا الجوهر المبارك الذي لا يمكن التلامس معه. وهكذا فإن أولئك الذين تطهروا في القلب خلال السكون المقدس وبعدما يتخللهم النور الذي هو فوق كل حس وعقل، يرون الله في داخلهم كما في مرآة"<sup>١٨</sup>.

إن النقطة الرئيسية في هذه العظة هي أن نطهر قلوبنا وعقولنا بواسطة الطريقة الأرثوذكسية، التي هي أساساً طريقة للسكون العقلي. وبهذه الطريقة نصير متحدين بالله. هذه هي الطريقة الوحيدة للإتحاد بالله والشركة معه.

يسمى الآباء القديسون ذلك سلام النفس وراحة السبوت. فيذ يتطهر عقل الإنسان بطريقة وتدريب الصمت المقدس فإنه يحفظ السبوت ويستريح في الله. يتكلم القديس غريغوريوس بالامس عن الراحة الإلهية وراحة الله عندما "إستراح من كل عمله" وعن راحة المسيح عند نزول نفسه مع لاهوته للجحيم، وإقامة جسده مع لاهوته في القبر ويكتب قائلاً أنه يجب علينا أن نركز عقلاً مع إحتفاظنا بالإنتبه والصلاة الدائمة. راحة السبوت الإلهية هذه هي السكون العقلي. "لو أنك أبعدت عقلك من كل فكر حتى لو كان صالحاً وإستدرت تماماً نحو نفسك، محتفظاً بالإنتبه والصلاة الدائمة، فأنت أيضاً سوف تأتي للراحة الإلهية، وتحصل على بركة التطويات السبعة ناظراً لنفسك ومن خلال نفسك ترتفع إلى رؤية الله"<sup>١٩</sup>. إنه أمر جدير بالملاحظة أن يقول القديس هذه الأشياء في حديث لجمهور إيروشسته في تسالونيكي. وهذا يعني أن الجميع باختلاف أعماقهم يستطيعون الوصول لخبرة الراحة الإلهية. إنني أعتقد أن هذا هو التعليم المفقود في وقتنا هذا.

ونستطيع مما قلناه عن السكون العقلي أن نرى لماذا يسمى الشخص الذي يمارس ذلك "سكونياً". السكوني هو ذاك الذي يتبع طريق السكون الذي هو في الواقع طريق التقليد الأرثوذكسي، والذي يهدف لتوصيلنا لله ولإتحادنا به. إننا نستطيع أن نستشهد بقول القديس يوحنا الدرجي: "قديمو السكوني غرباً ولكنه رجل يحارب لكي يبقى على نفسه

<sup>17</sup> . St. Gregory Palamas. Homily 51. EPE vol. 11, p. 328

<sup>18</sup> . Ibid.

<sup>19</sup> . St. Gregory Palamas. Homily 17, 10. EPE 9, p. 498

الغير جسدانية مغلقاً عليها في منزل الجسد... يكون السكوني مثل ملاك على الأرض. لقد حرر صلاته من الكسل والتهاون بواسطة ورقة الحب وحروف الغيرة... السكوني هو ذاك الذي يصرخ قائلاً: "قلي مستعد يا الله" كما يقول: "أنا نائمة وقلي مستيقظ".<sup>20</sup>

وفي الواقع وكما أشرنا بالفعل فإن حركة السكون هي الطريقة الأنسب لتركيز النفس وإرتفاع النفس لله والشركة معه. فهي ضرورية جداً للشركة مع الله. لقد شرح القديس غريغوريوس بالاماس بإستفاضة أنه يجب على عقل الإنسان (طاقة) أن يعود للقلب (جوهر) وأن يبقى في القلب الذي هو "مستودع الإدراك والعضو المدرك الأول في الجسد" و"مستودع الأفكار" والمكان الذي توجد فيه نعمة الله. ويكتب القديس قائلاً: "ألا تستطيع أن ترى إذا كيف هو أمر رئيسي أن أولئك الذين قرروا أن يعطوا إنتباهاً لأنفسهم في هدوء داخلي يجب عليهم أن يجمعوا العقل وأن يغلقوا عليه في الجسد وخصوصاً في ذاك "الجسد" الموجود في الجزء الداخلي الأعمق من الجسد والذي نسميه القلب؟"<sup>21</sup>

ولكن يجب علينا أن نؤكد على أن التدريب على السكون هو ليس مجرد محاولة بشرية لإعادة العقل لنفسه، وأن إتحاد العقل بالقلب ليس مجرد طريقة تقنية. يكون هذا التدريب في السكون موحى به ومقاد بواسطة الروح القدس ويعبر عنه في التوبة والحزن. إنه ليس مجرد طريقة مصطنعة والتي يمكن أن نجدها ببعض العمق في النظم المتمركزة حول الإنسان. تتبع حركة السكون التي للراهب الأرثوذكسي من توبة عميقة وإشتياق لحفظ وصايا المسيح. إنها ليست تطبيقاً مصطنعاً للحياة الروحية التي للاهوت الأريوباغي. لا ينكر التعليم اللاهوتي للأريوباغيين نتائج الهدوء الذهني وهكذا يقترب من بل وحتى يقع في حركة السكون. ولكن يوجد فرق جوهري هو أن الناسك الأرثوذكسي لا يصل للهدوء الذهني من خلال الفلسفة المجردة للاهوت الإيجابي apophatic ولكن من خلال التوبة والجهاد ضد "ناموس الخطية" (رو: ٧: ٢٣) الذي يعمل في الطبيعة الإنسانية.<sup>22</sup>

يربط كل الآباء بين السكون العقلي والتوبة. ويكتب القديس غريغوريوس السينائي قائلاً: "من المستحيل أن يحتمل المرء رجل الصمت الذي يغلي بدون ممارسة البكاء المستمر". إن الذي يبكي على الأشياء التي تسبق وتلحق بالمتى سوف يمتلك الصبر والإلتضاع، اللذين هما حجرا الزاوية للسكون. وبدون التوبة وهذين الأساسين سوف يتولد لدى السكوني "خداع وتواني".<sup>23</sup>

<sup>20</sup> . Ladder. Step 27. CWS p. 262f

<sup>21</sup> . St. Gregory Palamas. Triads. 1, 2, 3. CWS p. 43

<sup>22</sup> . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 178

<sup>23</sup> . Acrostics, 108. Writings, p. 60

وهكذا يجب علينا أن نؤكد بشدة على أن طريقة التدريب على السكون ترتبط بالتوبة والدموع والحزن والإنسحاق. ويكون السكون بدون هذه الأشياء زائفاً وبالتالي عديم الفائدة، إذ أن هدف السكون هو تنقية العقل والقلب. ولا يمكن أن يتولد ذلك بدون الدموع والحزن. وبالتالي تكون الدموع بالنسبة للسكون العقلي طريقة حياة. ويصبح المرء قادراً على رؤية رؤيته من خلال تركيز عقله في قلبه، وعندئذ تذرف عينه وقلبه ذاته دموع التوبة على الفور. وإذا تنمو التوبة فإنه يتطهر ويكتسب معرفة الله.

ولكن السكون يرتبط أيضاً بصورة وثيقة بحفظ وصايا المسيح. إن أعظم أسلحة أي شخص يجاهد ليصل إلى حياة السكون الداخلي بصبر هي "ضبط النفس والحجة واليقظة والقراءة الروحية"<sup>24</sup>. وبحسب القديس غريغوريوس السينائي فإن أيًا من ممارس السكون يجب عليه أن يمتلك، كأساس له فضائل "الصمت وضبط النفس والسهر والإتضاع والصبر". ويجب عليه بالمثل أن يمتلك ثلاثة أنشطة ترضي الله وهي: "المزامير والصلاة مع القراءة وعمل اليدين"<sup>25</sup>. ويؤكد نفس القديس في موضع آخر على أن "أول متطلبات السكون هو إمتلاك الإيمان والصبر والحب والرجاء بكل القلب والقوة والقدرة"<sup>26</sup>.

ويؤكد ثانية، في موضع آخر، على فضائل أخرى مثل ضبط النفس والصمت وملازمة النفس "التي هي الإتضاع إذ أن هذه تدعم وتحمي بعضها البعض، وتتولد منها الصلاة وتنمو للأبد"<sup>27</sup>. ويجب بلا شك على المرء أن ينتبه أيضاً للطعام، ممارسة كل كبح لثلا يظلم العقل بالطعام: "يجب على الذي يمارس السكون أن يكون في إحتياج باستمرار وغير شعبان لأن المرء لا يستطيع أن يصلي بطهارة وثبات بمعدة ثقيلة وعقل مظلّم بهذه الطريقة". يأتي النوم من الطعام الكثير ويمتألّ الذهن بأحلام لا تحصى<sup>28</sup>.

تُظهر هذه الأشياء أن طريقة الحياة السكونية تفترض حفظ وصايا المسيح طالما أن هذا يولد الفضائل. وبالتالي فإن الفضائل أيضاً معتمدة على السكون والسكون معتمد على حفظ وصايا المسيح وأحكامه.

وعلى النقيض لا يشكل عدم حفظ الوصايا وإمتلاك الأهواء السكون الأرثوذكسي، ولو بدأ السكون في الظهور فإنه يبيد ويختفي. "لا يوجد شيء له قدرة عظيمة على إرباك

<sup>24</sup> . St. Thalassios. Philok. 2, p. 313, 11

<sup>25</sup> . Acrostics, 99. Writings, p. 57

<sup>26</sup> . Acrostics, 103. Writings, p. 58

<sup>27</sup> . St. Gregory of Sinai. Writings, p. 83

<sup>28</sup> . Gk. Philok. 4, p. 84



حالة السكون وعلى حرمانها من معونة الله أكثر من الآتي: الوقاحة والنهم والثروة والإهتمامات الباطلة والتصلف والخيال الذي هو رئيس كل الأهواء<sup>٢٩</sup>.

تُظهر كل هذه الأشياء أن السكون العقلي المقدس ضروري لحفظ النفس طاهرة من الأهواء وللشركة مع الله. إنه ليس رفاهية في حياة المرء وليس تدريباً لقليل من الناس فقط وليس طريقة لكي يتبناها الرهبان فقط، ولكنه موضوع لكل أحد فهو أمر لا غنى عنه للوصول لتأمل الله والاتحاد به الذي هو هدف الإنسان. وتوجد على أية حال عدة درجات للسكون العقلي. لقد علم الرب عدة مرات كما هو واضح في البشائر عن تطهير القلب من الأهواء، وعن الصلاة الداخلية، وعن التحرر من قوة الأفكار وما إلى ذلك. لقد أوضح هو بنفسه لتلاميذه قيمة البرية. فهي تساعد المرء على هزيمة العدو. من أجل ذلك إشتمل تعليم الرسل على العديد مما يدعى مواضيع نسكية.

ليس هنا الموضوع الملائم للحديث عن كل هذه المواضيع ولكننا نتمنى فقط أن نذكر القليل من المعروف أن الرب بعد عمله "أصعد إلى البرية من الروح ليغرب من إبليس" (مت ٤: ١). لقد غلب الشيطان هناك في البرية الذي جربه بالتجارب الثلاثة المعروفة. ونجد أن الرب في أحيان كثيرة يعتزل في البرية لكي يستريح، ولكن أيضاً لكي يعلم تلاميذه بهذه الطريقة قيمة الصحراء "... إنصرف من هناك في سفينة إلى موضع خلاء منفرداً" (مت ١٤: ١٣). وبعد معجزة مباركة الخمس خبزات والسمكتين "بعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي ولما صار المساء كان هناك وحده" (مت ١٤: ٢٣).

إنه أمر ذو أهمية كبرى أنه عندما إجتمع التلاميذ "وأخبروه بكل شيء كل ما فعلوا وكل ما عملوا" أنه قال لهم: "تعالوا أنتم منفردين إلى موضع خلاء وإستريحوا قليلاً" (مر ٦: ٣٠-٣١). ولقد قضى الرب الليل كله في الصلاة، وأوضح لوقا الإنجيلي هذه المعلومة قائلاً: "وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي وقضى الليل كله في الصلاة" (لو ٦: ١٢).

وأكد الرب في تعليمه على قيمة السكون العقلي، والتحرر من الأهواء الموجودة في داخلنا. وإذ علمنا طريقة الصلاة الحقيقية قال: "متى صليت فأدخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذي في الخفاء" (مت ٦: ٦). ويكتب القديس غريغوريوس بالاماس في تفسيره لموعظة الرب تلك قائلاً: "... إن مخدع النفس هو الجسد وأبوابنا هي حواس

<sup>29</sup> . St. Gregory of Sinai. Acrostics, 104. Writings, p. 59

الجسد الخمسة. وتدخل النفس مخدعها عندما لا يتجول الذهن هنا وهناك في طواف بين أشياء وأمور العالم، ولكنه يبقى (الذهن) في الداخل في قلبنا. تصبح حواسنا مغلقة وتبقى مغلقة عندما لا ندعها تتعلق بالأشياء الحسية الخارجية، ويبقى بهذه الطريقة عقلنا حراً من كل إرتباط عالمي ويتحد مع الله أبية بالصلاة الذهنية السرية، وكما يضيف الرب: "وأبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية". إن الله الذي يعلم كل الأشياء الخفية يرى الصلاة الروحية ويجازيها علانية بمواهب عظيمة. من أجل ذلك تكون الصلاة التي تملأ النفس بالنعمة الإلهية والمواهب العقلية حقيقية وكاملة. وكما أنه كلما كانت قارورة الطيب مغلقة بإحكام أكثر كلما كانت أكثر تعطراً، هكذا أيضاً الصلاة كلما كانت حبيسة داخل القلب أكثر نمت في النعمة الإلهية".<sup>30</sup>

لقد قال الرب لتلاميذه الذين كانوا نياماً في بستان جثسيماني: "إسهرُوا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة" (مت ٢٦: ٤١). وبالإضافة إلى ذلك فإنه نصحن أن نحفظ عقلنا وبالأخص قلبنا طاهراً من الأهواء والأفكار المتعددة: "فشعر يسوع بأفكارهم وأجاب وقال لهم: "ماذا تفكرون في قلوبكم؟" (لو ٥: ٢٢). وإذ إتهم الكتبة والفريسيين قال: "أيها الفريسي الأعمى نق أولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما أيضاً نقياً" (مت ٢٣: ٢٦).

تشير أيضاً رسائل الرسل للقيمة العظمى للبرية والسكون العقلي والتطهير الداخلي والليقظة. وأود هنا أيضاً أن أذكر بعض النصوص القليلة المتعلقة بهذا الأمر.

بعد مجيء بولس الرسول للمسيح أقام في الصحراء العربية، وهناك تاب عن سلوكه السابق (غل ١: ١٧). وإذ كان هذا الرسول يعرف هذا السكون الداخلي الذي للعقل أعطى نصيحة عظيمة لتلاميذه. وإذ كان يشعر أن المسيحيين الذين إتحدوا بالمسيح يمتلكون فكر المسيح كتب قائلاً: "أما نحن فلنا فكر المسيح" (١كو ٢: ١٦). وينصح في موضع آخر قائلاً: "أمتوا أعضاءكم التي على الأرض" (كو ٣: ٥). ورأى الرسول بنعمة الله ناموس أعضائه الداخلي الذي يقاوم ناموس عقله (رو ٧: ٢٣).

ويعطي الرسول في تعليمه أهمية كبرى لليقظة التي هي السهر الروحي، بحيث لا يسمح المرء لعقله أن يُسبى بقوة شريرة خارجية: "فلا ننم إذاً كالباقين بل لنسهر ونصح.. وأما نحن الذين من نهار فلنصح...." (١ تس ٥: ٦-٨). وينصح تيموثاوس الرسول قائلاً: "وأما أنت فإصح في كل شيء" (٢ تي ٤: ٥).

<sup>30</sup>. EF p. 413f. Gk. Philok. 5, p. 111

وأما عن موضع الصلاة فهو واضح. يجب على الصلاة أن تستمر بغير انقطاع في قلوب المسيحيين: "واظبوا على الصلاة ساهرين فيها بالشكر" (كو ٤ : ٢) و"صلوا بلا انقطاع" (١ تس ٥ : ١٧).

يعطي بطرس الرسول نفس الوصايا مظهراً بذلك أن أعضاء الكنيسة لهم حياة مشتركة: "إصحوا وإسهرُوا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يحول ملتصاً من يبتلعه هو" (١ بط ٥ : ٨).

تظهر كل هذه الأمور أن كل المسيحيين يستطيعون بصورة عملية أن يصلوا للسكون وبالتالي لرؤية الله أيضاً، ويعبر الآباء عن هذه النقطة أيضاً.

فبطرس الدمشقي يكتب قائلاً: "لأن كل الناس يحتاجون لهذا التكريس والسكون سواء كان ذلك كلياً أم جزئياً، ويكون من المستحيل الوصول لأي إتضاع ومعرفة روحية بدونه".<sup>31</sup>

إننا نحتاج أن نلاحظ في تعليم بطرس الدمشقي هذا الكلمات القائلة: "يحتاج كل الناس لهذا التكريس والسكون" ولو كان من المفترض أن تكون هذه هي حالة كل الناس، فإنها تكون إذاً أكثر من ذلك بكثير مع الرهبان. إنه أمر لا يمكن تصوره أنه يوجد راهب لا يكرس وقتاً للمشاركة في السكون الإلهي. إننا نقول ذلك لأنه كان هناك دائماً أفكار مختلفة في دوائر قليلة، وبالأخص بين أولئك الذين عندما يأتون لموضوع جهاد الرهبان لتحقيق هذا السكون الإلهي، فإنهم يسمونهم مختلين. ومن أجل ذلك سوف ننتهز الفرصة لكي نتحدث عن العديد من الأشياء الأخرى في الفصل القادم. والنقطة الأخرى التي يجب علينا أن نؤكد عليها هي أنه "من المستحيل الوصول لأي إتضاع ومعرفة روحية بدونه". إنه الطريقة الوحيدة والوسيلة الوحيدة لمعرفة الله بحسب تعليم القديس غريغوريوس بالاماس كما ذكرنا من قبل.

يصر البعض على أن السكون الموصوف من قبل الآباء هو لاعمل وليس عملاً، ولكن العكس هو الصحيح في الواقع. فالسكون هو عمل عظيم جداً في الخفاء والصمت. يكون المرء في هدوء وسكون بهدف الكلام مع الله وبهدف أن يحصل على حريته ويتلقى الله ذاته. ولو أننا أخذنا في الاعتبار حقيقة أن أعظم المشاكل التي تقهرنا تكون نفسية وداخلية، ولو أننا فكرنا في أن معظم الأمراض النفسية والعضوية تنبع من عمل الأفكار أي من نجاسة العقل والقلب، فإننا نستطيع أن نفهم القيمة العظمى

<sup>31</sup> . Philok. 3, p. 194

للسكون العقلي. السكون هو إذاً عمل وحية. يقدم السكون الحالات التي لا غنى عنها من محبة المرء لأخوته بدون أهواء، وإكتساب الحب العديم الأنانية والعديم الهوى. "إن ذاك الذي يكون غير مرتبط بالأشياء العلية يتعلق بالسكون، والذي لا يجب أي شيء بشري بالمرّة يجب كل الناس" ( القديس مكسيموس المعترف)<sup>32</sup>. كيف يستطيع المرء أن يمتلك حباً غير أناني الذي هو أحد أهداف الحية الروحية، بينما تسيطر عليه الأهواء؟

حية السكون إذاً هي حياة نشاط مكثف، ولكن نشاط أصيل وجيد. "لا يجب علينا أن ننظر لسلوك القديسين على أنه تراخي ولكن على أنه صورة من نشاط مكثف. بالإضافة إلى ذلك فإن الله يُستعلن في علاقاته مع البشر بطريقة مشابهة. فحركة الله تجاه البشر هي ليست فقط حركة ظهور ولكنها أيضاً حركة إعلان. إنها ليست فقط إعلاناً لكلمة ولكنها تعبير عن سكون. من أجل ذلك لا يرضى الإنسان بأن يتلقى فقط طاقات الله المعلنة لكي يقترب إليه أكثر، ولكن يجب عليه أن يتقدم نحو صمت سكونه. يقود هذا الجزء الثاني للكمال، وهكذا يكون الأول مفترضاً مسبقاً. وفي الواقع لقد نوه القديس أغناطيوس حامل الإله إلى أن "ذاك الذي إكتسب كلمة المسيح بحق فهو فقط الذي يستطيع أن يسمع أيضاً سكونه بحيث يكون بذلك كاملاً". لا يجب بالتالي على حركة الإنسان نحو الله أن تكون مجرد حركة فعل، ولكنها أيضاً حركة خفاء. "لا يجب أن تكون شاهداً على الإعتراف فقط، وإنما شاهداً على الصمت والسكون أيضاً"<sup>33</sup>.

من أجل ذلك يتكلم الآباء عن "السكون المثمر"، الذي عندما يُمارس بطريقة صحيحة يقدم عوناً عظيماً للشخص، إذ يعيد تشكيل شخصيته ويجدد كيانه ويجعله يتحد بالله. وتصبح بالتالي علاقاته الإجتماعية أيضاً سليمة. عندما يكتسب المرء محبة لله فإنه يكتسب أيضاً محبة للجنس البشري.

## ٢- حركة السكون

لقد شرحنا على قدر إستطاعتنا ما هو السكون وما هي خصائصه، وكيف أنه لا غنى عنه لحياتنا الروحية. لقد أوصى به كل الآباء كأفضل طريقة للتنقية وللعودة لله. وبالإضافة إلى ذلك، وكما أشرنا من قبل، فإن الأرثوذكسية هي علم علاجي يهدف إلى شفاء أمراض

<sup>32</sup> . Philok. 2, p. 89, 37

<sup>33</sup> . G. Mantzarides. Palamika. P. 15. In Gk.

الإنسان. ولا يجب علينا أبداً أن نتغاضى عن ذلك لأننا لو فعلنا ذلك، لدمرنا كل جوهر ومحتوى المسيحية. يحصل المرء على التطهير، الذي هو إعداد ضروري للإتحاد بالله، من خلال طريقة التكريس الأرثوذكسي الذي يجد فيه السكون مكاناً مهماً جداً.

تسمى هذه الطريقة بمجملتها وطريقة الحياة بها حركة السكون. أي أن الشخص إذ يجاهد في مناخ من السكون يسمى "سكونياً" وطريقة الحياة هذه تسمى "حركة السكون". إننا بالتأكيد نعرف حركة السكون على أنها حركة لاهوتية في القرن الرابع عشر كانت ممثلة بصورة رئيسية في القديس غريغوريوس بالاماس، الذي يستعمل طريقة نفسجسمية خاصة ويطلب بمعونة النعمة الإلهية أن يوحد العقل مع القلب، وأن يعيش بالتالي في شركة مع الله. لقد أصر القديس غريغوريوس على أن هذا يحدث أيضاً في الجسد بالمثل، بمعنى أن الجسد أيضاً يستطيع أن يكتسب خبرة حياة الله. وعلى العكس من ذلك أصبح برلعام مناهضاً لهذه الحركة، دون أن يعرف هذه الطريقة، وكان نتيجة ذلك أنه أدين من قبل الكنيسة وفي النهاية عزل من المجال الأرثوذكسي. وإنهى الصراع السكوني كما كان يسمى بالجامع التي إنعقدت في القسطنطينية في ١٣٤١ و١٣٤٦ و١٣٥١. ويعتبر المجمع الأخير الذي "برأ" القديس غريغوريوس بالاماس وأيد السكون مجمعاً مسكونياً: "إننا نعتقد أن مجمع القسطنطينية المنعقد في زمن القديس غريغوريوس بالاماس عام ١٣٥١ يستطيع ويستحق أن يكون من بين المجمع المسكونية للكنيسة الأرثوذكسية على أساس عمله اللاهوتي العظيم، والذي لا يقل عنها بأي حال من الأحوال، بسبب المعنى الخلاصي الذي للاهوته. يشكل هذا المجمع الدليل على الجمعية المستمرة للكنيسة الأرثوذكسية، وعلى الخبرة واللاهوت المعاش، الخاص بالخلاص، في المسيح"<sup>٣٤</sup>.

على أية حال، لم تظهر حركة السكون هذه لأول مرة في القرن الرابع عشر، ولكنها كانت موجودة منذ القرون الأولى لحياة الكنيسة. إننا نجد السكون في الكتاب المقدس وفي كتابات آباء الكنيسة الأولين. لقد ذكرنا بالفعل أمثلة من لآباء من كل عصور تاريخ الكنيسة. فلقد ذكرنا القديس أغناطيوس حامل الإله، والقديس باسيليوس الكبير، والقديس غريغوريوس اللاهوتي، والقديس مكسيموس المعترف، والقديس ثالاسيوس، والقديس يوحنا الدرجي، والقديس سمعان اللاهوتي الجديد، والقديس غريغوريوس بالاماس. ولم يكن القديس غريغوريوس بالاماس هو أول من أدخل حركة السكون ولكنه

<sup>34</sup> . Athanasius Gievtits, Christ Beginning and End, P. 195. In Gk.

كان مؤيداً لها، ذاك الذي عاش واختبر رحلة النفس الكاملة هذه. تُشكل إذاً حركة السكون الصورة الأصلية للحياة المسيحية.

وعلى أية حال، فنحن أيضاً نستعمل تعبير حركة السكون، لكي نميز الطريقة المستخدمة لتركيز العقل في القلب. وهذا موضوع كبير وكنت أود فقط أن أشير لعناصر قليلة منه.

في محاولة الإنسان للتطهير "يقف عقله مُفعماً بالصلاة في قلبه" مردداً باستمرار صلاة يسوع ذات الكلمة الواحدة. إنه لا ينشغل بكلمات كثيرة، فهو يذكر إسم يسوع المسيح بغير إنقطاع. وفي نفس الوقت، ينتبه العقل حتى لا تدخل الأفكار من باب القلب. وهكذا وكما يقول القديس مكسيموس المعترف فإن يقظة العقل تتحد بالصلاة.

"ولكن العقل يستطيع أن يتغلغل بصورة أكثر عمقاً إلى ما داخل القلب، وذلك عندما يتحد مع القلب بدافع إلهي، بحيث يكون متجرداً من كل صور ومفاهيم ذهنية، ليظل القلب مغلقاً في مواجهة أى عنصر غريب. وبعد ذلك تتغلغل النفس في "سرّية" طبيعتها الخاصة فتصبح بالتالي مستحقة للوقوف بطريقة تفوق الوصف أمام الله بعقل نقي"<sup>35</sup>.

تستخدم عدة طرق للوصول لهذا التركيز، ولإستعادة العقل المتجول إلى القلب. ومن الضروري أن تكون الطريقة التي نستعملها ممتزجة بالتوبة، لأنها، بخلاف ذلك، تتحول إلى طريقة آلية.

يقوم القديس غريغوريوس بالاماس في موعظته في أحد الفريسي والعشار، بتقديم صلاة العشار والطريقة التي كان يصلي بها على أنها نوع صلاة سكوني. إنه يستشهد بقول الإنجيل: "وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء بل قرع على صدره قائلاً اللهم إرحمني أنا الخاطئ" (لوقا ١٨: ١٣). ويقول القديس غريغوريوس مفسراً هذا النص، أن الكلمة التي إستعملت هنا "وقوف" تظهر الإستمرار الطويل للوقوف بالإضافة إلى المثابرة في التضرع وكلمات التوبة. لقد قال العشار "اللهم إرحمني أنا الخاطئ" ولم يضيف أي شيء آخر. "وإذ لم يكن يتظاهر ولا يعطي اعتباراً لأي شيء آخر، كان منتبهاً فقط لنفسه والله، محولاً صلاته إلى نفسه مكرراً فقط التضرع البسيط الذي هو نوع الصلاة الأكثر فاعلية".

<sup>35</sup> . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 145

يرى المرء هنا قيمة الصلاة البسيطة "يا ربي يسوع المسيح ابن الله إرحمني". يفكر السكوني مثل العشار في لا شيء بالمرّة، ولكنه يركز عقله في كلمات الصلاة. يفسر القديس غريغوريوس بالاماس كلمات المسيح عن أن الفريسي "لم يكن يشاء أن يرفع عينيه إلى السماء" أن ذلك يشير إلى صورة السكوني: "لقد كان هذا الوقوف وقوفاً وخضوعاً في نفس الوقت، ولم يكن يعني فقط خادماً حقيراً ولكنه كان يعني أيضاً شخصاً محكوماً عليه". وبهذه الصورة والطريقة أظهر العشار "الحكم السليم وعلامة النفس، إذ كان يرى نفسه أنه غير مستحق لكل من السماء والهيكل الأرضي".

تُظهر أيضاً حقيقة قرعه لصدّره إشتراك جسده في ألم وحزن نفسه "وإذ كان يقرع صدره من فرط إنسحاقه مظهراً نفسه بذلك كمستحق للعقاب، وإذ كان يئن بحزن عميق ويحني رأسه مثل شخص محكوم عليه سُمى نفسه خاطئاً وإستعطى الرحمة بإيمان".<sup>36</sup>

يبدو أنه من الواضح هنا أن السيد المسيح إستعمل مثل الفريسي والعشار، وإستعمله كذلك القديس غريغوريوس بالاماس مفسراً إله بطريقة "سكونية"، لكي يقدم السكون والصلاة كأفضل طريقة للحصول على الرحمة من الله. إنها الصلاة الأكثر كمالاً، فهي صلاة الكلمة الواحدة التي تحتوي على ندم عميق ويشترك فيها الجسد طالماً أنه هو أيضاً يتلقى نعمة الله، وهي الصلاة التي تقتني مناجاة من لوم النفس والحكم السليم عليها.

وإذ سخر برلعام الهرطوقي من السكونيين في عصره، بسبب إستعمالهم إخناة خاصة للرأس والجسد لكي يحققوا تركيز العقل ونمو متوازن لقوى النفس، أشار القديس غريغوريوس لحالة إيليا النبي الذي صلى لله وهو واضع رأسه بين ركبتيه: "وإيليا هذا الكامل في رؤية الله إذ وضع رأسه بين ركبتيه، وبالتالي جمع عقله إلى ذاته وإلى الله بجهد شديد، خلّص الشعب من سنين الجفاف العديدة".<sup>37</sup>

وبعد ذلك أوصى القديس غريغوريوس بطريقة لتركيز العقل "... فلا تدر العينين هنا وهناك ولكن لتستقر إلى حد ما على الثدي الأيمن أو البطن، من أجل إرسال قوة العقل التي كانت قد تشتتت من خلال النظر خارجاً إلى القلب ثانية من خلال بقاء الجسد في هذا الوضع..."<sup>38</sup>.

<sup>36</sup> . St. Gregory Palamas. Homily 2, 13f. EPe vol. 9, p. 62ff. In Gk.

<sup>37</sup> . Letter to Barlaam, 49. Syggrammata I, p. 288. In Gk.

<sup>38</sup> . Ibid. 50

ويوصي القديس غريغوريوس السينائي من جهة موضوع كيفية الصلاة هذا قائلاً: "إجلس في الصباح على كرسي منخفض وإجبر عقلك على النزول من رأسك إلى قلبك وإبقِ عليه هناك. ثم إنحن بألم واصرخ بلا إنقطاع في نفسك وروحك مستعملاً صدرك وكتفك ورقبتك بتوجع شديد قائلاً: يا ربي يسوع المسيح إرحمني". إنه يقول أيضاً أنه يجب علينا أن نحد من التنفس لكي نركز العقل: "حد من إستنشاق النفس بحيث لا تتنفس بدون توقف لأن الهواء المتحرك والخارج من القلب يُظلم العقل ويُضَيِّع الحكمة ويحمل العقل بعيداً عن القلب"<sup>39</sup>.

توجد شهادات آباءية أخرى عن هذا الموضوع:

يصف القديس غريغوريوس السينائي، في موضع آخر أيضاً، طريقة الصلاة التي تركز العقل والتي تسمى حركة السكون: "إجلس في بعض الأحيان على كرسي لأنها غالباً ما تكون مضنية، وفي أحيان أخرى، وبطريقة عشوائية، تمدد مؤقتاً من أجل بعض الإسترخاء. يجب أن يكون جلوسك في صبر مثابراً على الصلاة، ولا تستسلم للجن بسبب العمل المضني، ولكن إعمل في قلبك ووجه جسدك طالباً الرب في قلبك. إغصب نفسك بكل طريقة لكي تفعل ذلك لأن النبي قال: "أنظر لقد أخذتني الآلام مثل امرأة في مخاض" ولكن إنحن إلى أسفل واجمع عقلك في قلبك إن كان قد إنفتح بالفعل وأطلب الرب يسوع ليساعدك. وحتى لو كانت كتفك مرهقين ورأسك متألمة بإستمرار، ثابر على هذه الأشياء بجهد وحب طالباً الرب في قلبك. إذ أن ملكوت الله يعتصب والغاصبون يخطفونه. لقد أظهر لنا الله بهذه الكلمات كيف يجب علينا أن نثابر في هذه المهام بحق. "لأن الصبر والمثابرة في كل شيء يولدان مجهوداً لكل من الجسد والنفس"<sup>40</sup>.

يجب علينا أن نؤكد على حقيقة أن قيمة كل من السكون العقلي والصلاة الدائمة، وترديد صلاة يسوع وطريقة تركيز العقل الخاصة وتوحيده مع القلب، ووقوف الجسد أثناء الصلاة وتقيد الحواس، والتعليم بأن نعمة الله غير مخلوقة وأن المرء يستطيع أن يتلقاها في قلبه، وأن نور طابور أعلى من المعرفة البشرية وليس "أدنى من الفكر" وكل ما يُعرَف ما يسمى بحركة السكون كان قد "تبرر" من قِبل مجمع القسطنطينية، وبالتالي فإن من يتكلم ضد هذه الأشياء لا يعود بعد داخل التقليد الأرثوذكسي، ويخلق أسباباً لكي يُقطع من حياة الأرثوذكسية.

<sup>39</sup> . Gk. Philok. 4, p. 71f

<sup>40</sup> . Ibid. p. 72, 3

<sup>41</sup> . Ibid. p. 80



### ٣- الحركة المناهضة لحركة السكون

حيث أننا رأينا بإيجاز ما هو السكون وما هي حركة السكون وأن حركة السكون كانت قد تأكدت بمجمع نستطيع أن نسميه سكونياً بحق فدعونا نلقي نظرة موجزة على طريقة "معرفة الله" المناهضة للسكون والمنتشرة مع الأسف في عصرنا والتي تظهر أن هذه هي الأيام الشريرة.

"لقد واجه السكون معارضة مستمرة وخصوصاً في الغرب. وإذا كان ينقص معارضييه الخبرة الضرورية جادلوا في ما هو تجريدي وذهبوا إلى حد أن رأوا شيئاً ألياً فيما هو عملي، وإعتبروا بضعة تقنيات روحية تؤدي إلى رؤية الإلهي".<sup>42</sup>

ومع الأسف أثرت حياة الغرب هذه على اليونان ذاتها بحيث تشوه التقليد الأرثوذكسي بطريقة غريبة. من المؤكد أن العديد من الناس يؤكدون على أننا تغيرنا بروح الغرب، وحددوا مواضع هذا التغيير في عدة نقاط أخرى مثل العادات والتقاليد. ولكنني مع ذلك أعتقد أن التغيير العظيم حدث في طريقة السكون وحركته. ينظر للسكون على أنه طريقة أثرية وعلى أنه حياة اللاعمل وأنه غير مناسب لعصرنا الذي هو عصر العمل. وتنتشر هذه المفاهيم مع الأسف حتى بين الذين يريدون أن يعيشوا في التقليد الأرثوذكسي. إن وقتنا هو وقت العمل. "عللنا المعاصر ليس عالم الذكريات والسكون ولكنه عالم العمل والكفاح".<sup>43</sup> لا تستطيع حركة السكون أن تجد صدى في عصرنا هذا الذي هو مرتبط باللذة وإرضاء الذات. ومثلما قال القديس يوحنا الدرجي: "كما تستدير السمكة برشاقة من الخطاب هكذا تستدير النفس ذات الأهواء من الوحلة".<sup>44</sup> يكون العصر المحب للذة مقاوماً لحركة السكون بشدة. لقد قال لي راهب أن في عصرنا هذا تعصف "ريح حارة مضادة لحركة السكون" وتحرق كل شيء. وأنا أعتقد أن هذا الحكم صائب تماماً. فهذا هو الواقع المعاصر فللناخ السائد اليوم هو بالأحرى مناخ برلعام وليس مناخ القديس غريغوريوس بالاماس.

وينمو علم اللاهوت اليوم من خلال الإسطراد في المنطق. لقد أصبح ببساطة نظاماً منطقياً. إنني أود أن أصفه بأنه فلسفي. إنه تاريخ علم اللاهوت وليس ثمرة السكون

<sup>42</sup> . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 143

<sup>43</sup> . G. Mantzarides. Palamika. P. 25. (In Gk.)

<sup>44</sup> . Ladder. Step 15. CWS p. 176, 45

والشركة في الله. من أجل ذلك ظهرت أخطاء عديدة وإختلافات متعددة في الأفكار والآراء اللاهوتية. لا يعيش غالبيتنا علم اللاهوت اليوم على أنه علم علاجي مثلما قلنا من قبل. فنحن لا ندرك طريق التكريس الأرثوذكسي. إننا لو قرأنا الفيلوكاليا حيث تركز النصوص الأكثر تعبيراً عن طريقة علم اللاهوت لرأينا أن أغلبها يتكلم عن كيفية شفاء الأهواء. إنهم لا يقدمون تحليلات ولا يكتفون بوصف الحالات العليا ولكنهم في نفس الوقت يصفون الطرق التي يجب علينا أن نستعملها من أجل شفاء الأهواء. إنني أعتقد أن النقيصة الأساسية لعلم اللاهوت المعاصر هي أنه لم يهتم بدرجة كافية بالفيلوكاليا. ربما يجب علينا أن نؤسس مجلساً خاصاً لكي نقدم حركة النسك وحركة السكون القائمتين على مراجع الفيلوكاليا.

وتوجد، بخلاف هذه الأشياء، حاجة لخبرة شخصية عن طريقة علم اللاهوت الأرثوذكسي كما هي موصوفة في المراجع. وما يقوله الأرشمندريت صوفرونيوس عن إظهار الفرق بين علم اللاهوت الحدسي وعلم اللاهوت الذي يحدث في الله، متميز جداً: "ما لم يتطهر القلب فإنه من المستحيل على المرء أن يصل للتأمل الحقيقي. القلب المتطهر من الأهواء هو القادر وحده على هذه الرعدة الخاصة وهذا الدهش أمام الله الذي يجمع العقل في صمت مبهج.

"يهدف اللاهوتي إلى رؤية الله بطريقة ما والراهب الناسك بطريقة أخرى. إن هدف الراهب الرئيسي هو أن يحقق سكون الصلاة في القلب وبقاء العقل حراً من الأفكار والحفاظ على يقظة هادئة مثل الخفير لكي يتأكد أن لا شيء يدخل القلب من الخارج. وأينما توجد حالة السكون المقدس هذه فإن العقل والقلب يتغذيان على إسم المسيح ووصايله. إنهما يعيشان كما لو كانا واحداً متحكمين في كل ما يحدث داخلهما، لا بالتقصي المنطقي ولكن بطريقة بديهية وبواسطة حس روحي خاص". وبمقدار السرعة التي يتحد بها العقل مع القلب فإنه يستطيع أن يرى في كل لحظة في عالم اللاشعور (إننا نستعمل هنا هذا التعبير من علم النفس المعاصر بطريقة تقليدية). وعلى حين يقيم العقل في القلب فإنه يدرك الصور والأفكار الخيطة به النابعة من عالم الوجود الكوني الذي يحاول أن يمسك بالقلب والعقل. إن هجمة الأفكار الدخيلة تكون ضارة ويجبر الراهب طول النهار على ألا يقبل أي هوى وألا يسمح لنفسه بأي ولع من أي نوع وذلك لكي يضعف من حدوث هذه الأفكار. إن هدفه الدائم هو أن يقلل عدد الإنطباعات الخارجية للحد الأدنى. وما لم يفعل ذلك فإنه

في وقت الصلاة الداخلية العقلية سوف تتزاحم كل إنطباعات اليوم داخل القلب بلا قيود مسببة إضطراباً عظيماً.

"إن غرض الراهب هو تحقيق يقظة مستمرة للعقل في القلب. وبعد سنين طويلة من جهاد مثل هذا، الذي هو أصعب كل البطولات النسكية وأشق من أي جهاد آخر، يصبح القلب أكثر حساسية، على حين أن العقل من كثرة البكاء يتلقى قوة لكي يطعن أي إشارة لفكر هوى وعندئذ تستطيع حالة الصلاة هذه أن تبقى غير متزعزعة، ويصبح الإحساس بوجود الله، كحاضر وعامل، قوياً وواضحاً"<sup>45</sup>.

يحتاج علم اللاهوت الأرثوذكسي لأن يتشبع بطريقة السكون هذه لكي يكون أرثوذكسياً بحق وليس أكاديمياً. وتبذل مجهودات في هذا المضمار، ولكن تبقى المشكلة كمشكلة بطريقة رئيسية. هل يتكلم علم اللاهوت المعاصر عن الدموع والحزن ولوم النفس والإلتضاع؟ وهل يعتبرها طريقة لمعرفة الله "أن يجعل المرء العقل والعالم واقفاً، وأن ينسى كل الأمور الأرضية... وأن يضع جانباً المعاني من أجل ما هو أفضل؟" هل يفترض أنه يجب علينا لكي نصل للشركة مع الله "أن نتخلى عن كل شيء حسي بالإضافة إلى الحواس، مرتفعين عالياً فوق الأفكار والمعتقدات وكل معرفة، وفوق الفكر نفسه وأن نستسلم كلية لطاقة الإحساس الروحي الذي سماه سليمان الإحساس بما هو إلهي، وأن نصل للامعرفة التي هي فوق المعرفة، أي فوق كل صورة للفلسفة التي يتحدث عنها الناس كثيراً؟..."<sup>46</sup>.

إنني أعتقد أن علم اللاهوت المعاصر على النقيض من ذلك حدسي ومنطقي. إنه مبنى على "الثروة" التي هي الحكمة. إن ما يقوله الأرثمنديت صوفرونيوس متميز: "يوجد نوع آخر من التصور، والذي نتمنى أن نتحدث عنه، وهو محاولة الذكاء لتخلل سر الوجود ولإدراك العالم الإلهي. إن مثل هذه المحاولات لا يمكن أن تتجنب أن تشتمل على التصور الذي ينحني له الجميع معطين إياه اللقب الرفيع أي الوحي الإلهي. وأما الناسك فإذ يكرس نفسه للصمت الداخلي النشط وللصلاة النقية، يحارب في داخله هذا الدافع 'الخلاق' بتصميم لأنه يرى فيه 'عملية' مضادة لنظام الوجود الحقيقي حيث 'يخلق' الإنسان صورة عن الله على صورته ومثاله هو"<sup>47</sup>.

<sup>45</sup> . Archim. Sophrony. Saint Silouan. P. 139

<sup>46</sup> . St. Gregory Palamas. Homily 53. EPE vol. 11, p. 326ff. In Gk.

<sup>47</sup> . Archim. Sophrony. Saint silouan. P. 155

يكتب أيضاً الأرشمندريت صوفرونوس قائلاً: "يبنى علم اللاهوت العقلاني نظامه كما يبنى المهندس المعماري قصراً أو كنيسة. والمواد التي يستعملها هي المفاهيم التجريبية والغيبية ويهتم بالأكثر بالفخامة والتناغم المنطقي لصرحه المثالي أكثر من عنايته بالنظام الفعلي للأشياء".

" وإذ قد يبدو الأمر غريباً لم يستطع العديد من الرجال العظماء أن يحتملوا هذه المحاولة الساذجة التي يكون سببها الخفي هو الكبرياء".

" يصبح المرء متعلقاً بشار ذكائه كما تتعلق الأم بطفلها. يحب الإنسان العقلاني ابتكاره كما يحب نفسه ويتوحد معه ويغلق على نفسه معه. وعندما يحدث ذلك فلا يستطيع أي تدخل بشري أن يساعده وما لم يتراجع عما يعتقد أنه غنى فإنه لن يصل قط للصلاة النقية ورؤية الله الحقيقية"<sup>48</sup>. علم اللاهوت هذا هو علم لاهوت برلغامي وليس علم لاهوت بالاماسي أرثوذكسي.

بالإضافة إلى ذلك يوجد اليوم تحيز ضد صلاة يسوع والطريقة التي تقال بها. ويجب علينا بالتأكيد أن نقول أننا نمتلك إنعاشاً للصلاة وللمجهودات لنشر أعمال وكتابات الآباء عن الصلاة، ولكننا في نفس الوقت نلاحظ أن الناس يجهلون هذه الأشياء وأنهم غير قادرين على الإقتراب من حياة الصلاة. فأغلب القراءات تُقرأ لكي يساير المرء الموضة، أو أننا نجد ثانية أن الناس "الروحيين" يسخرون من حياة السكون، أو أسوأ من ذلك يمنعون الناس الذين تحت مشورتهم من الانخراط في هذه الأشياء. إننا نسمع باستمرار عن الرأي القائل "بأن هذه الأشياء ليست لنا" وما إلى ذلك. يظن الكثيرون أنه يكفي أن يأخذ المرء بضعة دقائق في الصباح وبضعة دقائق في المساء ليقول صلاة إرتجالية أو يقرأ بعض الخدمات ذات النصوص الملائمة. والأكثر من ذلك أنه حتى المناخ المقدس الذي للسكون أي الإنسحاق ولوم النفس والحزن يُنظر إليه على أنه غير ملائم لعامة الشعب، على عكس ما يقوله الآباء كما أوضحنا.

والأسوأ من الكل أن هذا الإتجاه 'العالي' المناهض لحركة السكون يسود حتى بين الرهبان، ودب حتى داخل الأديرة التي كان من المفترض أن تكون "مدارس مكرسة لله" وأن تكون مدارس طبية حيث يجب أن يدرس العلم الطبي. ينتشر إتجاه ذهني ينادي بأنه يجب علينا أن نعرف عن هذه الأشياء ولكنها ليست لنا! توجد لدي معرفة شخصية عن أن رهباناً

<sup>48</sup> . Ibid. p. 160f

"بارزين" مسئولين عن الإرشاد الأرثوذكسي لرهبان صغار يصفون كل المواضيع المرتبطة بحياة السكون على أنها "خرافات" ولا تستحق الكلام عنها إذ أنها حالات من الضلال!!! إن هذا محزن حقاً. "لقد كان السكون من البداية علامة مميزة للحياة الرهبانية الأرثوذكسية. والرهبة الأرثوذكسية هي في نفس الوقت حركة سكون أيضاً"<sup>49</sup>.

ولحسن الحظ نستطيع أن نرى الآن محاولة للعودة للآباء. ونعني بذلك محاولة لأن نحيا حياة الآباء التي هي حياة السكون بصورة رئيسية. يوجد العديد من الشباب الغير راضي عن جو الصراع والقلق المعاصر وعن العمل بدون سكون والرسالة بدون صمت، والذين يتجهون بالأكثر نحو حياة السكون والذين يتغذون بها. يأتي العديد من الأشخاص إلى الرهبة بهذه الإشتياقات ويستمررون على الحياة بواسطة نبع الآباء القديسين الذي هو التقليد الأرثوذكسي. بل وحتى في العالم تقام الآن مراكز للحياة في سكون.

يجب على هذه الحياة أن تنمو وأن تزيد في المدن أيضاً. هذه هي الطريقة التي أرى بها تنظيم الكنيسة والحياة الإبروشية. وهكذا فإننا سوف نصل لفهم أن الكنيسة هي المكان حيث تشفى النفوس ولكنها أيضاً مكان للظهور الإلهي. وهناك داخل التطهير تأتي معرفة الله ورؤية الله. ربما يجب على كل شخص وبقدر استطاعته أن يتعهد صلاة يسوع التي من الممكن أن تكون المعلم لكل حياته الروحية. إنها سوف تعلمنا متى نتكلم ومتى نصمت، متى نقطع الصلاة لكي نساعد أخانا ومتى نكملها، متى كنا مخطئين ومتى حصلنا على مباركة الله. ويجب علينا بالمثل أن نجاهد لكي نحفظ ونحتفظ بعقل نقي.

يجب أن تصير عظة القديس ثالاسيوس قاعدة للحياة: "إغلق على حواسك في قلعة السكون بحيث لا تستطيع هذه الحواس أن تجعل عقلك ينخرط في شهواتها"<sup>50</sup>.

ويجب علينا أن ننظر لكلمات القديس غريغوريوس اللاهوتي التي أوردناها في البداية على أنها هدف رئيسي للحياة: "إنه من الضروري أن يحافظ المرء على الصمت لكي يصل لإتحاد كامل مع الله ولكي يقلل أي ضلال للنفس"<sup>51</sup>.

<sup>49</sup> . G. Mantzarides. Tradition and Renewal in the Theology of Gregory Palamas. P. 9. In Gk.

<sup>50</sup> . Philok. 2, p. 313, 10

<sup>51</sup> . PG 95, 1245C

يجب علينا أن نعي جيداً أن هذا السكون هو "في الواقع طريقة الحياة مع الله الحقيقية والسديلة كما سُلمت لنا من قبل الآباء" وذلك بحسب قول الآباء كاليستوس وأغناطيوس الزانثوبولوس.

إنني أود أن أختتم هذه الأفكار عن السكون بتعليم كاليستوس وأغناطيوس: "هذا الطريق، هذه الحياة الروحية في الله، هذه الممارسة المقدسة التي للمسيحيين الحقيقيين هي الحياة السرية في المسيح الحقيقية والسديلة والأصيلة. إن يسوع العذب، الإله الإنسان قاد هذا الطريق وأعطاه إرشاده السري، ولقد وطَّه الرسل الإلهيون بالإضافة إلى أولئك الذين أتوا بعدهم. منذ البداية الأولى ومنذ المجيء الأول للمسيح على الأرض وحتى وقتنا هذا نقل معلمونا المجددون الذين تبعوا المسيح والذين أضاءوا مثل المصابيح في العالم بلمعان حياتهم الحاملة للكلمات والأفعال الرائعة، نقلوا بعضهم لبعض منذ ذلك الحين حتى اليوم هذه البذار الجيدة، هذا الشراب المقدس، هذا الزرع المقدس، هذا التذكار الذي لا ينتهك، هذه النعمة والقوة الفوقانية، هذه اللؤلؤة الثمينة، هذا الميراث الأبائي الإلهي، هذا الكنز المخفي في الحقل، هذا العرس الذي للروح، هذا الرمز الملوكي، نبع الميلاء الذي للحياة هذا، هذه النار الإلهية، هذا الملح الثمين، هذه الموهبة، هذا الختم، هذا النور وما إلى ذلك.

سوف يستمر هذا الميراث في الانتقال هكذا من جيل إلى جيل حتى بعدما ينتهي زماننا وحتى مجيء المسيح الثاني. لأن وعده أمين القائل: "ها أنا معكم ... وإلى إنقضاء الدهر آمين"<sup>52</sup>.

<sup>52</sup> . Writings. P. 267f, 97

الباب السادس

علم المعرفة  
الأرثوذكسي





يتميّز موضوع علم المعرفة لهذا الكتاب ويشكل الفصل الأخير منه وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بشفاء نفس الإنسان. لقد أظهرت الفصول السابقة أن سقوط ومرض وموت الإنسان هم بالضبط موت نفسه وعقله وقلبه وفهمه تحت تأثير الأفكار الشريرة. إن السقوط هو سقوط العقل بصفة رئيسية. ويحصل المرء على معرفة الله عندما تشفى النفس والعقل والقلب. وفي الواقع لا تعتمد معرفة الله على تحقق الشفاء فقط وإنما على مقداره أيضاً، فعندما تشفى النفس والعقل والقلب، بصورة تامة على قدر المستطاع، يحصل المرء على معرفة الله لا في كلمات عنه ولكن معرفة الله في ذاته. وبتعبير آخر، فإن الله يُستعلن في القلب المتعافي وفيه يهب الله معرفة عن ذاته. ويكون بالتالي من الواضح أن علم المعرفة الأرثوذكسي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلاج النفس. فكلما ازداد الشفاء كلما ازدادت معرفة الله وتعطي معرفة الله التامة لذلك الذي يكون قد تنقى وحصل على الشفاء.

ولكي نرى ذلك بصورة أكثر وضوحاً فإننا نركز على تعاليم إثنين من آباء الكنيسة وهما القديس إسحق السرياني والقديس غريغوريوس بالاماس. وسوف نلقي نظرة أولاً على درجات المعرفة الثلاثة بحسب القديس إسحق السرياني، ثم بعد ذلك على معرفة الله بحسب القديس غريغوريوس بالاماس.

## درجات المعرفة الثلاثة

### بحسب القديس إسحق السرياني

تكلم القديس إسحق السرياني عن موضوع الدرجات الثلاثة للمعرفة في الفصل الثاني والخمسين والثالث والخمسين من عظاته النسكية.

إنه يبدأ بالمقارنة بين المعرفة والإيمان. فالمعرفة البشرية تتميز بحقيقة أنها لا تملك السلطة لفعل أي شيء "بدون تقصي وفحص" ولكن يجب عليها أن تفحص عما إذا كان ما ترغبه ممكناً أم لا (ص ٢٥٤). يوجد دور كبير للإدراك في المعرفة البشرية وعادة ما يكون العامل فيها هو الإدراك الساقط الذي يتجاوز حدوده الطبيعية بمعنى أنه إدراك يسود على العقل أيضاً. أما الإيمان فله حدود مختلفة ويبدو هنا الفرق الكبير بينه وبين المعرفة البشرية، بالإضافة إلى قيمته العظيمة. يقول القديس إسحق أنه عندما نستعمل كلمة

"إيمان" فنحن لا نعني أن نضع جانباً الحقائق العقائدية عن أقانيم الثالوث القدوس وعن تجسد المسيح وعن الارتقاء بالطبيعة البشرية بواسطة الأقنوم الثاني من الثالوث "وعلى الرغم من أن هذا الإيمان أيضاً عالي جداً" ولكن المعنى الرئيسى لما نسميه إيماناً هو "ذاك النور الذي يشرق في النفس بواسطة النعمة، مقبواً القلب بشهادة الذهن جاعلاً إياه غير مرتاب بتأكيد الرجاء". لا يعلم هذا الإيمان الروحي الأسرار بواسطة التقليد المسموع" ولكنه يُبصر الأسرار المخفية في النفس بواسطة أعين روحية وكذلك الكنوز السرية الإلهية المخبأة بعيداً عن أعين أبناء الجسد، والتي يكشف عنها النقاب بواسطة الروح القدس لأولئك الذين يربضون على مائدة المسيح من خلال دراستهم لتوايمسه (ص ٢٦٢). وهذا يعني أنه على حين أن المعرفة البشرية تكتسب من خلال نشاط الإدراك ومن خلال البحث الإنساني إلا أن المعرفة الروحية تكتسب من خلال الإيمان. وهذا الإيمان هو بصورة رئيسية ذاك الذي يشرق في النفس من نور النعمة، ومن خلال هذه القوة يتعلم المرء كل الأسرار المخفية عن أعين أبناء هذا الدهر الجسدانيين. إذاً "الإيمان أكثر سمواً من المعرفة تماماً مثلما تكون المعرفة أكثر سمواً من الأشياء الملموسة" (ص ٢٦٢).

يشرح القديس إسحق الفرق بين المعرفة البشرية والإيمان. لا تستطيع المعرفة البشرية أن تتعلم بدون فحص على حين أن الإيمان "يتطلب طريقة تفكير واحدة طاهرة بسيطة محمولة بعيداً عن أي تعريب أو اختراع لطرق... إن منزل الإيمان هو فكر شبيه بالطفل وقلب بسيط" (ص ٢٥٤). وعلى حين أن المعرفة البشرية تقتني إدراكاً كمركز لها، فإن الإيمان له قلب بسيط وبريء. تبقى المعرفة البشرية "داخل حدود الطبيعة" على حين أن الإيمان "يصنع رحلته فوق الطبيعة" (ص ٢٥٤). وهذا يعني أن المعرفة البشرية هي حالة طبيعية تماماً تعمل داخل حدود طبيعية، على حين أن الإيمان هو حالة فائقة للطبيعة. بالإضافة إلى ذلك فإن المعرفة البشرية هي غير قادرة على فعل أي شيء بدون مادة فهي تتحرك في عالم مادي، على حين أن الإيمان له سلطان لإبداع جديد على شبه الله (ص ٢٥٤). لا تجرؤ المعرفة البشرية ولا ترغب أن تتجاوز حدود الطبيعة، على حين أن الإيمان "يتجاوزها بسلطان" (ص ٢٥٥). يظهر ذلك في حياة كل القديسين الذين بقوة الإيمان "دخلوا في النار وأطفأوا قوتها المحرقة ومشوا في وسطها دون أن تؤذيهم وعبروا عبر البحر كما فوق أرض يابسة" (ص ٢٥٥). وكل هذه الأمور التي يفعلها الإيمان هي فوق الطبيعة ومضادة لطرق المعرفة البشرية. تبقى المعرفة البشرية "داخل حدود الطبيعة" على حين أن الإيمان "يعبر فوق الطبيعة" (ص ٢٥٥). دائماً ما تطلب المعرفة البشرية وسائل "لحماية أولئك الذين

إكتسبوها"، أي أنها دائماً ما تتخذ وسائل واقية وتطلب حماية الإنسان بطرق بشرية. ولكن الإيمان يترك الأمر برمته لله". فالإنسان الذي يصلي في إيمان لا يستعمل قط ولا يخطئ في طرق ووسائل" (ص ٢٥٥). لا تبدأ المعرفة البشرية أي عمل بدون أن تفحص كيف سينتهي على حين أن الإيمان يقول: "كل شيء مستطاع للمؤمن لأنه ليس شيء غير مستطاع لدى الله" (ص ٢٥٦).

ويرى القديس إسحق أنه أمر حقيقي أن المعرفة البشرية ليست مخطئة ولكن الإيمان أعلى منها (ص ٢٥٦). تصبح المعرفة كاملة بالإيمان طالما أن "المعرفة هي درجة سلم يستطيع الإنسان أن يصعد عليها إلى إرتفاع الإيمان الشامخ" (ص ٢٥٧). وعندما يأتي الإيمان يلغي ما هو جزء. وبعد ذلك "نتعلم بواسطة إيماننا تلك الأشياء التي لا يمكن إستيعابها بالفحص والقوة اللذين للمعرفة" (ص ٢٥٧). إن كل أعمال البر التي هي الفضائل أي الصوم والصدقة والسهر والقداسة وكل "باقي الأعمال التي تؤدى بالجسد وكل تلك التي تؤدى بالنفس أي محبة القريب وتواضع القلب والمغفرة" لأولئك المسيئين وتذكر الأشياء الصالحة والفحص عن الأسرار المختبئة في الأسفار المقدسة وإنشغال الذهن بالأعمال الصالحة وكبح أهواء النفس وباقي الفضائل المشابهة... "كل هذه الأعمال تتطلب معرفة". "فالمعرفة تصونها وتعلم تدبرها". وتكون كل هذه الأشياء درجات تصعد عليها النفس "إلى إرتفاع الإيمان الأكثر علواً". وعلى أية حال "يكون طريق الحياة الذي للإيمان أكثر رفعة من عمل الفضيلة، ولا يكون عملاً ولكن راحة تامة وتعزية ويتحقق في القلب وداخل النفس" (ص ٢٥٦-٧).

تشير كل هذه الأشياء إلى أنه بحسب تعليم القديس إسحق وآباء قديسين آخرين يكون الإيمان أعلى من المعرفة البشرية، بل وأعلى حتى من المعرفة المكتسبة من خلال ممارسة الفضيلة. إذ أن الإيمان هو حالة فائنة وشركة مع الله. إنه "فهم ورؤية القلب". وهو الحياة التي تنمو في النفس مع مجيء نور النعمة الإلهية. إننا سوف نلقي نظرة في الفصل القادم في تعليم القديس غريغوريوس بالاماس على معرفة الله هذه التي هي حقاً "شركة في الوجود" أي شركة واتحاد الإنسان بالله. إنها إذاً معرفة أعلى من أي معرفة بشرية حتى من المعرفة المكتسبة من خلال ممارسة الفضائل، لأننا نجد بواسطتها المسيح ذاته المختبئ في عمق الوصايا.

يتكلم القديس إسحق عن ثلاثة أنواع من المعرفة. ودعونا نفحص كيف تختلف بعضها عن بعض لأنني أعتقد أن ذلك سيوضح لنا كيف يختلف التقليد الأرثوذكسي عن التقليد البشري الثقافي، وكيف تختلف المعرفة الإلهية عن المعرفة البشرية.

توجد ثلاثة طرق يمكن أن نتصورها تصعد وتنزل فيها المعرفة. هذه الطرق هي جسد ونفس وروح (ص ٢٥٨). وفي الواقع عندما يتكلم الآباء عن جسد ونفس وروح فإنهم لا يعنون أجزاء الإنسان الثلاثة ولكنهم يعنون بكلمة 'روح' موهبة النعمة، تلك النعمة الإلهية التي يتبارك بها الإنسان. وبدون نعمة الله يسمى الإنسان إنساناً نفسانياً أو جسدياً على حين أنه يسمى روحانياً في وجود النعمة. وعلى حين أن طبيعة المعرفة واحدة فإنها تنهذب وتغير طرقها بحسب هذه المجالات المُدرَكة والحساسة (ص ٢٥٨).

وبالتالي فإنه تماماً مثلما توجد ثلاثة طرق واعية ومُدرَكة التي هي جسد ونفس وروح فبالمثل أيضاً توجد ثلاثة أنواع من المعرفة مرتبطة بها. ويظهر الإنسان تقدمه الروحي وحالته الروحية بحسب نوع المعرفة التي يمتلكها. وبالإضافة إلى ذلك يكون نوع المعرفة التي يمتلكها البشر مؤشراً على تطهيره وشفائه. إن الذي تكون نفسه غير صحيحة يمتلك معرفة جسدية، على حين أن الذي يكون في حالة شفاء يمتلك معرفة نفسانية وأما الذي قد شفي بالفعل فله معرفة روحية. ويعرف الأخير أسرار الروح القدس التي هي غير معروفة وغير مفهومة للإنسان الجسداني.

تكتسب المعرفة الأولى بالدراسة المستمرة والاجتهاد في التعلم، وتأتي المعرفة الثانية عن طريق حياة نقية وصالحة ومن إيمان الذهن، وأما المعرفة الثالثة " فهي مخصصة للإيمان وحده. لأن المعرفة تُلغى بالإيمان وينتهي العمل ويصبح إستعمال الحواس غير ضروري" (ص ٢٦٤).

دعونا نلقي نظرة أكثر تحليلاً على أنواع المعرفة الثلاثة هذه والتي تدل على مرض أو صحة نفس الإنسان، وذلك على أساس تعليم القديس إسحق.

## \* الأولى هي المعرفة الجسدية:

إن بعض الخصائص المميزة للمعرفة البشرية والتي ترتبط بشهوات الجسد هي الثروة والجِد الباطل، والتزين وراحة الجسد، والاجتهاد في الحكمة المنطقية بحيث تكون ملائمة للتسلط على العالم وللاكتشافات الجديدة، والفنون والعلوم (ص ٢٥٨). تتعارض

هذه المعرفة مع الإيمان مثلما شرحنا من قبل لأنها تعتقد أن "كل الأشياء تقوم بواسطة تدبيرها الخاص" (ص ٢٥٨). إن حكمة ومعرفة أشياء هذا العالم، بدون النوعين الآخرين من المعرفة، عديمة الفائدة وتخلق علة مشاكل للإنسان. إن هذه المعرفة ضحلة وساذجة لأنها "متجردة من كل إهتمام بالله" (ص ٢٥٨) ويكون إهتمامها فقط بهذا العالم، ولأنها تحت سلطان الجسد "فإنها تُدخل في الذهن ضعفاً بهيمياً" (ص ٢٥٨).

يملك أغلب الناس في عصرنا، والذين هم مرضى النفس، هذه المعرفة ويتعهدونها باستمرار. وتكون الحضارة المعاصرة بمجملتها والتي تخلق علة تشوهات للنفس والجسد في هذه الحالة، ومن ثم تخلق هذه المعرفة ذات الجانب الواحد علة مشاكل. ويصفها القديس إسحق هنا. يكون إنسان هذه المعرفة الجسدية فريسة للجبن والحزن واليأس، والخوف من الشياطين والذعر أمام الناس وأمام الشائعات عن اللصوص والقتل، والقلق والمرض الزائد، والإهتمام بالعوز ونقص الضروريات، والخوف من الموت والخوف من الآلام ومن الحيوانات المفترسة، ومن أشياء أخرى شبيهة والتي يتكون منها بحر الحيلة الحاضرة (ص ٢٥٨). لا يعرف الإنسان الذي يملك هذه المعرفة البشرية والجسدية كيف يترك نفسه لمراحم الله، ولكنه يحاول بطريقة الخاصة أن يحل المشاكل المتعددة. ولكنه عندما لا يستطيع أن يجد حلاً وذلك لعدة أسباب فإنه "يصارع الأشخاص كما لو كانوا قد قاوموا وعارضوا" هذه المعرفة (ص ٢٥٨). إنه يتخلص مع الناس لأنهم منعوا إمتلاك خيرات المعرفة الجسدية.

تنتزع هذه المعرفة الجسدية، التي هي إهتمام عالمي، المحبة تماماً. فهي تجعل المرء يفحص أخطاء الآخرين الصغيرة وخطاياهم وأسبابها وضعفاتهم، وتجعل الإنسان يمتحن ويناقض أقوال الآخرين ويصبح خبيثاً في كل أعماله، وابتكر طرقاً لإهانة الناس. تحتوي هذه المعرفة على وقلعة وكبرياء (ص ٢٥٩).

إننا نرى أن المعرفة البشرية تميز الحضارة المعاصرة بوضوح. يعرض القديس إسحق ببصيرة نبوية أسباب وسلوكيات هذا الإنسان الجسداني ويصف صراعه وضيقة، ويعرض أيضاً النتائج المخيفة لهذه المعرفة الجسدية. إن ما يُعرف الإنسان المعاصر المريض النفس والبعيد عن الله هو اضطراب علاقاته الشخصية، ونقص المحبة وعناد ومكر في كل الأفعال.

## \* المعرفة الثانية هي معرفة النفس:

عندما يتخلى الإنسان عن المعرفة الأولى، التي هي جسدية ولحمية، ويتجه نحو رغبات ومخاورات النفس، فإن كل الأفعال الصالحة التي للمعرفة النفسانية تتحقق. وهذه الأفعال الصالحة هي الصوم والصلاة والإحسان وقراءة الأسفار المقدسة وطرق الفضيلة ومصارعة الأهواء وغيرها (ص ٢٥٨). تصبح هذه الأعمال كاملة بواسطة الروح القدس وهي لا تحدث بقوة الإنسان ولكن بالعمل المشترك للإنسان مع الروح القدس. توجد مراحل لإكتساب المعرفة، وتصبح الدرجة الثانية كاملة "عندما تؤسس عملها على الإنعزال عن الناس وقراءة الكتاب المقدس والصلاة" (ص ٢٦٠). وهذا يعني أن الشخص الذي يمتلك المعرفة النفسية هذه يحيا في السكون بكل متطلباته التي شرحناها في الفصل السابق. إنه يصلي لله بدون إنقطاع ويدرس الكتاب المقدس في هذا الجو المقدس من السكون بهدف تعلم كلمات الله النابع عن حب الإستطلاع. تشتمل هذه الفئة على أولئك الذين هم في حالة شفاء من القرحة النفسية وجراحات النفس. يقلم هذا الشفاء معرفة يمكن تسميتها مرحلة تهديدية وحجرة إنتظار للمعرفة الروحية والتي سوف يمنحها مجيء نعمة الله في قلب الإنسان.

## \* المعرفة الثالثة الروحية:

عندما ترتفع معرفة الإنسان فوق الإهتمامات العلية وتبدأ في أن تبصر داخلياً "ما هو مخفي عن الأعين"، وعندما تلفظ الأشياء "التي تنبع منها إخرافات الأهواء" وتمتد نفسها إلى أعلى في رغبتها في وعود الدهر الآتي وفي بحثها في الأسرار الخفية "فعندئذ يتلع الإيمان المعرفة ويحولها ويلدها من جديد بحيث تصبح روحية تماماً" (ص ٢٦١).

وعندئذ تستطيع المعرفة الروحية أن تخلق إلى أماكن الملائكة الغير متجسمة وتعرف الأسرار الروحية التي تحكم الطبائع الروحية والحسية. وهذا يعني أنها تعرف الطبائع الداخلية للموجودات. وبعد ذلك تستيقظ الحواس الداخلية وتقبل النفس القيامة، التي تعطي تأكيداً للقيامة العتيلة للبشر. لقد كتب القديس إسحق الذي إمتلك هذه المعرفة الروحية التي هي حياة الإيمان قائلاً: "وعندئذ تستطيع أن تخلق في أمكنة اللامتجسمين وأن تلمس عمق البحر غير المدرك لأنها تفهم بأي طريقة عجيبة إلهية تدار الطبائع العقلية والحسية. إنها تبحث عن الأسرار الروحية التي تدرك بالعقل البسيط الشفاف. وعندئذ تستيقظ الحواس الداخلية للعمل الروحي بحسب النظام الذي سيكون للحياة

الأزلية الغير فاسلة، لأنها منذ الآن قد قبلت في سر القيامة الأدراك، كشهادة حقيقية لتجديد الكل" (ص ٢٦١).

لقد إمتلك كل قديسي الله هذه المعرفة، مثل موسى ودادود وأشعيا وبطرس الرسول وبولس الرسول وكل القديسين الذين حسبوا أهلاً لهذه المعرفة الكاملة "بالدرجة الممكنة للطبيعة الإنسانية" (ص ٢٥٩). تأتي هذه المعرفة في الواقع من رؤية الله والنور الغير مخلوق ومن الإعلانات الإلهية، أو كما يصفها القديس إسحق "بواسطة تأملات عديدة وإعلانات إلهية بواسطة الرؤية العالية للأشياء الروحية، وبواسطة الأسرار التي تفوق الوصف..." (ص ٢٥٩). وعندئذ تبطل المعرفة برؤى الله هذه ويشعر المرء أنه تراب ورماد (ص ٢٥٩). إنه يكتسب حالة الإتضاع والبساطة المباركة. تكون إذًا المعرفة الروحية التي هي معرفة الله، ثمرة الثيوريا (رؤية الله) ويقبلها الشخص الذي تقدم من المعرفة الجسدية إلى المعرفة النفسية وبعد ذلك إلى المعرفة الروحية.

ونستطيع أن نقول بإختصار أن المعرفة الأولى "تجعل النفس باردة من جهة الأعمال التي تذهب وراء الله". والمعرفة الثانية تجعل النفس حارة في الطريق السريع "على مستوى الإيمان" وأما المعرفة الثالثة فهي راحة من العمل "التي هي نوع الدهر الآتي لأن النفس تتمتع فقط بتأمل الذهن في أسرار الخيرات العتيلة" (ص ٢٦٢).

يرتبط تعليم القديس إسحق هنا بصورة كبيرة بالموضوع الذي نتناوله للأسباب الآتية: لقد ذكرنا في بداية الكتاب أن أعضاء الكنيسة لا يصنفون صالحين وأشرار، أو أخلاقيين وعديمي الأخلاق على أساس الأخلاقيات البشرية، ولكن إلى مرضى النفس وأولئك الذين في طريقهم للشفاء وأولئك الذين شفوا. وتتطابق هذه الفئات الثلاثة بدقة مع الدرجات الثلاثة للمعرفة. فأولئك الذين نفوسهم مريضة هم أناس المعرفة الجسدية العالمية، وأولئك الذين في طريقهم للشفاء هم أولئك الذين يكتسبون حكمة ومعرفة النفس بدرجات مختلفة، وأولئك الذين شفوا هم قديسو الله الذين يمتلكون معرفة روحية أي معرفة حقيقية لله. إن أغلب أناس عصرنا هم مرضى النفس بسبب كونهم لا يعرفون شيئاً عن العقل والقلب في المعرفة الجسدية اللحمية الأولى. وينتمي الآخرون للمعرفة الثانية لأنهم يصارعون لكي يشفوا بواسطة كل الطريقة النسكية المتاحة في الكنيسة الأرثوذكسية. وينتمي القديسون الذين هم موجودون حتى في يومنا هذا إلى المعرفة الثالثة طالما أنهم كانوا قد شفوا من أمراضهم واكتسبوا بالتالي معرفة الله.

## معرفة الله بحسب القديس غريغوريوس بالاماس

والآن، وبعد أن شرحنا تعليم القديس إسحق السرياني عن درجات المعرفة الثلاثة، نستطيع أن نمضي لنلقي نظرة على معرفة الله بحسب القديس الآثوسي غريغوريوس بالاماس. عندما يرتفع شخص ما من المعرفة الجسدية لمعرفة النفس ومن معرفة النفس للمعرفة الروحية فإنه يرى الله عندئذ ويمتلك معرفة الله التي هي خلاصه. ولا تكون معرفة الله كما سنشرح فيما بعد ذهنية ولكن كيانية. بمعنى أن كيان الإنسان بكليته يمتلىء بمعرفة الله هذه. ولكن لكي يحصل المرء عليها يجب أن يكون قلبه قد تنقى أي يجب أن تكون النفس والعقل والقلب قد شفوا: "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (مت ٥: ٨).

دعونا نفحص الأشياء بطريقة أكثر تحليلاً.

لقد أصر برلعام، كما أشرت أن معرفة الله لا تعتمد على رؤية الله ولكن على فهم الإنسان. لقد قال أننا نستطيع أن نكتسب معرفة الله من خلال الفلسفة وبالتالي أن النور الغير مخلوق الذي رآه الأنبياء والرسل اعتبره حسيّاً ومخلوقاً "وأدنى من فهمنا". وعلى أية حال دعم القديس غريغوريوس بالاماس الحامل للتقليد ورجل الإعلان الرأي المعاكس. لقد عرض في لاهوته تعليم الكنيسة بأن النور الغير مخلوق الذي هو رؤية الله هو ليس مجرد رؤية رمزية ولا حسية مخلوقة ولا أدنى من الفهم، ولكنها إتحاد بالله. يصبح الإنسان مستحقاً لرؤية الله من خلال الإتحاد به. وهذا الإتحاد هو ليس حالة تجريدية ولكنه شركة للإنسان مع الله. بمعنى أن الإنسان الذي يبصر النور الغير مخلوق يراه لأنه يكون متحداً بالله. إنه يبصره بعينه الداخليتين وأيضاً بعينه الجسديتين التي تكون على أية حال قد تغيرت بعمل الله. وبالتالي تكون الثيوريا (رؤية الله) إتحاداً بالله، وهذا الإتحاد هو معرفة الله. وفي هذا الوقت يُمنح المرء معرفة الله التي هي فوق المعرفة البشرية وفوق الحواس.

يشرح القديس غريغوريوس كل هذا اللاهوت في عدة مواضع تتخلل كتاباته. وحيث أننا لا ننوي في هذا الفصل أن نقدم عرضاً منظماً لكل تعليمه عن معرفة الله، فسوف نكتفي بتحليل النقطة الرئيسية فيه كما هي مقدمة في كتابه الرئيسي "عن السكونيين المقدسين" المعروف "بالثلاثيات". ويجب علينا أيضاً أن نضيف أننا سوف لا



نقدم كل التعليم كما هو موضوع في ذلك الكتاب، ولكن النقط الرئيسية فقط. وسوف نعطي المرجع بعد كل إقتباس. ونورد هنا نصاً مميزاً يقدم فيه هذا التعليم بإيجاز: "إن النبي نقي نفسه من كل إرتباط بأشياء هذا العالم والذي نزع نفسه من كل شيء بواسطة حفظ الوصايا وبواسطة اللاهوى الذي ينتج عن ذلك، والذي تتجاوز كل نشاط معرفي خلال صلاة دائمة آمنة غير مادية، والذي إستتار بصورة وفيرة بالنور الذي لا يمكن الوصول إليه، في إتحاد غير مدرك، هو وحده إذ يصبح نوراً ويتأمل بالنور ويبصر النور يدرك بحق في رؤيته وتمتعه بهذا النور أن الله فائق اللمعان وفوق كل فهم. إنه يمجّد الله ليس فقط بما هو فوق قدرة العقل البشري على الفهم، حيث أن العديد من الأشياء المخلوقة هي فوق هذه القدرة، ولكن أيضاً بما هو فوق الأشياء المدركة 'مشابهاً بصورة إلهية العقول السماوية العلوية' " (٢،٥٧،٣).

إننا نجد التعليم الرئيسي للقديس غريغوريوس في هذا النص. يجب على المرء لكي يحصل على رؤية النور الغير مخلوق أن يقطع كل إرتباط بين النفس وبين ما هو أرضي، وأن ينتزع نفسه من كل شيء بأن يحفظ وصايا المسيح، ويجب عليه من خلال اللاهوى الناتج عن ذلك أن يتجاوز كل نشاط معرفي "من خلال صلاة دائمة آمنة وغير مادية". وبالتالي فإنه حتماً يكون قد شفي بالفعل من خلال حفظ وصايا المسيح، ومن خلال تطهير نفسه من كل إرتباط خاطيء بالأشياء المخلوقة. إنه يستتير بالنور الذي لا يمكن الوصول إليه "بصورة وفيرة في إتحاد غير مدرك". إنه يرى الله من خلال الإتحاد. وبالتالي يصبح نوراً ويبصر بالنور وإذ يرى النور الغير مخلوق فإنه يدرك الله ويكتسب معرفة عنه لأنه الآن "يدرك بحق أن الله فوق الطبيعة وفوق الفهم".

يقدم أيضاً القديس غريغوريوس هذا التعليم في مواضع أخرى من كتابه "الثلاثيات".

إن رؤية الله، أي ثيوريا، النور الغير مخلوق ليست رؤية حسية، ولكنها إتحاد الإنسان بالله. وإذ يتكلم عن رؤية موسى لله "وجهاً لوجه وليس في ألغاز" فإنه يذكر نص القديس مكسيموس المعترف الذي يقول: "إتحاد الإنسان بالله هو إستنارة مباشرة وليس لها بداية ولكنها تظهر في أولئك المستحقين كشيء يتجاوز فهمهم. إنها في الواقع إتحاد باطني مع الله، يفوق العقل والحكمة، في الدهر الذي سوف لا تعرف فيه الخليقة فساداً" (٢٨١،٣ / ص ٨٤). رؤية النور الغير مخلوق هي إذاً إتحاد الإنسان بالله. إنه يرى الله خلال الإتحاد به وليس من خلال صقل الإدراك. تسمى رؤية النور الغير مخلوق موهبة الإتحاد بالله.

إنها ليست موهبة من طبيعة بشرية ولكن من الروح القدس: "وبالتالي فإن موهبة الروح القدس المؤدية إلى الإتحاد بالله هي نور خفي تحول الذين يقبلون ثروتها إلى نور. إنها لا تملأهم فقط بنور أبدي، ولكنها تمنحهم أيضاً معرفة وحياة تليق بالله" (٣٥،١،٣/ ص ٩٠). وهكذا فإن رؤية الله ليست خارجية ولكنها تأتي من خلال الإتحاد به (٢٥،٣،٢).

هذا هو الإتحاد والشركة مع الله. ويرى القديس غريغوريوس أن "رؤية النور الغير مخلوق ليس هو مجرد تجريد وعدمية ولكنه إتحاد يحدث باطنياً وبصورة تفوق الوصف بواسطة نعمة الله بعد التخلي عن كل شيء سفلي يطبع نفسه في العقل، أو بالأحرى بعد الكف عن كل نشاط عقلي. إنها شيء يتجاوز التجريد" (١٧،٣،١/ ص ٣٤ف). يحدث تأمل النور الغير مخلوق "بواسطة شركة الروح القدس المؤهلة" (٥،٣،١/ ص ٣٣). "يكون إذاً تأمل هذا النور إتحاداً، حتى على الرغم من أنه لا يخوض في الغير كامل، ولكن هل يكون الإتحاد بهذا النور شيئاً آخر بخلاف الرؤية؟" (٣٦،٣،٢/ ص ٦٥).

يتكلم القديس غريغوريوس عن الدهش. ولكن هذا الدهش الموجود في تعليم الآباء لا علاقة له بالدهش الموجود في Pythia وفي الديانات الأخرى. يأتي الدهش عندما يتخلى العقل في الصلاة عن كل ارتباط بالأشياء المخلوقة: أولاً "بكل شيء شرير وسيء ثم بكل الأشياء الحيادية" (٣٥،٣،٢/ ص ٦٥). إن الدهش هو بصورة رئيسية الابتعاد عن رأي العالم والجسد. وبالصلاة الأمانة "يتخلى العقل عن كل الأشياء المخلوقة" (٣٥،٣،٢/ ص ٦٥). هذا الدهش أعلى من علم اللاهوت التجريدي، أي أعلى من علم اللاهوت المنطقي، وينتمي فقط لأولئك الذين حصلوا على اللاهوت. ولكنه لا يكون إتحاداً بعد. بمعنى أن الدهش الذي هو صلاة للعقل بغير إنقطاع والتي يتذكر فيها العقل الله باستمرار ولا تكون له علاقة "بعالم الخطية" هو ليس بعد إتحاداً بالله. يأتي هذا الإتحاد عندما "ينير الباراقليط من أعلى الإنسان الذي يصل في الصلاة إلى المرتبة التي هي أسمى من الإمكانات الطبيعية، والذي ينتظر وعد الآب. ويسخره بإعلانه لكي يتأمل النور" (٣٥،٣،٢/ ص ٦٥). الإستنارة بالله هي ما يُظهر إتحاده بالإنسان.

إن الرؤية والإتحاد بالله هي الأشياء التي تمنح الإنسان المعرفة الكيانية لله. وبالتالي يمتلك الإنسان معرفة حقيقية لله. تُحول عطية الروح القدس المؤهلة والتي هي نور خفي، أولئك الذين حصلوا عليها إلى نور إلهي ولا تملأهم فقط بالنور الأبدي "ولكنها تهبهم أيضاً معرفة وحياة تليق بالله" (٣٥،١،٣/ ص ٨٩). ويمتلك الإنسان في هذه الحالة معرفة لله. يرد القديس غريغوريوس بالاماس على تعليم برلعام أن الله يُعرف بالتأملين والفلاسفة

العظماء وأن معرفة الله المنقولة " بواسطة إستنارة عقلية... هي ليست حقيقية بأية حال " (٧٨٣،٢). إذاً أيّاً من يتجاهل ويحتقر رؤية الله التي تمنح معرفة حقيقية هو في الحقيقة جاهل بالله.

تُظهر هذه الأمور أن رؤية الله والاتحاد به ومعرفته ترتبط ببعضها البعض إرتباطاً وثيقاً. ولا يمكن فهمها بدون بعضها البعض. وكسر هذه الوحدة يحمل الإنسان بعيداً عن معرفة الله. وأساس علم المعرفة الأرثوذكسي هو الإستنارة وإعلان الله داخل قلب الإنسان المتطهر.

وكما رأينا فإن معرفة الله تفوق المعرفة البشرية. تتجاوز رؤية النور الغير مخلوق كل نشاط معرفي وتفوق "النظر والمعرفة" (٥٠،٣،٢). وحيث أن رؤية النور الغير مخلوق تُمنح لقلوب المؤمنين والكاملين " فإنها تكون أعلى من نور المعرفة " (١٨٣،٢ / ص ٦٣). وهي ليست فقط أعلى من نور المعرفة البشرية " المستمدة من الدراسات اليونانية " ولكن نور هذه الثيوريا يختلف عن "النور الحاصل من الأسفار المقدسة" حيث أن نور الأسفار المقدسة يشبه " مصباحاً ينير في مكان مظلم على حين أن رؤية النور الغير مخلوق يشبه نجمة الصبح التي تسطع في النهار أي الشمس " (١٨٣،٢ / ص ٦٣). تتجاوز إذاً نعمة الاتحاد بالله الطبيعة، والفضيلة، والمعرفة البشرية (٢٧،١،٣).

رؤية النور الغير مخلوق والمعرفة الناتجة عنه هي ليست تحليلاً للقوة المنطقية ولا كملاً للطبيعة المعقولة كما أكد برلعام، ولكنها أعلى من المنطق. إنها معرفة مقدمة من الله لنقي القلب. إن أيّاً من يؤكد على أن الموهبة المؤدية للإتحاد بالله هي نمو للطبيعة المنطقية يضع نفسه في تعارض مع إنجيل المسيح. لو كان التأمل موهبة طبيعية لكان كل الناس متحدين بالله الواحد أقل والآخر أكثر. ولكن " يتجاوز القديسون المتحدين بالله الطبيعة ". إنهم مولودون من الله وأعطاهم الله قوة ليصيروا " أبناء الله " (٣٠،٣،١ / ص ٨٥).

رؤية النور الغير مخلوق التي تمنح معرفة الله للإنسان هي حسية وفائقة للحواس. يعاد تشكيل عيني الجسد بحيث تريان النور الغير مخلوق " هذا النور السري الذي لا يمكن الوصول إليه والغير مادي والغير مخلوق والأبدي " هذا " اللمعان الذي للطبيعة الإلهية وهذا الجد الذي للألوهية وهذا الجمال الذي للملكوت السماوي " (٢٢،١،٣ / ص ٨٠). يسأل القديس غريغوريوس بالاماس قائلاً: " هل ترى أن النور لا يمكن الوصول إليه بالحواس التي لم تتحول بالروح القدس؟ " (٢٢،٣،٢). يقول القديس مكسيموس الذي

يستشهد القديس غريغوريوس بتعليمه، أن الرسل رأوا النور الغير مخلوق "بتحول نشاط حواسهم الحاصل فيهم بواسطة الروح القدس" (٢٢:٣،٢).

تتجاوز رؤية النور الغير مخلوق والمعرفة الناتجة عنها ليس فقط الطبيعة والمعرفة البشرية ولكن الفضيلة أيضاً. تُعدُّنا الفضيلة والتشبه بالله للإتحاد الإلهي ولكن الإتحاد السري نفسه يحدث بواسطة النعمة (٢٧:١،٣) ص ٨٣.

وهكذا يكون الإتحاد بالله، الذي هو هدف الحياة الروحية، هو إعلان الله لقلب الإنسان النقي. ورؤية النور الغير مخلوق هذه هي التي تخلق بهجة روحية في النفس. لأن القديس غريغوريوس يرى أن برهان هذا النور هو أن النفس تكف عن إعطاء ذاتها للملذات الخاطئة والأهواء، وأنها تكتسب سلام وهدوء الأفكار، وراحة وفرحاً روحياً وإزدراءً للمجد البشري وتواضعاً متمزجاً بهجة سرية، وكراهية للعالم وحب للأشياء السماوية أو بالأحرى حب لإله السماء وحله ورؤية للنور الغير مخلوق حتى لو كانت أعين المرء مغطاة أو غير موجودة (٣٦:١،٣) ص ٩٠.

يتضح مما قيل أن نهاية شفاء الإنسان هي رؤية النور الغير مخلوق. ولكن حيث أننا نتكلم في هذا الفصل عن الثيوريا، فإننا قد نلقي نظرة أيضاً على تعليم القديس غريغوريوس بالاماس عن وجود عدة درجات للثيوريا. إنه يقول أن هذه الثيوريا لها بداية وأن الأشياء التي تتبع هذه البداية تختلف في درجة الإعتماد أو الوضوح ولكن لا توجد أبداً نهاية لأن تقدمها هو لا نهائي مثل السعلاة المفرطة في الإعلان. إن الإستنارة هي شيء وإستمرار رؤية النور هي شيء آخر، وشيء ثالث هو رؤية الأشياء في ذاك النور الذي بواسطته تصبح حتى الأشياء البعيدة قابلة لأن تصل إليها الأعين، ويظهر المستقبل كما لو كان موجوداً بالفعل (٣٥:٣،٢) ص ٦٥. توجد إذاً درجات للثيوريا ومعها درجات للمعرفة.

وقد نلقي نظرة أيضاً على هذه النقطة في تعليم القديس بطرس الدمشقي عن الدرجات الثمانية للثيوريا (فيلوكاليا ٣، ١٠٨). تنتمي السبعة الأوائل لهذا الدهر على حين تنتمي الثامنة للدهر الآتي. الثيوريا الأولى هي معرفة تجارب ومحن هذه الحياة، والثانية هي "معرفة خطايانا وصلاح الله". والثالثة هي معرفة الأشياء الرهيبة قبل وبعد الموت. والرابعة هي فهم عميق لحياة ربنا يسوع في هذا العالم وتلاميذه والقديسين الآخرين أي أقوال وأعمال الشهداء والآباء القديسين. والخامسة هي ثيوريا الكائنات المخلوقة أو

معرفة وفهم خليقة الله المنظورة. والسابعة هي فهم خليقة الله الروحية أي الملائكة. والثامنة هي معرفة تخص الله أو ما نسميه "علم اللاهوت".

وللثيوريا بالتالي عدة مراحل ودرجات ويجب أن تأتي العديد منها قبل رؤية النور الغير مخلوق الذي هو "جمال الدهر الآتي" و "طعام الملكوت". ويوجد بين درجات الثيوريا تذكر الموت الذي هو عطية من الله، والصلاة الدائمة، والوحي بحفظ وصايا المسيح كاملة، ومعرفة فقرنا الروحي أي فهم خطايانا وأهوائنا والتوبة المترتبة عليه. تحدث هذه الأشياء من خلال عمل النعمة الإلهية. وبالتأكيد فإن الثيوريا الكاملة هي رؤية النور الغير مخلوق الذي ينقسم هو ذاته إلى رؤية ورؤية مستمرة كما يقول القديس غريغوريوس بالاماس (٣٠، ١، ٣).

وهكذا يخلق التطهير الذي يحدث بواسطة نعمة الله الشروط اللازمة للوصول للثيوريا التي هي شركة مع الله وإتحاد به ومعرفته. تقود طريقة الكنيسة النسكية لهذه النقطة. إنها لا تقوم على صفات بشرية ولا تهدف لجعل المرء "حسناً وصالحاً" ولكن لشفائه تماماً ولتجعله يحقق الشركة مع الله. وبمقدار ما يكون الإنسان بعيداً عن الشركة والإتحاد بالله بمقدار ما يكون قد حصل على خلاصه بعد. يسمى الشخص المدرب روحياً الذي يرى النور الغير مخلوق في لغة الآباء "متحداً بالله". يستعمل هذا التعبير من قبل القديس ديونيسيوس الأريوباغي والقديس يوحنا الدمشقي وأيضاً كما رأينا من قبل القديس غريغوريوس بالاماس بصورة متكررة (٣٠، ١، ٣ / ص ٨٥).

يقود شفاء النفس والعقل المرء لرؤية الله، ويجعله يعرف الحياة الإلهية. هذه المعرفة التي لخلاص الإنسان.

يجب علينا أن نصلي بجملة لله لكي يمنحنا أن نصل لمعرفة الله تلك، والعظة واضحة:

" تعال لنصعد إلى جبل الرب،

حتى إلى بيت إلهنا،

وأنظر مجد تجليه،

مجد الإبن الوحيد لأبيه.

فلنتلقى نوراً من نوره،

وبأرواح مرتفعة

فلنسيح إلى الأبد تساييح الثالث ذي الطبيعة الواحدة".

وهنا نقوم ونرغم:

"يا إلهنا المسيح يا من تجليت على الجبل مظهراً المجد للتلاميذ على قدر إحتماهم.  
وبشفاعة والدة الإله إجعل نورك الأبدي يشرق علينا نحن الخطاة. أيها المعطي النور المجد  
لك".

( عيد التجلي - Festal Menaion ص ٤٧٥ - ٤٧٧ ).

E. 20.11.2012

## صلوات

### صلاة لطلب معالج روحي

"أيها الرب الذي لا يشاء موت الخاطئ بل أن يرجع ويحيا، الذي نزل إلى الأرض لكي يعيد الحياة لأولئك الموتى بالخطية، ولكي يجعلهم مستحقين لرؤية النور الحقيقي بالقدر المستطاع لدى الإنسان. أرسل لي رجلاً يعرفك بحيث أني إذ أخدمه وأخضع ذاتي له بكل قوتي كما لو كنت خاضعاً لك وإذ أتمم إرادتك من خلاله أستطيع أن أرضيك أيها الإله الحقيقي وأصبح أنا الخاطئ مستحقاً للمكوثك".

القديس سمعان اللاهوتي

الجديد

(فصل ١٢٩: ١٨٦-١٨٨)

### صلاة من أجل معرفة الله ومحبه

"يا رب إجعلني مستحقاً لمعرفتك ومحبتك ؛ ليست معرفة متأتية من خلال عقل مشئت، ولكن إجعلني مستحقاً لتلك المعرفة التي بواسطتها يبصرك عقلي فيمجد طبيعتك من خلال رؤية إلهية تفقد الذهن الوعي بالعالم.

إحسبني مستحقاً لأن أتحلل من عين إرادتي المتجولة في كل مكان والمولدة للخيالات، ولأن أراك في قيود الصليب وفي صلب العقل الذي يكف عندئذ عن تخيلاته الذهنية لكي يثبت في رؤيتك المستمرة التي تفوق الطبيعة. إزرع في قلبي نمواً في حبك بحيث يرتد عن هذا العالم بواسطة حبك المتقد فيه. أيقظ في داخلي فهماً لإتضاعك الذي من خلاله عشت في العالم ملتحقاً بالجسد الذي إتخذته من أعضائنا بواسطة العذراء القديسة مريم. هذا الإتضاع الذي إذ أتذكره باستمرار أستطيع قبول حقارة طبيعتي بإبتهاج".

القديس إسحق السرياني

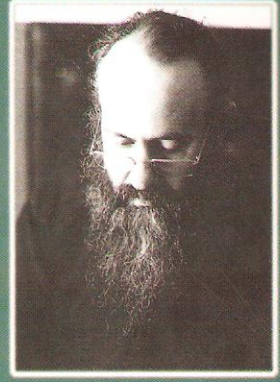
(عظة ١٦)

**يطلب من:**  
**مكتبة مجلة مرقس**

٢٨ شارع شبرا - القاهرة : تليفون ٥٧٧٠٦١٤

٨ شارع جرين - الإسكندرية : محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠  
ومن جميع المكتبات المسيحية





« إن كل حضارة هي حضارة تنادي بفقدان القلب. ولا يستطيع المرء أن يفهم ماهو ليس موجوداً داخل قلبه. وبالتالي يجب على المرء أن يجد قلبه لكي يحصل على الخلاص ... لأن نعمة الله تصنع خلاص الإنسان في قلبه سرّاً ... »

وعندما يترك العقل القلب ويبتعد عن الله. فإنه يمرض ويموت ومن ثمّ تموت كل النفس ... لذلك تكون عودة العقل المشتت إلى القلب التي هي عودة الطاقة إلى الجوهر. هي شفاء العقل ...

من أجل ذلك لا يستطيع الأطباء النفسيون أن يقدموا معونة بدرجة كبيرة طالما أن المسيح وحده هو الذي يستطيع أن يستعيد العقل المائت بالأهواء ... »

متروبوليت

إيروثيئوس س. فلاخوس